كشكول الوائلي

تأليف
الشيخ أحمد الوائلي

إعداد وإشراف
مصطفى آل مرهون

«الجزء الثاني»

مؤسسة المصطفى ﷺ للتحقيق والنشر

كشكول الوائلي/ ج٢


بسم الله الرحمن الرحيم

خلق حوّاء

والآن لنرَ خطوات الشارع المقدس في هذا الميدان من أجل إسعاد المجتمع، تقول الآية: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً**﴾، ويخصوص هذا المقطع نجد أن هناك إصراراً عند أكثر المفسرين على أن فيه إشارة إلىٰ أن اللّه جل وعلا خلق لآدمعليه السلام زوجة بعد أن استلب ضلعاً من أضلاعه؛ فلذلك سميت حوّاء لأنها خلقت من ضلع حي؛ فحينما نام آدمعليه السلام أخذ اللّه ضلعاً من أضلاعه فخلقها منه. لكنهم لا يعلّلون ذلك، ولست أدري لماذا؟ فهل إن اللّه تعالى لا يستطيع أن يخلق إلّا باستلاب ضلع من آدمعليه السلام؟ حاشاه ذلك، فإن اللّه تعالى ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[1]؛ حيث إنه جلّ وعلا يأخذ التراب ويصدر إليه أمره بأن يكون، فيكون.

هذا بناء على عقيدتنا القائمة على أساس أن اللّه خالق ومبدع، وأن القدرة لا تتعلّق بممتنع، وإنما هي متعلّقة بالممكن الذي إذا توجّهت له القدرة أبدعته. وعليه فلا حاجة حينئذٍ لأخذ ضلع من آدمعليه السلام كي تخلق حوّاء منه.

إن سلب آدمعليه السلام أحد أضلاعه تترتّب عليه في الواقع لوازم فاسدة كثيرة، وهذه النظرية من الإسرائيليات، والهدف منها هو تذويب معنىٰ

---

(١) يس: ٨٢.

الحرمة في نفوس الناس، فمحارم الإنسان يتميّزون بأن لهم حرمة وقداسة في نفسه؛ فلا يقرب منهم محرّماً ولا يأتيه. ومن يقع علىٰ محارمه فحكمه القتل؛ سواء كانوا نسبيّين[1] أو سببيّين[2]. وهذه القدسية موجودة بين الرجل ومحارمه؛ ولذا فإنهم يرومون تذويب هذا المعنىٰ عندهم؛ فنسمع أحدهم يخاطب ابنته:

فلا تمنعي نفسك المعرسين	من الأقربين إلىٰ الأجنبي
لماذا حللت لذاك الغريب	وصرت محرمة للأبِ
أليس الغراس لمن ربّه	ونمّاه في الزمن المجدبِ[3]

فتأمّل هذا اللون من الانحدار والخسّة، وهذه لها مدرسة، وغالباً تمتدّ جذورها إلىٰ النظريات اليهودية. ونلفت النظر إلىٰ أن نظرية فرويد تهدف إلىٰ نفس الهدف، حيث يصبغ كل أنواع السلوك بالصيغة الجنسية. وهذا يعتبر إهانة للإنسان واعتداءً علىٰ كرامته وعقله وتطلّعاته نحو الأسمىٰ، حيث يريد تصوير الإنسان كحيوان جنسي مع أن الإنسان فيه الروح والعقل والتطلّع إلىٰ الأعلىٰ، وفيه القابلية لأن يصير أسمىٰ من الملَك، ويستطيع أن يصل إلىٰ درجة من الخسّة بحيث تعتبر الحيوانات أنبل منه.

فالإنسان الذي له هذه القابلية ثم يأتي البعض ويحاول أن يصهره في بوتقة الجنس، لهو أمر يعتبر في غاية الإساءة للإنسان، والحال أن اللّه تعالى كرم الإنسان[4]، وجعل عنده القابليّة، وأودع عنده الاستعداد

(١) ما كانوا عن طريق الدم. (٢) ما كانوا عن طريق المصاهرة.

(٣) من أشعار أحد زعماء القرامطة.

(٤) قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ﴾. الاسراء: ٧٠.

للسمو ؛ حيث الخلق والكرم والنبل. في حين أن هذا الذي ذكرناه يريد أن يحصره في نطاق الغريزة الجنسية، ويصهره في بوتقتها.

نعود للموضوع فنقول: إننا إذا راجعنا هذه النظريات فسنجد أن جذورها يهودية، والمشكلة أن المفسرين أخذوا هذه النظريات من كعب الأحبار ووهب بن منبه مقاتل بن سليمان، ونحن لا نقبل بنظرياتهم ولو كانت في أي كتاب؛ حيث إننا لا نستطيع أن نصدق أي شخص يهودي يأتي فيقول: إن عزرائيل نزل ليقبض روح نبي اللّه موسىٰ عليه السلام فقال له: «**جئتني زائراً أم قابضاً؟**». قال: «**جئتك قابضاً**». قال: «**أتقبض روحي؟**». ثم ضربه علىٰ وجهه، فلطم عينَه، فرجع عزرائيل إلىٰ ربّه بعين واحدة[1].

فهل نقبل بهذا، ونقوم بتلويث عقليّة أجيال الإسلام بأمثال هذه الروايات؟ إننا نضرب بهذه الرواية وأمثالها عرض الحائط، وكيف نستطيع أن نؤمن ونصدق بأن نبيّاً من الأنبياء ومن أُولي العزم يفعل فعل الأشقياء؟ وعليه فإننا لا نقبلها بأي حال من الأحوال.

فالشيء الذي ينبغي أن يكون هو أننا عندما نقرأ رواية من هذا النوع فيجب أن نسأل أنفسنا: ما الذي يُلجئنا لأن نأخذ بها؟

فاللّه تعالىٰ هو الخالق المبدع المصور القادر الذي يقول للشيء: كن فيكون، فلماذا يُنيم آدم عليه السلام، ثمّ يأخذ ضلعاً من أضلاعه فيخلق منه حواء، مع أنه كان قد خلق آدم من التراب، ويستطيع ويتمكن من أن يخلق من التراب امرأة لآدم عليه السلام وتنتهي المشكلة؟

(١) صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

وهم إمكانية الزواج من الجنّ

من الأوهام التي كانت سائدة عند العرب وغيرهم، وهو أن بعض الناس كان يعتقد بأنه يستطيع أن يتزوّج من الجنّ، وأن الجنية يمكن أن تلد منه. وكانت العرب تعتقد وتروي مثلاً أن فلاناً قد تزوج من الجن، وأن زوجته الجنيّة قد أنجبت له أولاداً منهم، كعمر بن يربوع، حيث يروون أنه تزوج جنيّة، وكان يسترها عن البرق؛ لأنها كانت تخاف منه وتهرب. وقد وُلد له منها أولاد يسميهم العرب: أولاد السعلاة، يقول شاعرهم:

يا قبح اللّه بني السعلاة — عمرو بن يربوع شرار النات[1]

ويشير إلىٰ هذا المعنىٰ أبو العلاء المعري في إحدىٰ قصائده حيث يقول:

كأني بعمرو والسعالي مطية

إلىٰ آخر أبياته التي يصوّر فيها هذا الوهم السائد بين الناس.

فبعض المفسرين يقولون[2]: إن الآية جاءت لتطرد هذا الوهم. والحقيقة أن هذا الوهم يعيش حتىٰ عند بعض الفقهاء الذين ينتمون لبعض المذاهب الإسلامية حيث إنهم يقولون: إن من الممكن الزواج من الجنّ، ويذكر أن جماعة تزوجوا وأنجبوا. وأدبنا العلمي يمنعنا من أن نحمل عليهم؛ حيث إننا نحملهم علىٰ البساطة، وإلّا فالحقيقة أن هذا الكلام لا

---

(١) الكنز اللغوي: ٤٢ ـ باب السين والناء، لسان العرب ٢: ١٠١ ـ نوت. والنات: لغة في (الناس) لبعض العرب.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٤٢.

يمكن قبوله؛ لأن اللّه جعل الجنّ صنفاً يتزاوجون فيما بينهم، وجعل الإنس صنفاً يتزاوجون فيما بينهم، فالجنّ للجنّ والإنس للإنس.

ثم إن الزواج من الجنّ ـ حسبما قالوا ـ تترتب عليه أُمور فاسدة، حيث إنه سوف تكون ثمرته أولاد إنسية وأولاد جنيّة؛ فتُخلق بهذا طبقات مختلفة الأصل والمنشأ والخلقة بين الناس. هذا فضلاً عن أن رسول اللّه ﷺ يقول: «**كلّكم لآدم وآدم من تراب**»[1].

ثمّ إن هناك جماعة يقسمون الناس إلىٰ جماعة سام، وجماعة حام الذين أصبحوا ذوي لون أسود، والسبب كما يوردونه أن النبي نوحاً عليه السلام حينما ركب السفينة هوّمت عيناه، فكشف الهواء عن عورته، فلما رآها حام ضحك، فبادر إخوته فستروها، فاستيقظ نوح عليه السلام من نومه ورآه يضحك، فسألهم عن سبب ضحكه، فقالوا: إنه رأىٰ عورتك فضحك. فقال عليه السلام: «**اللهم اجعل ولد هذا عبيداً لولد هؤلاء**»[2]، وهكذا أصبح أولاده عبيداً لأولاد إخوته.

وهذا الكلام لا يعدو أن يكون خرافات، وإلّا فما ذنب هؤلاء الذين خلقوا سوداً حتى يكونوا عبيداً لغيرهم بسبب ذنب أذنبه أبوهم، فدعا عليه أبوه؟ ثم إن القرآن الكريم يقول: ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[3]، فإن الذي يخطئ يأخذ جزاء خطئه. ولذا فإن هذه المسألة لا علاقة لهذا بذلك، بل هي مسألة تتحدّد علاقتها بالمناخ؛ فليس كل أسود عبداً.

إذن اختلاف اللون لا دخل له بالعبودية، فالعبد يمكن أن يكون رومياً

---

(١) تحف العقول: ٢٤، كنز العمّال ١٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٢) انظر: علل الشرائع ١: ١/٣٢، تاريخ الطبري ١: ١٣٩، أخبار الزمان: ١٠٧.

(٣) الإسراء: ١٥.

أو من جنسيات أُخرىٰ، وكل ما في الأمر أنه إذا أُخذ أسير حرب أو في غارة فإنه يستعبد.

هذا وينبغي ألّا ننسى أن اللّه جل وعلا خلق الناس كلهم أحراراً.

والباحث حول هذه النظريات يجد من خلفها أصابع مشبوهة تحاول أن تضع الكثير من العقبات في طريق الإسلام. وما أكثر ما زرعه المستشرقون وغيرهم من هذا القبيل في طريق نموّ الإسلام وانتشاره.

المغيرة والانغماس في رذيلة الزنا

ثمّ إن الزواج أنواع، فإذا كان الرجل غير ملتزم أو المرأة غير ملتزمة فهنا يحقّ لنا ألّا نزوّج هذا من تلك، أو هذه من ذاك، أما إذا كانت المرأة فقيرة أو كان الرجل فقيراً ليس لهما رصيد مالي، فليس هذا عيباً فيهما. وللشاهد التاريخي نذكر أنه يروى أن المغيرة بن شعبة كان والياً علىٰ الكوفة، وكان منحلّاً متساهلاً في اُمور الدين، ومن باب الشيء بالشيء يذكر أن أحدهم وقف علىٰ قبره بعد دفنه فقال:

أمن رسم دار للمغيرة تعرف ... عليها زواني الجنّ والإنس تعزفُ

فإن كنت قد لاقيت هامان بعدنا ... وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصفُ[1]

النساء أربع

وكان المغيرة قد خرج في يوم من الأيام يتمشىٰ بين الكوفة والنجف، فرأىٰ أعرابياً فطلب من غلامه إحضاره، فلما أحضره سأله المغيرة: من

(١) مروج الذهب ٣: ٣٥، وفيه: دويّ، بدل: زواني، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١.

أين أقبلت. قال: من السماوة ـ والمقصود بها بلدة بين العراق والشام في الهضبة، وليست هذه المدينة المعروفة حالياً ـ فقال له: كيف خلّفت الأرض خلفك؟ قال: عريضة أريضة. قال: كيف خلفت المطر؟ قال: ملأ الحفر وعفّىٰ الأثر. قال: عندي سؤال، أُريدك أن تخبرني عن أصناف النساء. فقال: النساء أربع: جميع مُجمع، وربيع مُربع، وغلّ لا يُنزع، وشيطان سمعمع. فقال له: فسّر لي، فأنا لا أفهم ذلك. فقال الأعرابي: أما الجميع المُجمع، فهي المرأة التي تتزوّجها من أجل حسبها ونسبها. وهذا زواج مصلحة، فأنت تنظر إليها لأنها ابنة فلان، فتجمع نسبك إلى نسبها.

وأما الربيع المُربع، فهي المرأة التي إن دخلت البيت ضحكت في وجهك، وإن خرجت حمدتك في عقبك، وكلّ أُمورك موفّرة عندها، وكلّ حاجاتك مقضيّة منها. تقوم لك مقام الربيع، فالأرض تهتزّ بالنبات في الربيع.

وأما الغلّ الذي لا يُنزع، فهي ابنة عمك، وأنت لا تشتهيها وهي كذلك لا تشتهيك، لكن التقاليد تحكم بذلك. وطبعاً إن هذا الإجبار خطأ لأن العقد لا ينعقد هنا؛ إذ أن من شروط صحّته الرضا، فإذا تخلّف هذا الشرط تخلّف المشروط؛ لقاعدة أن المشروط عدم عند عدم شرطه[1]، فعليه يكون أولادهما أولاد زنا.

وأما الشيطان السمعمع، فهي المرأة التي إن دخلت كلحت بوجهك، وإن خرجت ولولت بدبرك، وحوائجك غير موفّرة عندها وأُمورك غير مقضية منها. تأكل زادك وتنمك لجيرانك.

قال المغيرة: نِعم ما تقول، لكن عندي سؤال آخر. قال: نعم. قال:

---

(١) انظر: مبادئ الوصول: ٩٨، المجموع شرح المهذّب ٤: ٧٣.

أتعرف عامل المدرة؟ والمدرة منطقة. قال: لا أعرفه، لكنّي سمعت عنه. قال: ما سمعت عنه؟ قال: أعور زانٍ. فقال له غلام المغيرة: ما صنعت؟ إنه العامل. فقال الأعرابي: قُل الحقّ ولو علىٰ نفسك. وركب جواده وذهب[1].

فموضع الشاهد أن النساء أربع، فهناك زواج من هذا اللون وهو أن هذه ابنة فلان وهذا الزوج لا يناسبها، مع عدم ملاحظة واقع الانسجام والتقارب والأخلاق والقيم التي يجب أن تخيّم علىٰ الأُسرة بعيداً عن الأنساب وبعيداً عن الألقاب. فعامل الأخلاق هو الذي يجب أن يكون عقبة لا عامل المادة والمال؛ لأن القرآن يقول: ﴿**إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[2]. فمن الذي دخل الدنيا وهو مكلّل بالذهب؟ ومن الذي خرج منها وهو مكلّل به؟قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ**﴾[3]، فمن دخل الدنيا دخلها عُرياناً وهو كذلك سيخرج عُرياناً وينام علىٰ التراب:

فكم كومةٍ للتربِ من بعدِ كومةٍ ... معلمةٍ هذا الزعيمُ وذا الهادي
فذو الزهو خلّى الزهوَ عنه وقد مضىٰ ... وظلت علىٰ الغبرا سيادةُ أسياد
أعقباكِ يا دنيا قميصٌ وطمرةٌ ... بصفرةِ أرضٍ من خراباتِ زهّادِ

فالعقبة الأساس هي عدم الخلق وعدم الدين، أما عقبة المال فليست عقبة حقيقية، وكذلك عقبة النسب فهي ليست عقبة حقيقية أيضاً: «**كلّكم لآدم وآدم من تراب**»[4].

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٤، وليس فيه: عامل المدرة، بل إن هذه العبارة وردت في قصة ملاقاة المغيرة مع هند بنت النعمان بن المنذر بعد أن ترهّبت. انظر مروج الذهب ٣: ٣٥.

(٢) النور: ٣٢.

(٣) الأنعام: ٩٤.

(٤) تحف العقول: ٢٤، كنز العمّال ١٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

ولادة البنات

فهناك من الرجال من يدخل إلى البيت ويواجه المرأة بالإهانة والتوبيخ لأنها تلد البنات، وهذا من الميراث الاجتماعي للحضارة العربية التي نعيش فيها نحن. فنحن نعرف أن بعض العرب إذا ولدت امرأته بنتاً فإنه لا يدخل إلى البيت. يروىٰ أن أحد العرب ـ وكان يدعىٰ أبا حمزة ـ ولدت له امرأته بنتاً، فحوَّل خباءه عنها ولم يدخل إلى خبائها، فراحت تُرقِّص طفلتها وتقول:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا يَظلُّ بالبيت الذي يَلِينا
غضبانَ ألّا نلدَ البَنِينَا وإنَّما نَأخذُ ما أُعطِينا
ونحنُ كالأرضِ لزارِعينَا نُعطِيهُمُ ما بَذرُوهُ فِينَا

فرقَّ لها أبو حمزة وعاودها[1]. فهي غير مسؤولة عن هذا الأمر، وإنما هو خارج عن إرادتها.

والخلاصة أنه إذا عرف الأب والأُمّ نوع الجنين، فقد تحدث الكثير من المشاكل للأُمّ أو للجنين.

الحجّاج وأُم البنين بنت عبد العزيز

ذهب الحجّاج يوماً إلى الشام يريد الدخول علىٰ الوليد بن عبد الملك، فدخل وهو مدجّج بالسلاح، فأرسلت أُم البنين زوجة الوليد إلى زوجها

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٠، ولم ينقل البيت الثالث، البيان والتبيين ١: ١٠٨، ٥٨١، مجمع الأمثال ١: ٦٤، وفيه: ما لأبي الذلفاء....

تسأله: من هذا الأعرابي المدجّج بالسلاح الذي دخل عليك؟ فأرسل إليها الوليد قائلاً: إن هذا هو الحجّاج. فأرسلت إليه: واللّه لو يخلو بك ملك الموت أحبّ إلي من أن يخلو بك الحجّاج. فقال الوليد للحجاج مازحاً: إن أُم البنين تقول عنك كذا وكذا. فقال الحجّاج: أصلح اللّه الخليفة، إن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تُطلعْها علىٰ أسرارك، ولا علىٰ مكائدك لعدوك.

فنقل الوليد هذا الكلام إلى أُم البنين زوجته. فقالت له: أقسمت عليك إلّا ما أرسلته إليّ. فأرسل الوليد إلى الحجّاج أن أُم البنين تريد أن تلاقيك. فقال الحجّاج: جنبني ذلك. فقال الوليد: لابدّ من ذلك. فدخل عليها الحجّاج، فسلم عليها فلم ترد، فجلس، فقالت له: أنت المشير علىٰ أمير المؤمنين بما سمعته عنك؟ ما كان أحراه باتباع رأيك إذا كانت النساء ينفرجن عن مثلك، ولكن إذا كن ينفرجن عن مثله فما أحراه بترك رأيك! أتدلّ علىٰ أمير المؤمنين بما فعل وأنت الذي قذفت الكعبة[1] وقتلت ابن ذات النطاقين؟ أما سمعت قول النبيﷺ: «**إن في بني ثقيف كذاباً ومبيراً؟**».

---

(١) قال الذهبي: «الحجّاج أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين كهلاً. وكان ظلوماً جباراً ناصبياً خبيثاً سفاكاً للدماء... قد سقت من سوء سيرته في تاريخي الكبير، وحصاره لابن الزبير بالكعبة، ورميه إياها بالمنجنيق، وإذلاله لأهل الحرمين... وتأخيره للصلوات إلى أن استأصله الله. فنسبّه ولا نحبّه، بل نبغضه في الله؛ فإن ذلك من أوثق عُرا الإيمان. وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله». سير أعلام النبلاء ٤: ٣٤٣ / ١١٧. وانظر حول ضرب الكعبة المشرّفة وحرقها: التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، وقد ضعّف السند، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ – ٢٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

أمّا الكذّاب فعرفناه، وأما المبير فأنت. فقام الحجّاج ولم يعرف أين يضع قدمه[١].

فالعرب كانوا يتمدحون بالمرأة التي تحمل قليلاً باعتبار أن الولد يكون أكثر نضجاً. وقد تميل بعض النظريات العلمية الحديثة إلى ذلك في الوقت الحاضر، وقد تدحضه بعض النظريات باعتبار أنه خلاف الحكمة، وأن اللّه لو كان يعلم أن أحد المولودين يجور على الآخر لما جعل المرأة تحمل توأماً.

حمل ستة أشهر

وقد حدث في أيام الخليفة الثالث أن امرأة ولدت لستة أشهر فأمر برجمها، وكانت أُختها إلى جانبها، فراحت تبكي، فقالت لها: أُخية، اللّه يعلم أنه ما دنا إلي أحد سواه، واعلمي أنني سوف أخاصمهم عند اللّه. فلما أخذوها ليرجموها جاء أمير المؤمنين عليه السلام فقال لهم: «ما الخبر؟» فأخبروه، فقال: «أرجعوها». فذهبوا ليرجعوها فوجدوها قد رجمت. فقال: «لا حول ولا قوة إلّا باللّه». ثم قال لعثمان: «إن هذه لو خاصمتك بكتاب اللّه لخصمتك، أما قرأت قوله تعالىٰ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَالوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أرَادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾؟».

وهذه الرواية لا يرويها الشيعة[٢] فقط وإنما يرويها السنة أيضاً، ومن أحب أن يتأكد فليراجع (الدر المنثور)[٣] للسيوطي في شرح هذه الآيات.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٦: ١٠٧ ـ ١٠٨، ١٦: ١٢٥ ـ ١٢٦، بلاغات النساء: ١٢٨، ولم ينقلا الحديث.

(٢) الصراط المستقيم ٢: ١١، ١٧ ـ ١٨.

(٣) الدر المنثور ١: ٢٨٨، ٦: ٤٠.

كما يذكرها أكثر من مؤرخ[1] منهم.

والتصدي للفتوىٰ بلا علم من البلايا التي ابتلينا بها، فالناس عادة يتصورون أن من يُحسب علىٰ الدين هو من أهل الفتوىٰ والعلم. والواقع أنه ليس كذلك وإنما هناك الكثير من الدجالين الذين ليسوا من أهل العلم، وليس من شأنهم الفتوىٰ، وسوف يحاسب اللّه تعالى هؤلاء أشد الحساب. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «**اهرب من الفتيا هربك من الأسد**»[2].

فالفتوىٰ ليست من الأُمور السهلة، فهي توجّه المجتمع، فهي لابدّ أن تكون وتصدر ممّن عانىٰ وحصَّل ملكة الإفتاء التي لا ينالها إلّا ذو حظّ عظيم، يقول تعالىٰ: ﴿**آللّهُ أذِنَ لَكُمْ أمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ**﴾[3]، ويقول عن النبي صلى الله عليه وآله: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقَاوِيلِ * لأخَذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ**﴾[4]. وقد أمرنا الله تعالى أن نسأل أهل الذكر[5] وهم بيت النبوة[6] وعدل الكتاب[7].

---

(١) المصنّف (الصنعاني) ٧: ٣٤٩ ـ ١٣٤٤٣/٣٥٠، ٧: ٣٥٠ ـ ١٣٤٤٤/٣٥١، مع عمر بن الخطاب، أحكام القرآن ٣: ٥١٧، المغني ١٠: ١٩٣، وقد نسبها في تاريخ المدينة ٣: ٩٧٨ لابن عباس.

(٢) بحار الأنوار ١: ٢٢٦ / ١٧.

(٣) يونس: ٥٩.

(٤) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦.

(٥) في قوله تعالىٰ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾. النحل: ٤٣.

(٦) انظر: الكافي ١: ٢١٠ ـ ٢١٢ / باب أن أهل الذكر هم الأئمة عليهم السلام، جامع البيان، المجلد: ١٠ ج١٧: ٨، شواهد التنزيل ١: ٤٣٥ ـ ٤٣٦ / ٤٦٣ ـ ٤٦٤، تفسير القرآن العظيم ٢: ٥٩١.

(٧) وهو ما أوصىٰ به النبي صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين بقوله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً،

وفي التأريخ الكثير من الفتاوىٰ التي لم تصدر عن علم، أو أن مهمتها التفريق بين المسلمين وضرب وحدتهم، أو أن من ورائها بارقاً من بوارق الطمع، فقد أفتىٰ الشيخ نوح الحنفي في حلب مثلاً بإباحة دماء الشيعة، وباستحلال فروج نسائهم، ونهب أموالهم[١]. وقد بقيت هذه الفتوىٰ إلى الآن تمزق المسلمين وتعبث بالتأريخ.

كما أنني كنت مثلاً أُجلّ الفقيه أبا يوسف القاضي، ولكنني وجدت العلماء يروون عنه أن زبيدة استفتته في مسألة فأفتاها بما تحب.

المهدي والطيور

وقد استفتىٰ الخليفة المهدي أحدهم في اللعب بالطيور فأفتاه بالجواز، فسئل عن الدليل فقال: يقول النبيﷺ: «**لا سبق إلّا في خف أو حافر أو نصل**»[٢] أو ريش. أي أنه أضاف إلى الحديث الشريف عبارة (أو ريش)، فلما خرج هذا المفتي من المجلس ضحك المهدي وقال: لم يكن في الحديث كلمة «ريش»، لكنه أتىٰ بها ليرضيني[٣].

فأقل مدّة الحمل هي ستة أشهر، أما أكثرها فهي أحد عشر شهراً[٤]. ولكن المصيبة الدهماء أن هناك من يقول: إن الحمل يمكن أن يبقىٰ في البطن ثمانية عشر عاماً! ولو أن أحداً مات وجاءت امرأته بولد بعد ثماني

ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض». فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(١) خاتمة مستدرك وسائل الشيعة ٢: ١٥٩، الكنى والألقاب ٢: ٣٣١. وهو نوح بن مصطفى الرومي الحنفي نزيل مصر (ت ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م)، وكان مفتي قونية. سكن القاهرة وتوفي فيها. الأعلام ٨: ٥١.

(٢) الكافي ٥: ٤٩ / ٦، مسند أحمد ٢: ٤٧٤.

(٣) تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٢٧٥.

(٤) وقد مرّ في ص٣١، الهامش:١ أنها سنة.

عشرة سنة فالولد له! ولو كانت هذه النظريات عندنا لانقلبت الدنيا علىٰ رؤوسنا. بل هناك من يذهب إلى بقائه عشرين سنة. ومن أراد المزيد عن هذا الموضوع فليراجع (المغني)[1] لابن قدامة.

ومن البلايا أن يتدخّل المرء في غير تخصّصه، فالفقيه ينبغي ألّا يتدخّل في الأُمور الطبية أو ذات الطابع العلمي الذي لا علاقة له بالفقه. فهو يشخّص الحكم، أما الموضوع فقد يكون من اختصاصه إذا كان فقهياً أو اجتماعياً، وإلّا فعليه أن يتركه لغيره.

شروط الإمامة

وفعلاً كان عليه السلام كذلك فيما يحمل من قيم وأخلاق وبطولات. وهذا المعنىٰ هو الذي يذهب إليه الكثير من المحقّقين، وهو سليم ووجيه. ولذلك يشترطون في الإمام شروطاً هي أن يكون أعلم الناس وأعدلهم وأورعهم، مع أن بعض الناس يقولون: من أين لكم هذا؟ إنْ هذا إلّا كلام خيالي.

والجواب: أننا لا نعطي الإمام شيئاً فوق مستوىٰ الطبيعة البشريّة، وهذا الغلط يوجد عند بعض الكتاب، فيتهموننا بأننا نغالي، والحال أننا لا نغالي أبداً، لكن لا نُنقص الإنسانية حقّاً من حقوقها. فالإنسانية فيها قابلية للسمو الذي لا حدود له، انظر إلى هذا الإنسان العادي، تجد أن من الممكن أن يصير بمستوىٰ أكبر من مستوىٰ الملائكة، ومن الممكن أن

---

(١) المغني ٩: ١١٦ ـ ١١٧، وانظر: مغني المحتاج ٣: ٣٩٠، مواهب الجليل ٥: ١١٥، البحر الرائق ٤: ٢٦٥.

يكون بمستوىٰ أحطّ من مستوىٰ الشيطان؛ فهو يمتلك قابلية للهبوط وللارتفاع. ونحن إنما نقول في الإمام ما هو في حدود الطبيعة البشرية، أما إذا خرج ما يقال فيه عن الطبيعة البشرية فهنا يصبح غلوّاً، ونحن نرفض الغلوّ والغلاة، فالمغالي لا نزوّجه، ولا نغسله ولا ندفنه إذا مات[١]، بل نحن نخرج الغلاة من حضيرة الإسلام[٢]. فنحن لا نغالي في الأيمّة، ولا نعطيهم إلّا ما تتّسع له طبيعتهم البشرية في أرقىٰ صورها؛ إذ أن الإمام في الذروة، وهو بشر في الذروة، فإن أعطاه أحد صفات غلوّ فإننا نأباها ونرفضها أشدّ الرفض، وقد مرّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في شهر رمضان، فرأىٰ جماعة جالسين يأكلون، فقال لهم: «أنتم علىٰ سفر فتستعملون هذه الرخصة؟». قالوا: لا. قال لهم: «مرضىٰ؟». قالوا: لا. قال: «لماذا تأكلون في شهر رمضان؟». فقالوا له: أنت.. أنت. فقال: «من أنا؟». قالوا: أنت إلٰه (والعياذ باللّٰه). فنزل الإمام من علىٰ راحلته، ومرّغ خدّه علىٰ التراب، وقال لهم: «أنا عبد من عبيد اللّٰه، واللّٰه إن لم ترتدعوا لأضرمن عليكم ناراً»[٣].

وكان الإمام الصادق عليه السلام يجلس في مجلسه ويلعن أبا الخطاب ويتبرّأ منه[٤]؛ لأن هذا قد اتّخذ الغلو وسيلة لمنافعه.

---

(١) البيان: ٢٤، ٢٨، ذخيرة المعاد ٢: ٣٢٧ (حجري).

(٢) المعتبر شرح المختصر ١: ١٩٨، منتهىٰ المطلب ١: ١٥٢، بل إن بعض فقهائنا يحكمون بنجاستهم، انظر: شرائع الإسلام ١: ١١ ـ ١٢، إيضاح الفوائد ١: ٢٦، وبعدم جواز أكل ما يذكّون، انظر: قواعد الأحكام ٣: ٣١٨، إيضاح الفوائد ٤: ١٢٧، وبعدم توريثهم، انظر تحرير الأحكام ٢: ١٧١ (حجري).

(٣) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٨٨ / ١٢٨، فتح الباري ٦: ١٠٦، ١٢: ٢٣٨، شرح نهج البلاغة ٥: ٥، ٨: ١٩٩، ولم يذكروا طرف القصة.

(٤) قال الصادق عليه السلام: «ملعون ملعون من أخّر المغرب طلباً لفضلها». فقيل له: إن أهل العراق

وهناك الكثير غيره من الغلاة في تاريخ الأيمّة عليهم السلام، وكانوا عليهم السلام يلعنونهم في مجالسهم ويتبرؤون منهم، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**والله ما نحن إلّا عبيد الذي خلقنا**»[1]. أي نحن ناس عبيد، لكن نزهونا عن النواقص، ولا تصعدوا بنا إلى أكثر من مستوىٰ البشر.

إذن معنى أن إبراهيم عليه السلام كان أُمّةً، أنه كان ذروة بجميع ما تتسع له الطبيعة البشريّة، واللّه عز وجل يعطي الطبيعة البشرية بما تتسع إليه من مزايا، فهو تعالىٰ يسلّح الإمام أو النبي صلى الله عليه وآله بجميع الإمكانات التي تتّسع لها طبيعته البشرية.

الإخلاص

يؤتىٰ يوم القيامة بأحد العلماء البارعين، وهو يقول: يا رب، أنا كتبت وألّفت في سبيل دينك. فيقول له اللّه عز وجل: لا ولا كرامة لك، إنك إنما صنعت ذلك ليكثر خلفك خفق النعال، خذوه إلى النار. ويأتي آخر فيقول: يارب أنا بذلت في سبيلك، وأعطيت وأكرمت ووصلت، وكلّ ما عندي من أموال أعطيتها. فيقول له اللّه تعالى: لا ولا كرامة لك، إنما صنعت ذلك لكي يقال: إنك جواد، خذوه إلى النار. ويأتي ثالث فيقول: يا رب، أنا قد أخذت سيفي وقاتلت وجرحت، وقتلت في سبيلك. فيقول له اللّه تعالى:

يؤخّرون المغرب حتى تشتبك النجوم. فقال عليه السلام: «هذا من عمل عدوّ الله أبي الخطّاب». من لايحضره الفقيه ١: ٢٢٠ / ٦٦١.

وقال عليه السلام: «أبرأ إلى الله ممّا قال فيّ الأجدع البراد عبد بني أسد أبو الخطّاب لعنه الله». بحار الأنوار ٢٥: ٢٩٠.

(١) اختيار معرفة الرجال ٢: ٤١٩ / ٤٠٣، بحار الأنوار ٢٥: ٢٨٩.

لا ولا كرامة لك؛ لأنك أردت أن يقال لك: إنك شجاع.

أما الأنبياء عليهم السلام فلا يتداخل في سلوكهم عامل إضافي إلى جانب العبادة في أي نمط من أنماط سلوكهم، فكلّ السلوك الذي عندهم سلوك عبادي المقصود به وجه اللّه:

ومـا ثـمّ إلا اللّـهُ فـي كـلّ حـالةٍ فلا تعتمدْ يوماً علىٰ غير لطفِهِ[١]

حكم القنوت والهدف منه

وهذا يجرّنا إلى السؤال التالي: ما حكم القنوت في الصلاة؟

الجواب: عند بعض المذاهب الإسلامية وهم الأحناف[٢] والحنابلة[٣] أنه لا يصحّ إلّا بالوتر، فلا يصحّ القنوت إلّا في هذه الركعة، فالقنوت في الوتر فقط. أما عند المالكية[٤] والشافعية[٥] فليس كذلك، وإنما يُقنت في صلاة الصبح من بعد ما يرفع المصلّي رأسه من ركوع الركعة الثانية. أمـا عـند

---

(١) لأمير المؤمنين عليه السلام بيتان قريبان من هذا:

لَـعَمْـرُكَ مَـا الإنْسَـانُ إلَّا بِـدِيْنِهِ فَلاَ تَتْرِكِ التَّقْوَى اتِّكالاً عَلَى النَّسَبْ

فَقَدْ رَفَـعَ الإسْـلاَم سَـلْمَانَ فَـارِسٍ وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ الشَّرِيْفَ أَبَا لَـهَبْ

ديوان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: ٢٨.

وروي صدر البيت الأول هكذا:

عليكَ بتَقوى اللّهِ في كلِّ حالةٍ

تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ١٧٣.

(٢) المبسوط ١: ١٦٥، تحفة الفقهاء ١: ٢٠٣.

(٣) المغني ١: ٧٨٨.

(٤) مواهب الجليل ٢: ٢٤٣.

(٥) فتح العزيز ٣: ٤٤٠، المجموع شرح المهذب ٣: ٤٩٤، ٥٠٤، ٤: ٢٤، روضة الطالبين ١: ٤٣٢.

الإمامية فهو مستحب في الصلوات[١].

وهناك سؤال آخر هو: ما الهدف من القنوت؟

والجواب: هو أننا الآن في طاعة اللّه، ونحن واقفون في الصلاة بين يدي اللّه عز وجل وفي طاعته، لكن اللّه عزّ وجل يريد أن يعطي، وعندما يعطي فإنه يريد من عبده أن يسأل، فيجب ألّا نسأل إلّا اللّه؛ لأنه يقول عن عبده: «**إن دنا مني شبراً دنوت منه ذراعاً، وإن دنا مني ذراعاً دنوت منه باعاً**»[٢]، ويقول: «**مَنِ استطعمني فلم أُطعمه؟**».

أي أنه تعالىٰ يقول: إذا طلب أعطيته. والكرم نوعان: نوع تطلبه أنت، ونوع هو يطلبه من عندك أي أنه يطلب منك أن تسأله كي يعطيك؛ لأنه معطاء يريد أن يعطي؛ فلذا هو يريد من يسأل. يقول أحد شعرائنا:

إني دعوت ندىٰ الكرامِ فلم يُجبْ	**فلأشكرنّ ندىً أجابَ وما دُعيْ**
ومن العجائبِ والعجائبُ جمةٌ	**شكرُ بطيءُ عن ندىً متسرّعِ**[٣]

وفي الواقع إن القنوت هو دعوة إلى اللّه تعالىٰ.

وقد يتساءل البعض فيقول: لماذا نُدير الخاتم، ونوجه فصّه للسماء، وبعد ذلك نرفع أيدينا إليها ثمّ نرفع رؤوسنا، والحال أن اللّه عز وجل في كلّ مكان، لا يخلو منه مكان: ﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾[٤]؟

الجواب: لأن السماء باب الدعاء، والآية الكريمة تقول: ﴿**إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾[٥] وليس لأن اللّه عز وجل بجهة حاشا، فالكون كله بقبضته،

(١) الرسائل العشر (ابن فهد): ١٥٩، مدارك الأحكام ٣: ١٩.

(٢) أمالي المرتضىٰ ٢: ٦، الدعاء (الطبراني): ٥٢٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٨٤.

(٤) المجادلة: ٧.

(٥) فاطر: ١٠.

وهو تبارك وتعالى لا يخلو منه مكان، ولا يحويه مكان: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾[1].

إذن هذا القنوت هو لون من ألوان الدعاء، فالإنسان إنما يعبد حينما يدعو؛ لأن الدعاء بحدّ ذاته عبادة، كما أن واقع الداعي هو الشعور بالنقص، وطلبٌ لإكمال النقص من الكامل، فأنا عندما أقول: ربي عافني، فلأني أمرض، وأعرف أنني عندما أمرض لا يعطيني العافية إلّا اللّه عز وجل؛ فلذلك أنا أطلب إكمال هذا النقص من الكامل، وإلّا لو كان يمرض مثلي فما الفائدة؟ إن طلبي يصبح حينها عبثاً.

الاسكندر والراعي

مرّ الإسكندر يوماً ومعه جيوشه الهائلة علىٰ رجل يدعو، وكان منغمراً ذائباً بالدعاء، ولم يتحرك أبداً أمام جيش الإسكندر، فدنا الإسكندر منه وقال: لمَ لمْ تتحرك؟ ألم تخف من هذا الجيش وهذه العدة وصكصكة اللجم وصليل السلاح؟ أما أرعبك هذا؟ قال: لا. قال: لماذا؟ قال: كنت مع من هو أكبر منك، كنت مع اللّه.

فهزت هذه الكلمة الإسكندر، وقال له: واللّه مثلك فليدّخر، إني أُحبّ أن أصطحبك معي. قال: لا، أنا لا أستطيع أن أذهب معك. قال: لماذا؟ قال: هل تستطيع أن تعطيني حياة ليس معها موت، وتعطيني عافية ليس معها مرض، وتعطيني غنى ليس معه فقر؟ قال: كلا، هذا شيء لا أستطيع أن أُؤمّنه حتىٰ لنفسي. فقال: أنا مع من يؤمّنه لي، فاللّه عز وجل يستطيع

(١) البقرة: ١١٥.

أن يعطيني هذه الأشياء.. يعطيني عافية بلا مرض، ويعطيني حياة بلا موت، ويعطيني غنى بلا فقر، فلماذا أترك اللّه وآتي معك؟

تأبين السيد عبد الأعلى السبزواري رحمه الله

إنا للّه وإنا اليه راجعون، بمزيد من الأسى واللوعة ننعى علماً من أعلامنا، ورائداً من روّاد الحركة العلميّة، وإماماً من أيمّة الفقه، ورجلاً مجاهداً مرت عليه هذه السنون وهو في طريق الصمود إزاء ما كان يحدث داخل العراق.

من ملامح شخصيّته الشريفة

كان الرجل غاية في الصلابة في موقفه، ولقد تميز بجملة من المميزات، منها:

الأوّل: التحقيق والتدقيق

فقد عرف بالتحقيق من بواكير عمره، فحينما كنت طفلاً، كان السيد مستأجراً لأحد بيوتنا وهو بيت الشيخ مهدي الكاظمي ، في منطقة العمارة مقابل آل الشيخ راضي، فكنت أخرج صباحاً إلى بيت أُختي فأراه وأرى مجلسه حاشداً؛ لأن باب مكتبه «البراني» الذي يجلس فيه يكون مفتوحاً عادة، فكنت أرى رجالاً ووجوهاً من طلاب العلم كان يتولّى تدريسهم.

وبعد ذلك كانت لي به صلة أيضاً، فقد كانت لدينا قطعة في الكوفة فيها مشتمل مقابل بيت السيد الخوئي قدس سره[1]، فسكنه إلى أن ألجؤونا إلى إخراجه

---

(١) توفي في ٨ / ٢ / ١٤١٢ هـ.

منه. فكنت على تماسّ به إلى حد ما.

الثاني: بروز الجانب الفلسفي عنده

لقد كان كثير الصمت قليل الكلام، وكانت كلماته غاية في الانتقاء، وأداؤه غاية في الروعة والدقّة. وقد عرف من بواكير عمره أنه بارع في تدريس الحكمة الإلهية، وهذا ما انعكس في مؤلّفه الثمين (مواهب الرحمن في تفسير القرآن). فقارئه يلمس الروح العرفانية واضحة في أدائه ﭭ.

الثالث: الصلابة والحدية

وقد عرف أيضاً بالصلابة في رأيه، فلم يكن يحيد عن رأيه، فقد مرت هذه النكبات، وتعرض فيها للكثير من الضغوط، فما لان ولا انهار، وواصل مسيرته العلمية، فكان له الباع الطويل في الفقه والتفسير. وكان من المأمول أن يمد اللّه في عمره ليكمل مسيرة التفسير الذي صدر منه إلى الآن أحد عشر جزءاً، حيث إن الأجزاء الباقية كانت في طريقها إلى الصدور. وفي تفسيره لفتات غاية في الروعة، وعطاء غاية في الثراء؛ فهو إلى جانب الفقه والحكمة كان ضليعاً في التفسير، كبيراً في الأخلاق، عظيماً في النفس، على خط آبائه الطاهرين وأجداده المنتجبين عليهم السلام. وقد شاء اللّه لهذه الحياة الحافلة الحاشدة أن تُختتم في مثل هذا اليوم في ليلة وفاة جدّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله ليلتحق به.

ولئن انتقل علم من أعلامنا فلله الحمد، إن «ديار علي والحسين وجعفر»[1] غنية بالعطاء من الأفذاذ الذين سوف يملؤون الساحة، ولئن رُزئنا بالتدريج بهم واحداً بعد واحد، فإن أملنا بالله عزّ وجل أن يمدّ

(١) صدر بيت عجزه: وحمزة والسجّاد ذي الثفنات. ديوان دعبل الخزاعي: ٣٨.

بأعمار قادتنا الموجودين، كالسيد الگلبايگاني[١] والسيستاني (أمد اللّه في عمرهما)، وباقي مراجعنا العظام في النجف أو في قم أو في أي مكان. واللّه وحده نسأل أن يمدّ في أعمارهم وأن يأخذ بأيديهم لنشر فكر آل محمدﷺ، ولإكمال مسيرتهم في طريق العطاء وحمل هذه الأمانة والرسالة المقدّسة. وما خلت لنا مدرسة في يوم من الأيام، ولن تخلو ما دمنا في ظلال آل محمدﷺ، وفي ربيعهم وفكرهم عليهم السلام؛ فالله وحده هو المسؤول أن يعوّضنا عن هذه الخسارة الفادحة.

ولئن تعرَّض إلى الضغط في حياته فقد تعرّض له بعد وفاته[٢]؛ فما سُمح لجنازته أن تشّيع في هذا اليوم إلّا على مستوى أفراد قلائل، ونقل من الصحن الشريف إلى المقبرة لبضع خطوات، حيث ووري عند أمير المؤمنين عليه السلام وفي ظلّ حامي الحمى. (فرحم اللّه تلك الروح الطاهرة، وأغدق عليها شآبيب رحمته). فعزاؤنا لأيمّة المسلمين وقادتهم وللحوزة العلمية التي نأمل أن تكون منجبة لأكثر من واحد وواحد، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا اليه راجعون.

حياة الرسول الأعظمﷺ

وفي هذا اليوم سيكون ختام هذا المجلس الطاهر في ذكرى الرسول الكريم، نبينا وشفيعنا محمد المصطفىﷺ، وللتعرّف على حياته وسيرته (صلوات اللّه عليه وعلىٰ آله) لابدّ من المرور بمراحل ثلاث من هذه الحياة الشريفة، وهي مراحل ملؤها العطاء:

---

(١) توفي في ٢٦ / ٢ / ١٤١٤ هـ. (٢) توفي في ٢٧ / ٢ / ١٤١٤ هـ.

من ولادته حتى بعثته ﷺ

ولد ﷺ في مكّة المكرّمة[١]، وقد اعتاد المؤرّخون أمراً هو أنهم إذا مرّوا بولادته ﷺ فإنهم يذكرون إرهاصات وأُموراً جرت معها وساوقتها. لكن نقول: إن الواقع أن هذه الأُمور لا تزيد الرسول ﷺ شيئاً فوق ما هو عليه.

إرهاصات ولادته ﷺ

ومن هذه الأُمور التي يذكرها المؤرخون أنْ فاضت بحيرة السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، ومنعت الشياطين من استراق السمع[٢]، وغيرها[٣]. وهذا التماس للمناقب من خارج ذات الرسول ﷺ، وهو غني عن ذلك، فكل لحظة من لحظات حياته عطاء ومكسب من المكاسب لهذه الأُمة ما زال يمدّها ويرفدها. فسواء غارت النجوم أو منع الشياطين من استراق السمع أو غاضت بحيرة ساوة أو لم يكن، فإن ذلك لا يعطي النبي ﷺ شيئاً أكبر مما أعطاه الله، فهو ﷺ منذ ولادته ولد في أقدس الحجور وأطهر البيوت، فبيت الرسول ﷺ ـ وهذا معروف على تسلسله ـ ما خضع لنكاح من أنكحة الجاهلية، يقول البوصيري ؒ:

لم تزلْ في ضمائر الكون تُختا	**رُ لك الأُمهاتُ والآباءُ**
تتباهىٰ بك العصور وتسمو	**بك علياء بعدها علياءُ**
وبدا للوجود منك كريمٌ	**من كريمٍ آباؤه كرماءُ**

---

(١) في ١٧ / ربيع الأول من عام الفيل.

(٢) قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعْ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَدًا﴾. الجن: ٩.

(٣) انظر كل ذلك في مناقب آل أبي طالب ١: ٢٧ ـ ٣١، أُسد الغابة ٥: ٥٢.

نسبٌ تحسبُ العُلا بحُلاها قَلَّدَتها نجومَها الجوزاءُ
حبَّذا عقدُ سؤددٍ وفخارٍ أنت منه اليتيمةُ العصماءُ[1]

فرسول اللّه ﷺ ولد في بيت طاهر، ولم يتطّرق إلى نسبه شيء من العقود التي كانت في الجاهلية.

وأُلفت النظر هنا إلى أن الإسلام لم يقدح بالعقود التي كانت في الجاهلية: «لكل قوم نكاح»[2]. فأقرّهم على ما هم عليه، وكان معظم الصحابة مولودين من زواج على غير الصيغة الإسلامية، فكان العقد في الجاهليّة أن يوجّه الانسان باب خباء إلى باب خباء، أو باتّباع اصطلاحات أُخرى بحيث لو صدرت الآن فإننا لا نقرّها، لكنها صادرة منهم، و«لكل قوم نكاح». وبتعبير آخر إن إبراز الإرادة تارة يكون لفظياً وأُخرى يتمّ عملياً، وهذا مثل البيع المعاطاتي الذي يتم دون إجراء لفظ العقد بصيغته الشرعية التي ينبغي أن يقول البائع فيها: بعتك، ويقول المشتري: اشتريت. وكذلك العقود التي كانت في الجاهلية فإنها مبرزة للإرادة، فأقرّها الإسلام. ولكن عرف عن بيت رسول اللّه ﷺ أنه انتقل من الأصلاب الطيّبة إلى الأرحام الطاهرة: «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجّسكم الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسكم من مدلهمّات ثيابها»[3].

فترعرع ﷺ في ذلك البيت الذي حنا عليه؛ لأنه عاش يتيم الأبوين،

---

(١) ديوان البوصيري: ٩.

(٢) تهذيب الأحكام ٧: ٤٧٢ / ١٨٩١، المهذب (ابن براج): ٢٥٥.

(٣) مصباح المتهجد: ٧٢١ / ٨٠٧.

فقد توفّي أبوه وهو في بطن أُمه، وتوفيت أُمه وعمره ستة أشهر، فحرم من عطف الأبوين. ولكن شاء اللّه أن يستبدله بحجر عوَّضَهُ ذلك العطف بل زاد على ما كان متوقعاً، وهو حجر جده عبد المطلب رضي الله عنه، وبيت عمه أبي طالب رضي الله عنه، وحجر هذه المرأة الطاهرة الرائدة في دنيا الإسلام فاطمة بنت أسد (رضي اللّه عنها) التي كفلته وحملته. وكان صلى الله عليه وآله ينقل عنها أن أولادها يصبحون وقد يكون أحدهم مترباً، في حين أنه صلى الله عليه وآله يصبح وقد دُهن شعره ورُجِّل وغسل وأُلبس ثياباً جدداً. وكانت تحرم أولادها من الطعام وتقدّمه له صلى الله عليه وآله. ولذلك كان يقول عنها: «أُمي»[1].

وعندما توفيت شيّعها صلى الله عليه وآله وقال لأمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا أدخلتها إلى القبر فأخبرني**». فنزل عليه السلام إلى القبر، ونزل رسول اللّه صلى الله عليه وآله معها، فكفّنها بردائه، وأضجعها بيده، وخرج والتأثّر بادٍ على وجهه، ثم قال: «**أردت أن يخفف اللّه عنها ضغطة القبر وأن يقيها بردائي**»[2].

أما عمه أبو طالب رضي الله عنه فقد وقف معه مواقف سوف نعرفها عندما نمرّ بالدور الثاني من حياته صلى الله عليه وآله.

فنشأ صلى الله عليه وآله وترعرع في هذا البيت الطاهر، ولم يألف مجتمعاً من مجتمعات قريش التي كانت في مكّة، وكان يتحنّف في طفولته. ويختلف المفسّرون والكتّاب في أنه صلى الله عليه وآله هل كان يتحنّف على الحنيفيّة التي هي ملّة إبراهيم الخليل عليه السلام، أو أن اللّه ألهمه أن يتحنّف على طريقته، لهم في هذه

---

(١) المعجم الكبير ٢٤: ٣٥١، المعجم الأوسط ١: ٦٧، كنز العمّال ١٣: ٣٣٥ ـ ٣٣٦ / ٣٧٦٠٧.

(٢) قريب منه في عين العبرة: ٦٨، المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٠٨، كنز العمّال ١٣: ١٣٥ ـ ٦٣٦ / ٣٧٦٠٦ ـ ٣٧٦٠٧.

المسألة رأيان، وكل رأي له جماعته وأنصاره. لكن المهم أن النبي صلى الله عليه وآله كان يخرج فيطيل النظر إلى السماء، ويقلب طرفه في الكواكب كأنه يتوقّع حدثاً جديداً.

وكان صلى الله عليه وآله يخرج قبيل بعثته إلى غار حراء فيأخذ الإمام علياً عليه السلام معه آنذاك وهو لا يزال طفلاً صغيراً، يقول البوصيري في همزيّته:

ألِفَ النُّسكَ والعبادة والخَلـ ـوةَ طفلاً وهكذا النجباءُ

وإذا حلَّت الهدايةُ قلباً نشطت في العبادة الأعضاءُ[1]

فكان صلى الله عليه وآله يخرج هناك يدعو الله ويتضرع إليه، ويتأمل في الكواكب ويقلب طرفه فيها. ومكث هذه الفترة الطويلة في مجتمع قريش وليس هو معهم. وكان صلى الله عليه وآله يلقب بالصادق والأمين؛ لأنه كان متّصفاً بكلّ صفات الصدق والأمانة، بحيث إن قريشاً كانت إذا أهمّها أمر رجعت إلى رأيه، وكانت تسميه المبارك.

رفع الحجر الأسود

فمن المعروف أنه هو الذي فضّ النزاع بين قريش في موضوع وضع الحجر الأسود في الكعبة، وإلّا فإن الأمر كان قد وصل إلى القتال بين قبائل قريش، فكلّ قبيلة تريد أن تضع الحجر بنفسها، وجاء رسول اللّه صلى الله عليه وآله فأمرهم أن يضعوا إزاراً ويضعوا عليه الحجر، وتتوزّع القبائل على جوانبه الأربعة فيحملوه دفعة واحدة، فلما رفعوه وضعه بيده الشريفة في مكانه[2].

---

(١) ديوان البوصيري: ٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٠، المستدرك علىٰ الصحيحين ١: ٤٥٨.

لقد عرف بسداد الرأي وحصافة الفكر منذ طفولته، وعرف بالطهر الطاهر، فقد كان بعيداً عن آثام قريش ولم تدنّسه أوضار الجاهليّة، وإنما كان يخرج وليس له من لِدَةٍ يألفها إلّا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وبعض اللِّدات الذين لم يُلقِ التاريخ عليهم كثيراً من الأضواء، ولكن المعروف عنه أنه كان يألف علي بن أبي طالب عليه السلام، فكان يحمله على صدره ويطوف به شعاب مكّة ويقول: «**أخي ووزيري وناصري وخليفتي من بعدي**»[١]. وكان إذا عاد إلى البيت عاد بعلي عليه السلام معه.

وقد قضى صلى الله عليه وآله هذا الدور إلى أيام زواجه من خديجة عليها السلام، وكان يصرّ خلال هذه الفترة على أن يعمل ولا يأكل إلّا من عمله، فاشتغل صلى الله عليه وآله في كثير من الأعمال كان آخرها العمل في التجارة مع خديجة عليها السلام التي كان لها الكثير الكثير من الأموال، وكان التجار القرشيّون يضاربون بأموالها ويقترضون منها. ويقول بعض المؤرّخين عن أموال خديجة: لو أن رجلاً وقف بهذا الجانب، ووقف رجل آخر بذاك الجانب ووضعت بينهما أموال خديجة عليها السلام لما رأى أحدهما الآخر لما تشكّله هذه الأموال من تلٍّ من بدر الدنانير والدراهم[٢]، وقد ساقتها بأجمعها إلى بيت النبي صلى الله عليه وآله، وساقت معها ثمانية آلاف ناقة، ومن الحلي والحلل ما أطنب التاريخ في وصفه، كلّ ذلك كان في خدمة الإسلام[٣]، وآل بها الأمر أن تضطجع مع النبي صلى الله عليه وآله على

---

(١) ورد هذا الحديث عن الصادق الأمين صلى الله عليه وآله في حق أمير المؤمنين عليه السلام بصيغ كثيرة ومناسبات عدّة، انظر: الكافي ١: ٣٢١ / ٧، الأمالي (الصدوق): ٣٥٤ / ٤٣٢، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٥: ١٢٦ / ٨٤٥١، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١.

(٢) قريب منه في بحار الأنوار ١٩: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) انظر ذلك في محاجّة أسماء بنت عميس (رضي اللّه عنها) مع عمر، وذلك أنه حين رأى

جلد كبش، فقد أنفقت كلّ ذلك في سبيل الله.

نعم لقد اشتغل النبيﷺ مع خديجة بأن ذهب في تجارة لها مع غلامها ميسرة، وقد أوصت غلامها ميسرة أن يراقب النبيﷺ في بيعه وشرائه، فكان يراقبه فيرىٰ أنه إذا مشى في الصحراء انفصلت غمامة من الغمام فتظلّل على رأسه وتدفع عنه حرّ الشمس، وتميل معه أينما مال. فأخبر ميسرة خديجةعليها السلام وقال لها: واللّه لقد رأيت صدقه وعفافه وأمانته، ورأيت الغمامة تظلّله، يقول البوصيري:

ورأته خديجةُ والتُّقى والـ ـجودُ منه سجيّة والحياءُ
وأتاها أن الغمامةَ والسر ح أقلّتهُ منهما أفياءُ
فدعته إلى الزواج وما أحـ ـسنَ ما يبلغُ المنى الأذكياءُ
وإذا سخَّر الإلهُ أُناساً لسعيدٍ فإنَّهم سُعداءُ[1]

أسماء قال لها: نحن سبقناكم بالهجرة؛ فنحن أحقّ برسول اللهﷺ منكم. فغضبت وقالت: كلّا والله، كنتم مع رسول اللهﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسولهﷺ. وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول اللهﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبيﷺ، وأسأله والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبيﷺ قالت: يا نبي الله، إن عمر قال كذا وكذا. قالﷺ: «فما قلت له؟». قالت: قلت له كذا وكذا. قالﷺ: «ليس بأحقّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان».

انظر: صحيح البخاري ٥: ٨٠، صحيح مسلم ٧: ١٧٢، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٠٤.

ومعلوم أنهﷺ كان فقيراً؛ فهوﷺ كان ينفق من أموال خديجةعليها السلام، ويؤيّده ما في المصدر السابق.

(١) ديوان البوصيري: ٩، وانظر: كمال الدين: ١٨٧، المستدرك علىٰ الصحيحين ٢: ٦١٦.

خطب له عمه أبو طالب خديجةعليها السلام، وساق لها ثلاثمئة من الإبل نُحرت، وساق لها المهر، فتزوّجصلى الله عليه وآله من خديجةعليها السلام فأرسلت منادياً لينادي في الناس: كلّ مال لي فهو تحت تصرف محمدصلى الله عليه وآله يفعل به ما يشاء. فأخذ النبيصلى الله عليه وآله تلك الأموال وأنفقها في طريق الإسلام بأجمعها. ثم أعقب منها القاسم والطاهر والزهراءعليها السلام التي لقّبهاصلى الله عليه وآله بـ«أُم أبيها»[1]؛ لأن الأُم هي أصل الأشياء، ومن هنا عُبّر عن مكة بـ«أُم القرى»، وعن الفاتحة بـ«أُم القرآن»، وكذلك فاطمةعليها السلام؛ لأنها الأصل، فلولا أولاد فاطمةعليها السلام لانقطع أصل النبيصلى الله عليه وآله ونسله. ولذلك كانصلى الله عليه وآله يقول عنهما: «ابناي»[2].

وهذا ما احتجّ به الإمام موسى بن جعفرعليه السلام علىٰ الرشيد حيث قال له: «لو بُعث رسول اللّهصلى الله عليه وآله حياً وخطب منك ابنتك أكنت مزوّجه؟». قال: بلى والله، وأفتخر بذلك على العرب والعجم. فقال الإمامعليه السلام: «وهل يسعني أن أُزوجه؟». قال: لا. فقال الإمامعليه السلام: «لماذا؟». قال: لأنك داخل في صلبه. قال الإمامعليه السلام: «فهذا هو الذي دعانا إلى أن نقول: نحن أبناء رسول اللهصلى الله عليه وآله»[3].

وقد درج القاسم والطاهر في حياة النبيصلى الله عليه وآله، أما ربائبه الثلاث غير

---

(١) مقاتل الطالبيّين: ٢٩، المعجم الكبير ٢٢: ٣٩٧، أُسد الغابة ٥: ٥٢٠.

(٢) تحفة الأحوذي ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمّال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥ تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

(٣) انظر الاحتجاج ٢: ٣٣٨ / ٢٧١.

ومثلها مناظرة الإمام الرضاعليه السلام مع المأمون، انظر بحار الأنوار ١٠: ٣٤٩ / ٩، ٩٤: ١٨٧ / ١٩.

فاطمة فتختلف آراء المفسّرين والمؤرّخين في كونهن بناتِه أو ربائبَه، ويميل ظاهر التحقيق إلى كونهن ربائبه[١]، وهناك روايات بأنهن بناته[٢].

وبقيت هذه النسمة الطاهرة التي قال عنها النبي ﷺ: إنها «أُم أبيها» مبعث سلوة لرسول اللّه ﷺ يلمس في جبينها جبين أُمها خديجة عليها السلام التي ما ذكرها إلّا وانتفض واهتزّ من قرن إلى قدم، حتى قالت له بعض نسائه يوماً: ما الذي يدعوك إلى الإكثار من ذكر خديجة؟ وهل هي إلّا امرأة حمراء الشدقين أبدلك اللّه بخير منها؟ فقال ﷺ: «**كلا إن اللّه لم يبدلني بخير منها، إنها آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذب بي الناس، ورزقني اللّه منها ولداً إذ حرمني أولاد سائر النساء**»[٣].

من بعثته المقدّسة حتى هجرته الشريفة

مر الدور السابق على رسول اللّه ﷺ قبيل البعثة وهو في هذه الأجواء التي رسمتُها لك؛ ابتداءً من طفولته وتحنّفه في غار حراء واستمراره على هذا النوع وابتعاده عن مجتمع قريش وترقبه لعطاء السماء إلى أن أراد اللّه تعالى لهذه الأرض أن تزدهر بنور النبوّة، وأن يغمرها عطاء السماء، وأُريد للنبي ﷺ أن يحمل قبس الهداية. خرج ﷺ من بيته قاصداً غار حراء، فنزل الوحي بأول سورة كانت إيذاناً ببعثته ﷺ: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ**

---

(١) انظر كتاب: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؛ سيرة وتاريخ (آل ياسين): ٢٧.

(٢) الطبقات الكبرىٰ ١: ١٣٣، ٨: ٢١٧، تاريخ مدينة دمشق ٣: ١٢٥، ١٢٨، ١٢: ١٢٨، أُسد الغابة ٥: ٤٥٦.

(٣) بحار الأنوار ١٦: ١٢، مسند أحمد ٦: ١١٨، المعجم الكبير ٢٣: ١٣، سير أعلام النبلاء ٢: ١١٢، الإصابة ٨: ١٠٣، كنز العمال ١٢: ١٣٢ / ٣٤٣٤٨.

يَعْلَمْ ﴾[1].

وهنا يقول المؤرّخون: إن علياً عليه السلام كان مضطجعاً إلى جانبه، وقد أشارت إلى ذلك خطبته الغرّاء التي يقول فيها: «**أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله**»[2].

فخرج الرسول صلى الله عليه وآله من غار حراء يحمل هذا العبء: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾[3]، ويرى أن الدنيا قد أُنيط به إصلاحها، وهو عبء حمله ذلك الكتف العملاق، فما إن نزلت الآية حتى رفع عقيرته: «**قولوا: لا إله إلّا اللّه تفلحوا**»[4].

إن رسول اللّه صلى الله عليه وآله حمَلنا عبئاً، فلنحمله فكراً، وحمَلنا جاهلية فينبغي أن نحمله هداية، وعشنا في همومه فينبغي أن يعيش في همومنا. وأنتم الآن في بلد ليس من بلدان الإسلام، فأولادكم هنا أمانة في أعناقكم، فلا يبعدوا عن الإسلام وعن سيرة نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ**﴾[5]. فعليكم تقع المسؤولية بالتضامن والتكاتف.

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

(٢) نهج البلاغة /الخطبة: ١٩٢، المعروفة بالخطبة القاصعة.

وفيها: «ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما؛ أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلّا إنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلى خير».

(٣) المزّمّل: ٥.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ٥١، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٤٤٢ / ٦.

(٥) التحريم: ٦.

إني أتّصل في بعض الأحيان بقسم من الأُخوة هنا، فيجيبني أبناؤهم تلفونياً وهم لا يعرفون العربية، أو يتعثّرون في أدائها، وهؤلاء بالتدريج سوف ينسون القرآن والأحكام والقيم والأخلاق، ونحن مهما ربحنا لكن حين نخسر الأخلاق فإننا لم نربح شيئاً. لا تخسروا أولادكم وبناتكم والأُسرة الإسلاميّة، وحاولوا الاتّصال بالمؤسّسات والجماعات الإسلاميّة، وخصّصوا في الأُسبوع ولو يومين لهم للدراسة في مدارس تُنشِئُونها باللغة العربية، لتدريس اللغة والقرآن. وفي الوقت نفسه على الآباء أن يدفعوا أبناءهم، بشتى الوسائل إلى تعلّم دينهم وأخلاقهم، وأن يكون ذلك مصحوباً بالإصرار منهم إن لزم الأمر.

قد تقول لي: إنني مضطرّ إلىٰ البقاء هنا، وإذا ذهبت إلى مكان آخر فقد لا يتوفّر لي رغيف الخبز.

وأقول لك: لكن علينا ألّا نكون كمن قال فيه الشاعر:

أبُنَيَّ إن من الرجال بهيمةً ... في صورة الرجل السميعِ المُبصِرِ

فَطِنٌ لكلِّ رزيَّةٍ في ماله ... فإذا أُصيب بدينه لم يشعُرِ

وهناك نقطة أُخرى مهمة أرجو أن تتنبّهوا إليها، وهي أن الغرب يحنُّ إلى مؤسّساتنا الإسلامية، ويريد الأُسرة الإسلامية، فلا ينتهين بكم الأمر إلى حد أنه إذا وصل الابن إلى السن القانوني ترك أباه يصارع آلامه وحده، و إذا كبرت البنت فلتت وملكت زمامها بيدها. وهذا المصير عليكم أن تتوقّعوه وتضعوه أمام أعينكم؛ لأنني أعرف أن الحالة في بلداننا لا تشجّعكم على الرجوع حتى لو حُلَّت مشكلتنا؛ لأنكم وجدتم هنا خدمات لا تتيسّر لكم هناك. وأنا أشك في أن الكثير ممن خرج سوف يرجع مرة أُخرى.

فإذا كان الأمر كذلك فعليكم أن تضعوا أمام أعينكم الحل الذي يحفظ لكم أُسركم وأبناءكم بأي طريق كان، ولا تلقوا التبعات على غيركم، فأنتم مسؤولون مباشرة في أن تتعاونوا على حفظ أُسركم وأبنائكم. وهذا الصوت أرفعه من هنا، وآمل من اللّه أن يستجيب له مَن يقوى على الاستجابة بقليل أو كثير.

نعم، رجع النبيﷺ من غار حراء، فهبط عليه جبرئيل يحمل السورة الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1]. فخرج، وخرج من ورائه الساعد الذي ما فارقه، والسيف الذي ما ابتعد عنه، والنفس التي ما برحت إلى جانب روحه ليل نهار، وهي نفس علي ابن أبي طالبعليه السلام. فكان رسول اللّهﷺ يقول: «قولوا: لا إله إلّا اللّه تفلحوا»، والحجارة تأخذه، ويد عليعليه السلام على سيفه يناله قسط من الحجارة التي تنال النبيﷺ، ويناله الألم، ويتعرض إلى ما يتعرض له رسول اللّهﷺ، فيذود عنه ويدافع، ولا يكاد يترك قائم السيف حتى يعود إلى البيت.

ويندر أن يعود النبيﷺ وعليعليه السلام خاليين من الجراح، فقد كانت الجراح والحجارة تستوعبهما، وكان النبيﷺ بما عرف عنه من النفس الكبيرة يمسح الدم ويشخص ببصره إلى السماء فيقول: «**اللهم اغفر لقومي؛ إنهم لا يعلمون**»[2].

الخروج إلى الطائف

إلى أن اضطروه يوماً من الأيام من كثرة ضغط الحجارة أن يخرج إلى

---

(١) المدّثر: ١ ـ ٢.

(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٨٤، بحار الأنوار ٩٥: ١٦٧.

الطائف، فوقف له أهل الطائف ثلاث فرق، وقال له أحد رؤسائهم: أما وجد اللّه نبياً غيرك يبعثه؟ فأغضى النبيﷺ وسكت عنه؛ لأن السكوت في بعض الأحيان هو أبلغ جواب. وقال له الآخر: أنت يتيم أبي طالب، وتريد أن تسود العرب؟ ألا يسرق ثياب الكعبة إن كان اللّه بعثك؟ ولم يجبه النبيﷺ أيضاً. والتفت له الثالث فقال: أنت بين أمرين: إما أن تكون نبيّاً، وإما أن تكون كذّاباً، فإن كنت نبيّاً فأنت أكبر من أن أُكلمك، وإن كنت كذّاباً فأنا أكبر من أن أُكلّمك.

ثم أشاروا إلى أطفالهم فأخذته الحجارة من كلّ جانب ومكان حتى أدمته، فرفع رأسه إلى السماء وقال: «**اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، لمن تكلني؛ إلى عبد يتجهّمني، أو إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أُبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك ، أو يحلّ علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك**».

ونظر إليه عتبة عن بعد، وقد عطفته عليه أواصر الرحم، فالتفت إلى غلام له اسمه عُداس من أهل الموصل وقال له: احمل بيدك شيئاً من العنب، واذهب إلى هذا الجالس، واطرح العنب بين يديه وابتعد عنه، وإياك والدنو منه؛ فإنه ساحر، وأخاف أن يسحرك بسحره. فأقبل إليه عُداس، فرفع إليه النبيﷺ بصره وقال: «**عُداس هذا؟**». قال بلى، من الذي أخبرك باسمي؟ قالﷺ: «**أوليس قد أسمتك أمك بهذا الاسم عندما وضعتك؛ لأنك كنت ثقيلاً في بطنها؟**». قال: بأبي أنت وأُمي، من الذي أخبرك بهذا؟

قال صلى الله عليه وآله: «أولست أنت من قرية العبد الصالح يونس بن متى من نينوى بالموصل؟». قال: وما أدراك بهذا؟ قال صلى الله عليه وآله: «ذاك نبي وأنا نبي». فقال عداس: واللّه إني لأرى عليك سيماء النبوّة. ثم انحنى على أقدامه يقبّلهما، فنظر عتبة إلى بعض من كان حوله وقال: قد سحر علينا غلامَنا فلا ننتفع به[1].

ثم رجع رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وفي الطريق وجد علياً وخديجة عليهما السلام يبحثان عنه، وقد حملت خديجة وعاءً فيه طعام وماء وهي تنادي: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله، أين أنت يا ثمال اليتامى؟ فلمّا التقياه أخذت خديجة عليها السلام تضمّد جراحه، ثم سقته ماء وأطعمته الطعام، ورجع يتّكئ على علي عليه السلام إلى البيت.

وهكذا كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله بين سيف علي عليه السلام يقوم بوظيفة توفير الحماية له، وبين عطف أبي طالب يدافع عنه، فكان يجن الليل على أبي طالب ولا يذوق النوم، وقد جند أولاده الأربعة في شعب أبي طالب في خدمة النبي صلى الله عليه وآله، فكان النبي صلى الله عليه وآله ينام ساعة في مكان ثم ينقله أبو طالب عنه إلى مكان آخر، ويأتي بأحد أبنائه ليضجعه مكانه، وهكذا إلى الصباح لا يذوق النوم[2]. وكان يمرّ فيجد النبي صلى الله عليه وآله يصلّي، وعلي عليه السلام يأتم به، ولم يكن على وجه الأرض آنذاك من يعبد اللّه غير هذين، فيقول لولده جعفر: صِل جناح ابن عمك، ثم يقول:

إن علياً وجعفراً ثقتي   عند مُلمِّ الزمان والنوبِ

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، تاريخ الطبري ٢: ٨٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٨٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

(٢) روضة الواعظين: ٥٣.

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما أخي لأمي من بينهم وأبي[(١)]

إلى أن لفظ أبو طالب رضي الله عنه أنفاسه الطاهرة ولحق بربه.

من هجرته الشريفة إلى لحوقه بالرفيق الأعلى

ثم توفيت خديجة عليها السلام فهبط جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله وقال: «**اخرج من مكة؛ فليس لك فيها ناصر**»[(٢)]. وأوحى اللّه له أن يخرج في تلك الليلة من بيت أبي طالب رضي الله عنه الذي ما انفكّ عنه، ولما نزل عليه جبرئيل بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ**﴾[(٣)]، استدعى علياً عليه السلام وقال له: «**المولىٰ عزَّ وجلَّ أمرني أن أُهاجر من مكّة إلى المدينة، وأمرني أن أُضجعك مكاني**». فقال: «**يارسول اللّه، لو اضطجعت مكانك أوَ تسلم؟**». قال: «**بلى**». قال: «**روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا**»[(٤)].

ورحم اللّه الكعبي حيث يقول:

ومناقب لك دون أحمدَ جاوزتْ بمقامِك التحديدَ والتعديدا

فعلى الفراشِ تبيتُ ليلك والعدىٰ تُهدي إليك بوارقاً ورعودا

فرقدتَ مثلوج الفؤاد كأنما يهدي القراعُ لسمعك التغريدا

ووقيت ليلته وبتّ معارضاً بالنفس لا طفلاً ولا رعديدا

رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدىٰ أوَ ما دروا كنز الهدىٰ مرصودا[(٥)]

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٥٩٨ / ٨٢٥، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٩، ١٤: ٧٦.

(٢) الكافي ١: ٤٤٩ / ٣١، الفصول المختارة: ٢٨٣.

(٣) الأنفال: ٣٠.

(٤) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

(٥) ديوان الكعبي: ٤١.

وخرج رسول اللّهﷺ ومعه أبو بكر، وقد صنعت لهما أسماء شيئاً من الطعام حمله أبو بكر معهم؛ إذ كان معه أيضاً أيمن ابن أُم أيمن وابن أبي أُريقط، فوصل النبيﷺ إلى الغار فأوحى اللّه إلى حمامتين وحشيّتين فعشّشتا وباضتا في الغار، وأوحى إلى العنكبوت أن تنسج على باب الغار، يقول أحد الشعراء:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم[(١)]

فتبعته قريش حتّىٰ الغار لكنها يئست أن يكون قد دخل إلى هذا الغار.

ووصلﷺ إلى المدينة، وأبى أن يدخلها حتى وصل إليه الإمام عليعليه السلام بالظعينة، فقد كتبﷺ إلى عليعليه السلام أن يرد الودائع، فردّها ولحق بالنبيﷺ، وكان للمدينة يوم مشهود عند دخولهﷺ إليها، وبادر الأنصار يضربون الأكبار بأيديهم وينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع[(٢)]

ودخل ومعه عليعليه السلام، فناخت ناقته بباب بيت أبي أيوبرضي الله عنه الذي هدمه الأُمويون بعد ذلك ولم يبقوا له أثراً ولا عيناً.

وابتدأ الدور الثالث من حياته الشريفة، وحمل عبء إنشاء المجتمع المدني. فهو في مكّة كان يخطّط لترسيخ العقائد، ثم انصرف في المدينة إلى ترسيخ الدولة الإسلاميّة.

فجاهد في سبيل اللّه حقّ جهاده، وذلك أن خاض أربعاً وثمانين غزوة حتى لحقه أذى القتال، فكانﷺ يرجع وبجسده الجراحات، وقدَّم

---

(١) البيت للبوصيري في قصيدة البردة. ديوان البوصيري: ١٦٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٩٤، فتح الباري ٧: ٢٠٤، ٨: ٩٨.

الأضاحي من صحابته وأهل بيته، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾(١). فأدّى رسالة ربّه، وأكمل دينه حتى نزل به الوجع في يوم السبت الحادي والعشرين من صفر. وكانﷺ قبل ذلك قد صعد على المنبر وخطبهم قائلاً: «أيها الناس، أي نبيّ كنت لكم؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني؟ ألم أُجاهد الكفار والمنافقين؟ ألم أُقاتل في سبيل اللّه؟ ألم؟... ألم؟...». ثم قال: «إن ربي أقسم ألّا يفوته ظلم ظالم، فأيّما امرئ منكم له ظلامة عند محمد فليقم إليّ يأخذها، فإن القصاص في دار الدنيا أحبّ إلي من القصاص يوم القيامة على رؤوس الأشهاد».
فقام إليه أحدهم فقال: كنت طالباً منك أن تساعدني في زواج وقد وعدتني بأُوقيّتين. فأشار النبيﷺ إلى الفضل بن العباس فقال: «نَحّله ما وعدته به». وقام له سوادة بن قيس فقال: يا رسول اللّه، لي عندك شيء. قالﷺ: «ما هو؟». قال: كنتَ راجعاً من الطائف، فرفعت القضيب الممشوق لتضرب الناقة فوقعت الضربة على بطني. وأنا أُريد القصاص. فالتفت إلى بلال فقال: «يا بلال، قم إلىٰ المنزل فائتني بالقضيب الممشوق».

فذهب إلى بيت فاطمةعليها السلام، فقال: يا بنت رسول اللّه، أعطيني هذه القطعة. فقالت: «لماذا؟». قال: إن رسول اللّه يريده. قالت: «وماذا يصنع والدي بالقضيب، وليس هذا يوم القضيب؟». قال: أوما علمت أنه يودّع أهل الدين والدنيا. فصاحت: «واغمّاه لغمّك يا أبتاه! من للفقراء والمساكين وابن السبيل يا حبيب اللّه وحبيب القلوب؟».

ثم أخرجته له، فجاء به فتناوله النبيﷺ بيده فأعطاه له وقال: «خذ يا سوادة». فقال: يا رسول الله اكشف لي عن صدرك. فكشف له النبيﷺ.

---

(١) المائدة: ٣.

فقال: يا رسول اللّه، أتأذن لي أن أُقبّله؟ فقال: «افعل». فوضع فمه عليه وقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول اللّه من النار يوم النار. فقالﷺ له: «أتعفو أم تقتص؟». فقال: بل أعفو يا رسول اللّه. فقالﷺ: «اللهم اعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمّد».

ثم أُرجع النبيّﷺ إلى البيت وهو مثقل ويدعو: «ربّ سلّم أُمّة محمّد من النار»، فلمّا أضجعوه على فراشه أقبلت إليه ابنته فاطمة وهي تنادي: «واغمّاه لغمّك يا أبتاه». ثم جلست إلى جانبه ورأسه في حجر أمير المؤمنين؈، يقول أمير المؤمنين؈ مخاطباً إياه: «ولقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت روحك بين صدري ونحري». فقد كان رأسهﷺ بين صدر أمير المؤمنين؈ ونحره، وبين الآونة والأُخرى كان الإمام؈ يأخذ شيئاً من الماء ويمسح به جبين رسول اللّهﷺ وهو يرفع رأسه فيقول: «رفقاً بي ملائكة السماوات، رفقاً بي ملائكة ربي، لمثلها فليعمل العاملون». وكان يقول: «حبيبي جبرئيل، عند الشدائد لا تخذلني»[1].

وخرج رسول اللّهﷺ في اليوم الثاني إلى البقيع، ووقف على أهل البقيع فصاح: «السلام عليكم يا أهل البقيع، لقد جاءت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها». ثم استغفر لهم وقرأ شيئاً من القرآن ورجع. وأخذت العلّة تشتدّ عليه، فصاح: «عليَّ بعلي بن أبي طالب». فأقبل إليه، فسارَّه طويلاً، واستدعى ابنته فاطمة؈، فسارها طويلاً، فبكت وضحكت، فلما سُئلت أجابت: «انّي إذن لبذرة». ولما سُئلت بعد ذلك قالت: «لقد بكيت في الأُولى؛ لأنه نعى إلي نفسه، وضحكت في الثانية؛ لأنه أخبرني أنني أول أهل بيته لحوقاً به».

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٧٣٦ / ١٠٠٤.

حتى إذا اشتدّت الحالة عليه أقبل الحسن والحسين عليهما السلام فوقعا على صدره، فأراد الإمام علي عليه السلام أن يبعدهما عنه؛ لئلا يضايقاه، فقال صلى الله عليه وآله: «**لا، لا يا علي، دعهما أتزوّد منهما ويتزوّدا مني**»[1].

ثم أخذ يضمّهما إليه وهو في آخر لحظات حياته:

أن علىٰ صاحب الموقف الثبات على موقفه

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**وإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عن الذي أوحَينا إليكَ**﴾، أي كادوا لَيزيلونك عن موقفك. فالآية الكريمة تقول له: إن الإنسان موقف، وأنت تُعلّم الناس المبادئ، وأهمّ هذه المبادئ أن الإنسان إذا آمن بقضيّة فلا ينبغي له أن يتزلزل عن موقفه إزاءها. وهؤلاء يحاولون أن يزلزلوك عن موقفك؛ فعليك أن تبقى صامداً عليه.

علي بغير الولاة

ومن تطبيقات هذا المعنى أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حينما وصلت إليه الخلافة جاءه جماعة من الرؤوس البارزة، حتى من شيعته، فطلبوا منه ألّا يغيّر العمال والولاة من قبل عثمان، ولا يحرّكهم الآن، وأن يتركهم حتى يستقرّ الوضع وتأخذ الأُمور نصابها؛ فإنهم إن عرفوا غير مستعدّين للتنازل عن هذه الأمكنة والمناصب التي وصلوا إليها، فهم وصلوا إلى أمكنة ما كانوا يحلمون بها. وأن هؤلاء ليسوا مثل أمير المومنين عليه السلام في نظرتهم للدنيا، فقد وصلوا إلى الكرسي، فملكوا الأموال

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٦٠٢ / ١٢٤٤.

وحازوها، ونالوا الإمارات، فإن شعر أحدهم أنه سوف يُزال عن سلطان فسيخلق ألف مشكلة[1].

وقد يكون هذا الرأي من الوجهة السياسية ممكناً، وله حصة من الصواب، لكن الإمام علياً عليه السلام يتصرّف وفق أحكام الإسلام، وهو عليه السلام إسلام يمشي على الأرض. فقال عليه السلام لهم: **«أمّا طلحة والزبير فسأرىٰ رأيي فيهما، وأمّا معاوية فلا والله لا أراني مستعملاً له ولا مستعيناً به مادام علىٰ حاله: ﴿وَمَا**

---

(١) ومن هؤلاء المغيرة الذي انصرف مغاضباً لمّا رفض الإمام عليه السلام الانصياع خلف أهوائهم في تثبيت معاوية في ملكه، وجعل ينشد:

نصحت عليّاً في ابن هند مقالة ... فرُدَّت فلا يسمع لها الدهرَ ثانيهْ

وقلت له أرسل إليه بعهده ... علىٰ الشام حتىٰ يستقرّ معاويهْ

ويعلم أهلُ الشام أن قد ملَكته ... وأُمُّ ابن هند عند ذلك هاويهْ

فلم يقبل النصح الّذي جئته به ... وكانت له تلك النصيحة كافيهْ

مروج الذهب ٢: ٣٩١.

ويروى أن المغيرة قال لابن عبّاس رضي الله عنه فيما بعد في مجلس معاوية: والله لقد أشرت علىٰ عليٍّ بالنصيحة، فآثر رأيه، ومضىٰ علىٰ غلوائه، فكانت العاقبة عليه لا له. فقال له ابن عبّاس: كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلم بوجوه الرأي ومعاقد الحزم وتصريف الأُمور من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه وعنّف عليه، قال سبحانه: ﴿لا تَجِدُ قَوماً يُؤمِنُونَ بِاللّهِ وَاليَومِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَن حَادَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانَوا آبَاءَهُم أَو أَبنَاءَهَم أَو إِخوَانَهُم أَو عَشِيرَتَهُم﴾ [المجادلة: ٢٢]. ولقد وقفك علىٰ ذكر مبين، وآية متلوّة قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً﴾. وهل كان يسوغ له أن يحكِّم في دماء المسلمين وفيء المؤمنين من ليس بمأمون عنده، ولا موثوق في نفسه؟ هيهات هيهات، هو أعلم بفرض الله وسنّة رسوله من أن يبطن خلاف ما يظهر إلّا للتقيّة، ولات حين تقيّة مع وضوح الحقّ، وثبوت الجنان وكثرة الأنصار، بل يمضي كالسيف المصلت في أمر الله، مؤثراً لطاعة ربّه، والتقوىٰ علىٰ آراء أهل الدنيا. بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠، شرح نهج البلاغة ٦: ٣٠١.

كُنتُ مُـتَّخِذَ المُـضِلِّينَ عَـضُداً ﴾[١]، ولكـن أدعـوه إلى الدخـول فـيما دخـل فـيه المسلمون، فإن أبىٰ حاكمته إلى اللّه »[٢].

فهو عليه السلام يقول لهم: ما المبرر لأن أترك أحداً يعصي اللّـه ويشـرّع فـي مقابله؟ فأنا أحكم باسم القرآن، ولابدّ أن أُطبّق القرآن، وهو يقول: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إلى الَّـذِينَ ظَـلَمُوا فَـتَمَسَّكُمُ النَّـارُ وَمَـا لَكُـمْ مِـنْ دُونِ اللَّـهِ مِـنْ أَوْلِـيَاءَ ثُـمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾[٣]، ويعطيني حدوداً هي أن أُعـطي الأمـر إلى مـن يسـتحقّه، وهؤلاء ليسوا مستحقّين من وجهة نظر الشرع، فكيف تـطلبون مـني أن أدعهم؟

الدرداء ومعاوية

دخل أبو الدرداء يوماً على معاوية فقال له: ما المبرر لك أن تشـرب بآنية الذهب وقد حرّم الإسلام ذلك؟ فقال: أنـا لا أرى بـه بأساً[٤]. فـما المبرّر لعلي أن يترك هذا في عمله؟ يقول أمير المؤمنين: «قد يرىٰ الحوّل القُلّب[٥] وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر اللّه ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين »[٦].

والغريب هنا أن بعض الكتاب لم يفهموا علي بن أبي طـالب عليه السلام، ولا المسألة التي يعالجونها، فراحوا يقولون عنه: إن حياة هذا الرجل حدثت فيها أخطاء كان اللازم عليه ألّا يعملها. ومن ذلك أنه ما كان ينبغي له أن

(١) الكهف: ٥١.
(٢) مروج الذهب ٢: ٣٩١.
(٣) هود: ١١٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٩٢.
(٥) القلّب: البصير بتحويل الأُمور وتقليبها. مختار الصحاح: ١٦٤ ـ حول.
(٦) نهج البلاغة / الخطبة: ٤١.

يسارع إلى عزل ولاة عثمان حتى يستقرّ له الأمر.

وهذه ليست من الأخطاء، إنما هي من الالتزامات والمواقف التي يريدها الشرع؛ لأن الشرع يريد ممّن يحكم باسمه أن يطبّق أوامره ونواهيه. وقد كان بوسع أمير المؤمنين عليه السلام أن يتركهم في أعمالهم، لكن ضميره لا يدعه يتركهم، والتزامه بأحكام اللّه وأوامر القرآن لا يعطيه مجالاً لأن يتصرّف هذا التصرّف. ولذا لم يقبل آراء المقترحين، وقال لهم: ليحدث ما يحدث، فأنا لست صاحب مصلحة، ولا أُريد أن أُحافظ على كرسي أجلس عليه، وإنما أريد أن أُطبق أحكام اللّه في الأرض.

جرير الشاعر

وكانت هذه من القضايا التي سبّبت حرجاً لأمير المؤمنين عليه السلام، ولها نظائر من القضايا كثيرة، فمن هذه القضايا أن الحاكم اليوم مثلاً لو كانت عنده جريدة تخدمه، فتنشر له أخباره يومياً وتبرّر وجوده وتفخّمه وتعظّمه وتدعمه فكرياً، فإنه يلتزمها وإن كانت باطلاً. والشعراء في عصر أمير المومنين عليه السلام كانوا صحفاً سيّارة، فالشاعر يذود ويدافع ويبرّر ويحسّن ويقبّح، وللشاعر منزلة كبيرة، لكن إذا ارتكب الشاعر العصيان وشرب الخمرة، فما المبرّر لعلي عليه السلام ألّا يقيم عليه الحد؟ وهذا ما حدث له عليه السلام مع جرير الشاعر المعروف، فقد كان يشرب الخمرة، وفي الوقت نفسه يريد عطاءً من أمير المؤمنين عليه السلام من الحق الشرعي. والحق الشرعي لا يمكن أن يعطيه الإمام عليه السلام لمن يصرفه بالحرام، وهذا ما يذهب إليه المسلمون كلهم؛ ففي ذلك إعانة على الإثم، فلم يكن الإمام مستعداً لأن

يعطيه، فالتحق بمعاوية[١]. في حين أن غير علي بن أبي طالب يبحث عن ألف طريق لتبرير مثل هذه العمل.

ابن هرمة والخمر

لقد كان ابن هرمة شاعراً أديباً، وقلماً من الأقلام ذات المنفعة، وكان صديقاً للمنصور، فلما وفد على المنصور سأله: ألك حاجة؟ قال: بلى، حاجتي أن توعز إلى الوالي ألّا يلاحقني في الخمرة بأن يقيم عليّ الحدّ فيها؛ فإني لا أصبر عليها. فقال المنصور: لا أستطيع أن أفعل ذلك أمام الناس وأُعطل حداً من حدود اللّه، ولكن اذهب وسوف ترى.

ثم بعث المنصور إلى الوالي فقال له: إذا جاءك من يشهد أن ابن هرمة شرب الخمر، فاجلد ابن هرمة الحدّ ثمانين سوطاً، واجلد من شهد عليه مئة سوط. فراح ابن هرمة يسكر في الشارع ويصيح: من يشتري ثمانين بمئة؟ فلم يتجرّأ عليه أحد[٢].

وهذا لون من التحايل على حدود اللّه. ولكن الضمير الذي حمل اللّه في داخله لا يمكن أن يتساهل في موقف فيه إساءة للدين ولو بقيد شعرة.

فالآية تقول للنبيﷺ: أنت موقفٌ، فلا يُزِلك هؤلاء عن موقفك، وأنت تحمل للناس التعليم، وهذا التعليم يدرّبهم على المبادئ الكريمة، فلا تتغيّر إزاء ذلك.

---

(١) حوار مع الشيعة (الجبري): ٢٠٣، السيف والسقيفة (الورداني): ١٢٦ عن بعض الكتاب، وانظر الدولة الأُموية (الخضري) ١: ٢٨٨.

(٢) جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٣١١، تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٣.

في الافتراء على الله ورسوله ﷺ

ثم قالت الآية: ﴿لتَفتَريَ علينا غَيرَهُ﴾، وهـذه أشـدّ مـن سـابقتها، فـهم يقولون له: كما جعلتَ مكّة بلداً حراماً آمناً، فاجعل وادينا مثلها. فـاللّه حرم فيها سفك الدم واللجاج والعناد أثناء الحجّ، فقل في وادينا: إن اللّه قال فيه: إنه محرم، ليعرف العرب فضلنا، أي انسب إلى الوحي مـا ليس منه. فأجابهم النبي ﷺ بأن هذا لا يمكن أن يكون أبداً. وهذه أيضاً من النقاط الخطرة، فالكل يلاحظ في تاريخ الأُمم التي حكمت في أُمّتنا أن الحاكم يبحث عن جماعة يبرّرون وجوده ويثلبون أعداءه، فمثلاً يدخل أحدهم ممن يعتبرونه من الفقهاء على الحجّاج، والحجّاج معروف في أن وسيلته للحكم هي سفك الدم ونشـر الرعب والإرهـاب، فـيبرّر له هـذا «الفقيه» عمله بقوله: إن اللّه إذا استرعى عبداً رعيّة كـتب له الحسـنات وأسقط عنه السيئات[1]!

فهذا يقول له: إن اللّه هو الذي ولّاك على هؤلاء هذا أوّلاً، وثانياً: إن اللّه سيكتب لك الحسنة ويمحو عنك السيئة. فلماذا هذا؟

قد يقول قائل: هل إن هذا التيّار موجود فعلاً عند المذاهب الإسلاميّة؟

فأقول: نعم، هذا صحيح، إنه موجود مع الأسف، ويعزّ عليّ أن اُصرّح بهذا المعنى. فهناك مَن حكم، ولمجرد أنه حكم صار مقدّساً. وأكبر دليل على ذلك أنهم يطلقون عليه لقب الخليفة، كالوليد ويزيد بن الوليد[2]، ثم

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ١٧: ٦١، فتح الباري ١٣: ١٠١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٣٠١، وفيها ردّ الزهري لهذا الحديث.

(٢) قد مرّ ما كان من أفعال هؤلاء وأمثالهم في ج٣ ص٩٢ ـ ٩٣ مـن مـوسوعة مـحاضرات

يفترضون طاعته، ويروون أن من يبيت ليلة وليس في عنقه بيعة لهم ثم يموت فإن ميتته ميتة جاهلية[١]. مع أنه إنسان كلّه ثغرات وعيوب، فكيف يُطلب منا أن نتعبد ونتقرب إلى اللّه بإطاعته[٢]؟

يروي البخاري في الصحيح عن عبد اللّه بن عمر أنه لما حدثت واقعة الحرة في المدينة جمع أولاده وأهله فقال لهم: إذا بايع الناس أحداً ثم غدروا به فقد غدروا باللّه، وللغادر لواء يُرفع يوم القيامة. فتمسّكوا ببيعة يزيد[٣].

وهذا الذي يرى أن من ينكث بيعة يزيد يكون غادراً يقال له: ما المبرّر لك في طاعة هذا الرجل؟ إنه كان يجلس على منبر المسلمين ويقول:

أقول لصحبٍ ضمّت الكأسُ شَملَهم ... وداعي صباباتِ الهوى يَترنَّمُ

خُذُوا بنصيبٍ من نعيمٍ ولذَّةٍ ... فكلٌّ وإن طالَ المَدى يَتَصَّرمُ[٤]

كان هكذا في الخمرة، أضف إلى لعبه بالقرود والفهود[٥]، ومع ذلك يرى ابن عمر التمسّك بطاعته، والمبرّر هو أن يزيد صار حاكماً. بل الأكثر من ذلك أن هناك حملات على الذي ينتقد واحداً ممّن حكم. وأقولها ببالغ

الوائلي.

(١) انظر: صحيح مسلم ٦: ٢٠ – ٢٢، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٢: ١٥٨ – ١٥٩ / ٨، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ٢٢٩، التمهيد: ١٥٢.

(٢) انظر محاضرة (موقف الإسلام من الجور) في ج٣ ص ٨٥ ـ ١٠١ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٣) صحيح البخاري ٨: ٩٩، وانظر صحيح مسلم ٦: ٢٠ – ٢٢، قريب منه.

(٤) جواهر المطالب ٢: ٣٠١.

(٥) انظر: شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٣٣، البداية والنهاية ٨: ٢٣٩، النزاع والتخاصم (المقريزي): ٥٦.

الأسف: إن مثل هذا الفكر لا يطارَد وإنما يطارَد من يتمسّك بقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَرْكَنُوا إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾[١].

فمثل هؤلاء ينسبون إلى اللّه ما لم يقل وما لا يريد، من مثل «إن اللّه إذا استرعى عبداً الخلافة كتب له الحسنات ومحا عنه السيئات»[٢]. وفي المقابل يحاولون أن يحطّموا أولياءه، فيبتكروا حديثاً ينسبونه للنبيﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فمثلاً ينبري أحدهم ليقول: قال النبي: إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء[٣].

من هم آل أبي طالب الذين هم ليسوا بأولياء للرسولﷺ؟ أجعفر ذو الجناحين الشهيد الذي لفعته دماء الشهادة، الطهر الطاهر الذي مُلئ إيماناً من قرن إلى قدم، أم علي بن أبي طالب إمام المتقين، أم سيد العرب عقيل بما له من مزايا ومكانة، أم جمانة بنت أبي طالب المؤمنة الصالحة[٤]؟ أهؤلاء ليسوا أولياء للّه! فإن لم يكونوا كذلك فمن هو ولي

(١) هود: ١١٣.

(٢) فتح الباري ١٣: ١٠١، شرح نهج البلاغة ١٧: ٦١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٣٠١، وفيها أن الوليد بن عبد الملك سأل ابن شهاب عنه فكذّبه.

(٣) صحيح البخاري ٧: ٧٣، وفيه: آل أبي [ ]، قال عمرو: في كتاب محمّد بن جعفر بياض، صحيح مسلم ١: ١٣٦، وفيه: آل أبي، يعني فلاناً، لكن يؤيد أن المقصودين هم آل أبي طالب، ما في فتح الباري ١٠: ٣٥٢، شرح نهج البلاغة ٤: ٦٤ عن البخاري ومسلم، ١٢: ٨٨، صحيح مسلم بشرح النووي ٣: ٨٧، قال النووي بعده: الكناية بقوله: «يعني فلاناً» هي من بعض الرواة، خشي أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة.

(٤) أم أُمّ هانئ التي أجار رسول اللّهﷺ من أجارت وهما أخوا زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وكانا ضمن من هرب عند الفتح، وذلك بقولهﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أُمّ هاني». الموطأ ١: ١٥٢، مسند أحمد ٦: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٢٣، ٤٢٤، ٥٢٥، صحيح

اللّه؟ سمرة بن جندب[١]؟

والمصيبة أن الرواية تقرؤها في كتاب يعتبر الثاني بعد القرآن، فلماذا ياتُرى يوجد مثل هذا اللون من النقل الذي يحزّ في النفس؟ ومعنى هذا أنك ترى مثل هذا الرافد في حضارتنا الفكرية الدينية يفتري على اللّه كذباً.

فالآية تخاطب النبيﷺ باعتباره عنوان الخطاب، وإلّا فالأُمة هي المعنيّة بالخطاب. فمن يفترِ على اللّه تهددْه الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾[٢]، وقال: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَتَعْلَمُونَ﴾[٣].

فالآية مقام البحث تقول للنبيﷺ: إن هؤلاء يحاولون أن يزعزعوك ويقرّبوك إليهم كي تميل إلى اختراع شيء وتنسبه إلى اللّه تعالى، وهذا افتراء على وحي السماء.

المبحث الرابع: في اتخاذ الكافرين أولياء

ثم قالت له: وإنك لو فعلت ذلك لهم ﴿إذاً لاتَّخذُوكَ خَليلاً﴾. فالنبيﷺ له خلّة مع اللّه تعالى، وهو تعالى ناجى الأنبياء عليهم السلام كما في قوله لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[٤]. فالآية الكريمة تقول لهﷺ: إنك لو

البخاري ٧: ١١٠.

(١) الذي يروى أنه قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص في البصرة، ولم يفرّق ويميّز بين خارجي ومسلم. وحينما اعتُرض عليه في قتل المسلمين قال: الخارجي يعجّل به إلى النار، والمسلم يعجّل به إلى الجنة. انظر: تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦.

(٢) يونس: ٥٩.

(٣) البقرة: ٨٠.

(٤) طه: ١٣.

أطعت هؤلاء صرت خليلاً لهم ولم تعد خليل اللّه، بل تنفصل عن ولاية اللّه إلى ولاية هؤلاء الظلمة. وهذا في الحقيقة تهديد مرعب.

الحجّاج والأعرابي

ومما له صلة بهذه المعنى حادثة حصلت للحجاج، ذلك أنه كان في الحج ذات يوم، وكان الزحام شديداً على الكعبة، فلم يستطع الطواف، فوضعوا له طنفسة في طرف من أطراف البيت واتّكأ عليها. وفي هذه الأثناء مرّ أعرابي يلبّي بصوت عال ملفت للنظر. فقال الحجّاج: عليّ به. فلما جيء به سأله: ممن؟ قال: من بطن أُمي. قال الحجّاج: أعني من أين استُقصي أثرك؟ قال: من ظهر أبي. قال الحجّاج: بل أعني من أين جئت؟ قال: من الطائف. قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ (وهو أخو الحجّاج، وكان والياً على الطائف). قال: تركته عظيماً جسيماً خرّاجاً ولّاجاً، لبّاساً حريراً، آكلاً شارباً، يلعب بأموال عباد اللّه. قال الحجّاج: أنا لا أسألك عن سيرته الذاتية، وإنما أسأل عن سيرته الاجتماعيّة مع الناس. قال الأعرابي: تركته ظلوماً غشوماً، آمراً بالمنكر تاركاً للمعروف، عاصياً للّه، مطيعاً للناس. قال: أتقول ذلك وأنت تعلم موضعه مني؟ قال: بلى، أنا زائر لنبي اللّه ﷺ، ووافد على بيت اللّه، أفتراه بمكانة منك أعزّ مني بمكانتي من اللّه ونبيّه؟

فسكت الحجّاج، وخرج الرجل من بين الصفوف دون أن يشعر به أحد، فتبعه طاووس الذي كان جالساً في المجلس، فقال له الأعرابي: ما تريد؟ قال: إن موقفك هذا أعجبني، وأحببت أن أنتفع بصحبتك. فقال الأعرابي: أنت صاحب الوسادة؟ وكان قد ثنيت له وسادة يجلس عليها جنب الحجّاج. قال: بلى، هذا رجل قوي، وكما طلبك طلبني. فقال: أما

كان من ورعك ما يردعك عن الاستقرار بمجلسه؟ ثم قال: وإنك تطلب مني الصحبة؟ قال طاووس: بلى. قال: لا، إن لي صاحباً يغار علي، ولا أُريد أن أترك صحبته[1].

فالآية تقول للنبي ﷺ: إن هؤلاء لو ملت إليهم لاتّخذوك خليلاً ولن تكون حينها حبيباً للّه. وقد كان أبو الزهراء ﷺ حبيب اللّه حقاً، فقد وقف في الليالي المظلمة حتى انتفخ الساق وورم القدم ونزل عليه قوله تعالى: ﴿**طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[2]. فقال ﷺ: «**حبيبي أفلا أكون عبداً شكوراً؟**»[3].

هذا هو خط آل محمد ﷺ، إذا جنّ عليهم الليل تجدهم ذائبين باللّه عز وجل. فهكذا كان رسول اللّه ﷺ، وهكذا كان خليله وأخوه وصفيه علي بن أبي طالب عليه السلام. يقول حبة العرني: بت عنده ليلة فرأيته عند منتصف الليل شبيه من طار عقله، يتلمس الحيطان ويقول: «**ربي ليت شعري أفي غفلات مُعرض أنت عني، أم ناظر إليّ؟ ما لي كلّما طال عمري كثرت خطاياي؟**». ولم يهدأ إلى الصباح[4].

---

(١) جمهرة خطب العرب ٣: ٣٣١ ـ ٣٣٢، ولم ينقل حديث طاووس معه.

(٢) طه: ١ ـ ٢.

(٣) الكافي ٢: ٦/٩٥، مسند أحمد ٤: ٢٥١، وليس فيهما: حبيبي، فالحديث فيهما خطاب منه ﷺ لمن سأله: لم هذا، وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

(٤) لم نعثر عليه عن أمير المؤمنين عليه السلام، وقريب منه ما يرويه طاووس عن السجاد عليه السلام، انظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩١، المزار (المشهدي): ١٤١ ـ ١٤٢، وسيذكره المحاضر فيما سيأتي، انظر محاضرة (قبسات من حياة الإمام السجاد عليه السلام).

من مظاهر تعطيل الحدود

ثم قال عليه السلام «**فتُقام المُعَطَّلة من حدودك**»، وهذه الحدود المعطّلة خلقت له مشكلة من أول أيام خلافته، وكم من الحدود كان معطّلاً! كما هو الحال مع المغيرة بن شعبة الذي عطّل عنه الحد، ودُرِئ عنه بشكل أو بآخر. ولم يتمكّن عليه السلام أن يغير من الواقع شيئاً؛ لأن تغيير الواقع يحتاج إلى وقت طويل، وإلّا فإن المغيرة مثلاً كان نصب عينيه، لكن الخليفة الثاني هو الذي درأ عنه الحد[1]، والخليفة الثاني له منهجه، ومن الصعب على الإمام عليه السلام أن يغيّر المنهج بهذه البساطة التي نتصوّرها.

وهناك الكثير من المسائل التي أبقاها كما هي، فقد كتب إلى قضاته: «**اقضوا كما كنتم تقضون؛ فإني أكره الاختلاف، حتى تكون للناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي**»[2].

فهو عليه السلام يقول لهم: أنا صاحب منهج، ولا أستطيع أن أُنفذ ما أُريد إلّا أن أحمل الناس على منهجي، فأنا أحكم شعباً، ولا أُريد أن أحكمه بخلاف إرادته وإنما أُريد أولاً أن أطوّعه وأجعله يرتفع إلى مستوى الشعور بأن رأيي هو الأصوب، وأخلق عنده رأياً عامّاً موالياً لي، وعند ذاك أُنفذ مبادئي.

---

(١) المسترشد في الإمامة: ٢٢٣، الاحتجاج ١: ٤١٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ٥٦ / ٣، شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٣٧ ـ ٢٣٨، ٢٠: ٢٣، كنز العمّال ٥: ٤٥٢ / ١٣٥٨٩، ٧: ٢٢ / ١٧٧٧٦، الإصابة ٣: ٣٠٤.

(٢) تهذيب الأحكام ٩: ٢٥٩ / ٩٧٠، صحيح البخاري ٤: ٢٠٨ ـ ٢٠٩، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٣٢٩ / ٢٠٦٧٧، الإحكام (الآمدي) ٤: ٩، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢، ١٤: ٢٩، ١٩: ١٦١.

عبيد الله بن عمر

ومن الحدود المعطلة ما كان يستحقّه عبيد اللّه بن الخليفة الثاني الذي قتل الهرمزان وشخصاً آخر في المسجد انتقاماً لقتل أبيه على يد رجل فارسي[١]. ولم يكن للهرمزان ذنب سوى أن أحد أبناء جنسه قتل الخليفة، في حين أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[٢]. ولذلك لجأ عبيد اللّه بن عمر بن الخطاب إلى معاوية أوّل مجيء الإمام عليه السلام إلى الخلافة[٣].

وهناك من الأموال ماكان يعاقَب عليه بقطع اليد؛ لأنها سرقت من بيت المال، وبُني بها البيوت، فراح يسترجعها وله في ذلك قوله المعروف: **«واللّه لو وجدته قد تُزُوِّج به النساء ومُلِك به الإماء لرددته؛ فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»**[٤]. ولذا التحق الكثير من المتضرّرين بمعاوية، وكلّف هذا المنهج الإمام عليه السلام ثمناً غالياً.

من مظاهر عدل علي عليه السلام

ثم قال عليه السلام: **«ويأمن الضعيف من عبادك»**، هذا الضعيف المسحوق الذي يُستغلّ ويُتاجر باسمه، وتسحق آدميّته لا بد أن يأمن في دولة العدل. وقد رأيناه عليه السلام حينما انتهى له الأمر كيف كان يحمل مسؤوليّة الإنسان الذي

---

(١) السنن الكبرىٰ ٨: ٦١، وذكر فيه أن عبيد اللّه احتج بأنه رأىٰ الهرمزان يدفع أبا لؤلؤة لقتل أبيه، فتح الباري ٦: ١٨٩، شرح معاني الآثار (ابن سلمة) ٣: ١٩٤، شرح نهج البلاغة ٣: ٥٩، ١٠١.

(٢) الأنعام: ١٦٤.

(٣) شرح الأخبار ٢: ١٣ / ٤٠١، بحار الأنوار ٣٠: ٣٧٣، الطبقات الكبرىٰ ٥: ١٧، شرح نهج البلاغة ٣: ١٠١.

(٤) نهج البلاغة / الكلام: ١٥.

يبعد عنه مئات الأميال، يقول في كتابه لعثمان بن حنيف: «واللّه لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفىٰ هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثىٰ؟ »(١).

وكان عليه السلام كثيراً ما تعجبه أبيات حاتم بن عبد اللّه الطائي:

أيـا ابـنةَ عـبد اللـه يـا أُمَّ مـالكٍ ... ويا ابنةَ ذي البُردَين والأسدِ الوردِ
إذا مـا صـنعتِ الزادَ فـالتمسي لنـا ... أكـيلاً فـإني لستُ آكـلُه وحـدي
وحسـبُك داءً أن تـبيتَ بـبِطنةٍ ... وحـولَك أكـبادٌ تـحِنُّ إلى القِدِّ(٢)

وانتهى به الأمر إلى أن يبيت طاوياً ثلاثة أيام، فنزلت سورة بكاملها ترفع عقيرتها آناء الليل وأطراف النهار: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾(٣).

يقول الشاعر:

جاد بـالقرص والطّوى مِـلءُ جَـنبيـ ... ـه وعـافَ الطـعامَ وهـو سـغوبُ
فأعـادَ القـرصَ المـنيرَ عـليه الـ ... ـقرصَ والمُـقرضُ الكـرامَ كسـوبُ(٤)

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٢) ديوان حاتم الطائي: ٤٣، ولم ينقل البيت الثالث.

(٣) الدهر: ٨ ـ ٩، وانظر في سبب نزولها: أسباب نزول الآيات (الواحدي): ٢٩٦، شواهد التنزيل ٢: ٤٠٣، ٤٠٥ ـ ٤٠٦، ٤٠٨، زاد المسير ٨: ١٤٥، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٣٠، فتح القدير شرح الجامع الصغير ٥: ٣٤٨ ـ ٣٤٩، وانظر محاولات نفيها عنه عليه السلام والرد علىٰ ذلك في محاضرة (المودة في القربىٰ) من ج٦ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٩: ١٠١.

لقد كان هذا الرجل العظيم يطيل النظر إلى الرغيف ويندُّ ذهنه إلى كبد جائع، ونفس تبيت لا تجد طعاماً، يخرج عليه السلام إلى السوق، فلا يشتري من الثياب إلّا ما كان بدرهم أو بدرهمين، أما ما بلغ الثلاثة دراهم فيعطيه لقنبر، فقد روي أن أمير المؤمنين عليه السلام أتى سوق الكرابيس، فإذا هو برجل وسيم فقال: «يا هذا عندك ثوبان بخمسة دراهم؟». فوثب الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، عندي حاجتك.

فلما رأىٰ أمير المؤمنين عليه السلام أنه عرفه مضى عنه، حتى انتهى إلى غلام، فقال له: «يا غلام عندك ثوبان بخمسة دراهم؟». قال: نعم، عندي ثوبان بخمسة دراهم. فأخذ الثوبين، وكان أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين، فقال: «يا قنبر خذ الذي بثلاثة دراهم». فقال له: يا سيّدي أنت أولى به مني؛ تصعد المنبر وتخطب الناس. فقال عليه السلام: «وأنت شاب ولك شره الشباب، وأنا استحي من ربي أن أتفضّل عليك؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ألبسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تأكلون».

فلما لبس أمير المؤمنين عليه السلام القميص مدّ يده في ردن الثوب فإذا هو يفضل عن أصابعه، فقال للغلام: «اقطع هذا الفضل». فقطعه الغلام له، ثم قال: ياسيدي، هلمّ أكفّه لك. فقال له الإمام عليه السلام: «دعه كما هو؛ فإن الأمر أسرع من ذلك»[1].

في أن علي عليه السلام أول من أسلم وأناب

ثم قال عليه السلام: «**اللهم إني أول من أناب وأسلم وأجاب، لم يسبقني أحد بالصلاة إلا رسول الله صلى الله عليه وآله**».

---

(١) روضة الواعظين: ١٠٧.

فهو عليه السلام يريد أن يقول: إن الذي يشفع لي بصحّة نيّتي أنني أول من ردّد شعار «**لا إله إلّا الله**».

وقد كان ذلك حقاً، فقد بُعث النبي صلى الله عليه وآله وكان أوّلَ من صدّقه علي عليه السلام هو وخديجة عليها السلام؛ ولذلك كانا (سلام الله عليهما) رفيقي رسول اللّـه صلى الله عليه وآله في المحنة وأنيسيه في الشدّة، فقد خرج يوماً وقد رمته قريش بالحجارة حتى أدمته وأبعدته إلى وادٍ من الأودية وبقي حتى الغروب، فجاءت خديجة إلى الإمام علي عليه السلام[1]، فقالت له: منذ الصباح ما رأيت رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وقد أخرجه أعداء الله، وأنا حاملة معي شيئاً من الطعام، فاصحبني لنبحث عنه. وأقبلت تنادي: أين أنت يا رسول الله، أين أنت يا ثمال اليتامى، وأخذت تجول في الوادي وعلي عليه السلام معها واضعاً يده على قائم سيفه، حتى وجداه طريحاً قد أخذته الحجارة، فمسحا عنه الدم والتراب، وأتيا به صلى الله عليه وآله، وهو يتّكئ على أمير المؤمنين وخديجة عليهما السلام.

وهذا الموقف العظيم من هذه المرأة السيّدة الجليلة يُذكّرني بموقف حفيدتها يوم الطفّ.

علي والزكاة

وقد قيل في السر والعلانية: إن ما أُعطي من الزكاة يكون علانية لئلا يُتَّهم المسلم بترك الحقّ الواجب، أما التطوّع فيكون بينه وبين ربه؛ وذلك لأسباب، منها أن يحفظ وجه السائل، ومنها أنه يجعل الأمر خالصاً لله. دخل أحدهم على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له عليه السلام: «ما عندك؟». فقال:

---

(١) في بعض المصادر أنه عليه السلام هو الذي جاءها.

حاجة. فقال له عليه السلام: «**اكتب حاجتك على الأرض وانصرف، فإني أكره أن أرى ذلة السؤال في وجهك**»[١].

فليس من المستغرب إذن أن تجد أمير المؤمنين عليه السلام يعيش غريباً في عصره؛ لأن هذه الروح الشفّافة لابدّ أن تعيش غريبة بين أُولئك الأجلاف. ولا يقع في تصوّرك أن محبّيه يغالون فيه؛ لأن لديه من القضايا والمواقف في شتى الحقول الاقتصادية والاجتماعية الكثير مما سبق به عصره. ومن الظلم للإنسانية وللعطاء أن يعامل هذا الرجل كما يعامل غيره، يقول أحد الشعراء:

ما عدت ألحو عاشقيك بما أتَوا ... وصفاتُك الغَرَّاءُ حورٌ عينُ

آلاؤك البيضاءُ طوَّقَتِ الدُّنا ... فلها على ذِمَمِ الزَّمانِ ديونُ

وبحيثُ تَحتَشِدُ الورودُ فَرَاشَةٌ ... وبحيثُ ليلى يوجدُ المجنونُ[٢]

زهد علي عليه السلام

فمن كان من الناس يريد أن يعيش كما يعيش المَلَك، فيتخلّى عن اللذّة في الطعام والشراب وغيره، فهو ذو تفكير طوباوي بعيد عن الواقع، وهو لون من الإغراق غير الصحيح في تفسير بعض الأشياء.

وقد يقول قائل: لكن لماذا كان أمير المؤمنين عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله هكذا؟

فنقول: إن أمير المؤمنين عليه السلام كان خليفة مقتدى به، يريد أن يمزج نفسه بأقلّ فرد من الرعيّة؛ كيلا يشعر أي فرد من الرعية بالنقص، أو أنه معتدى

(١) البداية والنهاية ٨: ١٠، جواهر المطالب ٢: ١٢٩، ومثله في الأمالي (الصدوق): ٣٤٨، بحار الأنوار ٤١: ٣٤ / ٧.
(٢) ديوان المحاضر: ١٩.

على حقوقه، أو أن هذا الترف وهذه الرفاهية اللذين يعيشهما الخليفة هما على حساب رغيفه، وإلّا فليس معنى ذلك أن اللذائذ محرّمة. أتى أحدهم أمير المؤمنين عليه السلام يوم النوروز بحلوى الفالوذج، فأخذ منها بكل عفوية وقال: «نورزونا كلّ يوم»[1].

وله قوله المشهور: «واللّه لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى؟»[2].

فالمسألة إذن مسألة تأسٍّ، أما أن تَفترِض أني إنسان يجب أن يترفّع عن إشباع الغرائز مطلقاً، وأن أُحرَم من لذائذ الحياة التي أرادها اللّه للعباد فلا. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «البس وتجمّل؛ لأن اللّه جميل يحب الجمال، وليكن ذلك من حلال»[3].

مقابلة الإساءة بالإحسان

أي أنه إذا أساء أحد لغيره فعليه ألّا يقابل إساءته بمثلها، جيء بابن لقيس ابن عاصم المنقري مقتولاً، وكان في ريعان الشباب، وله من العمر عشرون عاماً، وقد حملوه لأبيه مع قاتله وكان أحد أبناء عشيرته، فقال لهم: إن كان هذا أخطأ مرّة بقتل واحد من العشيرة فلا أُخطئ مرّتين

---

(١) تاريخ بغداد ١٣: ٣٢٧، تهذيب الكمال ٢٩: ٤٢٣، سير أعلام النبلاء ٦: ٣٩٥.

(٢) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٣) الكافي ٦: ٤٤٢ / ٧، وسائل الشيعة ٥: ٦ / ٥٧٤١.

فأقتله. ثم أطلق سراحه، ونادى أحد إخوان القاتل وأمره أن يحمل إلى أُمّ المقتول ألفاً من الإبل، ثم أنشأ يقول:

أقــولُ للــنفسِ تأسـاءً وتسـليةً إحـدى يـديَّ أصـابتني ولم تُـرِدِ

كـلاهما خَـلفٌ عـن فـقدِ صـاحبِه هذا أخي حينَ أدعوهُ وذَا ولدي[1]

فلم يقابل إساءته بالمثل، وإنما قابلها بالإحسان.

ونجد كثيراً من هذا المعنى في سيرة أهل البيت عليهم السلام، فقد كانوا يقابلون الإساءة بـالإحسان[2]، وهـذا الأُسـلوب النـفسي له دخـل عـجيب فـي الاستيلاء على النفوس، فمن يسئ لك وتحسن إليه ويتكرر ذلك مـنك، فسوف تترك في نفسه أثراً كـبيراً، خـصوصاً إذا كـنت تسـتطيع مـقابلة الإساءة بالمثل.

الحلم عند الاعتداء والصبر عند الابتلاء

ويكاد هذا الرأي يكون مشابهاً لما قبله؛ فهؤلاء كلما اشتدّ عليهم الأمر ازداد تعلّقهم بالله. وتحضرني هنا حادثة ظريفة جرت لشقيق البلخي مع إبراهيم بن أدهم، وكلاهما من الصوفية، فقد جاء شقيق مـتنكّراً ودخـل على إبراهيم بن أدهم، فسلم عليه، فقال له ابن أدهم: ممن الرجل؟ قال: من أهل بلخ. قال: هل تعرف شقيقاً البلخي؟ قال: نعم. قال له: كيف هي طريقة أصحابه؟ قال: إذا رُزقوا شكروا، وإذا مُنعوا صـبروا. فـقال: هـذه

(١) خزانة الأدب ٢: ٣١١ ـ ٣١٢، ديوان الحماسة ١: ٦٦.

(٢) وقد مرّ الكثير من هذا سيما فـي المـحاضرات التـي تـناولت السـيرة العـطرة للـرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام وخصوصاً سيرة الإمام السجاد عليه السلام.

طريقة كلابنا. فقال شقيق: إذن ما طريقة الناس الكاملين؟ قال: إذا أُعطوا آثروا، وإذا مُنعوا شكروا[١].

ملاقاة شقيق البلخي للإمام الكاظم عليه السلام

وكانت لشقيق قصة طويلة مع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، يقول شقيق: خرجت قاصداً الحج، فبلغت مكاناً رأيت الحجّاج نازلين فيه، ورأيت رجلاً ناحل الجسم تكاد تُميله الريح عندما تمرّ عليه، وعليه ملابس مرقّعة قصيرة، وعليه علامات السجود، فظننت أنه من هؤلاء الذين يصاحبون القوافل ويرتزقون منها إذ ليس عندهم ما يوصلهم.

ثم سرنا ولم ألتفت إليه، حتى وصلنا إلى منزل فَيد[٢]، فنظرت إلى كثيب أحمر، فرأيت هذا الرجل يصلّي، وكانت صلاته شبيهة بصلاة العارفين، فلما فرغ رفع رأسه إلى السماء فقال: «**أنت ربي إذا ظمئت من الماء، وقوتي إذا أردت الطعام، إلهي وسيدي مالي سواها فلا تعدمنيها**». وكانت إلى جانبه بئر لا يوصل إلى مائها إلّا برشاء، فرأيت ماءها يرتفع، فأنزل الرجل ركوة فأخذ بها ماء، ثم راح يضع فيه الرمل ويشرب، فدنوت منه، فقلت: بالذي أسقط عنك ملال التعب، ومنحك لذيذ الرغد، إلّا ما أعطيتني مما عندك فإني جائع. فقال: «**اشرب واكتم واشكر نعمة اللّه عليك**». فشربت وإذا به سويق وسكر من ألذّ ما شربت في حياتي[٣].

---

(١) المستطرف في كل مستظرف ١: ١٦٠.

(٢) فيد ـ بفتح أوّله ـ : فلاة في الأرض بين أسد وطيّئ في الجاهلية، بشرقي سلمى (أحد جبلي طيّئ). معجم ما استعجم ٣: ١٠٣٣ ـ فيد.

(٣) نوادر المعجزات: ١٥٦ ـ ١٥٩ / ٢، مناقب أهل البيت عليهم السلام (الشرواني): ٢٧٦، ينابيع المودّة ٣: ١١٩، وليس فيها قوله: بالذي أسقط عنك ملاك التعب... إلىٰ آخره، بل هي عبارة

وهذا المعنى يأخذه الشاعر فيقول:

سل شقيق البلخي عنه وما عا ... ين منه وما الذي كان أبصرْ
قال لما حججتُ عاينتُ شخصاً ... ناحلَ الجسمِ شاحبَ اللون أصفرْ
يضعُ الرملَ في الإناء ويشربْـ ... ـهُ فناديتُه وعقلي مُحَيَّرْ
اسقني شربةً فناولَني منـ ... ـهُ فعاينتُه سَويقاً وسكرْ
فسألتُ الحجيجَ مَن يك هذا ... قيل هذا الإمام موسى بن جعفرْ[1]

سأل الرشيد أحد السجانين عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: كيف حال هذا المسجون عندك؟ فقال: واللّه ما اطَّلعت عليه إلّا رأيته قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً. فقال الرشيد: ويحك إنه من رهبان الليل من بني هاشم[2].

نهج البلاغة

ولذا حينما يناقش ابن أبي الحديد الذين يقولون: إن (نهج البلاغة) ليس لعلي عليه السلام؛ لأن فيه أشياء لا تتناسب مع عصره عليه السلام ـ وهذا الموضوع طويل ويحتاج إلى تفصيل، وهو ليس موضوع محاضرتنا الآن ـ فإنه يقول: إما أن نقول: إن (نهج البلاغة) بأجمعه ليس لعلي عليه السلام وهذا باطل؛ لأن القائلين بذلك ينسبونه إلى الشريف الرضي الذي عاش في القرن الرابع فيما يشتمل النهج على خطب مرويّة في القرن الثاني أو قبله، وإما

تنسب لحماد بن حبيب الكوفي حينما ضلّ طريقة واستعان بالسجاد عليه السلام ليهديه الطريق، انظر: فتح الأبواب: ٢٤٥ ـ ٢٤٨، بحار الأنوار ٤٦: ٧٧ ـ ٧٨ / ٧٣.

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٢٠، وقد نقل القصة والأبيات.

(٢) قريب منه في الإرشاد ٢: ٢٤٠، ولم يذكر قول الرشيد.

إن نقول: إن بعض النهج ليس لعلي عليه السلام، والبعض الآخر منحول ـ أي منسوب لعلي عليه السلام ـ فنأتي بهذا القدر المتيقّن أنه لأمير المؤمنين عليه السلام ونقيس عليه هذا الذي يُشكك فيه، ونرى هل إنه بالأسلوب الأدبي والديباجة والإيقاع أنفسها، أو تختلف عنه[1]؟

(١) شرح نهج البلاغة ١٠: ١٢٧ ـ ١٢٩، ونصّ كلامه فيه: «إن كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إن كثيراً من (نهج البلاغة) كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن وغيره.

وهؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم، فضلّوا عن النهج الواضح، وركبوا بنيات الطريق ضلالاً وقلّة معرفة بأساليب الكلام. وأنا أُوضح لك بكلام مختصر مافي هذا الخاطر من الغلط فأقول: لا يخلو إما أن يكون كل (نهج البلاغة) مصنوعاً منحولاً، أو بعضه؛ والأول باطل بالضرورة؛ لأنا نعلم بالتواتر صحّة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقل المحدثون كلهم أو جلهم، والمؤرخون كثيراً منه، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك. والثاني يدلّ على ما قلناه؛ لأن من قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفاً من علم البيان، وصار له ذوق في هذا الباب، لابدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولّد. وإذا وقف على كراس واحد يتضمّن كلاماً لجماعة من الخطباء، أو لاثنين منهم فقط، فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين، ويميّز بين الطريقتين. ألا ترى أنا مع معرفتنا بالشعر ونقده لو تصفّحنا ديوان أبي تمام، فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونفسَه وطريقته ومذهبه في القريض؟ ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه؛ لمباينتها لمذهبه في الشعر، وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس شيئاً كثيراً؛ لما ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه ولا من شعره، وكذلك غيرهما من الشعراء، ولم يعتمدوا في ذلك إلّا على الذوق خاصّة؟

وأنت إذا تأمّلت (نهج البلاغة) وجدته كلّه ماءً واحداً ونفساً واحداً، وأُسلوباً واحداً، كالجسم البسيط الذى ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز أوّله كأوسطه، وأوسطه كآخره، وكل سورة منه وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور، ولو كان بعض (نهج البلاغة) منحولاً وبعضه

وهذا المنهج منهج سليم يأخذ به الأُدباء والنقّاد إلى هذا الوقت، فهم يعرفون النص الشعري الجاهلي من تعبيراته وأهدافه ومفرداته، فمثلاً إذا وردت في شعر ما لفظة التلفاز فلا يمكن أن يقال: إن هذا الشعر لطرفة بن العبد الذي عاش في عصر الجاهلية.

وأُؤكد هنا أن هذه الضجة التي حدثت لـ(نهج البلاغة) هي بسبب الخطبة الشقشقيّة ليس إلّا، ففي هذه الخطبة يقول أمير المؤمنين عليه السلام: « **إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال اللّه خضمة الإبل نبتة الربيع** »[1]. وهذه أشدّ عبارة استخدمها أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنه كان غاية في الأدب، وكلامه غاية في اللياقة، فلم يكن عنده من التعبيرات ما عند من عاصره ومن لم يعاصره.

وقد استخدم شيعته هذا الأدب في تعبيراتهم، فانظر إلى الجدل الذي دار بين العلّامة ابن المطهر الحلي (رضي اللّه تعالىٰ عنه وأرضاه، وقدّس سرّه الشريف) وبين ابن تيمية، فالعلّامة الحلي عندما يذكر ابن تيمية يقول: وقال العالم ابن تيمية، أو: وقال شيخ الإسلام، أما ابن تيمية فيقول

صحيحاً لم يكن ذلك كذلك. فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

واعلم أن قائل هذا القول يطرق على نفسه مالا قبل له به؛ لأنا متى فتحنا هذ الباب، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النحو، لم نثق بصحّة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبدا، وساغ لطاعن أن يطعن ويقول: هذا الخبر منحول، وهذا الكلام مصنوع، وكذلك ما نقل عن أبي بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والأدب وغير ذلك. وكل أمر جعله هذا الطاعن مستنداً له فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الراشدين، والصحابة والتابعين، والشعراء والمترسّلين، والخطباء فلناصري أمير المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من (نهج البلاغة) وغيره، وهذا واضح ».

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٣.

عن العلّامة ابن المطهّر الحلي: وقال ابن المُنَجَّس[١]. في حين أنه يقتضي أدب العلم أن يكون اللسان نظيفاً، وأن يشعر المسلم أن على لسانه رقيباً، فلا تصدر منه كلمة نابية. وينبغي أن يكون للدين والخلق والأدب أثر على اللسان وعلى التعبير. ولكن لا نستكثر على رجل يقول: إن الشيعة لا يُصلُّون؛ لأنهم ينتظرون صاحب الزمان وربما يظهر وهم في الصلاة فينشغلون عنه أن يصدر منه مثل هذه الألفاظ.

حفظ القرآن من الزيادة والنقص

وذلك بأن نقيّض له من المسلمين من يحفظه، بحيث لو حدثت فيه زيادة أو نقيصة لردّوا عليهم. فالمسلمون حفظوا القرآن الكريم وكتبوه بحيث لو ظهر الآن أي تغيير فإنه يُعرف بسرعة، فلا يمكن أن تتسرّب للقرآن الزيادة أو النقيصة.

وهنا أذكر استنتاجاً جميلاً للفخر الرازي المفسّر العملاق يقول فيه: إن هذه الآية تدلّ على أن البسملة جزء من القرآن الكريم[٢].

وهذا من مواضع الخلاف بيننا وبين المذاهب الأُخرى، فهناك خلاف بيننا وبين سائر المسلمين حول جزئيّة البسملة من القرآن الكريم، فنحن نقول بجزئيتها من كلّ سورة عدا سورة براءة، وخلاف ذلك تكون السورة ناقصة، فلابدّ من قراءتها في كلّ سورة.

فالفخر الرازي يقول: إن البسملة موجودة منذ أن وجد القرآن الكريم، فلو كانت من الزيادات فلن يصدق قوله تعالى: ﴿**وإنَّا لهُ لَحَافِظُون**﴾، فكونها مكتوبة والمسلمون هم الذين أثبتوها فهي جزء من القرآن الكريم، ولولا

---

(١) الفوائد الرجاليّة ٢: ٢٦٣.
(٢) التفسير الكبير ١٩: ١٢٧.

ذلك لكانت زيادة في القرآن الكريم. وإذا جاز أن نتصوّر أن في القـرآن الكريم زيادة جاز أن نتصوّر أن فيه نقيصة.

ولا ننسَ أن نذكر التاريخ الظالم الذي يتّهمنا بالقول بـتحريف القـرآن الكريم، وهذا أشبه بقول القائل «رمتني بدائها وانسلّت[١]». فنحن لا نقول بالتحريف أبداً، ورأي محقّقينا وعلمائنا أن القرآن الكـريم هـو مـا بـين الدفتين. وهذا هو رأي الشيخ المفيد[٢] والشيخ الصدوق[٣] والعلّامة الحلّي وعمالقة الفكر الإمامي بأجمعهم[٤].

وإن كان هناك قول بالزيادة أو النقيصة فعند غيرنا أكـثر، وقـد كـتب السيد الخوئيّ في كتابه (البيان في تفسير القرآن)[٥] فصلاً ممتعاً علمياً ودقيقاً في موضوع صـيانة القـرآن الكـريم مـن التـحريف، وذكـر فـيه النصوص التي تدلّ على أن الذي يقول بالتحريف هو غيرنا.

وهناك روايات عند بعض المسلمين تقول: إن سورة التوبة تنقص مـا يقرب الثلاثة أرباع من حجمها الحـقيقي[٦]. فكـيف يـعتبرونها نـاقصة،

---

(١) الصحاح ٥: ١٧٣١ ـ سلل.

(٢) المسائل السرويّة: ٧٨ / المسألة: ٩، أوائل المقالات: ١٨٧ / ٥٩، ٤٠٠ / ١٨٨.

(٣) تصحيح الاعتقادات: ٥٩ / ٣٣.

(٤) الشافي ١: ١٨٦، ٤: ٢٨٥، الانتصار: ٢٦، الفصول المهمّة (الحرّ العاملي) ١: ٥٩٠، نفس الرحمن: ١١.

(٥) البيان في تفسير القرآن: ١٩٧ ـ ٢٣٩.

(٦) روى الهيثمي في مجمع الزوائد ٧: ٢٨، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٣١ والسيوطي في الدر المنثور ٣: ٢٠٨ أن حذيفة قال: تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب وما يقرؤون منها مما كنّا نقرأ إلّا ربعها.

وللمزيد حول هذا انظر مبحث (هل يقول أهل السنة بالتحريف؟) مـع مـصادره فـي ج١ ص٢١٠ ـ ٢١١ من موسوعة محاضرات الوائلي.

ويكون القرآن الكريم حجّة؟ فقد يكون هذا الناقص مخصِّصاً أو مقيِّداً أو غير ذلك؛ فلا يسلم حكم من الأحكام الشرعيّة على هذا الفرض. فالذي يقول بالنقص غيرنا لا نحن، ولكن المصيبة هي أننا على امتداد التاريخ ما ملكنا وسيلة إعلام، ولا حكمنا، فوقعت كلّ المصائب على رؤوسنا.

فالقرآن الكريم محفوظ من الزيادة والنقيصة، لكن التحريف وقع في التأويل والتفسير، صحيح أن القرآن الكريم لم يحصل له ما حصل للكتب السابقة التي حصل التحريف في نصوصها، لكن القرآن الكريم تعرض للتحريف بتفسيره، فمن أمثلة ذلك أن معاوية أعطى لأحدهم[١] أربعمئة ألف درهم ليروي أن قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[٢] نزل في عبد الرحمن بن ملجم؛ إذ باع نفسه لله عندما ضرب علي بن أبي طالب عليه السلام[٣]، يقول عمران بن حطّان:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أرادَ بها … إلا ليبلغَ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكُرُهُ يوماً فأحسَبُه … أوفى البريةِ عندَ اللهِ ميزانا[٤]

---

(١) هو سمرة بن جندب. (٢) البقرة: ٢٠٧.

(٣) الصراط المستقيم ١: ١٥٢، وانظر مثلها في آية أُخرىٰ في النصائح الكافية: ٢٥٣.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٥٩، سير أعلام النبلاء ٤: ٢١٥، الإصابة ٥: ٢٣٢، البداية والنهاية ٧: ٣٦٤، وقال القاضي أبو الطيّب الطبري وقد بلغته هذه الأبيات:

يا ضربة من شقيّ ما أراد بها … إلّا ليهدم من ذي العرش بنيانا

إني لأبرأ مما أنت قائله … عنِ ابن ملجمٍ الملعون بهتانا

إني لأذكره يوماً فألعنه … وألعن الدهر عمران بن حطّانا

عليك ثمّ عليه الدهر متّصلاً … لعائن اللّه إسراراً وإعلانا

فأنتُمُ من كلاب النار جاء به … نصّ الشريعة برهاناً وتبيانا

انظر الحور العين: ٢٠١.

ومن أمثلة ذلك ما قيل من أن علي بن أبي طالب عليه السلام صلّى بالناس وهو سكران، فقرأ: « ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[1] ونحن نعبد ما تعبدون»[2]، ولم يقرأها كما أُنزلت. وهذا المفتري الذي نسج مثل هذا الخبر أراد أن يغطّي ما كان من فعل أحد الصحابة الذي بقي يشرب الخمر حتى آخر حياته[3]. ولكن كلّ ذلك يتبخّر وتبقى الحقائق كما هي.

ينقل الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (فلسفة العقوبة) رأياً لأبي حنيفة يقول فيه: «لو أغرقوني في الفرات على أن أشرب قطرة من الخمر لما شربت، ولو أغرقوني في الفرات على أن أقول: إنها حرام لما قلت». ويعلق أبو زهرة على هذا الكلام بقوله: إن بعض الصحابة شربها، ولا يريد أبو حنيفة أن يفسق هذا الصحابي. مع أن الحرام حرام سواء عند الصحابي أو غيره، ونحن لا نحلّل ولا نحرّم.

عوامل الامتزاج بين الحضارتين العربية والفارسيّة

أما أُمه عليه السلام فهي شاه زنان ابنة يزدجرد. وهنا نحتاج إلى وقفة وتأمّل؛ لأن هذا اللون من التزاوج لعب دوراً هامّاً في مزج الفكر العربي بالفكر الفارسي، والثقافة العربية بالثقافة الفارسيّة، والأدب العربي بالأدب الفارسي، بحيث كوّن مزيجاً له بصماته الخاصّة وأبعاده الحضارية. فلو أردنا أن نخلّص الأدب الفارسي من الأدب العربي لما استطعنا، وكذلك لو

(١) الجحد: ١ ـ ٢.

(٢) انظر هذا المبحث كاملاً ونقضه والردّ عليه مع مصادره في ج٢ ص٧٨ ـ ٧٩ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٣) أبو دلامة.

أردنا تخليص الأدب العربي من الأدب الفارسي؛ لأن أبعاد الثقافة امتزجت بينهما إلى درجة يصعب معها فصلهما. وقد أدىٰ إلىٰ حدوث ذلك خمسة عوامل هي:

العامل الأوّل: مظهر التزاوج

فمنذ أن أخذت الفتوحات عند المسلمين طريقها إلى الشرق والغرب، راحوا يأتون بالجواري المسبيّات فيتزوّجونهن؛ والذي يحدث أن هذه الزوجة تنقل معها بيئتها الثقافية والاجتماعية والأخلاقية، وتلتقي ببيئة أُخرى فيحدث التفاعل بين البيئتين. ولذا نلاحظ أن موضوع التزاوج لعب دوراً كبيراً، فتجد أن بعض أُمهات الخلفاء الأُمويين والعبّاسيّين فارسيات، فقد تزوّج عبد الملك بن مروان امرأة فارسية فولدت له ابنة اسمها مسلمة. وقد خطب عبد الملك من عقيل بن علفة المري ـ وهو بدوي كان يعيش بالصحراء ـ فقال له: أصلح اللّه الخليفة، جنِّبْني هُجَنَاءَك[1]. (والهجين هو الذي يولد من أب عربي وأُم غير عربية)[2].

وهذا طبعاً لون من العصبيّة الممقوتة التي لا يقرّها الإسلام، وكلّ من تجده يحمل العنصريّة أو العصبيّة فهو بعيد من الإسلام؛ لأن الإسلام لا يلتقي مع العصبية بحال من الأحوال. وكم هي رائعة كلمة رسول اللّه ﷺ لما سمع بعض الناس يفخرون بآبائهم: «**فوالذي نفسي بيده لما يدهده الجعل بمنخريه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية**»![3]. والجُعل لا يدهده (يدحرج) إلّا البعرة. فالإنسان ابن الفكر والعقيدة، وليست المسألة مسألة

(١) الأغاني ١٢: ٢٩٨، وليس فيه: جنبني هجناءك، بل فيه: يخطب إليّ عبد الملك فأرده....

(٢) العين ٣: ٣٩٢ ـ هجن.

(٣) مسند أحمد ١: ٣٠١، تحفة الأحوذي ١٠: ٣١٧.

دم ولحم، وإلّا فإن بعض الحيوانات ـ كما هو معروف ـ أكثر من الإنسان لحماً ودماً.

وكانت أُم مروان آخر خلفاء بني أُمية كردية إيرانية، وكذلك أُم المأمون فقد كانت فارسية، والكثير من أُمهات الأيمة فارسيّات، ومنهن أُم الإمام السجاد عليه السلام، وخالته زوجة عبد اللّه بن عمر التي ولدت سالم بن عبد اللّه بن عمر، وخالته الأُخرى زوجة محمد بن أبي بكر التي ولدت له ولداً. فكان يؤتى بالجواري أيّام الفتوحات فيتزوّج بهن المسلمون.

وقد تستغرب أنْ بلغ من أمر الرشيد أنه كان في قصره ألف جارية[1]، وفي قصر المتوكل أربعة آلاف جارية وسرّية[2]، ولكن الغريب من أنيس منصور وغيره من المتهالكين علىٰ موائد البغض والتفرقة أن يحاولوا إلصاق ذلك بالأيمة عليهم السلام. وسوف يمر بنا أن الإمام السجاد عليه السلام كان يشتري العبيد والجواري، فإذا جاءت ليلة العيد قال لهم: ارفعوا أيديكم و: «قولوا: **اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنّا**». فيعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل ويقول لمن يعطيه: «**استعن بها علىٰ دهرك، أصلح اللّه لك أمرك فيها**»[3].

فالجواري لم يكنّ يتأخّرن في بيوت الأيّمة عليهم السلام، وإنما كنّ يعتقن جميعهن. أما أن يدّعي أنيس منصور وغيره غير ذلك فهذا لا واقع له.

---

(١) البداية والنهاية ١٠: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، ٢٤١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٠.

(٣) الصحيفة الكاملة السجّاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

إذن هذا العامل كان قد لعب دوراً مهمّاً جداً في مزج الثقافتين. فهناك فارسيّات تزوّجن من عرب، وبالعكس هناك عربيّات تزوجن في بلاد فارس. ويلاحظ أن الفكر الإسلامي ليس فكراً فارسيّاً أو عربيّاً فقط، وإنما هو جدول تنصبّ فيه روافد متنوّعة، لكن أبرز هذه الروافد الرافد الفارسي؛ وذلك بسبب وجود الجواري.

في افتراءات بعض الكتّاب على الإمام السجاد عليه السلام

وهنا نحبّ أن ننبّه إلى أن بعض الكتّاب المهووسين حينما يتناول ولادة الإمام السجاد عليه السلام من كونه من أُم فارسيّة فإنه يقول: إن الذي منع الإمام السجاد عليه السلام من الخروج إلى القتال يوم الطفّ أنه لم يكن متأثّراً بالوراثة بأبيه وإنما كان متأثّراً بأُمه. وهذا اللون من الكتب والكتابات عليها الكثير من علامات الاستفهام، وهي كتابات تُسيء للإسلام الذي صهر الجنسيّات المختلفة وذوّبها، وصنع منها مزيجاً رائعاً يهتزّ له الدهر إعجاباً، وهو لون من الفكر يطرده الإسلام عن حضيرته، ويأباه أشدّ الإباء؛ إذ لا تكاد تجد اليوم دماً خالصاً مئة بالمئة، ومن يقل ذلك فهو مغفّل.

وفي رأي الإسلام أن الإنسان إنسان بمشاعره وفكره ومصالحه المشتركة وأهدافه؛ ولذلك تجد الآن أن الخصائص التي يعطونها إلى الأُمم الأُخرى لا يدخل فيها الدم، فإن هذا الفكر أصبح فكراً خرافيّاً. أما الفكر الصحيح فهو الفكر القائم على أساس المصالح المشتركة واللغة والمشاعر، وهذه هي التي تحدّد معالم القوميّة.

فالإمام السجّاد عليه السلام ولد بين هذين الأبوين، وقد ماتت به أُمّه وهي

نُفَساء، أما ما تقوله الرواية من أنها حضرت واقعة الطفّ ورمت نفسها في الفرات وغرقت فهذه لا واقع لها ولا منشأ، ولا أساس لها من الصحّة إطلاقاً. والصحيح ما نقلناه من أنها ماتت به وهي نُفَساء، فأوكل الإمام الحسين عليه السلام أمره إلى جارية من جواريه، فربته وأرضعته وعطفت عليه ونشّأته. ولذلك فإن الإمام عليه السلام كبر علىٰ احترامها وإكرامها غاية الإكرام، يقول المؤرخون: إنه عليه السلام كان يجلس معها على مائدة الطعام ويؤاكلها ويؤانسها، ولا يمدّ يده إلى الطعام، فلما سئل عن ذلك قال: «إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه فأكون قد عققتها»[1]. وهذا النمط من الأدب قد تجده أيضاً عند العرب، يقول حاتم الطائي:

وإنــي لأسـتحيي صِحابيَ أن يـرَوا مكـانَ يـدي مـن جـانب الزاد أقـرعا
أُقــصِّرُ كــفّي أن تــنالَ أكــفَّهم إذا نــحنُ أَهــوينا وحــاجاتُنا مــعا
أبيت خميص البطن مـضطمد الحشـا حــياء أخَـاف الضـيم أن أتـضلّعا
فــإنك إن أعــطيتَ نـفسَك سُـؤلَها وفــرجَك نــالا مـنتهى الذمِّ أجـمعا[2]

نشأته عليه السلام ونشاطه إبّان إمامته عليه السلام

ثم ترعرع عليه السلام ونشأ في المدينة، وكانت له فعّاليّات كبيرة فيها بعد استشهاد أبيه الحسين عليه السلام؛ لأنه كان محجوباً أيّام أبيه الذي كانت فعّاليّاته ملء السمع والبصر، وكلّ فعّاليّة للسجّاد تندكّ بجانب فعّاليّات أبيه عليهما السلام.

وحينما استشهد الإمام الحسين عليه السلام كان عمر السجاد عليه السلام اثنتين وعشرين سنة؛ لأنه ولد سنة ثمانٍ وثلاثين للهجرة، حيث إن جابر بن حريث كان

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.
(٢) شرح نهج البلاغة ١٩: ١٨٩ ـ ١٩٠.

قد خرج أيّام أمير المؤمنين عليه السلام إلى خراسان ففتحها، وأتى ببنات يزدجرد، فتزوّج الحسين عليه السلام واحدة منهن، فولدت السجاد عليه السلام، وتوفيت به وهي نُفَساء. فعلى هذا يكون عمره الشريف يوم الطفّ اثنتين وعشرين سنة. وكان متزوّجاً وعنده الباقر عليه السلام وله من العمر ثلاث سنوات. وكان علي الأكبر أكبر منه؛ ولذلك لقّب بالأكبر.

ولما رجع الإمام عليه السلام إلى المدينة بعد استشهاد والده عليه السلام، بدأت تظهر عنده بعض الفعّاليّات، وأهمّ هذه الفعّاليّات فعّاليّة الأدعية، فكان من نتاجه هذه الصحيفة السجادية الشريفة (زبور آل محمد)، هذه الثروة الضخمة التي عندما تقرأ دعاء منها كدعائه عليه السلام يوم عرفة فإنك تقف على مضامين فلسفيّة وعقليّة دقيقة جداً يسكبها الإمام عليه السلام في هذه الأدعية، وكذلك في دعائه عليه السلام في تذلّله وتضرّعه، أو إذا شاهد جنازة.

السجاد وطاووس اليماني

فأدعية الصحيفة السجادية كلّها تصب في مجال التعلّق الروحي بالله عزّ وجلّ والخوف منه، ونقل الإنسان إلى عالم ما وراء الطبيعة، وشرح ما ينبغي أن يكون عليه العبد من الأخلاق والانقطاع إلى اللّه، وتذكيره بالآخرة والموت، «وكفى بالموت واعظاً»[1]، يقول طاووس اليماني: كنت أطوف بالكعبة في جوف الليل، فأقبل رجل قد أكربته أحزانه وأقلقته أشجانه، فدخل إلى الكعبة ورمق السماء بطرفه، وسمعته يقول: «**إلهي، وحقّك ما عصيتك إذ عصيتك وأنا بنكالك شاكٌّ، ولا لعقوبتك متعرّض، ولكن**

(١) الكافي ٢: ٢٧٥ / ٢٨، مسند الشهاب ٢: ٣٠٢.

سوّلت لي نفسي وغرّني سترك المرخىٰ علي، فأنا الآن من عذابك مَن يستنقذني؟ وبحبل مَن أعتصم إذا قطعت حبلَك عني؟ فواسوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفّين: جوزوا، وللمثقَلين: حطّوا. ليت شعري، أمع المثقلين أحطّ، أم مع المخفّين أجوز؟ ما لي كلّما طال عمري كثرت خطاياي، أما آن لي أن أستحي من ربي؟». يقول طاوس: ثم سقط فأقبلت إليه، فرأيت شفاهه تتمتم بهذين البيتين:

«أتُحرقُني بالنار ياغايةَ المُنَى فأينَ جزائي ثمَّ أينَ محبّتي
أتيتُ بأعمالٍ قباحٍ زريّةٍ وما بالورى خلقٌ جنى كجنايتي»

فجلستُ عنده أمسح التراب وحبات العرق عن وجهه، فانتبه لي فقال: «من؟ طاووس هذا؟». قلت: نعم، فداؤك طاوس، هذا أنت وتصنع هذا؟ قال: «ولماذا؟». قلت: سيدي، من ورائك شفاعة جدك ونسبك، ثم إنك محسن ورحمة اللّه قريبة منك. فالتفت إليَّ، وقال: «دع عنك حديث أبي وأُمي، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾[1]». ثم قال لي: «دعني أدنُ إلى الله». قلت: تدنو إلى اللّه وأنت زين العابدين؟ قال: «نعم، لا تحُل بيني وبين ربي». فأضجعته وقمت عنه[2].

هل تدخل طاعة الوالدين في باب التزاحم؟

ويعالج الفقهاء هذه المسألة في باب التزاحم، فاللّه أمرنا بإطاعة الوالدين، بشرط ألّا تسبّب معصية للّه، فلو فرضنا أن طاعة الأبوين لا

(١) المؤمنون: ١٠١.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩١، المزار (المشهدي): ١٤١ ـ ١٤٢.

يمكن اجتماعها، كأن يقول لي أبي: ادرس في هذه المدرسة، وتقول أُمي: لا. فهنا لا يمكن أن أجمع بين الأمرين، ويحصل التكاذب في أصل الجعل على حدّ تعبير الفقهاء ـ أي أن الدليل الذي يأمرني بطاعة الأبوين يحصل فيه التكاذب ـ فكيف يقول لي اللّه: أطعهما، ثم لا يمكن أن تجتمع طاعتهما؟

في مثل هذه الحالة يقول الفقهاء: إن كان هناك مُرجِّح قدّمناه، فتصبح المسألة من باب التزاحم، وللتزاحم شروط لا مجال لذكرها الآن. ومن الأمثلة على التزاحم والترجيح أنني مثلاً أكون مأموراً بصلاة واجبة وأُخرى استحبابيّة في وقت واحد، وكان وقت الواجبة مضيّقاً، ووقت الاستحبابيّة موسّعاً، واجتمعت الصلاتان في وقت لا يمكنني فيه أن أجمع بينهما، فعندئذ أُقدّم الصلاة الواجبة، لأهمّيّتها. وهنا يتّضح عندنا معنى المرجّح.

وفي مسألة الأُمّ والأب يقول الفقهاء: عند عدم وجود المرجّح فرأي الأُمّ أهمّ، وأمرها مقدّم على أمر الأب. وهذا عين الحقيقة، لأنك تلمس بصمات الأُمّ واضحة علىٰ أي جيل من الأجيال. ويقسم علماء الاجتماع المجتمع إلى قسمين: مجتمع ينسب إلىٰ الأُم ومجتمع ينسب إلىٰ الأب، ففي بعض المجتمعات يطغى الأب على الأُسرة وفي بعضها تطغى الأُمّ، وفي بعضها يحصل توازن بين الطرفين. فالمشرّع الإسلامي يعطي الأهمّيّة للأُمّ حسب القاعدة التي تقول: الغُنم بالغُرم[1]. فمن يخسرْ أكثر

(١) وقد يعبّر عنها بقاعدة «التلازم بين النماء والدرك»، أو قاعدة «الخراج بالضمان». انظر: القواعد الفقهية ٦: ٣٠٨، مئة قاعدة فقهية: ٢٨٤، المبسوط (السرخسي) ٨: ٨١، ٢٥: ٤٣، القاموس الفقهي: ٢٧٨، المعجم القانوني ٢: ٥٧٦. ومعنىٰ القاعدة هو التلازم بين الخسارة

يأخذ مقابل خسارته، والأمّ هي التي تخسر أكثر. فالأب يحمل ابنه خفيفاً ولا يشعر به، والأُمّ تحمله ثقيلاً وكأنها تحمل جبلاً[١] خصوصاً من تصل منهن إلى عشرة أشهر. وناهيك عن ساعة الوضع والولادة.

يقول الإمام مالك في رأي يتفرّد به عن المذاهب الإسلاميّة الأُخرى كلها: إذا بلغت الأُمّ ستّة أشهر في الحمل لا تنفذ تصرّفاتها المالية. والسبب في ذلك أنها أشبه بالمريض مرض الموت الذي لا يُعطى الحق في التصرّف بأمواله؛ لأن ملكيّته أصبحت متزلزلة فتنتقل لأولاده. وعندما تصل الأُمّ إلى هذا الشهر من الحمل تصبح معرّضة للموت: ﴿**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً**﴾[٢].

وليس الحمل فحسب، وإنما تأتي الولادة والحضانة والرعاية. فيأخذ الولد من أبعاد الأُمّ النفسيّة والجسديّة؛ فيكون بهذا ألصق بأُمّه؛ فلذا يُقدم قولها في حالة التزاحم. فالإخوة لأُمّ يكون بينهم التصاق أكبر عادةً.

والفائدة؛ فكل من له فائدة المال شرعاً عند الربح كان عليه خسارة ذلك المال أيضاً.

(١) تنازع رجل يقال له قابس وامرأته هزيلة بنت جديسيان في مولود لهما أراد أبوه أخذه فأبت أُمّه، فارتفعا إلى الملك عمليق، فقالت المرأة: أيها الملك، هذا ابني حملته تسعاً ووضعته رفعاً وأرضعته شبعاً ولم أنل منه نفعاً، حتى إذا تمّت أوصاله واستوفى فصاله أراد بعلي أن يأخذه كرهاً ويتركني ولهىٰ. فقال الرجل: أيها الملك أعطيتها المهر كاملاً ولم أُصب منها طائلاً إلّا ولداً خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً، على أنني حملته قبل أن تحمله، وكفلت أُمّه قبل أن تكفله. فقالت: أيها الملك، حمله خفّاً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً.

فلما رأى عمليق متانة حجّتهما، تحيّر فلم يدرِ بم يحكم. معجم البلدان ٥: ٤٤٢. وقد أورد ابن عساكر هذه القصّة بمرافعة أبي الأسود الدؤلي وزوجته لمعاوية. تاريخ مدينة دمشق ٥٢: ٢٠٢، ٧٠: ٢٦٩، وفيهما: حمله خفّاً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعته كرهاً، لم أحمله في غبر، ولم أرضعه غيلاً، فبطني له وعاء وحجري له وقاء.

(٢) الأحقاف: ١٥.

آراء المفسّرين في سرقة يوسف عليه السلام

تقول الآية: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، فما هي السرقة المزعومة التي ارتكبها النبي يوسف عليه السلام؟ إن القرآن الكريم عندما يشرح لنا قصّة النبي يوسف عليه السلام يريد منا أن نأخذ العظة والعبرة، ونتأدّب بها ونتربّى عليها، لا أن نتسلّى بالقصّة فقط.

إن إخوة النبي يوسف عليه السلام قالوا في بنيامين أخيه عليه السلام: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، وذلك لمّا أراد يوسف عليه السلام أن يأخذ أخاه بنيامين إلى جانبه، فافتعل هذه المسألة بأن وضع الصاع في رحل أخيه.

أما عن سرقة يوسف المنسوبة له من إخوته فإن للمفسّرين آراء متشعّبة فيها، وعادة ما تظهر مذاهب المفسّرين في الأُمور غير المحدّدة. ففي القرآن الكريم أشياء محدّدة معيّنة لا يستطيع المفسّر أن يتلاعب بها أو يُخضعها لرأيه، أما مثل هذه الأُمور القابلة للاجتهاد فإن المفسّر يغدق عليها من آرائه وألوانه.

الرأي الأول: أنه عليه السلام سرق لجائع بيضة من بيت أهله

يقول أحد المفسّرين: إن يوسف عليه السلام في صغره رأى جائعاً يبكي، فسرق له بيضة من بيت أهله وأطعمه إيّاها.

الرأي الثاني: أنه عليه السلام سرق له دجاجة من بيت أهله

ويقول مفسّر آخر: إن المسروق لم يكن بيضة، وإنما كان دجاجة سرقها لذلك الجائع وأطعمه إيّاها.

الرأي الثالث: أنه عليه السلام سرق منطقة جدّه لأُمّه

وهناك مفسّر ثالث يقول: إن يوسف عليه السلام في صغره سرق منطقة جدّه

لأُمّه، والمنطقة هي الحزام.

وهذه الروايات الثلاثة كلّها لا تشكل عنوان سرقة.

الرأي الرابع: أنه عليه السلام سرق المودّة من قلب أبيه عليه السلام

وقد رأيت من المفسرين من يحمل عليه مع أنـه رأي وجـيه قـريب. وهذا من تفسير الإشارة عند الصوفيين، وهـذه المـدرسة الصـوفية فـي التفسير فيها جذبات روحية.

وهنا قد يسأل سائل: لم سرق يوسف عليه السلام المودّة من قلب أبـيه؟ ومـا السبب الذي جعل يعقوب يميل إلى يوسف عليهما السلام أكثر من باقي إخوته ممّا سبب أنهم حقدوا عليه؟ وهذا الحقد واضح مـن تـعبير الآيـة الكـريمة، والحاقد يلجأ إلى الاتّهام والافتراء والادّعاءات غـير المـوضوعيّة؛ لأنـه ينطلق من عاطفة لا يمكن له أن يتحكّم بها.

والسبب في ذلك أن يوسف عليه السلام وأخاه بنيامين كانا يتيمين، وقد توفّيت أُمهما «راحيل» وهي في شبابها، ومن المعروف أن اليتيم يستدرّ العطف أكثر من غيره؛ لأنه بحاجة إلى تعويض اليتم الذي يعانيه. وهذا ما حدث ليعقوب عليه السلام الذي كان يرى يوسف عليه السلام وأخاه بلا أُمّ، فأراد أن يعوّضهما فقدَ أُمّهما. وإلّا فإنه عليه السلام كان يعرف خطورة تمييز أحد الأولاد على البـاقين، فذلك يخلق الهزّة في المجتمع.

قال النعمان بن بشير: سألت أُمّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي، فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبي صلى الله عليه وآله. فأخذ بـيدي وأنـا غلام فأتى بي النبي صلى الله عليه وآله، فقال: إن أُمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. قال صلى الله عليه وآله: «**ألك ولد سواه؟**». قال: نعم. قال: «**لا تشهدني على جـور**». وفي رواية: «**ألك بنون سواه؟**». قال: نعم. قـال صلى الله عليه وآله: «**فكـلّهم أعـطيت مـثل**

هذا؟». قال: لا. قال: «**فلا أشهد على جور**»[1].

ولو كان هناك مبرّر لهذا التمييز لما اعترض النبيﷺ لكنه لمّا لم يـرَ مبرّراً لذلك اعترض. ثم إنه لو كان عنده مبرّر شـرعي لمـا احـتاج إلى شهادة النبيﷺ.

والمبرر الصحيح كأن يكون أحد الأولاد أكثر حزماً من إخـوته بأن يدير العمل والبيت والأُسرة، أو أن يكون متّزناً شاطراً ذكياً ذا جـوانب علميّة، ومستقيماً صائماً مصلّياً، وصادقاً في معاملته مع الناس، مسالماً؛ فيفضّله الأب في حياته لهذه الصفات الحميدة. وهذا مبرّر مـعقول، أمّـا المبرّر غير المعقول فكأن تكون اُمّه جميلة مثلاً أو شابّة. فـهذا التـمييز يسبب الحقد، وسوف ينسف بناء الأُسرة.

وهذه من النظريات التي جاءت قبل (١٤٠٠) سنة، ولم يتوصّل إليها علم النفس والاجتماع إلّا في زمن قريب في القرن العشرين، فمن أيـن جاء النبيﷺ بهذه المعلومات قبل (١٤٠٠) عاماً وهو يعيش فـي تـلك الصحراء؟ لا شك أن ذلك تسديد السماء وتوجيهها.

فالسبب الذي جعل يعقوبعليه السلام يحنو عـلى يـوسفعليه السلام وأخـيه أنـهما يتيمان، ولذا قال إخوة يوسف: ﴿**لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾[2].

الرأي الخامس: أنهعليه السلام سرق صنماً لجدّه لأُمّهعليه السلام

ومن الآراء التي يوردها المفسّرون في سرقة يوسفعليه السلام المزعومة أنه سرق صنماً لجدّه لأُمّه، وكان وثنيّاً.

---

(١) جامع المقاصد ٩: ١٧١، مسند أحمد ٤: ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١، صحيح مسلم ٥: ٦٦.

(٢) يوسف: ٨.

وكل همّ المفسّرين أن يحقّقوا معنى السرقة الواردة في الآية. وكل هذه المعاني ليست متّسقة وصائبة.

الرأي السادس: أن عمته ادّعت أنه سرق منطقة جده لتحتفظ به

والرأي الأكثر صواباً أن عمّته التي كانت تحضنه وأخاه بعد وفاة أُمّهما، اعتزّت به أكثر من أخيه، ولم تعد تستطيع مفارقته، فكان لها بمثابة الابن، فهي لم يكن لها ولد. فلما أراد يعقوب عليه السلام أخذه منها، ابتدعت طريقة لبقائه عندها، فادّعت أنه سرق منطقة جدّه. وكانت عقوبة السرقة ذلك الزمان نوعين:

العقوبة المدنية عند الفراعنة، وهي السجن لسنوات محدّدة.

والعقوبة الشرعية في شريعة يعقوب عليه السلام، وهي أن من يسرق يُستعبَد: ﴿**قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ**﴾[1]. وإذا ثبت ذلك ليوسف فعقوبته أن يبقى مستعبداً عند عمّته.

عوامل عدم تفاعل المجتمع مع أمير المؤمنين عليه السلام

وهكذا كان ولم يبرح الفضائل والمناقب حتىٰ النفس الأخير من حياته، لكن السؤال الذي يُطرح هو: لماذا لم يتفاعل المجتمع معه عليه السلام ذلك التفاعل المطلوب مع ما له من هذه الميزات والمكانة، ومع هذا الحشد من المناقب والإضمامات؟ ولماذا وجد عليه السلام في طريقه أكثر من عثرة وعثرة؟ ما السبب في كل ذلك؟ هناك عوامل عديدة أدّت إلى حصول مثل هذا، نذكر منها:

---

(١) يوسف: ٧٥.

العامل الأوّل: الحسد

فأول عقبه اصطدم بها أمير المؤمنين علي عليه السلام هي عقبة الحسد، فقد كان محسوداً حسداً لا حدود له، والحقّ أن الحسد في بعض الأحيان يخدم المحسود، يقول الشاعر:

عـداي لهـم فـضلٌ علـيَّ ومـنَّةٌ ... فـلا أبـعدَ الرحـمٰنُ عـني الأعـاديا

هُـمُ بـحثوا عـن زلَّـتي فـاجتنبتها ... وهم نافسوني فارتقيت المعاليا[1]

حُسد هذا الرجل لأن اللّٰه تعالىٰ أعطاه من صفات الكمال ما لم يُعطِ أحداً غيره، فقد كان وهو طفل صغير إذا أخذ بيد الرجل أخذ بنَفَسه، وكان إذا جاء الفرس بعنفوانه ووضع يده علىٰ صدره فإنه يردّه.

يصفه المؤرّخون بأنه كان كالأسد، غلظ منه ما استغلظ، دقّ منه ما استدقّ، كان يحمل ساعداً يُعبَّر عنه بالحاطم والقاضم[2]. يقول صاحب (لسان العرب) في مادة قضم: «كان علي بن أبي طالب عليه السلام إذا نزل إلى الحرب تَنادىٰ الجيش وصاحوا: احذروا الحطم، احذروا القضم»[3]؛ لأن ضربات علي عليه السلام كانت بكراً؛ إذا علا قدّ، وإذا توسّط قطّ[4]، فكانت العرب تعتبر الفرار من الزحف عاراً إلّا من سيف علي عليه السلام.

ثلاث وثمانون غزوة ما تخلّف فيها عن نصرة المسلمين وما تأخّر إلّا في غزوة تبوك حيث خلّفه رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله لحفظ الأمن والدولة في

---

(١) البيتان لأبي حيان الأندلسي. الكنىٰ والألقاب ١: ٦١.

(٢) شرح الأخبار ٢: ٤٢٨، مناقب آل أبي طالب ٣: ٩١، وقد نقلاه عن المغيرة.

(٣) لسان العرب ١٢ ـ ٤٨٨ ـ قضم، ومثله في النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٧٨ ـ قضم.

(٤) الخرائج والجرائح ٢: ٥٤٢ / ٣، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٨١ ـ قط.

المدينة، وكان حسامه هو الحسام الأوّل الذي يدافع عن المسلمين، وقد أُعطي من كمالات الرجولة والبطولة ما كانت معه الأُمم تتفأّل بكتابة اسمه علىٰ سيوفها، وأُعطي من القوّة والضراوة والشجاعة والبسالة في سبيل اللّه ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت. وما وضع تلك الشجاعة في طريق البغي، وما اعتدى يوماً على ضعيف أو منهزم أبداً، بل كانت شجاعته الشجاعةَ التي تتّسم بالرجولة الحقّة والنبل والكرم، وما قاتل إلّا في سبيل الله، ما قاتل لحقد أو هدف شخصي[1]، بل ترفّع عن أن يقابل الضعيف أو المنهزم نفسيّاً.

ولقد رأيناه يترفّع عن أن يقتل عمرو بن العاص عندما استلقىٰ بين يديه، أو أن يقتل بسر بن أرطاة[2].

ولو رجعنا إلى تاريخ عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة لعلمنا أن من الصعوبة بمكان أن يغضّ الإنسان طرفه عنهما؛ لأنهما كانا مثالاً للخسّة والاعتداء.

وقف عمرو بن العاص ليبيع دينه وهو يعلم من هو علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم في لحظة من لحظات يقظة الضمير كتب إلى معاوية، وذلك لمّا أخذ معاوية منه مصر وأعطاها لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز، كتب إليه قصيدته الجلجليّة المشهورة:

معاويةُ الفضلَ لا تنسَ لي	وعن موطن الحقّ لا تعدلِ
نسيتَ محاورةَ الأشعري	ونحنُ علىٰ دومةِ الجندلِ
ولولاي كنت كمثل النساء	تخاف الخروج من المنزلِ

---

(١) كما تمهّل في قتل عمرو بن ودّ حينما بصق عليه؛ حتى لا يداخل قتله غضبُه لنفسه عليه السلام.

(٢) انظر ج ١ ص ٣٨٩، ج ٣ ص ٨ من موسوعة محاضرات الوائلي.

تبعناك من جهلنا يابن هند | على البطلِ الأعظمِ الأفضلِ
وحيث تركناك أعلى النفوس | نزلنا إلى أسفلِ الأرجلِ
وإن كان بينكما نسبةٌ | فأين الحُسامُ من المنجلِ
وأين الثريا وأين الثرىٰ | وأين معاوية من علي

إلى أن يقول:

وأعطيت مصر لعبد العزيز | وأعطيتني زِنة الخردلِ[(١)]

هذا هو موضع الشاهد.

وعمرو بن العاص هذا كان يوماً ما يصف علياًعليه السلام بأنه تلعابة يداعس ويعافس، وأن فيه دعابة[(٢)]، وما ترك سيفاً إلّا شهره في وجه هذا البيت الطاهر. ولكنها نفس علي الكبيرة التي تأبىٰ أن تنحطّ إلى هذا الدرك، أو تنزل إلى هذا المستوىٰ المنهزم. لقد كان عليعليه السلام بطلاً يقارع الأبطال ويعفّ عن المنهزمين والجبناء.

أما بسر بن أرطاة فقد ملأ الأرض من دماء المسلمين، وقتل حَمَلةَ القرآن الكريم، وأشبع البلدان التي مرّ بها قتلاً وتنكيلاً، وقد أراق الدم في بيت عليعليه السلام، فقد قتل طفلين لعبيد اللّه بن العباس حتىٰ جُنّت اُمهما[(٣)]. وبسرٌ هذا هو الذي ملأ اليمن دماً، وقد سقط بين يدي علي بن أبي طالبعليه السلام فعاد بعورته، وأدار عليعليه السلام وجهه عنه، ووقف شاعر من الشعراء

(١) انظر: الغدير ٢: ١١٧ ـ ١١٨، شرح نهج البلاغة ١٠: ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) وردت علىٰ لسان عمر بن الخطاب كما في الإيضاح (ابن شاذان): ١٦٣، ١٦٤، ٢٦٣، ٢٣٧، تاريخ المدينة ٣: ٨٨٢، أنساب الأشراف ٥: ١٦، منتخب كنز العمّال ٥: ١٨٩. وعلىٰ لسان عمر بن العاص كما في المصدر نفسه: ٤٩٨، أو كما نقلها عنه أمير المؤمنينعليه السلام في نهج البلاغة / الخطبة: ٨٤.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

يصف فعلته وفعلة عمرو بن العاص قائلاً:

أفـي كـلّ يـومٍ فـارسٌ تـندبونه له عورةٌ وسـط العـجاجة بـاديهْ
يكـفّ بـها عـنه عـلي سـنانَهُ ويضحك منها بالخلاء مـعاويهْ[1]

لقد وقف أول ما وقف في طريقه الحسد؛ لأن هذا السيف يحسد علىٰ ما فيه من قوّة وفتوّة، وفتك وبطولة، وهذا الجسد المتكامل الذي يأخذ صفة الأسد، وهذه الروح القويّة التي ما انهزمت، وهذا التـوجّه الصـلب الذي يقول: «**ما لقيت أحداً إلّا أعانني علىٰ نفسه**»[2]. هذه كلّها جديرةٌ بأن تحسد.

ولمَ لا تحسد مثل هٰذه الروح، ولقد رأينا علياً عليه السلام يأبى أن يقابل بالمثل من يقابله بأشدّ أنواع الحقد، بل يترفّع تماماً عن ذلك؟

وأي واقعة لم نرَ فيها السمو عند علي عليه السلام؟ رأيناه بـعد واقـعة البـصرة والقتلىٰ خمسة وثلاثون ألفاً تقريباً، ولكنه عليه السلام يبقىٰ تلك النفس المطمئنّة، وذلك الجأش الرابط والثابت، وتلك الروح الكبيرة لينادي: «**لا تجهزوا علىٰ جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تهيجوا النساء بأذىٰ**»، ولينادي: «**لا يصلن لزوجة رسول الله صلى الله عليه وآله منكم أذىٰ**». ويأتي ليقف علىٰ رأس المرأة ليقول: «**ما أنصفك الذين أخرجوك من بيتك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك**»[3].

لله أنت يابن أبي طالب، ليتك تسمع استشهادها بهذا البيت في مـثل هٰذه الليلة وهي تقول:

---

(١) الفصول المهمة (ابن الصباغ المالكي): ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣.
(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٣١٨.
(٣) شجرة طوبىٰ ٢: ٣٢٤، وقعة الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٦.

وإن يكُ نـائياً فـلقد نـعاهُ نعيٌّ ليس في فيه الترابُ[1]

هذه الروح التي تحنو علىٰ من أشبعها طعناً لتغمره بالعطاء والرحمة، لا شك أنه يحسد عليها، فعلي عليه السلام يحسد علىٰ كلّ صفة منحتها السماء إيّاه؛ سواءً في الروح أو في الجسد.

يقول الحاكم في (المستدرك): «قال عمر بن الخطاب: ثلاث خصال لعلي بن أبي طالب لو أن لي واحدة منها لكان أحبّ إليّ من حمر النعم. قيل له: ما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: إن علي بن أبي طالب أخذ الراية يوم خيبر، وإنه تزوج فاطمة، وإنه سكن المسجد مع النبي صلى الله عليه وآله يحلّ له ما يحل لرسول اللّه صلى الله عليه وآله»[2].

فعلي عليه السلام حُسد على مكانته من النبي صلى الله عليه وآله، وحسد على ما حباه اللّه من المزايا، وحسد على هذا الخطّ الناصع الذي لم تدنّسه نقطة سوداء من بدايته إلى نهايته، وحسد على الجبين الذي ما سجد لصنم، وعلى الروح التي ما استكانت إلّا لله، وعلى الجسد الذي فنيت كلّ ذرّة فيه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

ومن هنا سئل الخليل بن أحمد الفراهيدي: ما بال الناس هجروا علياً عليه السلام مع قرباه من النبي صلى الله عليه وآله وموضعه من المسلمين، وغناه في الدفاع عن المسلمين؟ فقال: واللّه لقد غلب نوره أنوارهم، وغلبهم على كلّ فضل فهجروه، والشكل إلى أشكاله أميل[3].

(١) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥. حيث إن العرب يقولون لمن جاء ينعى عزيزاً عليهم: ملأ اللّه فمك تراباً، وهي هنا تقول: لا ملأ اللّه فمه تراباً.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٣٥، ورواه أحمد عن ابن عمر، انظر مسند أحمد ٢: ٢٦.

(٣) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ ـ ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، باختلاف.

نعم، بان عن مجتمعه بالمزايا التي رفعته وميّزته، فحُسد، ولمّا حُسد وقف الحسد في طريقه، ولمَ لا يحسد وكلّ جوانبه جديرة بأن تحسد، سيما من ذوي النفوس الضعيفة؟

العامل الثاني: الحقد

فلقد تعرّض عليﷺ لحقد بلغ به من الأمر أن تقف إحداهن لتقول:

لاهُمَّ فاعقر بعلي جمله ... ولا تبارك ببعير حمله[1]

وهذا هو الحقد عينه الذي بلغ بالبعض حدّاً أنه يتقرب إلىٰ اللّه تعالى بشتمه كلّ يوم سبعين مرة لما يقارب القرن من الزمان، ورحم اللّه الشاعر حيث يقول:

شتمته بالشام سبعين عاماً ... لعن اللـه كهلها وفتاها[2]

فكانت منابر المسلمين لا تفتتح إلّا بشتم عليﷺ، ولكن، هل ضرّه ذلك الشتم؟ كلا، بل إن الحقائق تبقى كما هي لا ينالها التشويه الأعمى، ويبقىٰ ذلك الشتم عطراً ينثر على تاريخ الإمام عليﷺ[3].

ومن شواهد الحقد الذي تعرض له عليﷺ أن علي بن عبد اللّه بن عباس كان يكنّىٰ أبا الحسن، فدخل يوماً على عبد الملك بن مروان،

---

(١) القائلة هي أُخت علي بن عدي من بني عبد العزّىٰ بن عبد شمس. تاريخ الطبري ٣: ٤٩٣، الإصابة ٥: ٥٣ / ٦٢٧٧.

(٢) دراسات في التاريخ الإسلامي: ٢٣٠.

(٣) انتقص ابن لحمزة بن عبد الله بن الزبير أمير المؤمنينﷺ فقال له أبوه: يا بني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلّا هدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا، أما ترى علياً وما يُظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكأنما يكشفون عن الجيف؟ جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩، وقريب منه ما في المحاسن والمساوئ: ٤٠، البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

فقال له عبد الملك: أنت علي أبو الحسن؟ قال: نعم. فقال عبد الملك: واللّه لا أجمعهما لك، عليٌ وأبو الحسن؟ إما أن تغيّر اسمك أو أن تغيّر كنيتك. فاضطر إلى أن يغيّر كنيته[١].

فلم يكن عبد الملك بالذي يطيق أن يسمع اسم علي عليه السلام و كنيته مجتمعتين، بل ولا منفردتين.

ويرسل الرشيد وهو ابن عم علي عليه السلام خلف أحد العلماء، وقد أعطى رأياً لعلي عليه السلام في مسألة فقهيّة، فيقول له: ألم تعلم أنّا نهينا أن يذكر لهذا الرجل رأي؟ إياك أن أسمع ذلك منك مرّة أُخرى.

هكذا بلغ الحقد بالناس الذين عاصروه والذين جاؤوا من بعده، فالذين عاصروه ما شكروا له مواقفه بل حقدوا عليه، والذين جاؤوا من بعده ما اعترفوا بما أسداه لهم من خير، بل وقفوا يأكلهم الحقد عليه. وهكذا أخذ الحقد طريقه حتى إلى تاريخه (صلوات الله وسلامه عليه).

ومن الغريب أنك ترى أن التاريخ إذا مرّ بهذا الرجل فقد توازنه، والحال أنه عليه السلام ليس له ذنب، فما ذنبه إذا أمره النبي صلى الله عليه وآله عن اللّه تعالىٰ بالقتال[٢]؟ وما ذنبه إذا كان عدد القتلىٰ في بدر سبعين وكان نصفهم أو أكثر بسيفه؟ وما من شكّ أن هذه الدماء لعبت دوراً كبيراً في تحديد مكانته، وقد اختزنت له قريش هذا الحقد.

العامل الثالث: منهجه عليه السلام في تقديم العامّة على الخاصّة

وهذا المعنى واضح في عهده لمالك الأشتر رضي الله عنه، وفي تصرّفه أيّامَ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٥، وفيه أنه أغراه بمئة ألف كي يغيّر كنيته أوّلاً.

(٢) في الخندق مثلاً.

حكمه. فقد كان يؤثر رضا العامّة علىٰ رضا الخاصّة، فليس عند علي عليه السلام أن يأخذ القوي أو صاحب الرئاسة حقّه ولا يأخذ الضعيف حقّه، وكان عليه السلام يقول: «القوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف عندي قوي حتى آخذ الحق له»[1]. لقد آثر رضا عامّة الناس؛ فتحوّل إلى أنة عند كلّ مريض، وألم عند كلّ جائع.. سمعناه وهو على منبره يقول: «واللّه لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفىٰ هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثىٰ وأكباد حرّى؟»[2].

فكان علي عليه السلام دمعةً في عين كلّ يتيم، وحسرة عند كلّ محروم، وسيفاً يُنتضى ليجلب الحقّ لمن أُخذ منه، وليقف في وجه الباطل. فعلي عليه السلام آثر العامّة على الخاصّة فحقدت عليه الخاصّة.. عمد إلى الرؤوس الكبيرة التي كانت تصول على الرؤوس الصغيرة لتسلبها رغيفها أو تأخذ ثوبها فذادها عنها، وأعاد الحقّ إلى نصابه، وكان في أوّل خطبة له على المنبر عندما انتهت إليه الخلافة يقول: «واللّه لو وجدتها مهرت بها النساء لرددتها، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»[3].

لقد أعاد (صلوات الله وسلامه عليه) للمسحوقين مكانتهم،

---

(١) ورد أنه عليه السلام لمّا حضرته الوفات جاء الخضر ووقف علىٰ باب الدار مسلّماً بسلام طويل منه: «القوي العزيز عندك ضعيف ذليل حتىٰ تأخذ منه الحق». انظر: كمال الدين: ٢١٨ ـ ٢١٩، بحار الأنوار ٤٢: ٣٠٣ ـ ٣٠٥.

(٢) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ١٥.

وللمغصوب حقّهم حقوقهم، ولليتامى حقّهم من الرعاية والعناية والعطف؛ فحملت الخاصّة السيوف في وجهه وحقدت عليه.

العامل الرابع: التسوية بالعطاء بين الناس

وهذه إحدى العقبات التي وضعت في طريقه (صلوات الله وسلامه عليه) واصطدم بها، وقد ألّبت عليه هذه التسوية الخاصّة من المجتمع. فعن الحرث قال: كنت عند علي فأتته امرأتان فقالتا: يا أمير المؤمنين: إننا امرأتان فقيرتان مسكينتان. فقال: «**قد وجب حقّكما علينا وعلى كل ذي سعة من المسلمين إن كنتما صادقتين**». ثم أمر رجلاً فقال: «**انطلق بهما إلى سوقنا فاشترِ لكل واحدة منهما كرّاً من طعام وثلاثة أثواب وأعط كلّ واحدة منهما من عطائي مئة درهم**». فلما ولّتا سفرت إحداهما وقالت: يا أمير المؤمنين، فضّلني بما فضّلك الله به وشرّفك. قال: «**وبماذا فضّلني الله وشرّفني؟**». قالت: برسول الله صلى الله عليه وآله. قال: «**صدقت، وما أنت؟**». قالت: امرأة من العرب، وهذه من الموالي. قال: فتناول أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً من الأرض ثم قال: «**قد قرأت ما بين اللوحين فما رأيت لولد إسماعيل على ولد إسحاق عليهما السلام فضلاً ولا جناح بعوضة**»[1].

ثم قال: «**كلّكم لآدم وآدم من تراب**»[2].

لذلك ترك علي عليه السلام القلوب تشتجر عليه حقداً، وتأبى أن تخضع لهذا اللون من التصرّف.

لمَ لا يحقد عليه عمرو بن العاص؟ وقد دخل عليه بعد البيعة مباشرةً، وعلي عليه السلام مشغول بأُمور المسلمين، فأوعز علي عليه السلام إلى غلامه بأن يطفئ

(١) أنساب الأشراف: ١٤١.

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

السراج، ويحضر سراجاً آخر فسأله: لماذا؟ فقال: «كان زيته من بيت المسلمين ولا ينبغي أن نصاحبك في ضوئه»[١].

فعلي عليه السلام يأبى أن يميّز هذا الرجل عن غيره وهو يعلم من هو في تأثيره وخطره، ومن هو إذا أراد أن يعيث أو يعبث.

أمّا هو عليه السلام فلم يكن يتميّز في عطائه عن غلامه قنبر[٢]، فيأكل كما يأكل، وكان عليه السلام يضع على الموضع الممزّق من ثوبه قطعة من الليف وينتظر حتى يخرج عطاؤه ليشتري به ثوباً[٣]، ويأبى أن يمدّ يده إلى بيت مال المسلمين ليشتري له به ذلك الثوب.

وكان إذا أراد أن يشتري ثوباً ذهب إلى السوق فاشترى ثوباً من الكرابيس بثلاثة دراهم وآخر بدرهمين، ثم يقول لقنبر: «يا قنبر خذ الذي بثلاثة دراهم»[٤]. وكان يجول في سوق الكوفة وهو يصيح: «من يشتري مني هذا السيف؟ واللّه لو كان عندي ثمن إزار ما بعته»[٥]. فيقول له رجل من أهل السوق: أنا أُسلفك إلى أن يخرج عطاؤك. فيجزيه خيراً، ويستلف منه ثمن الثوب حتى يخرج عطاؤه فيعطيه. وكان الإمام الصادق عليه السلام يقول عن أمير

---

(١) المناقب المرتضوية (المولىٰ صالح الحنفي): ٤٥، وفيه أن الداخل عليه طلحة والزبير.

(٢) وقد رأينا أنه عليه السلام لم يميّز حتى أخاه عقيلاً، وذلك حينما جاءه يحمل صبيانه وهم جياع، أو كما يقول عنهم أمير المؤمنين: «فرأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم، كأنما سوّدت وجوههم بالعظلم». نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

(٣) فهو عليه السلام القائل: «ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ». نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٤) روضة الواعظين: ١٠٧، وقد مرّ في ص ٨٢، ١١٤ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٥) الغارات ١: ٦٣، مكارم الأخلاق: ١١٤.

المؤمنين عليه السلام: «إنه ليعمل عمل رجل كان وجهه بين الجنة والنار، يرجو هذه ويخاف عقاب هذه»[١].

العامل الخامس: أنه سبق زمانه بمئات السنين

فهو عليه السلام لم يتّسع له وعاء عصره لا لنقص فيه، وإنما لنقص في عصره، فقد ضاق به مجتمع الكوفة؛ لأن حجمه عليه السلام يحتاج إلى وسط أكبر من هذا الوسط؛ فلم يتفاعل معه عصره. ولذا نراه يصعد المنبر فيقول: «اللهم إني قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني. اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء»[٢].

ثم يرى النبي صلى الله عليه وآله في المنام فيقول: «يا رسول اللّه، ما رأيت من أُمّتك من الأود واللدد؟». فيقول له صلى الله عليه وآله: «ادعُ عليهم». فيقول: «اللهم أبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني»[٣].

وكان يدعو أن يلحق بأحبائه، فكان يقول: «أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا علىٰ الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ واين ذو الشهادتين؟... أوّه علىٰ إخواني الذي تلوا القرآن...»[٤].

نعم، لقد ضاق به عصره، وكانت قريش تتربّص به الدوائر، ثم وجد الحقد طريقه إليه في مثل هذه الليلة، وهذا الحقد مهّدت له قريش وجعلت السيف المباشر الذي حمله هو سيف الخوارج.. الخوارج الذين كان منهم

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٧١ / ١٧٥، الإرشاد ٢: ١٤٢.

(٢) الغارات ٢: ٦٣٦، تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

(٣) شرح الأخبار ٢: ٤٣٠ / ٧٧٩، مقاتل الطالبيين: ٢٥، الطبقات الكبرىٰ ٣: ٣٦، شرح نهج البلاغة ٩: ١١٨ ـ ١١٩، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ١٢٨ / ٢٨٥٠.

(٤) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

ثلاثة في أداء العمرة وقد اجتمعوا في مكّة وتذاكـروا الأُمـراء فـعابوهم وعابوا أعمالهم، فقالوا: لو أننا شرينا أنفسنا لله فأرحنا البلاد والعباد من هؤلاء: معاوية، وعمرو بن العاص، وعلي بـن أبـي طـالب! فـقال عـبد الرحمن بن ملجم: أنا أكفيكم علياً. وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية.

فتعاهدوا على ذلك وتفرقوا، وكان الموعد في شهر رمضان في الليلة التاسعة عشرة، وطرحوا الأمر للأشعث بن قيس. ويبدو أنه كان على علم بالواقعة[١].

وقد نقل بعض المؤرّخين أن عدم خروج عمرو بن العاص فـي تـلك الليلة لم يكن لمرض، وإنما أُبلغ بأنه سيتعرّض للقتل.

ويقول أحد المؤرّخين: إن معاوية خرج إلى المحراب هذه الليلة وقد كفّر درعه تحت ثيابه، وإن الضربة التي وقعت عليه لم يكن يـقصد بـها القتل. وظروف الأحوال تساعد على هذا المعنى.

أما عبد الرحمن بن ملجم فقد سقى سيفه السمّ وكمن لعلي عليه السلام في مثل هذه الليلة، يقول ابن عبدون:

وليـتها إذ فـدت عـمراً بـخارجـةٍ فدت علياً بمن شاءت من البشـر[٢]

يقول المؤرخون: عندما دخل هذا الشهر المبارك كان علي عليه السلام يـوزّع إفطاره بين بيت عبد اللّه بن جـعفر وبـيت ابـنه الحسـن عليه السلام وبـيت ابـنه الحسين عليه السلام، فكان كلّ ليلة يفطر عند أحدهم على شيء من الخبز والملح،

---

(١) تهذيب التهذيب ٣: ٦٥.

(٢) كشف الغمة ٢: ٦٦، سبل السلام (العسقلاني) ٢: ١١.

وإن زاد فبشيء من اللبن، وكان يكرر هذين البيتين:

تلكم قريش تمنّاني لتقتلني فلا وربّك ما ضرّوا وما ظفروا
إن يقتلوني فرهن ذمّتي لهُمُ بذاتِ ودقينِ لا يعفو لها أثرُ[1]

حتى قالت أُمّ كلثوم عليها السلام: «يا أبتاه، مالي أراك هذه الليلة لا تذوق طعم الرقاد؟». فقال عليه السلام: «لا يا بنيتي، إن أباك قتل الأبطال وخاض الأهوال، فما دخل الجوف له خوف، وما دخل في قلبي رعب، وليس منا من يتطيّر، ولكن للموت علامات ودلالات يتبع بعضها بعضاً»[2].

تقول أُمّ كلثوم: عندما حان وقت الإفطار ليلة التاسعة عشرة من رمضان، رفعت لأبي أمير المؤمنين عليه السلام طبقاً فيه إفطاره، وكان فيه إدامان، فالتفت إلي قائلاً: «بنية، ارفعي أحد الإدامين، أما علمت أن من طاب طعامه وشرابه طال وقوفه بين يدي الله؟».

تقول أُمّ كلثوم: فلما أردت أن أرفع بعض النباتات التي كانت في الطبق قال: «لا، ارفعي اللبن».

فهو الذي كان حينما يأكل رغيف خبز أو تمرة يمسح بيده على بطنه.

في مسؤوليّة الآباه تجاه الأبناء

ثم إن هذه الوصايا التي ذكرها عنه القرآن الكريم تتضمّن أُموراً كثيرة، وأول ما يلفت النظر فيها تعبير القرآن الكريم بقوله: ﴿يَـابُنَيَّ﴾، ونحن

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٦٦ ـ روق، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٢٧٩ ـ روق، ٥: ١٦٨ ـ ودق.
(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٧، باختلاف.

نعرف أن التصغير يأتي إمّا للتحقير، أو للتعظيم، أو للرقّة والشفقة. وهذه الأُمور تحدّدها القرائن، فلقمان عليه السلام حينما يقول لابنه: ﴿يَابُنَيَّ﴾، فالقرينة هنا تعيّن المراد من التصغير، وهو الشفقة.

ونفهم من هذه المحاورة أن القرآن الكريم يريد أن يحدّد لنا مسؤوليّة الآباء تجاه الأبناء؛ لأن بين الآباء والأبناء مسؤولية متبادلة؛ فالأب والأُمّ ـ باعتبارهما السبب الطبيعي في تكوين الولد ـ لابدّ أن يرسما له الطريق الطبيعي في الحياة كيلا يتعثّر. فالولد في أوّل حياته قليل التجارب، وإدراكه ليس عميقاً. لأن الإدراك لون من ألوان المهارة، وهو مهارة فكريّة، والتجارب تعمّق هذه المهارة.

فالأب يعتبر مجرّباً، وعليه أن يضع خلاصة تجاربه أمام الأبناء باعتبار أنهم وجدوا بسبب الآباء، وبلحاظ أنهم السبب الطبيعي في وجودهم، فيفترض بهذا السبب الطبيعي أن يلعب دوره في التوجيه كما لعب دوره في الإيجاد. فالأب والأُمّ سبب في نعمة الوجود على الابن، ولكن إلى جانب نعمة الوجود هناك نعمة التربية، فليست مسؤوليّة الآباء أن يتسبّبوا في وجود الأبناء أو إخراجهم إلى عالم الوجود، وإنما تكمن حقيقة مسؤوليتهم في أن يجنّبوا أولادهم المصير المظلم والاعوجاج في السلوك. والقرآن يريد أن يبيّن لنا هذه المسؤولية.

وقد عرف عن الاسكندر أنه كان يحترم معلّمه أكثر من احترامه لأبيه، فقيل له: لماذا؟ فقال ما حاصله: لأن أبي أخرجني جسداً من دم ولحم، وهذا ليس وجوداً مشرّفاً لأنني أُشارك فيه حتى الحشرات، أما المعلّم فقد أنشأني فكراً، والإنسان إنسان بفكره لا بدمه ولحمه؛ ولذا يقول ابن الشبلي البغدادي:

صــحةُ المــرءِ للسـقامِ طـريقٌ	وطــريقُ الفـنـاءِ هــذا البــقاءُ
بــالذي نـغتذي نـموت ونـحيا	أقـــتَلُ الداءِ للـــنفوسِ الدواءُ
قــــــبّح اللّـــــهُ لذّةً لأذانـــــا	نـــــالها الأُمّـــــهاتُ والآبــــاءُ
نحن لولا الوجودُ لم نألمِ الفقـ	ـــرَ فـــإيجادُه عــلينا بــلاءُ

فنحن نتألّم لأننا وُجدنا وسوف نفارق هذا الوجود، ولو لم نـوجد لم يوجد الألم. وهذه نظرة تشاؤمية، لكنها تكشف عن أن الأبوين عـليهما مسؤوليّة كبيرة تجاه الولد، فالمفروض بالأب أن يضع خـلاصة تـجاربه وخلاصة عقائده وأفكاره أمام ابنه. ونحن لا نطالب الأب بأن ينقل لابنه ما يحمل من موروثات أو قضايا خرافيّة أو خلفيّات غير مطلوبة، وإنما نطالبه بأن ينقل له عقيدته الصحيحة وخُلُقه، ويعلّمه تجارب الحياة بقدر حدود معرفته: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وسعها﴾[1]. فلا يمكن أن نطلب من أب عامي أن يهذب ابنه غاية التهذيب، وإنما عليه أن يزوّده بخلاصة التجارب التي مرّ بها في الحياة؛ لأن اللّه قد حمّله مسؤوليّة ذلك.

الصبر على مشاكل الحياة

أي اصبر على ما أصابك من مشاكل الحياة بشكل عامّ، فالدنيا ليست بدار رخاء، يقول تعالى فيما أوحىٰ إلىٰ داود عليه السلام: «**إني وضعت خمسة فـي خمسة، والناس يطلبونها في خمسة غيرها فلا يجدونها: وضعت العلم في الجوع والجهد وهم يطلبونه في الشبع والراحة فلا يجدونه، ووضعت العزّ في طاعتي فهم يطلبونه في خدمة السلطان فلا يجدونه، ووضـعت الغـنىٰ فـي القـناعة[2] وهـم**

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) قال أبو ذؤيب:

يطلبونه في كثرة المال فلا يجدونه، ووضعت رضاي في سخط النفس وهم يطلبونه في رضا النفس فلا يجدونه، ووضعت الراحة في الجنة والناس يطلبونها في الدنيا فلا يجدونها»[1].

فأنت لا تجد راحة في كلّ شيء، فحتّى ما تتصوّره نعيماً فهو ليس راحة، بل هو ليس هو أكثر من دفع أذى، ونحن نسميه لذّة، وإلّا فإن الدنيا ليس فيها لذّة واقعيّة.

فالقرآن يقول: إن الدنيا محيط سوف تنزلون إليه، وسوف تتعرّضون فيه إلى مصائب وآلام ومشاكل، فإيّاكم أن تنهاروا أمام هذه المشاكل، بل عليكم أن تصبروا أمامها، وألّا تتّبعوا ما يسخط اللّه في تعاملكم معها.

كان ربعي بن خراش أحد الأبرار من بني عبس وكان يعيش في الكوفة، فخرج اثنان من أولاده يقاتلون الحجّاج مع عبد الرحمن بن

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا تردّ إلى قليل تقنع

الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٣٨، أُسد الغابة ٥: ١٩٠، الإصابة ٧: ١١٠، ١١١.

وقال آخر:

فيغنىٰ غني النفس إن قلّ ماله ... ويغنىٰ فقير النفس وهو ذليلُ

تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ١٠.

وقال الشيخ كاشف الغطاء:

يا طالب الدنيا الدنيّة إنها ... كأس الردىٰ وقرارة الأقذارِ

وقال أبو الفرج الساوي:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

فلا يغرركُمُ مني ابتسام ... فقولي مُضحك والفعل مبكي

شجرة طوبىٰ ١: ١٣٧، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٥.

(١) عدّة الداعي: ١٦٦، عوالي اللآلي ٤: ٦٢ / ١١.

الأشعث في خروجه عليه، فلما انهزم بعد ذلك انهزم معه هـذان الولدان، فطلبهما الحجّاج وسأل عنهما فقيل له: أبوهما يعرف مكانهما، وهو رجل لا يكذب، فابعث خلفه واسأله. فأحضره الحجّاج، فقال له: أين ولداك؟ قال: ماذا تريد منهما؟ قال: أُريدهما. قال: إنهما عندي في البيت. قال له الحجّاج: تقول ذلك وأنت تعلم أني سوف أضرب عنقيهما؟ قال: واللّه هما أحقر في عيني من أن أعصي اللّه من أجلهما. فأكبر الحجّاج هذا الموقف واهتزّ من أعماقه، وقال: واللّه لا يضرّك الصدق عندي، اذهب وأخبرهما أنهما آمنان.

وهذا أُنموذج مشرّف من الخلق العالي والتربية التي يصبّر نفسه عليها، وهناك نماذج أُخرى تندرج تحت هذا النوع من الخلق في الصبر عند المصيبة والتصبّر عليها؛ فتمرّ عليه المصيبة فيصمد أمامها. يقول أحدهم: مررت بمقبرة فرأيت امرأة تبكي وحولها أربعة قبور، فسألتها: من هؤلاء؟ قالت: أولادي الثلاثة وأبوهم صرعوا في ساعة واحدة. ثم وقفت على القبور وراحت تنشد:

صبرتُ وكانَ الصبرُ خيرَ وسيلةٍ ... وهل جزعٌ مني يؤدّي فأجزعُ

صبرت على ما لو تحمّل بعضَه ... جبالٌ برضوى أصبحت تتصدّعُ

وفاضت دموعي حسرةً فرددتها ... إلى ناظري فالعينُ بالقلبِ تدمعُ[1]

---

(١) مسكّن الفؤاد: ٧٧ ـ ٧٨.

النبي داوود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[1].

نبي الله سليمان عليه السلام يعتبر الملك الثاني لبني إسرائيل؛ حيث كان الملك الأول «طالوت». وهو عليه السلام جمع إلى جانب الملك النبوّة، أي أنه كان يمسك بزمام السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، وكانت فترة ملكه مع أبيه داود عليهما السلام (٧٠) سنة. وخلال هذا الحكم استقرّت أُمور الدولة إلى حدّ ما، ثم حدث بعد ذلك صراع وانقسمت الدولة إلى قسمين: مملكة يهوذا، ومملكة إسرائيل، وكانت بينهما حرب طاحنة، إلى أن جاء نبوخذ نصّر فقضىٰ عليهما معاً، وشتتهما فلم تقم لهما قائمة إلى سنة (١٩٤٨)م حيث أسّسوا دولتهم الجديدة.

يقول المؤرّخون: إن نبي الله داود عليه السلام أثناء حكمه كان يقوم بجولات بين الناس ويسألهم، حيث إنه يسمع مايقال فيه، و«ألسنة الناس أقلام الحقّ»، فأراد أن يتعرّف مبلغ رضاهم عنه، فسأل أحدهم: «ماتعرف عن داود؟». فقال له: نعم الرجل؛ يقول ويعمل بالحقّ. وأثنىٰ عليه ثناء حسناً، فقال له: «هل ترىٰ به عيباً؟». قال: بلىٰ. قال عليه السلام: «ماهو؟». قال: إنه يأكل من بيت المال، إن خير الناس من يأكل من كسبه.

فرجع النبي داود عليه السلام متألّماً، ووقف في محرابه، وقال: «أي رب، علّمني

---

(١) النمل: ١٦.

كسباً تغنيني به عن بيت المال». فألان اللّه تعالى له الحديد[١]، فأخذ يصنع من الحديد دروعاً ويبيعها، ثم يأخذ ثمنها ويقسمه أثلاثاً؛ فيعطي ثلثه لبيت المال، ويتصدق بثلثه الثاني، والثلث الآخر يعيش به. قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢]، فكان يتناول طعامه من كدّ يده.

فأكل الإنسان من عمله ومن كدّ يده يعدّ من أعظم المقرّبات إلى اللّه عزّ وجل؛ لأن الإنسان بالعمل يشعر بالكرامة والاعتزاز بالنفس، وهذا هو الذي دفع بالإمام علي عليه السلام إلى أن يعمل ويأخذ مسحاته ويردّد هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[٣]، وكان عرقه يمتزج بالتراب. وكان لايميّز نفسه الشريفة بالعطاء من بيت المال حتىٰ عن قنبر[٤]، لكن الجماعة الذين عاصروه لم يدركوا أسرار عظمته ونبله وحقيقة شخصيّته.

وهذه الآية يصنّفها المفسّرون ضمن الآيات المختصّة بالفقة السياسي، حيث إنه قد أُثير صراع حول أن النص إما أن يفهم موضوعيّاً ـ أي بما يحمله اللفظ من معنىٰ، فقط ـ فالماء يدل على السائل الذي نشربه، وإما أن يُفهم منه شيء آخر يؤوّل إليه.

المبحث الأول: هل يورّث الأنبياء عليهم السلام؟

إن قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ هو في الميراث المألوف بين

---

(١) المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٢٤٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٣٥.

(٢) سبأ: ١٠ ـ ١١.

(٣) الحاقة: ١٨.

(٤) وقد مرّ بنا قصة الثوبين اللذين اشتراهما وأعطىٰ غلامه قنبراً أحسنهما. انظر ص ٨٢، ١١٤، ٢٣٧ من موسوعة محاضرات الوائلي.

الناس ؛ لأن الآية بضميمة آيات[١] وروايات أُخرى[٢] تؤكّد أن الأنبياءعليهم السلام كباقي الناس يرثون بعضهم بعضاً. فالمسألة إذن عامة ولايتميّز بها الأنبياءعليهم السلام عن غيرهم من سائر الناس، فكما أن الناس يأكلون ويشربون ويعملون ويتزوّجون فكذلك همعليهم السلام يفعلون مثلهم. لكن هناك أشياء يختصّ بها النبيصلى الله عليه وآله ؛ منها أنه يستطيع أن يتزوّج من أكثر من أربع نساء.

ونظرية الميراث ترتبط بالقابليّات الفطريّة، فعندما يموت الأب فإنّ الابن يرث جسداً ضخماً وذلك حسب الجينات الوراثية، فهم كما يعطون الخواصّ الوراثيّة، فكذلك عليهم أن يعطوا الخواصّ المـاديّة. هـذا مـن ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ إن الآباء إنـما يـلدون الأبـناء لتـبقىٰ مسـيرة الإنسانيّة ـ أي ليستمرّ النوع ـ وكذلك المادّة يحب أن تستمرّ، حـيث إن الأب يعطي ماله لأبنائه هكذا.

وكذلك فإنّ هذه المسألة ترتبط بمبدأ من مبادئ الاقتصاد الإسـلامي في تفتيت الثروة، فالثروة إذا تضخّمت عند الأب، فإن المـيراث يـجزّئها على الأولاد، وإن كانت الثروة لاتضخّم في الإسلام، لكنها ربما كانت من رباً أو غشّ أو استغلال.

قضيّة فدك ودعوى «لا نورِّث»

فنظريّة الميراث يتساوىٰ بها الناس جميعاً، ولهـذا وقـع خـلاف بـين

---

(١) انظر: النساء: ١٧٦، مريم: ٦، الأنبياء: ٨٩.

(٢) انظر: جامع البيان، المجلد: ١١، ج١٩: ١٧٢ حيث قال في تفسير قوله تـعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾: «ورث سليمان أباه داود العلم الذي كان أتاه اللّٰه في حياته، والملك الذي كان خصّه به علىٰ سائر قومه»، معاني القرآن ٥: ١٩٩ / ١٥، قوله: ويروىٰ أن سليمان ورثه النبوة والملك، زاد المسير ٦: ٦٠، وقد ذهب القرطبي في الجامع لأحكام القـرآن ١٣: ١٦٩ إلىٰ أن الملك غير المال. وليس بشيء؛ لأن المال من لوازم الملك يورث معه.

السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وبين الخلافة، حيث استشهد الخليفة بهذه الرواية: «نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث، ماتركناه صدقة». وقال: إن هذه الرواية تخصّص العمومات في القرآن؛ حيث إن القرآن يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾، و﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[1]، ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[2] وذلك بعد أن ادّعت (سلام الله عليها) أنها قد ورثت فدكاً من أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله.

وحديث «لا نورِّث» لم يروِه إلّا الخليفة أبو بكر، وقد انفرد بروايته. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإنّ التكليف عادة عندما ينزل فإنه يبلّغ لأهل الشأن والاختصاص أوّلاً، فمثلاً حينما امتنع ثعلبة عن أداء الحقّ الشرعي نزلت به آية، فبلّغه النبي صلى الله عليه وآله بذلك[3]. وكذلك خولة بنت خويلد لما ظاهر منها زوجها نزلت بها آية، فبلّغها النبي صلى الله عليه وآله بذلك[4]. أي أن الذي تنزل فيه آية يبلّغ بها أوّلاً وقبل أي أحد[5].

فنظرية الميراث عامّة. وحينها فنحن إما أن نقول: إن النبي صلى الله عليه وآله لايدري ماذا سيحدث بعده بما أنه لم يبيّن ذلك للزهراء عليها السلام، أو أنه صلى الله عليه وآله كان يدري لكنه سكت. لكن من حقنا هنا أن نتساءل: لماذا سكت ولم يستدعِ فاطمة ويقل لها: «نحن معاشر الأنبياء لانورِّث، ماتركناه صدقة»، فلا تطالبي بالميراث؟ وهذه الفكرة خطرت على شاعر أهل البيت عليهم السلام في هائيّته؛ حيث قال:

---

(١) مريم: ٥ ـ ٦. (٢) الأنفال: ٧٥.

(٣) انظر مستدرك وسائل الشيعة ٣١: ٢٥٦ / ١٥٢٨٩.

(٤) انظر: مجمع البيان ٩: ٤٠٨، تفسير القرآن العظيم ٤: ٣٤١.

(٥) ومن ذلك حديث إسطوانة التوبة، أو إسطوانة أبي لبابة، وستأتي آخر البحث إن شاء الله.

بضعةٌ من محمدٍ خالفت ما ... قال حاشا مولاتنا حاشاها

سمعته يقول ذاك وجاءت ... تطلبُ الإرثَ ضلّة وسفاها

هي كانت للّهِ أتقىٰ وكانت ... أفضلَ الناسِ عفّةً ونزاها

ولكان الجميلُ أن يُقطِعاها ... فدكاً ما الجميلُ أن يَقطَعاها

كان إكرامَ خاتمِ الرسلِ الها ... دي البشيرِ النذير لو أكرماها[1]

ومن ناحية أُخرى كيف يمكن أن تكون الزهراءعليها السلام قد جهلت آية نزلت في بيتها؟ فحيث توجد قرائن نذعن إليها فإننا نقول بذلك، لكن المسألة التي تأخذ هذا المنحى لم تكن بالشكل الطبيعي.

فالإمام عليعليه السلام جمع القرآن، وقد كتبه وشرح غامضه، حيث كان يسمع الشرح من النبيصلى الله عليه وآله، فليس من المعقول أن تجهل الزهراءعليها السلام معاني آياته. وإلّا كيف يعقل أن أوس بن ملك الذي يتطهّر ببوله ويعيش في الصحراء يفهم القرآن[2]، والزهراءعليها السلام لا تفهم معناه؟ إن هذا مخالف للفطرة، وعناد للواقع.

وعليه فالميراث نظام شامل ليس له علاقة بفرد دون فرد، والأنبياء كسائر الناس يرثون ويورّثون.

ثم إن الإسلام نظّم الثروة وأساليب انتقالها، وميراث النبيصلى الله عليه وآله لم يكن بذلك القدر الكبير الذي يستحق أن تحدث حوله هذه الضجة، فلماذا أُثيرت هذه الضجّة إذن؟

(١) الأبيات للسيّد الجذوعي. بيت الأحزان (القمي): ١٦٢.

(٢) ذلك أنه جاء أوس بن ملك وعائشة وحفصة وشهدوا عند أبي بكر أن النبيصلى الله عليه وآله قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث». انظر: الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٦٢، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

الزهراء عليها السلام استدلّت بعمومات القرآن: ﴿يُوصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾[1]، فهذه الآية الشريفة شاملة للنبي صلى الله عليه وآله وغيره، لكن أبا بكر ادّعى أن حديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورِّث، ماتركناه صدقة» قد خصّص العموم.

دعوى النحلة

وذلك بعد أن فشلت دعوى الميراث التي كانت الزهراء عليها السلام قد رفعتها، ومفادها أن فدكاً كانت نِحلة دفعها إليها النبي صلى الله عليه وآله، حينما نزلت الآية الكريمة: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[2]. فسأل النبي صلى الله عليه وآله من جبرئيل عليه السلام مستفسراً: «من هم ذوو القربى؟». فقال جبرئيل عليه السلام: «إن اللّه يأمرك أن تعطي فدكاً بُلغة لفاطمة، عوضاً عما أنفقته اُمّها في سبيل الإسلام». والإنفاق الذي كان من خديجة يفوق الوصف، فقد ذكر المؤرّخون أنه ما من بيت من بيوت مكّة إلّا كان يضارب بأموال خديجة[3]؛ فقد كان مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها. وقد ساقت هذه الأموال كلّها إلىٰ بيت النبي صلى الله عليه وآله، وانتهى الأمر بها أن تنام مع النبي صلى الله عليه وآله على جلد كبش.

فنادى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة وأعطاها فدكاً بحضور الشهود على أنه نحلة لها. وقد كانت يد الزهراء عليها السلام على فدك ستّ سنوات تتصرّف به، والمسلمون يرونها، والنبي صلى الله عليه وآله أقرّها، فلو كان خاضعاً للملكيّة العامّة لكان النبي صلى الله عليه وآله انتزعه منها، أو نصّ على أنه ملّكها المنفعة فقط لا الأصل.

---

(١) النساء: ١١. (٢) الإسراء: ٢٦.

(٣) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ ـ ٤٤٤ / ٤٦٧ ـ ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨ الدر المنثور ٤: ١٧٧.

ولكن لم يوجد من ذلك شيء.

ثم إن فدكاً كان للنبي خاصّة؛ لأنه ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ـ أي لم يأخذه المسلمون بقتال ـ وإنما أُخذ بصلح[١]، فقد تنازل أهلها عنه للنبي صلى الله عليه وآله وصالحوه مصالحة، وقالوا له: نصالحك على نصف أموالنا مقابل أن تقرّنا على هذه الأرض[٢]. فاستدعى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام وأنحلها فدكاً. وقد جرت هذه الهبة في بيت أُمّ أيمن (رضي الله عنها) بحضورها وبحضور أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام[٣]. ولذا ادّعت فاطمة عليها السلام عليه بدعوى النحلة.

وقد ردّها أبو بكر قائلاً: إن هذه ثروة، والمسلمون بحاجة إليها، ثم قال لها: نعطيك طعاماً وكساء فلا تحتاجين لشيء. فقالت عليها السلام: **«إن هذا نحلة أنحلنيه أبي»**. فقال: إن النبي حسب علمي لا يعطيكم هذا بأجمعه، بل يعطيكم حاجتكم، وما تبقّى يودعه في بيت المال.

دعوىٰ الخمس

فقالت له: «اذن أعطني سهم ذوي القربىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[٤] إن اليتامى يتامانا، والمساكين مساكيننا، وابن السبيل منا، واسم اللّه ذكر للبركة، وسهم

(١) يوجف عليه: يسرع إليه، أو تُحثّ الخيل علىٰ الإسراع إليه. لسان العرب ٩: ٣٥٢ ـ وجف.

(٢) سنن أبي داود ٢: ٣٧ / ٣٠١٦، تاريخ الطبري ٢: ٣٠٦، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٦: ٣١٧، شرح نهج البلاغة ١: ١٩٨، ١٦: ٢١٠.

(٣) تفسير القمي ٢: ١٥٥، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٨.

(٤) الأنفال: ٤١.

النبيﷺ وسهم ذوي القربى كلّه يعود لنا، فأعطنا حقّنا من خمس الغنائم وما يحصل للمسلمين من مواردهم». فقال: إن مبلغ علمي أن النبيﷺ لم يكن يعطيكم هذا كلّه، وإنما كان يسدّ حاجتكم فقط، ونحن نعطيكم بهذا القدر، فمن لم يكن له طعام أعطيناه، ومن كان يحتاج اللباس كسوناه، ومن أراد التزويج زوّجناه، وما زاد على ذلك يعود إلى بيت المال.

ثمّ قال لها: أتراني أُعطي الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقك، وأنت ابنة رسول اللّهﷺ؟ إن هذا المال لم يكن للنبيﷺ، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال، وينفقه في سبيل اللّه، فلمّا توفّي رسول اللهﷺ وليتُه كما كان يليه[١]. فهو يريد أن يقول لها: أنا أسدّ حاجتك، لكن لا أُعطيك سهم ذوي القربىٰ كلّه.

وهذه النقطة مازالت مثار تشنّج وخلاف. وليعلم بأن التاريخ لايعود، ولكن ينبغي على الباحث عندما يتناول آية من القرآن أن يذكر معناها بغضّ النظر عن ارتباطها بالتاريخ، فليفسّر تفسيراً موضوعيّاً وليخرج من أغلال التبعيّة. فنحن نأخذ من عطاء القرآن، فلنملك تفكيراً عملاقاً ولنتبع الدليل في تفسيرنا له.

فعلى المفسّر أن يتساءل ويقول: لماذا لايورث الأنبياء؟ فالمسلمون يروون قصة أبي لبابة، حيث تخلّف عن القتال مع اثنين، ثم ندموا وشدّوا أنفسهم على السواري في المسجد، وقالوا: لانبرح حتىٰ ينزل الأمر من اللّه بالرضا عنا. فنزلت آيات تبرّئهم وتعفو عنهم، وكانت فاطمةعليها السلام قادمة للمسجد، فقال النبيﷺ لها: «افتحي عنه وثاقة». فأرادت أن تفتح الوثاق

(١) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤.

من الإسطوانة فقال لها أبو لبابة: أنا أُريد رسول اللّه ﷺ أن يفتح لي بنفسه الحبل. فقال له النبي ﷺ: «دعها تفتح؛ فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ويرضيني مايرضيها»[1].

وهذه الواقعة يرويها تاريخ المسلمين، فألمها ألم رسول الله ﷺ وهي جزء منه. فهذه شهادة علىٰ أنها لاتعرف الكذب في أقوالها، فلماذا لم يؤخذ بقولها هنا؟

نرجع للآية الكريمة، فهي تقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾، أي أنها تقرّر أن مسألة الميراث عامّة لكل البشر، فوراثة سليمان أباه عليهما السلام تكون انسجاماً مع نظرية الميراث وفق العادة.

النبي سليمان عليه السلام يفسّر لغة الطير

يروي المؤرّخون أنه مرّ سليمان عليه السلام على طائر الورشان، وقد وقف علىٰ شجرة، فرآه يحرّك ذيله وعنقه، فقال عليه السلام لأصحابه: «أتعرفون مايقول هذا الطائر؟». قالوا: لايانبي اللّه. قال عليه السلام: «إنه يقول: إني أكلت نصف ثمرة، فعلىٰ الدنيا العفا»[2]. أي أنه لا تهمّني الدنيا مادمت شبعاناً. وهذه الكلمة علىٰ وجازتها فيها عبرة، أي أنه عليه السلام يريد أن يقول لأصحابه: إن الدنيا

(١) انظر: الروض الأُنف ٢: ١٩٦، وقال الإمام السهيلي صاحب (الروض الأُنف) بعد ذكر هذا الحديث: «فصلّىٰ اللّه عليه وعلىٰ فاطمة، فهذا حديث يدلّ علىٰ أن من سبّها فقد كفر، وأن من صلّىٰ عليها فقد صلّىٰ علىٰ أبيها ﷺ»، سبل الهدىٰ والرشاد (الصالحي الشامي) ١٠: ٣٣٨، ١٢: ٣٩٢.

(٢) جوامع الجامع ٢: ٧٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٦٥، فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ١١٥.

لا ينبغي أن تستبدّ بكم؛ فإنّ الإنسان تملأ بطنه قطعة من الخبز. كان الإمام علي عليه السلام يخرج من بيته ويمرّ بميثم التمّار ويشتري منه قوصرّة ويجلبها معه إلى البيت وهو يرتجز:

« أفلح من كانت له قوصرّهْ يأكل منها كلّ يوم مـرّهْ »[(١)]

وكان يمدّ يده إلىٰ بطنه ويمسح عليها ويقول: **« من أدخله بطنه النار فأبعده اللّه »**[(٢)]:

أأَبـا الحُسـينِ وتِـلكَ أروعُ كـنيةٍ	**وكِـلاكُـما بـالرَّائـعات قَـمِينُ**
لكَ فـي خَـيال الدَّهـرِ أيُّ مَـلامحٍ	**تَـروي السَّـنا ويُـتَرجِـمُ النَّسـرينُ**
في الصبح أنت المُستَحِمُّ منَ اللَّظىٰ	**واللَّـيل فـي المـحرابِ أنتَ أنـينُ**
تكسـو وأنتَ قـطيفةٌ مَـرقوعةٌ	**وتَـموتُ مـن جـوعٍ وأنت بَـطينُ**
آلاؤك البـيضاءُ طـوَّقتِ الدُّنَـا	**فَـلها عـلىٰ ذِمـمِ الأنـامِ دُيـونُ**[(٣)]

ومرّ النبي سليمان عليه السلام ذات يوم بطائر الهدهد، فرآىٰ صبيّاً يريد أن يصيده، فقال له: **« أيها الهدهد، احذر الفخّ »**. وذهب، فقال له: إن هذا صبي لاعقل له فسأُغالطه، فلا يستطيع أن يصيدني. فلما رجع وجده واقعاً في الفخّ، فقال له: **« ما الذي أوقعك في الفخّ وأنت تنظر الماء تحت الأرض؟ »**. قال: إذا جاء القدر عمي البصر[(٤)].

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث والأثر ٣: ٨٦ ـ القوصرّة، البداية والنهاية ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرّة: الوعاء الذي يكنز فيه التمر من البواري. الصحاح ٢: ٧٩٣ ـ قصر.

(٢) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، بحار الأنوار ٤٠: ٣٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٣) ديوان المحاضر ١: ١٩.

(٤) قريب منه ما في الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٧٨، تفسير القرآن العظيم ٣: ١٧٣.

أي أن الإنسان إذا أتاه قدره أُعمي بصره.

وهناك حادثة ثالثة، وهي أن النبي سليمان عليه السلام مرّ بصرد (جراد الزرع) وكان له صوت قوي، فقال عليه السلام لأصحابه: «إن هذا الصرد يقول: يانبي الله استغفروا اللّه».

ويعقّب أبو هريرة على هذه الرواية بقوله: ولذلك نهىٰ النبي صلى الله عليه وآله عن قتل الصرد؛ لأنه صوّام، وهو أول من صام يوم عاشوراء[1].

حول صيام عاشوراء

إن مسألة صوم عاشوراء وقع فيها اختلاف، وإن الرواية التي تروى عن النبي صلى الله عليه وآله هي أن اليهود كانوا يصومون هذا اليوم، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «ما هذا من الصوم؟» فقالوا: هذا اليوم الذي نجّىٰ اللّه فيه موسىٰ وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون فصامه موسىٰ شكراً. فقال صلى الله عليه وآله: «أنا أحقّ بموسىٰ وأحق بصوم هذا اليوم»[2].

وهذه الرواية قد اخترعت من بعد الفاطميين، والهدف هو إشغال الناس عن ذكر واقعة الطف فلا يستعيدون ذكراها، فقد أرادوا لهذه الواقعة أن تنطمس معالمها ويقضى عليها.

إننا نلتمس طريقنا إلى الحسين عليه السلام في كلّ حال وكلّ حين؛ لأنه طريقنا إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله؛ فهو عليه السلام قد جسد تعاليم الإسلام، وبهذا فنحن لا نمجّد لحماً، وإنما نمجّد موقفاً بطوليّاً خالداً في حقيقته هو كرامة للإسلام. فلماذا إذن هذا الموقف من تعظيمه؟

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٢٧٠، وليس فيه: يوم عاشوراء.

(٢) مسند أحمد ٢: ٣٥٩، باختلاف.

نرجع للرواية حيث عقّب أبو هريرة بقوله: إن النبيّ صلى الله عليه وآله نهىٰ عن قتل الصرد من أجل هذا، أي لأنه يدعو الناس للاستغفار من الذنوب.

فالذي يدعو الناس للاستغفار لايقتل، وأمّا الذي يدعو إلى كلمة «لا إله إلّا اللّه» فإنه يقتل، دخل رجل على عبد اللّه بن عمر وقال له: إن البق يصير علىٰ يدي فأضربها ويخرج الدم، فهل هو حرام أم لا؟ فقال: من أين أنت؟ قال: من الكوفة. فقال له: أنتم قد قتلتم الحسين ولم تستشكلوا. وهذه المفارقات نجدها كثيراً في تاريخنا.

صنمية المال

إن هذا المال تارة ينظر إليه الإنسان على أساس أنه غاية، فهو يريد أن تكون لديه قوّة ماليّة يستطيع أن يحرّك بها السوق، وأن يبدو في نظر الناس غنيّاً محترماً، وهذا نوع من الصنميّة، فهو يعبد صنميّة الذهب كما يسميها كارل ماركس. فهذا الشخص تكون الأموال غاية عنده.

وتارة ينظر إليه على أساس أنه واسطة يكرّم فيها نفسه، فيأكل الطعام الطيّب ويلبس اللباس الأنيق ويوسّع على عياله[1]، ويؤدّي النفقات المفروضة عليه إلى المجتمع وإلى العشيرة والعائلة، وفي أبواب البِر. فهو يتّخذ من الأموال واسطة للوصول إلى رضوان الله. وهذا من أوضح ألوان الاندماج بين العمليّة الدنيويّة والعمليّة الأُخرويّة، فالمال هنا وسيلة

(١) أو ليدفع أذى وسبّة كما حصل مع الإمام الحسن عليه السلام إذ دخل عليه يوماً شاعر فأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له أحد جلسائه: أتعطي من يقول البهتان ويعصي الرحمن خمسين ألف درهم؟ فقال له عليه السلام: «إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك، وإن من ابتغاءِ الخير اتقاءَ الشرّ». بحار الأنوار ٤٢: ٣٥٨ / ٣٥، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠.

للوصول إلى هذه الغاية. دخل الإمام علي عليه السلام على الزهراء عليها السلام فوجد الحسن والحسين عليهما السلام يرتعشان من الجوع، وكان قد خرج ثلاثة أيام إلى ضيعة عنده، فسأل الزهراء عليها السلام: «هل عندكم شيء تغذّينيه؟». فقالت عليها السلام: «والذي أكرم أبي بالنبوّة وأكرمك بالوصية، ما أصبح عندي شيء أُغذّيكه، ولا أطعمنا منذ يومين». فقال عليه السلام: «يا فاطمة، ألا كنت أعلمتني لأبيع لكم شيئاً؟». قالت: «إن أبي صلى الله عليه وآله نهاني أن أُكلّفك شططاً، وأستحي من ربي من أن تكلف نفسك ما لا تقدر عليه».

فخرج عليه السلام واقترض ديناراً، فمرّ في الطريق فرآه المقداد ولم يكلّمه، فناداه أمير المؤمنين عليه السلام وسأله: «ما أراك تكلمني اليوم! ما أزعجك هذه الساعة عن أهلك؟». قال: واللّه خرجت من البيت ولا أعلم أين أضع قدميَّ من الأرض، فقد دخلت على أطفالي فوجدتهم جياعاً. فقال عليه السلام: «ما أزعجني من رحلي غير الذي أزعجك من رحلك، ولقد اقترضت ديناراً فهاكه»[1].

فهل كان هذا العمل من أمير المؤمنين عليه السلام بدافع دنيوي؟ كلّا إنه كان لنيل رضوان اللّه تعالى بواسطة التصدّق بالمال. فالمال وسيلة يمكن أن يحصل فيها الإنسان على نتائج طيّبة في الآخرة.

وهو في الوقت نفسه زينة؛ لأن كلّ طاقة عند الإنسان تعزّزه في نظر الناس، فلو كانت عنده طاقة علميّة لاحترمه الناس لها، ولو كانت عنده طاقة ماليّة فإنهم يحترمونه أيضاً لأجلها. وهكذا في كلّ طاقة عند الإنسان؛ لأن الناس ينظرون إلى صاحب الطاقة ليس على أنه إنسان عادي، وإنما ينظرون إليه على أنه إنسان ذو طاقة علميّة أو ماليّة أو مركز

(١) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ١: ٢٠١ ـ ٢٠٢ / ١٢٤، شرح الأخبار ٢: ٤٠٢ / ٧٤٦، باختلاف.

اجتماعي؛ فتكون نظرتهم إليه مبتنية على هذا الأساس. وهذه كلّها تعزّزه في نظر الناس.

فالمال إذن زينة إذا أخذ طريقه المشروع، أما إذا لم يأخذ طريقه المشروع فإنه يتحوّل إلى مأساة. وكثير من الأموال تحوّلت إلى مأساة لأصحابها وأنزلتهم من العلوّ والارتفاع إلى الحضيض؛ فمنهم من خرج من نادٍ للسكر وراح يعربد فهان في نظر الناس، ومنهم من دفعته أمواله إلى أن يتتبع المحتاجين ويلاحقهم، فيأخذ منهم الربا، فراحت نفسه تهبط به إلى هذا المستوى من الانحطاط. فأصبح المال هنا بلاء ووباء ومأساة على الإنسان.

أن الولد نعمة ونقمة

ثم انتقلت الآية إلى البنين، وهم زينة الحياة الدنيا؛ لأن الولد ينمّ عن أنه كيان ثانٍ لأبيه، فبدلاً من أن يكون الأب لوحده أصبح مع ابنه اثنين، وهو بهذا أصبح أكثر قابليّة على العمل والإنتاج، فيكون الابن مساعداً لأبيه في تأدية الواجبات الحياتيّة.

ثم إن الابن امتداد لأبيه في الحياة، فعندما يخرج الأب منها فإنه يخرج قرير العين؛ لأنه ترك امتداده فيها، والدنيا لا تنساه؛ لأنه ترك فيها مؤشّراً يدلّ عليه وهو هذا الولد؛ ولذا يقول الحديث الشريف: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة جارية، وعلم ينتفع به**»[1].

(١) عوالي اللآلي ١: ٩٧ / ١٠، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٦: ٢٥١، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٦: ٢٧٨.

فالولد من أسباب الزينة، لكنه لا يكون كذلك إلّا إذا كان في نطاق العمل الصالح، أمّا إذا خرج من نطاق العمل الصالح إلى العمل السيّئ فإنه يتحول إلى مصيبة لا إلى زينة. كان للإمام مالك بن أنس بنت تجلس وراءه إذا جلس في مجلس بحثه في كتاب (الموطّأ) أو غيره، فكان إذا أخطأ أو قصّر في فكرة ضربت بعصاً لها على الأرض لتنبّهه، وكان عنده ولد شغله الصيد واللعب بالصقور، فكان إذا بدأ أبوه مجلس بحثه جاء بصقوره وفهوده وجماعته إلى البيت وأخذ يزعج أباه، فكان مالك يقول لتلاميذه: الأدب أدب الله، فهذان كلاهما من بطن واحدة، وكلّ له طريق[1].

فمثل هذا الولد كارثة وليس زينة؛ لأنه إذا ألهى أباه عن طاعة اللّه أصبح كارثة، فإن من الآباء من يعصي اللّه من أجل ولده، فيكون مدداً لولده في طريق الانحراف.

ربعي العبسي

ومثال الولد الزينة ما يروى من أنه كان عند ربعي بن خراش العبسي ولدان خرجا إلى قتال الحجّاج مع عبد الرحمن بن الأشعث، فلما فشلت النهضة ضد الحجّاج رجعا إلى البيت، وكان أبوهما متديّناً ملازماً للمسجد، فطلب الحجّاج ولديه فلم يعرف مكانهما، فقيل له: إنك إن بعثت لأبيهما وسألته أجابك؛ لأنه لا يكذب. فبعث وراءه الحجّاج فأحضره، وكانت الأجواء الإرهابية التي تملأ مجلس الحجّاج لا توصف، فقال له

(١) انظر: الحدّ الفاصل (الرامهرمزي): ٢٤٢، الجامع لأحكام القرآن ٩: ٤٧.

الحجّاج: أين ولداك؟ قال: ماذا تريد منهما؟ قال: أُريدهما. قال: إنهما عندي في البيت. فقال له الحجّاج: تقول ذلك وأنت تعلم أني سوف أضرب عنقيهما؟ فقال: واللّه، هما أحقر في عيني من أن أعصي اللّه من أجلهما. فأكبر الحجّاج هذا الموقف وقال له: واللّه لا يضرّك الصدق عندي، اذهب وأخبرهما أنهما آمنان.

فالولد يجب أن يتابَع ولا يشجَّع على المعصية، فهناك من يرى ابنته تشترك في السباقات ويفرح لذلك ويستبشر، ثم يجادل في ذلك ويقول: إن ذلك ليس عيباً. ومثل هذا لا ينفع معه الكلام؛ لأن مقاييسه تختلف عن مقاييسنا التي هي مقاييس الإسلام بعينها.

فنحن بدل أن نصوغ الولد صياغة جيّدة ونعطي البنت حقوقها التي أعطتها إياها الرسالة السماويّة، نعطيها الحقوق التي تفسد فطرتها، فلم نعطِها حقوقها في اختيار الزوج والعمل وباقي الحقوق الشرعية، وإنما أعطيناها ما يحوّلها من امرأة فاضلة إلى كيان فاسد سوف يُكوِّن أُسرة فاسدة تنخر في جسد الأُمة.

فالابن زينة إذا اتّخذ منه الأب وسيلة لرضوان اللّه تعالى، فيسخّره في ميادين الخير، ويعلّمه على حب الفضيلة والعمل بها، ويجعله عضواً نافعاً منتجاً في مجتمعه يحسّ به ويتفاعل معه.

الباقيات الصالحات

ثم انتقلت الآية الكريمة إلى قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾، والباقيات الصالحات هي التضحية بالمال والتضحية بالولد من أجل هدف أنبل وأسمى. فالقرآن الكريم يريد أن يرسم لنا خطّين نستطيع

أن نوصل بينهما عندما نتّخذ من الأموال والأولاد وسيلة لما هو أكبر من هدف إنجاب الأولاد وجمع الأموال. فالأموال والأولاد تُعلي شأنك إذا وضعتها في طريق اللّه، وأول طريق لوضع الأولاد في طريق اللّه هو التضحية في سبيل الله. فالولد ينبغي أن ينشأ وعنده حسّاسية ضدّ الباطل، وأن يكون عنده اتجاه إلى الحق وتذوّق للقيم. وهذه الأُمور يعرفها الجميع، وبوسع أي إنسان أن يدلّ ابنه على طريق الخير ويجنّبه طريق الشرّ. وكذلك الحال مع الأموال؛ فيمكنه أن يضعها هنا أو هناك وفق ما فيه رضا الله تعالى.

ولفظة ﴿خَيْرٌ﴾ في الآية هنا أفعل تفضيل، أي أكثر جدوى عند الله من المال والولد، مع أن المال والولد يمكن أن يسبّبا مكانة للإنسان في الآخرة أعظم ممّن لم يكن عنده أولاد أو أموال[1]. فهذه الأموال التي يكدّ فيها الإنسان ويتعب ثم يضعها في سبيل اللّه لا شكّ أن اللّه سوف يثيبه عليها.

الزوجة الصالحة

كان عند أبي طلحة ـ أحد أصحاب النبي ﷺ ـ ولدٌ واحد، وكان يحبّه كثيراً، فلمّا أصاب المرض الولدَ جلس أبوه يمرّضه، حتى ترك الصلاة خلف النبي ﷺ بسبب ذلك، فالتفتت إليه زوجته يوماً قائلة: أيلهيك مرض ابنك عن حضور الصلاة خلف النبي ﷺ؟ اذهب وصلِّ خلف النبي ﷺ. فذهب أبو طلحة واعتذر إلى النبي ﷺ، وأخبره بما كان من أمره وأمر

(١) كما في حديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث...» المارّ قبل قليل.

زوجته أُمّ طلحة، فقال ﷺ: «**الحمد لله الذي جعل في أُمّتي أمثال هذه المرأة**».

وكان ولده قد مات ساعة خروجه من البيت إلى النبي ﷺ، فسجَّته أُمّه ووضعت عليه إزاراً، ولبست أجمل ما عندها من الثياب وتزيّنت وتعطّرت، فلما رجع زوجها سألها: كيف حال الولد؟ قالت: هدأ واستراح، ففهم من كلامها أنه قد برؤ من مرضه، وكانت تعني أنه مات. فدنا إليها فلاطفها ولاطفته وضاجعها وكأن شيئاً لم يكن، ثم جلست إلى جانبه تضاحكه ثم قالت له: أنت نعم الرجل لولا خصلة فيك. قال: ما هي؟ قالت: إذا استودعت أمانة تأبى أن تردّ الأمانة إلى أهلها. قال: معاذ الله. قالت: بلى، إن اللّه استودع عندك هذا الصبي وقد شاء أن يستردّه. قال: وهل مات؟ قالت: نعم. فسجد لله شكراً، فكان أن رزقهما الله خلفاً له[1].

عِوض الله تعالى لعبده على المصيبة

وهنا يرد تساؤل، وهو لو أن اللّه تعالى أخذ أحد أولاد الناس أو إخوانهم أو أعزائهم، فهل يعطيهم عليه عوضاً أو لا؟ وإن أعطى فهل يعطيهم عليه أجراً أقل من ذلك وهذا ظلم، أم أنه يعطيهم أجراً مساوياً لما أخذ منهم وهذا عبث، أم يعطيهم أكثر منه؟ نعم لابدّ أن يعطيهم أفضل وأكثر منه، وهذا هو المعنى الصحيح للعوض؛ لكي يخرج فعلُ اللّه تعالى عن الظلم والعبثيّة.

فلا شك إذن أن الأموال والأولاد إذا وضعت في طريق اللّه فإن اللّه

(١) انظر: مسكّن الفؤاد: ٦٩، بحار الأنوار ٧٩: ١٥١، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٤: ٦٦، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ٤٠٢.

يعوّض عنها غاية التعويض ؛ ولذا فإن الحسين عليه السلام لمّا وهب اللّه كل شيء ووضعه في سبيله أعطاه اللّه هذا العوض. فهو عليه السلام في مثل هذا اليوم أخرج أمواله وأولاده فوضعها في سبيل اللّه وحاول إحلال أصحابه من بيعته، فقد وصل الخبر إلى محمد بن بشير الحضرمي وهو من أصحاب الحسين عليه السلام أن ابنه أُسر بثغر الري فقال: عند اللّه أحتسبه، واللّه ما أحب أن يؤسر وأبقى من بعده. فسمعه الحسين عليه السلام فقال له: «**أنت في حلّ من بيعتي**». ثم أخرج له من الخيمة خمسة ثياب، وقال له: «**اعمل علىٰ فكاك ابنك**». فقال له: أكلتني السّباع حيّاً إن فارقتك يابن رسول اللّه، أأخرج وأسأل عنك الركبان؟[1].

فأعطى عليه السلام الثياب لأبنه، وأمره بأن يفكّ أخاه من الأسر، فكان أن باعها وفكّ بها أسره.

لقد أخرج الحسين عليه السلام معه إلى المعركة كل ما عنده من أموال وأنفقها في سبيل اللّه على أصحابه، فقد موَّنهم بالسلاح والأموال منذ خروجهم معه من مكّة. أما أولاده فقد ذهبوا كلّهم في مثل هذا اليوم في سبيل الله، وقد ذهب له خمسة من الولد: ذهب أحدهم في طريق السبا حيث ألقته أُمه من بطنها في جبل الجوشن في طريقهم إلى الشام، ولا زال قبره إلى الآن في ذلك المكان. وذهب الثاني عندما سقط الحسين عليه السلام في المعركة حيث انفلت من الخيمة وكان له من العمر سبع سنوات، فجلس في حجر أبيه، فأهوى أبجر بن كعب ليضرب الحسين عليه السلام، فرفع الصبي يده ليتّقي بها

(١) الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

الضربة عن أبيه عليه السلام، فأطنها أبجر من المرفق، وبقيت معلّقة بالجلد، فصبر الصبي واحتوى المأساة، ولله دره. يقول السيد حيدر:

فللهِ مفطورٌ من الصبرِ قلبُه ولو كان من صُمِّ الصَّفا لتفطرا

نعم، أدناه (سلام الله عليه) إليه ثم قال: «صبراً ولدي، صبراً بني الكرام، واللّه لا لقيتم هواناً بعد هذا اليوم، إن الموت قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّ إلىٰ جنان اللّه الواسعة والنعم الدائمة. فأيكم يكره أنه ينتقل من سجن إلىٰ قصر؟ وهؤلاء أعداؤكم كمن ينتقل من قصر إلىٰ سجن وعذاب أليم. إن أبي حدّثني عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله من أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1]. فاضطرب الصبي في حجره إلى أن مات.

أما الولد الثالث فهو جعفر بن الحسين الذي ينص أكثر من مؤرخ على أنه قتل، مع أن بعضهم يقول: إن الذي قتل في حجر الحسين عليه السلام هو جعفر هذا.

وللحسين عليه السلام طفل قتل وعمره يوم واحد، خرجت به أُمه أُمّ إسحاق بنت طلحة تحمله، فقالت: يا آل محمد، خذوا رضيعكم، لقد جف ثديي من اللبن. فأخذه الحسين عليه السلام فأطال النظر في وجهه وقال: «تعساً لقوم يكون جدك رسول الله صلى الله عليه وآله خصمهم يوم القيامة». فأقبل إليه سهم ذبحه من الوريد إلى الوريد. وهذا هو الولد الثالث على الرواية الثانية.

أما الولد الرابع فهو عبد اللّه الرضيع، وأُمه الرباب الذي كان عمره ستة أشهر، وهو الذي حمله الحسين عليه السلام في آخر رجعة رجعها إلى المخيم، فعاد به مذبوحاً من الوريد إلى الوريد أيضاً. والولد الخامس هو علي

(١) تصحيح اعتقادات الصدوق: ٥٢، بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٧ / ٢.

الأكبر.

لقد وضع الحسين عليه السلام الأموال والأولاد على طريق الشهادة، وغني عن البيان كيف أن اللّه عوضه عن ذلك من الباقيات الصالحات، فأنت تسمع اليوم نشيد الأحرار «يا حسين» يسري على شفاه الناس، وأي عطاء أكبر من هذا العطاء؟

فهذا هو الخلود الحقيقي، وإذا كان هذا هو الخلود فللحسين عليه السلام منه النصيب الأوفر الأوفى؛ فالدنيا كلها تشدو اليوم باسمه؛ فقد أعطى المال والولد لله فأعطاه اللّه ذلك النصيب الأوفر. وقد مرّ عليهم مثل هذا اليوم وهم صرعى على الأرض، ولما جن الليل:

وسجى الليلُ والرِّجالُ ضحايا ... والنِّساء المُخدَّراتُ ذهولُ
واليتامى تَشَرُّدٌ وضياعٌ ... والثكالى مدامعٌ وعويلُ
وزُنودٌ تقسو عليها سياطٌ ... وجسومٌ يَضرى بها التنكيلُ
ودمٌ شاطئُ الفراتِ سيبقى الـ ... ـدهر يرويه والربى والنخيلُ[1]

أمنية للمأمون

قيل للمأمون يوماً: ماذا بقي في نفسك من اللذائذ؟ قال: سكنت القصور حتى ما أميز بين الكوخ والقصر، وأكلت الطعام حتى ما أميز بين الرديء والجيد، ولبست الملابس حتى ما أميز بين الحرير والخشن، وأخذت الأموال حتى ما أميز بين التراب والنقد، وما تركت لذة في الحياة لم أذقها وما بقي في نفسي سوى رنة شكر من نفسٍ تُسدي إليها خيراً.

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

احتجاج عثمان على عائشة وحفصة

وهذه المسألة ـ الملكية ـ مما يمكن أن يشار إليها في النزاع الذي وقع بينه وبين زوجتَي النبيﷺ عائشة وحفصة. وهذا النزاع يتلخّص في أنهما دخلتا عليه مطالبتين بالميراث من رسول اللّهﷺ، فقال: ما هو ميراثكما؟ قالتا: الحجر التي خلّفها النبيﷺ. فأجابهما بأن سألهما: هل تردن الميراث؟ قالت عائشة: نعم. قال: وهل النبيﷺ يورّث؟ قالت: نعم. وكان متّكئاً، فاستوى جالساً وقال: ستعلم فاطمة أي ابن عم أنا لها اليوم. ثم قال: إذا كان يورّث فلمَ مُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورّث فأي حقّ جئتما تطالبان به؟ أولستِ أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي يتطهّر ببوله[1]، وشهدتم عند أبيك أن النبيﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبان به؟ فإن كنتما شهدتما بحق فقد أجزت شهادتكما علىٰ أنفسكما، وإن كنتما شهدتما بالباطل فعلىٰ من شهد بالباطل لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين، فخرجت ورفعت قميص النبيﷺ وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته[2].

وما أردنا ذكره هنا هو أن الإضافة في قوله تعالىٰ ﴿**فِي بُيُوتِكُنَّ**﴾[3] هي للاختصاص لا للملك[4].

---

(١) هو أوس بن ملك، وقيل: مالك بن الحويرث.

(٢) انظر: الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٦٠، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

(٤) وقد يرد في هذا الخصوص خروج عائشة وحفصة من بيتهما وهما من أمهات المؤمنين

واستفحل الأمر وتفاقم إلى أن قتل الخليفة، فلما قتل سألت: من تولّى بعده؟ قالوا: علي بن أبي طالب. فقالت: لا حول ولا قوة إلا بـالله، لقـد تاب عثمان، ولما تاب قتلوه، والله لقد قتلوه مظلوماً وسأخرج فأُطالب بدمه[١].

ثم بعد ذلك خرجت مطالبة بدمه، فاستقبلها أحد بني أخوالها ـ وهـو ابن أُمّ كلاب من بني ليث ـ فقال لها: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً. ثم أنشد:

فـمنكِ البـداءُ ومِـنكِ الغـيرْ ومـنكِ الريـاحُ ومِـنكِ المَـطرْ
وأنتِ أمـرتِ بـقَتلِ الإمـامِ وقـلتِ لنـا إنَّـه قـد كـفرْ
فـهَبنا أطَـعناكِ فـي قَـتلهِ وقـاتِلُه عـندَنا مَـنْ أَمَـرْ
وقـد بـايعَ النـاسُ ذا تـدرَإ يـزيل الشـبا ويـقيم الصعَرْ
ويـلبسُ للـحربِ أثـوابَـها وما من وفى مثلُ من قد غدرْ[٢]

فكان أن حدثت واقعة الجمل، تلك الواقـعة المـرعبة التـي أدّت إلى مذبحة غريبة. وكانت إحدى النساء قد فقدت أربعة من ولدها في الجمل، فكانت تقول: لماذا هذه الحرب؟ ولماذا يـقتل هـؤلاء النـاس بـعشرات الآلاف؟ هل هو بسبب رغبة في نفس امرأة؟ أم بسـبب أُنـاس عـقولهم هكذا؟ وراحت تجول على مصرع أولادها وتقول:

شـهدتُ الحـروبَ فشَـيبْنَنِي فـلمْ أرَ يـوماً كـيومِ الجَـملْ

اللاتي أكرمهن الله وأمرن بأن يكنّ جليسات بيوتهن حتىٰ بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٦، الإمامة والسياسة ١: ٥١.

(٢) المصدر نفسه.

أضــــرَّ عــلـى مــؤمنٍ فِـتنةً وأقـــتَلَه لشـــجاعٍ بـــطلْ
فــليتَ الظَّــعينةَ فــي بـيتِها وليــتكَ عسكـرُ لمْ تـرتحلْ[١]

وانتهى الأمر بالمعركة أن أصبحت الأشلاء كالتلول، ووصل الأمر حدّاً نادى معه الإمامعليه السلام: «اعقروه». فجاءه مالك فـضربه عـدة ضـربات فـلم يتمكن منه، فجاء إليه الإمام فضربه ضربة عرقب بها يديه ورجليه فسقط، فانهزم الناس.

ولما راح الليل يرخي سدوله وقف أمير المؤمنين، وصاح بمحمد بـن أبي بكر فقال له: «اذهب لأُختك وتولَّ أنت حراستها، ولا تـترك أحـداً مـن الأجانب يقرب إلى خبائها؛ لئلّا يتسرّب إليها الرعب. وهذه عشرون امرأة معك يتولّين حراستها وخـدمتها»[٢]. كل هذا، ولمّا جاءها نـعي أمـير المـؤمنين عليعليه السلام قالت:

فــإن يكُ نــائياً فـلقد نـعاهُ نعِيٌّ ليس في فيه الترابُ[٣]

فقد كان العرب يقولون لمن جاء ينعى عزيزاً عليهم: مـلأ اللّـه فـمك تراباً. وهذه تقول: لا ملأَ اللّه فمك تراباً؛ لأنك نعيت علي بن أبي طالب. وهذا هو إناء علي، وهذا معدنه الذي ينبغي أن يكون عليه؛ لأنـه سـيد النُّبل، فهو يوعز إلى أخيها محمد بن أبي بكر بأن يتولّىٰ حـراسـتها مـع عشرين امرأة يخدمنها كيلا يتسرّب الرعب إليها، وهي تقول لنـاعيه: لا ملأ اللّه فمك تراباً.

---

(١) هي امرأة من بني عبد القيس. الجمل (ابن شدقم): ١٤٨، مروج الذهب ٢: ٣٦٩، ونسبها بعضهم لعثمان بن حنيف، انظر مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٤.
(٢) تاريخ الطبري ٥: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الفتوح (ابن أعثم) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.
(٣) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥.

التكافل الأخلاقي

ونظُمه في محيط الأُسرة يبيّنها قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[١].

حبس الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي وأباه خالد بن يحيى في وقت الشتاء البارد، ووضعهما في مطبق[٢] مظلم بارد، وكان خالد كبيراً في السن، ويحتاج إلى الماء الساخن للوضوء، ولم يكن عنده في السجن سوى قمقم من نحاس فيه ماء للشرب، فكان ابنه الفضل يضع هذا القمقم على ضوء الشمعة من أول الليل حتى الصباح ليتوضأ به أبوه. وهذا الفعل يعدّ من الصور المشرّفة في الإحسان والبر.

أما الأُمّ فمهما حاول الإنسان أن يقابلها خلقيّاً فلن يتمكن من أن يقابل لحظة من اللحظات التي بعثت فيها في نفسه الشعور بالرقّة والعطف، وملأتها محبّة ومودّة، يقول أحدهم:

أُمّي تجعّد وجهي وانقضى العُمُرُ ... ولم يزلْ مِلءَ أنفي جيبُك العَطِرُ
عليه من لبنِ الثديين باقيةٌ ... ومن شفاهي ومن أقذائها أثرُ
أُمّاهُ إن كانت الجَنّاتُ مصدرها ... من تحت رجليك فيما يذكر الخبرُ
فما بصدرك من خيرٍ ومن كرمٍ ... يظلّ أكبر مما تحدس الفِكَرُ[٣]

إذن مهما يعمل الإنسان مع الأُم لتجسيد التكافل الخلقي فلن يستطيع أن يؤدّي ذلك اللون من العطف والحنان. فلا تتصوّر أن القرآن الكريم

---

(١) الإسراء: ٢٤. (٢) سجن مظلم، أو زنزانة.

(٣) ديوان المحاضر ٢: ٦٦.

يكلّفنا بما لا يطاق عندما يقول لنا: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ**﴾[١]، فحينما يكلّفنا بأن نُبدي نوعاً من الآداب ونحن نجلس بين يديهما؛ فلأن هذا المعنى يغذّي عند الإنسان نوعاً من الكرامة، وسوف يغذّيها هو لأولاده أيضاً.

ومن التكافل الخُلقي ألّا يحدَّ النظر إليهما[٢]، وأن يكون رقيقاً في عباراته معهما بأن يستخدم العبارات التي تتّسم بالذوق والأدب والخلق. والإسلام يحرص على التكافل الخلقي من الطرفين، يقول النبي ﷺ: «**أحبّوا الصبيان وارحموهم، وإذا وعدتموهم شيئاً ففوا لهم؛ فإنهم لا يدرون إلّا أنكم ترزقونهم**»[٣].

ورأى ﷺ شخصاً يقبّل أحد أولاده فيما ترك الآخر وهو ينظر إليه، فقال له ﷺ: «**فهلّا ساويت بينهما**»[٤].

وجاء أحد الأشخاص إلى النبي ﷺ يحمل وصيّته وقد أوصى لأولاده ولم يساوِ بينهم، فنبذ له النبي ﷺ وصيته وقال: «**خذها، ولا تُشهدني على جور**»[٥].

---

(١) الإسراء: ٢٤.

(٢) قال الصادق عليه السلام: «ومن العقوق أن ينظر الرجل إلىٰ والديه يحدّ النظر إليهما». مشكاة الأنوار: ٢٨٤.

(٣) الكافي ٦: ٤٩ / ٤، الفقيه ٣: ٤٨٣ / ٤٧٠٢، تهذيب الأحكام ٨: ١١٣ / ٣٨٩.

(٤) مكارم الأخلاق: ٢٢٠، وقال ﷺ: «قبلوا أولادكم؛ فإنه لكم بكل قبلة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين خمسمئة عام». وقبل ﷺ الحسين عليه السلام، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الأولاد ما قبلت واحداً منهم. فقال له ﷺ: «ما عليّ إن نزع اللّٰه الرحمة منك!». انظر مكارم الأخلاق: ٢٢٠.

(٥) مرّ أنه بشير أبو النعمان بن بشير، انظر: ج١ ص١٥٩ ـ ١٦٠، ج٢ ص٣٠٠ من موسوعة

فالتكافل الخلقي ينبغي أن يكون سائداً في الأُسرة، وإلّا فإن الأُسرة إذا لم يكن فيها تبادل في العامل الخلقي فإنها ستتحوّل إلى جحيم، خصوصاً إذا استخدمت فيها العبارات النابية من الأب أو الأُم أو الأبناء. ولذلك يحرص القرآن الكريم على تأكيد جانب البرّ والرعاية للوالدين. والروايات في هذا المورد لا حدود لها، حتى إن بعضها يقول حكاية عن الحديث القدسي: «مَن بَرَّ والديه وعقّني كتبته بارّاً»[1].

فالجانب الخلقي إذن فوق الحدود الدنيا للتعامل، وهو أن تُشعر الأب بأُبوّته، وأن يخرج من الدنيا وهو يشعر أنه قرير العين، وأنه لم يمت؛ إذ بقي في الدنيا امتداده الطبيعي، وهو الولد البارّ.

نظريّة تأثّر الولد بأُمّه

ثم قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾، وهذه هي سنوات الرضاعة التي يبقى فيها الطفل ملتصقاً بصدر أُمّه تغذوه وترضعه وتغدق عليه من عطفها وحنانها. وعندما جاء الإسلام يحمل هذه النظرية فإنه قد صدم بها موروثات العرب؛ فقد كانوا يتصوّرون أن المرأة ليس لها أثر في عملية تكوّن الجنين، وإنما هي كالصندوق، تحمل الطفل وتضعه فقط، والولد ابن أبيه[2]. فجاء القرآن الكريم وصحّح هذه النظريات المخطوءة.

محاضرات الوائلي.

(١) لم نعثر عليه، لكن وردت أحاديث كثيرة في الحث على برّ الوالدين، منها قوله ﷺ: «من بر والديه زاد الله في عمره». روضة الواعظين: ٣٦٨، مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ٦٩ / ١٧٩٢٥، الأدب المفرد: ١٦، المستدرك على الصحيحين ٤: ١٥٤.

(٢) وقد تنبّهت أعرابية لهذا المعنى، فكانت ترقّص ولدها وتقول:

دخل الحجّاج يوماً إلى بيته فسمع هنداً إحدى نسائه تقول:

ومــــا هــــندُ إلّا مُــهرةٌ عــربيّةٌ سـلـيلةُ أفـراسٍ تَـحلَّلَها بَـغلُ

فـإن وَلَـدتْ مُـهراً فـلِلَّهِ دَرُّهـا وإن جاءَ إقرافاً فما أنجبَ الفحلُ[1]

ويقول المأمون:

لا تَــزدَرِينَ فـتىً مـن أن تكـونَ لهُ أُمٌّ مِــن الرومِ أو سـوداءُ عـجماءُ

فـإنَّما أُمَّـهاتُ النَّـاسِ أوعـيةٌ مُسـتودَعاتٌ وللأنسـاب آبـاءُ[2]

وهذا التصوّر عن المرأة غير صحيح تماماً؛ لأنه يلغي دورها في عملية تكوين الجنين، فهي عندهم وعاء مستودع لا أكثر، والحال أن الأمر بالعكس، فالولد يأخذ من أُمّه أكثر ممّا يأخذ من أبيه، والآية تشير إلى هذا الجانب، فقالت أولاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ على الإجمال، ثم فصَّلت قائلة: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾، فأشارت بهذا إلى أهمّية الأُم.

وهذه المسألة يبحثها الفقهاء في باب تزاحم المهم والأهم، فلو فرضنا أن الأب أمر بشيء والأم نهت عنه، وكان ذلك في حدود المشروع ـ وإلّا فإنه إن كان حراماً أو واجباً لم يجرِ هذا التزاحم هنا؛ لأن الحرمة والوجوب خارجان عن سلطة الأبوين، وعلى الابن أن يتبع التكليف الشرعي ـ وفي المباحات، فإن أكثر الفقهاء يقول: إن حقّ الأُمّ أهمّ من

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا يظلّ بالبيتِ الذي يلينا

غضبانَ ألّا نلدَ البنينا وإنما نأخذُ ما أُعطينا

ونحن كالأرضِ لزارعينا نُعطيهُمُ ما بذروه فينا

الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٠.

(١) انظر: كمال الدين: ٢٤٩، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ١٠٩.

(٢) السيَر الكبير (الشيباني) ١: ٣٢٧ / ٤٦٦.

حق الأب. ومن جملة أدلّتهم هذه الآية.

فالقرآن الكريم أعطاها هذه المنزلة، والروايات أعطتها هـذه المـنزلة: «**لأُمّك ثلاثة أرباع الحق فيك**»؛ لأنها تتحمّل في تربية الولد من الآلام ما لا يتحمّله الأب، والغُنْمُ بالغُرم.

أهل البيت عليهم السلام وتجسيد أجواء القرآن الكريم

وأول من يجسّد هذا الجوّ الذي يرسمه القرآن الكريم للأُسرة هم حملة الشريعة، فممّا يذكر هنا أن الشريف الرضي رحمه الله الذي كان نقيب الطالبيين في أيّامه كان إذا جيء إليه بأحد العلويّين قد ارتكب ذنباً فإنه يُضاعف له العقوبة؛ فإن كان يستحق عشرين سوطاً ضربه أربعين، ولمّا سُـئل عـن ذلك قال: إن هذا العلوي ابن من حمل الشريعة، وهو أولى الناس بصيانتها وحمايتها، والتأدّب بآدابها.

فأول من يطبق الشريعة إذن بيوت آل محمد صلى الله عليه وآله، تلك البيوت التي نزل فيها الإسلام، والتي قال عنها الإمام الحسن عليه السلام لما لقـيه أحـد الشـاميّين فشتم أمير المؤمنين عليه السلام: «**علىٰ رسلك يا هذا، لو أخذت بيدك إلىٰ بيتنا لأريتك زغب جناح جبرئيل**»[1]. يقول أحد الشعراء:

وعــفَّرتُ خــدِّي فــي ثــرىً مسَّ عـفرهُ ... لجـــبريلَ مــن جــنحيه ريشٌ مــزغّبُ

وفــــــيه مــــــحاريبٌ لآل مــــحمدٍ ... بــــهنَّ ضــــراعــاتٌ إلى اللــه تُــنصبُ

(١) ورد أن للحسن والحسين عليهما السلام تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مـناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكـر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ١٩٢.

وآثارُ أقدامٍ صغارٍ ومهجعٌ إلى الحسنينِ الزاكيينِ ومَلعبُ
وصوتُ رَحى الزهراءِ تطحنُ قُوتَها إلى جلدِ كبشٍ حيث تجلسُ زينبُ
رؤىً سوف يبقى الدهرُ يروي جلالَها وتبقى على رَغم البساطةِ تأشبُ[1]

حديث العلم والجهل

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، نفهم من هذا أن الجهل رزية وأن العلم نور؛ لذلك فإن المشرع الإسلامي كان يقول علىٰ امتداد الدعوة والرسالة: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[2]؛ لأنه يريد مجتمعاً متعلماً ليس فقط علم الفقه والأُصول، وإنما كلّ العلوم، فما من علم من العلوم إلّا وكان الإنسان مندوباً إلى معرفته. ولكننا ببالغ الأسف انغلقنا على علمي الفقه والأُصول، في حين أن العالم يحتاج إلى علم الطب والهندسة والزراعة وغيرها من العلوم.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا»[3]. فالعلم طريق للوصول إلى الكمال النسبي، فأي عالم في أي مجال من مجالات العلوم هو في رعاية الله، يقول الحديث النبوي الشريف: «إذا مشى طالب العلم بسطت له الملائكة أجنحتها»[4]، أي أن الطالب للعلم ـ كما نستطيع أن نقول ـ إذا مشىٰ فإنه يستخدم كل الطاقات والقوىٰ التي منحه إياها العلم وجعلته عالماً. فالعالم تحمله الدنيا، أما

(١) ديوان المحاضر ١: ١٥، وتأشب: تجتمع. لسان العرب ١: ٢١٤ ـ أشب.
(٢) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢. (٣) المحاسن ١: ٢٢٩ / ١٦٥.
(٤) الجامع الصحيح (سنن الترمذيّ) ٥: ٤٨-٤٩ / ٢٦٨٢.

الجاهل فإنه عبء عليها، وقد يضرّ ولا ينفع.

كما أن الأُمم تقاس عظمتها بما عندها من علماء، فنحن نحتاج للعلوم الأُخرىٰ مثل الهندسة الوراثية التي بمعرفتها يمكن زيادة إنتاج الأرض في البلاد الإسلامية بدل من أن تتصدق بها الكفرة علينا. ونحن نرىٰ الصحابة في عهد الرسول ﷺ قد استثمروا الطاقات كلّها، فنزلوا إلى الأرض وأخذوا يعملون، حتى أنتجوا.

فالعلم لم يقتصر على جانب واحد، ونحن بحاجة لكل مجال من مجالاته الحيوية. كان أحد طلاب العلم قد وقف على باب عالم، وقال: أعطني ممّا لا يؤلم نفساً ولا يتعب ضرساً. فأمر له بدراهم، فقال: أنا لم آتِ لطلب دراهم، وإنما جئت لأطلب هدىٰ، أنا طالب هدىٰ لا طالب ندى. فأدخله بيته واجابه عن مسألته، فخرج وهو يقول: إن علماً أزال لبساً خير من غنىً أسعد نفساً[1].

فالأموال تذهب، أمّا العلم فيبقىٰ عندي مَلَكَة أعيش بها طول الدهر، ويمكن لهذه المَلَكَة أن تمدّني بالأموال وتجبيَها إليّ. فالعلم يجيء بالمال، أمّا المال فلا يأتي بالعلم إلّا إذا استخدم وسيلة لذلك.

المأمون العباسي

كان للمأمون العباسي مجلس ليلي في مرو (خراسان)، فيأتي إليه خواصّ ندمائه من علماء وأُدباء؛ لأنه كان على مركز علمي كبير، فكان أن دخل عليه النضر بن شميل المازني، وهو رجل ضليع في التاريخ

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥١: ٣٩٠، وفيه أن العالم هو محمد بن إدريس الشافعي.

واللغة والنحو، وكان عليه قميص مرقوع، فسأله المأمون: ماهذا الذي تلبسه؟ قال: قميص أتبرّد به عن حرّ مرو. فقد كانت مرو منطقة حارة، فهو يقول له: هذا قميص من قطن لأجل حرارة الجو. فقال المأمون: لا، ولكنك امرؤ قشف، أي أنت متقشف.

فجلسا يتحدّثان إلىٰ أن وصل الأمر إلى ذكر الزواج والنساء، فروىٰ المأمون حديثاً عن هشام عن عروة عن النبي ﷺ: أن الرجل إذا تزوج المرأه لمالها وجمالها كانت سداداً (وفتح السين) من عوز. فقال النضر: صدق هذا الراوي، ولكن أنا حدثني عوف عن علي بن أبي طالب أن الرجل إذا تزوج امرأة لمالها وجمالها كانت سِداداً (وكسر السين) من عوز. فقال المأمون: ما الفرق؟ فقال له: الفرق كبير؛ لأنها بفتح السين بمعنىٰ الاعتدال والقصد، فقولنا: فلان مسدد، أي معتدل أي ليس ذا إفراط ولا تفريط، وأمّا إذا كانت بكسر السين فهي بمعنىٰ البلغة، أي مثل المسافر يأخذ كمية قليلة من الطعام تبلغّه ـ أي توصله ـ إلى أن يحصل علىٰ مقصده. فالنبي ﷺ يقول: إذا تزوج رجل امرأة لأجل مالها وجمالها فإنها تسدّ حاجة لديه، أمّا إذا تزوجها لأجل دينها فالأمر يختلف. فالتفت المأمون وقال له: قبّح الله من لا أدب له، فهل أنت تُلحنني (أي تحرّك الكلمة لي) وتريد تخطئتي؟ قال: لا، أنت لم تلحن، وإنما أنت قد رويت عن هشام، وهشام كان لحّانة، فأنت حفظتها كما رواها. فقال: قبح الله من لا أدب له. وأمر له بثمانين ألف دينار.

يقول النضر: فخرجت واستلمت المبلغ، فسألني الفضل كيف أمر لك الخليفة بثمانين ألف دينار؟ فحكيت له القصة، فقال الفضل: سأُعطيك أنا أيضاً ثمانين ألف إلّا قليلاً؛ حتىٰ لا أُساوي الخليفة في العطاء.

يقول: فخرجت بمبلغ (١٦٠) ألف دينار تقريباً من أجل حرف واحد.

فقطعاً أن العلم هو الذي يأتي بالمال وبالرقي، وكـان أرسـطو مـعلم الإسكندر ذي القرنين، فكان الإسكندر يحترم أبويه احتراماً عادياً، لكن إذا دخل عليه أُستاذه أرسطو فـإنه يكـنّ له احـتراماً عـجيباً، فـيستقبله ويودّعه، فقالوا له: أنت لاتحترم أباك بقدر ما تحترم مؤدّبك ومـدرسك؟ فقال: أبي أخرجني إلى كون المصائب، أمّا هذا الرجل فقد أخرجني إلى عالم النور. فهذا جدير بأن أُقدّره أكثر، فمنزلة العـلم لا يـعادلها شـيء. فالحياة بدون علم ظلام دامس.

مسؤوليّة العالم تجاه الجاهل

تقول الآية: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، ونستفيد أيـضاً مـن هـذا المقطع أن الجاهل عدو العلم والعلماء، فـ«الناس أعداء ماجهلوا»[1]، فأكثر الناس لو كان عنده علم ما حارب غيره، فهو بسبب الجهل يعادي غيره ويحاربه.

ثمامة بن أشرس

وأُلفت نظرك إلى نقطتين، كان ثمامة بن أشرس من العلماء والأُدباء، وكان من ندماء هارون الرشيد وكان الرشيد يحترمه، فغضب عليه هارون الرشيد يوماً فأمر به إلىٰ السجن، وكان السجان يوماً يقرأ القرآن فسمعه يقرأ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَـئِذٍ لِـلْمُكَذِّبِينَ﴾[2] ـ بفتح ذال المكـذبين، أي الأنـبياء ـ أي الويل والنار لهم، وهذا كفر. فقال له: إن قراءتك غير صحيحة، فالصحيح

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٧٢. (٢) المرسلات: ١٥.

أن تقول: للمكذِّبين، فالمكذِّبون هم الذين كذبوا الأنبياء. فقال له: ياعدوّ الله، قيل لي: إنك قدري، فلم أُصدّق. ثم أوجعه ضرباً.

فلما خرج من السجن ـ وكان الرشيد قد رضي عنه ـ قال له الرشيد: حدثني عن أعظم مايمرّ بالإنسان ويؤذيه . فقال: أعظم شيء يمرّ به أن يجري حكم الجاهل على العالم؟ فظن الرشيد أنه تعريض به، فقال: إنه ليس تعريض بك ولكن وقع لي حادث، ثم حكى له قصته مع السجّان، فضحك الرشيد ضحكاً شديداً[1].

فتعايش العالم بين الجهّال أمر صعب، لكن على عاتق العالم رسالة، وهي أن يبصّر الجاهل، والمشكلة هنا كبيرة حيث توجد قضايا ومعتقدات عند العوام لو تكلمنا فيها لأعطت ردوداً معكوسة. وهذا بلاء كبير؛ حيث إن هناك قضايا كثيرة ليس من السهل على العالم أن يعالجها، ولا يمكنه تركها؛ ولذا كتب الإمام علي عليه السلام إلى قضاته: **«اقضوا كما كنتم تقضون؛ فإني أكره الاختلاف، حتى تكون للناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي»**[2].

فهناك أشياء تحتاج لزمن طويل لمعالجتها. وهذه القضايا التي توجد عند العوام إنما لا يستطيع العالم تصحيحها؛ لأنه مفتقر إليهم من ناحية، ومن ناحية أُخرى إن هذه الأُمور قد تعطي ردود فعل معكوسة وإلّا فإنّ هناك مسؤولية على العالم هي أن ينير الطريق للجاهل مهما كلف الأمر.

﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**﴾، فهؤلاء لو لم يكونوا جهالاً لما كذبوا بذلك، أما الذي عنده علم فلا يكذّب بالرسالات. وهناك فرق بين منطق

---

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١: ٦٦٩.

(٢) تهذيب الأحكام ٩: ٢٥٩ / ٩٧٠، صحيح البخاري ٤: ٢٠٨ ـ ٢٠٩، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٣٢٩ / ٢٠٦٧٧، الإحكام (الآمدي) ٤: ٩، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢، ١٤: ٢٩، ١٩: ١٦١.

الجاهل ومنطق العالم حتى لو كان ملحداً، فمثلاً عندما تكلّم شخصاً في أوروبّا بأن الدليل على وجود الله كذا وكذا، فـإنه يـقول: هـذا صـحيح، ولكني إلى الآن لم أقتنع بهذه النظرية، وسأبقى هكذا إلى أن تثبت عندي. أما إذا أتيت إلى شخص في الشرق وتقول له ذلك الكـلام، فـإنه يـقول: اذهب، وإلّا فأرني اللّه حتىٰ أُصدّقك. وهذا هو الفرق بين المنطقين وهو فرق شاسع وكبير.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ فهؤلاء لو ذهبوا للنبيﷺ أو للعلماء وسألوا لخفّت المشكلة، ونحن الآن نريد أن يدقّ علينا العـالم أبـواب بـيوتنا ليـعلّمنا، فلماذا نأنف من حضور جلسة العلم. لقـد كـان الأوّلون يـقطعون آلاف الأميال ليسمعوا حديثاً عن الرسولﷺ، أما الآن فعندنا مكتبات ومجالس للذكر ووسائل للإعلام، ومع ذلك هي متروكة.

فالإنسان أهل لحمل العلم والمعرفة، وعنده طاقات فكـيف يـضيعها؟ فالواجب عليه أن يحضر مجالس العـلم والأخـلاق؛ لأنـه ليس جسـماً وغريزة فقط بل هـو عـقل وروح، وكـلاهما يـحتاج لغـذاء، والعـظماء يقصدون دار الذكر ويجلسون في طرف المجلس إلى جانب (الأحـذية) من أجل التزوّد بالعلم:

كـنْ عـالماً وارضَ بـصفِّ النـعالْ ... ولا تكـن صـدراً بـغيرِ الكـمالْ
فـإن تـصدّرت بـلا آلةٍ ... صيّرت ذاك الصدرَ صفّ النـعالْ[1]

فعلى الإنسان ألّا يأنف من حضور مجالس العلم أينما كانت.

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٥٤.

علم النبيصلى الله عليه وآله وسعة صدره

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فـالآية الكريمة تسلّي النبيصلى الله عليه وآله حيث تقول له: إن الذين قبلك من الأنبياءعليهم السلام قد تعرضوا لهذا المصير نفسه، فلا تذهب نفسك علىٰ هذا الأمـر حسـرات؛ حيث إن النبيصلى الله عليه وآله كان في بعض الأحيان يتألّم؛ لأنه يرى في هؤلاء جفوة وغلظة، فهوصلى الله عليه وآله يحاول أن يرشدهم في الكعبة، وبدلاً من أن يصغوا إليه كانوا يبعثون جواريهم بالفرث والدم والكرش ليقذفنه على ظهرهصلى الله عليه وآله وهو ساجد، وكان الرسولصلى الله عليه وآله يمسح ذلك عن جسـده ويـقول: «اللـهم اغـفر لقومي؛ إنهم لا يعلمون»[1] .

وبهذا الصبر والعطاء استطاع رسول اللهصلى الله عليه وآله أن يحوّل هذا الجو إلىٰ ألق وعطاء وعلم، وذلك بفضل خلقه الكريم العظيم.

فالآية تقول له: لا تتألم فإنّ الأنبياء من قبلك تعرضوا للمصير نفسه، فالنبي نوحعليه السلام كان يشتغل بالسفينة نـهاراً، فـإذا جـاء اللـيل راح قـومه المكذّبون به يحدثون بالسفينة فيملؤونها قذارة، ومع ذلك فإنهعليه السلام صبر إلى أن أكمل مهمّته، وقد تعرض إلى الاستهزاء والحجارة والاعتداء. فـالآية تقول للنبي: إن طريق الإصلاح لابدّ أن تدمىٰ فيه رجلك بالحجارة، وأن تُشتم بما لا ترضاه وتسمع مالا ترتضيه. وفعلاً فقد قابلوه بعبارات نابية، بحيث إنه لما أراد إرشادهم جاءه عبد الله بن أبي فقال له: لقد آذيتنا بنتن حـمارك يـا مـحمد. أي رائـحة حـمارك (اليـعفور)، والنـبيصلى الله عليه وآله يسـمع ويسكت، فهذا طريق الأنبياء.

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٨٤، بحار الأنوار ٩٥: ١٦٧.

فمن عنده رسالة لابدّ أن يتحمل جميع مايمكن أن يمر به من متاعب ؛ لأن له هدفاً يحاول أن يصل إليه.

حسن العاقبة وسوئها

ثم قالت الآية الشريفة: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، فالذين قابلوك بالأذىٰ ووقفوا بوجه رسالتك وحجبوها عن الناس هم ظالمون، وعاقبتهم الهلاك، أما رسالتك فعاقبتها الخلود. فأين الذين وقفوا بوجه النبي ﷺ، أين قريش وكبرياؤها وغطرستها؟ أليس الذي خُلّد الآن هو النبي ﷺ ورسالته حيث تسمع الشهادة للنبي ﷺ على المآذن عند أوقات الصلاة؟

فالذي يقود المجتمع عقيدته، وإلّا ما الذي يدفعني لأُعطي أموالي إلى غيري، سوىٰ أن الله تعالىٰ أمرني بذلك؟ كما أنه تعالىٰ أمرني بأن أُقيم الصلاة وآتي الزكاة.

فديني يحكمني من الداخل، فأُقدّم ما عندي زكاة لوجه الله، وديني يأمرني بالامتناع عن اللذائذ.

فهذه آثار الرسول ﷺ، أما الذين وقفوا بوجه الرسول ﷺ وبوجه دعوته فقد تحولوا إلى رمل وتراب، وتحوّلوا إلى مذمة في فم التأريخ.

سليمان بن عبدالملك

كانت عنده قضية على سليمان بن عبد الملك فطرحها أمامه، فوقع جدال بينه وبين الآخرين، فالتفت إلى سليمان وقال له: اذكر يوم الأذان. فسأل سليمان شخصاً بجانبه عن ذلك فقال له: إنه يقول: اذكر الآية: ﴿فَأَذَّنَ

مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[(١)]، أي يقول لك: إن ظلمك هنا في الدنيا، أمّا يوم القيامة فلا نفوذ لك، حيث ستعرض بين يدي الله. فقال سليمان: نِعم ما قلت[(٢)].

نهج البلاغة

ومن هنا نستدلّ أيضاً على أن الأُسلوب في (نهج البلاغة) هو أُسلوب علي بن أبي طالب عليه السلام[(٣)]؛ لأن أهل التخصّص في الأدب يعرفون نفَس كلّ أديب، فعندما يقرؤون قصيدة يعرفون أنها للبحتري أو للمتنبي أو غيرهما؛ وذلك نتيجة للمران والمطالعة والممارسة الطويلة.

وعندما نقرأ لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**والله لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفّىٰ هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة. ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثىٰ؟**»[(٤)]، فإني أعرف أن هذا نَفَسُ علي عليه السلام؛ لأنه عليه السلام زاهد الليل. وعندما أقرأ له: «**ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ**»[(٥)]. فإني ألمح على ذلك روح أمير المؤمنين عليه السلام وأداءه ونفَسه. والذي قادني إلى ذلك هو الأُسلوب.

(١) الأعراف: ٤٤.

(٢) المستطرف من كل فن مستظرف ١: ٢٣٥.

(٣) قد مرّ بنا استدلال ابن أبي الحديد وفق وحدة الأُسلوب والمنهج علىٰ صحة كون (نهج البلاغة) من صنعة أمير المؤمنين عليه السلام في ج ٤ ص ١٥٥ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٤) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٥) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

فهل يمكن أن تجد في أُسلوب عليعليه السلام في (نهج البلاغة) ركّة؟ نعم، قد يأتي من يدّعي دعوى كهذه وما هو إلّا إنكار للبديهيات.

وفعلاً لم يسلم أمير المؤمنينعليه السلام ولا بنوه من تحامل المتحاملين، وقد أراد الأُمويّون أن يمسخوا سيرته في نفوس الناس، يقول أحدهم: مررت بمسجد حمص فسمعت رجلاً يشتم أبا تراب، ويسأله رجل إلىٰ جـانبه: ويحك، من أبو تراب هذا؟ فيقول له: أحسبه لصّاً من لصوص الفتن[١].

جهاد المرأة

دخلت أسماء بنت يزيد الأنصارية على النبيصلى الله عليه وآله ـ وهو بين أصحابه ـ فقالت له: بأبي أنت وأُمي يارسول الله، إني وافدة النسـاء إليك، واعـلم (نفسي لك الفداء) أنه ما من امرأة كـائنة فـي شـرق ولا غـرب سـمعت بمخرجي هذا إلّا وهي على مثل رأيي. إن الله بعثك بالحقّ إلى الرجـال والنساء، فآمنّا بك وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النسـاء مـحصورات مقسورات، قواعد بيوتكم، ومقضىٰ شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فُضّلتم عـلينا بـالجمعة والجـماعات، وعـيادة المـرضى، وشهود الجنائز، والحجّ بعد الحجّ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله. وإن الرجل منكم إذا خـرج حـاجّاً أو مـعتمراً أو مـرابـطاً حـفظنا لكـم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربّينا لكم أبناءكم، أفـما نشـارككم فـى الأجر يا رسول الله؟

فالتفت النبيصلى الله عليه وآله إلى أصحابه بوجهه كلّه، ثم قال: «هـل سـمعتم مـقالة

---

(١) مروج الذهب ٣: ٤٢.

امرأة قطّ أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟». فقالوا: يا رسول الله، ما ظننّا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفتﷺ إليها ثم قال لها: «انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعّل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتّباعها موافقته يعدل ذلك كلّه». فأدبرت المرأة وهي تهلّل وتكبّر استبشاراً[1].

وأُحبّ أن أُلفت النظر إلىٰ أن الجهاد إذا كان دفاعاً عن النفس فإن المرأة تستوي فيه مع الرجل دون فرق يذكر، أما الجهاد الابتدائي ـ موضوع المقام ـ فإنه ينفرد فيه الرجال دون النساء.

فهذه المرأة دخلت علىٰ النبيﷺ وطلبت فيه أن يسمح لها ولمن خلفها من النساء بالمشاركة في الجهاد الابتدائي؛ ولذا فإنهﷺ أعطاهنّ وظيفة لا تقلّ أهميّة وأجراً عن وظيفة وأجر المجاهد، فقرّر لها أن جهادها هو حسن تبعّلها لزوجها. وأهميّة هذا الدور لا تخفىٰ علىٰ من له نظر في الأُمور؛ ذلك أن المجاهد إذا كان يلعب دوراً كبيراً وهامّاً حينما يدفع العدوّ بسيفه، ويضحّي بدمه ونفسه بتعريضها للقتل أو الجرح، فالمرأة تدفع العدوّ عن البلد بالحياة؛ لأن وظيفتها خلق الولد الصالح وتربيته وتنشئته تربية وتنشئة صالحتين؛ فتخلق ذلك المجاهد.

وهذه هي الحياة الصحيحة التي تكون من اختصاص المرأة فقط، فالرجل يصارع في معترك الحياة، وعلىٰ المرأة أن تقابل هذا بلمسة رقّة وحنان ولطف في المنزل، وهو ما يسمىٰ بحسن التبعّل المبني علىٰ إحسانها لزوجها وخلق وسائل الراحة له في بيته؛ كي يستعيد فيه ما

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٥٠، أُسد الغابة ٥: ٣٩٨، الدرّ المنثور ٢: ١٥٣.

خسره في صراعه مع الحياة خارجه. يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله : «**لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها**»؛ لأن الرجل قد كرّس حياته وكيانه لها ولأطفالها.

فوظيفة المرأة إذن هي حسن التبعّل بأن تصنع الحياة السليمة الصحيحة، وتتضافر جهودها مع جهود الزوج لبناء الجيل الصالح. وهذا لا يكون إلّا إذا ساد الحبّ والعواطف المتبادلة حياتهما داخل البيت، وبخلافه يصبح البيت بؤرة صراع. فالمرأة من هذا المنظار تجاهد مجاهدة الرجل في ساحة المجتمع، وقد جعل اللّه تعالىٰ لها علىٰ ذلك أكثر من أجر[1]؛ ذلك أن الحياة ليست عبارة عن الأكل والشرب فقط؛ لأن البعض يأكل ويشرب وهو كالأموات: ﴿**إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[2]. قال الشاعر:

ليس من مات واستراح بميتٍ ... إنما الميتُ ميّتُ الأحياءِ[3]

وقال غيره في رثاء أحدهم:

أرىٰ الموتَ يحييكم وبعضُ الذي مشوا ... على الأرضِ لو فكرت يمشي بهم قبرُ

تشدّ بهم للطينِ سوءُ فعالِهم ... وتسمو بكم للنورِ أمثلة غرُّ

كرائمُ أعمالٍ وزادٌ من التقىٰ ... وفيضٌ من الإصلاح هذا هو العمرُ

بل إن العمر والحياة هما الأخلاق العالية والاستقامة والطيبة، وهذه يصنعها حجر الأُم؛ ولذلك فإن اللّه تعالى جعل لها حكم المجاهد والشهيد وأجرهما، وأن لها بكل طلقة أجر شهيد[4]؛ لأنها مجاهدة في ساحة

---

(١) انظر إلى قوله صلى الله عليه وآله لأسماء بنت يزيد الأنصارية: «يعدل ذلك كلّه».

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) مجمع البحرين ٤: ٢٧٤ ـ موت.

(٤) انظر: مكارم الأخلاق: ٢٣٨، مستدرك وسائل الشيعة ١: ٢١٤ / ١٨٠٣٧ظ.

المجتمع الداخلي بخلقها مجتمعاً صالحاً وعقيدياً. وقد نصّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله علىٰ هذا بقوله: «جهاد المرأة حسن التبعّل»[1]. فالمراد منها هو أن تؤدّي وظيفتها وما افتُرض عليها في بيتها من واجبات إزاء الزوج والأُسرة.

المرأة في المجتمع الإسلامي

علماً أن أوروپا تنظر إلىٰ المرأة كغريزة، وذلك يظهر جلياً من خلال تعاملها معها، في حين أن المرأة في تراثنا الإسلامي قد أُعطيت دوراً هامّاً فلعبته علىٰ أتم وجه، فابنتا الفِنْد الزماني مثلاً قادتا جيشاً من أضخم الجيوش، وبعد بزوغ شمس الإسلام وسطوع نجمه علىٰ أرض المعمورة، استمرّت المرأة في عطائها؛ فكان دور الخنساء وخولة بنت الأزور ونسيبة بنت كعب المازنيّة التي لعبت دوراً لا يُنكر في مجال الحروب وتطبيب الجرحىٰ. وجاء بعد ذلك نساء عالمات فقيهات مجتهدات، وهذا يدلّ علىٰ أن المرأة في الإسلام ليست كياناً منحطّاً عن الرجل كما هو الأمر مع سائر الحضارات، بل هي كيان هامّ له قيمته ودوره ورسالته، وله وظيفته التي تعدّ من أخطر الوظائف في المجتمع.

وليس هناك مثل أضربه لك من أمثلة النساء المسلمات أوضح من سمية (أُم عمار) التي عرّضتها قريش لأشدّ أنواع التعذيب من أجل سلب عقيدتها، فقاومت مستميتة ولم تتخلّ عن عقيدتها ومبدئها الذي هي

---

(١) مسند الشهاب ١: ٨١ / ٧٩، دلائل النبوّة: ٧٥، وانظر: الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٥٠، أُسد الغابة ٥: ٣٩٨، الدرّ المنثور ٢: ١٥٣. وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، كما في نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٦، الكافي ٥: ٩ / ١.

عليه، وكان أن ربطتها قريش إلىٰ اثنتين من الخيل ومزقتها إرباً بعد أن طعنها أبو جهل بحربة في بطنها. وهي التي قال عنها الرسول الأكرم ﷺ وفي زوجها وابنها: «**صبراً آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة**»(١). وقال ﷺ: «**اللهم اغفر لآل ياسر**»(٢).

وهناك الكثير غيرها من الرائدات الأُوليات اللائي كن في منتهىٰ الشدة والصلابة في الحق، فنحن نقرأ بطولات أسماء بنت عميس في هجرتها إلىٰ الحبشة ووقوفها إلىٰ جانب زوجها جعفر رضي الله عنه، وكذلك أسماء بنت أبي بكر حيث قال لها ابنها عبد اللّه: إني أخشىٰ أن يُمثّل بي. فقالت له: هوّن عليك فإن الشاة لا يضيرها السلخ بعد الذبح(٣).

وأسماء بنت عميس حينما جاؤوها بخبر ابنها محمد بن أبي بكر ـ حيث كانت قد تزوّجت من أبي بكر بعد استشهاد جعفر رضي الله عنه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يعدّ محمد بن أبي بكر كولده ـ فلم يبدُ عليها أي انفعال، وكان موقفها في غاية الصلابة.

دور نساء بيت الوحي في تاريخ الرسالة

لقد أدّت المرأة المحمّدية أدواراً لا يمكن أن توصف بقلم أو لسان في تاريخ الإسلام وقيام دولته واشتداد شوكته، فلم تكن الأدوار النسوية مقتصرة علىٰ غيرهن من بيوتات العرب، بل كان لهن قصب السبق فيه، والقدح المعلّىٰ كما سنرىٰ. فلقد فقن كل نساء العالم في كل زمان ومكان في أداء تلك الوظيفة والقيام بذلك الدور علىٰ الوجه الأكمل. ولكي نثبت

---

(١) الاحتجاج ١: ٢٦٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ٣٨٣.

(٢) الاحتجاج ١: ٢٦٦، مسند أحمد ١: ٦٢.

(٣) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧.

صحّة كلامنا سنضرب مثلين لأُنموذجين من المرأة المحمّدية:

الأُنموذج الأوّل: خديجة الكبرىٰ عليها السلام

والواقع أن قيام الإسلام علىٰ قدميه مدين لهذه المرأة العظيمة؛ فهي المرأة التي تحمّلت كل الأعباء والآلام في سبيل الدعوة والدين، حتىٰ بذلت كل مالها الذي كان يصفه بعض المؤرّخين بأنه لو وقف رجلان ووضعت بينهما أموال خديجة عليها السلام لما رأى أحدهما الآخر لما تشكّله هذه الأموال من تلٍّ من بدر الدنانير والدراهم[١]. كما ذكروا أنه ما من بيت من بيوت مكّة إلّا كان يضارب بأموال خديجة، وكان مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها[٢]. وقد ساقت هذه الأموال كلّها إلىٰ بيت النبي صلى الله عليه وآله لينفقها في سبيل الدعوة إلى الله.

وكانت (سلام اللّه عليها) أوّل من استقبل رسول اللّه لحظة نزول الوحي السماوي المقدّس عليه، إذ كان قد جاء وهو يرتعد من ثقل ما يحمل من أمر اللّه، فواسته وطمأنته وقالت له: إن اللّه لا يريد بك إلّا خيراً، ودثّرته وأضجعته. ثمّ بعد ذلك راحت تواسيه وتمسح عنه آلامه وجروحه التي كان يلقاها ويصنعها فيه العناد القرشي ورفض الدعوة الكريمة التي جاء بها. فهو صلى الله عليه وآله ما إن يدخل بيتها حتىٰ تمسح عنه كل الأعباء والآلام والهموم إلىٰ أن أدىٰ رسالة ربّه راضياً مرضياً.

يقول عفيف الكندي: دخلت مكّة فجئت الكعبة لأطوف بها، فنزلت ضيفاً على العباس بن عبد المطّلب، فأنا عنده، وأنا أنظر إلى الكعبة، وقد

---

(١) قريب من في بحار الأنوار ١٩: ٦٢ ٦٣.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ ـ ٤٤٤ / ٤٦٧ ـ ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨، الدر المثور ٤: ١٧٧.

حلّقت الشمس فارتفعت، إذ أقبل شابٌ حتّىٰ دنا من الكعبة، فرفع رأسه إلى السماء فنظر، ثمّ استقبل الكعبة قائماً، وجاء غلام حتّىٰ قام عن يمينه، ثمّ لم يلبث إلّا يسيراً حتّىٰ جاءت امرأة فقامت خلفهما، ثمّ ركع الشابّ فركع الغلام وركعت المرأة، ثمّ رفع رأسه فرفعا، ثمّ خرّ ساجداً فسجدا معه.

فقلت للعباس: إني أرىٰ أمراً عظيماً. فقال العباس: هل تدري من هذا الشابّ؟ قلت: لا. قال: هذا محمّد بن عبد اللّه بن عبد المطّلب، ابن أخي، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجته، وهذا الغلام عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب ابن أخي أيضاً، وإنه حدّثنا أن ربّه ربّ السماوات والأرض أمره بهذا الدين، وهو يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر. وواللّه، ما علمت أن علىٰ ظهر الأرض كلّها علىٰ هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

قال عفيف الكندي ـ وكان قد أسلم بعد ذلك ـ: لو كان اللـه رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثانياً مع علي[1].

فكان مبعثه (صلوات اللّه وسلامه عليه وآله) يوم الاثنين، وآمنت هي عليها السلام في اليوم نفسه، ثمّ وقفت معه بكل كيانها ووضعت تحت تصرّفه ثروتها الضخمة كما أسلفنا، وسخّرت لأجله ولأجل الدين الحنيف كلّ

(١) روضة الواعظين: ٨٥، شرح الأخبار ١: ١٧٩ / ١٤٢، مسند أحمد ١: ٢٠٨، ميزان الاعتدال ١: ٢٢٤.

وروي عن عمرو بن عبسة السلمي أنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله أول ما بعث وبلغني أمره، فقلت: صف لي أمرك. فوصف لي أمره وما بعثه الله به، فقلت: هل يتبعك على هذا أحد؟ قال: «نعم، امرأة وصبي وعبد». يريد خديجة بنت خويلد وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة. تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣.

طاقاتها النفسيّة والاجتماعية[١]؛ ولذلك كان رسول اللّه ﷺ قد أطلق علىٰ العام الذي توفي فيه ناصراه خديجة وأبو طالب عليهما السلام اسم عام الحزن.

وكذلك فعلت الزهراء (صلوات اللّه وسلامه عليها) مع خليفة رسول اللّه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث وقفت معه في محنته مع القوم بعد وفاة أبيها ﷺ.

الأُنموذج الثاني: زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام

لقد كان الدور الذي قامت به زينب (سلام اللّه عليها) قبل وقعة الطف وبعدها دوراً عظيماً لا يستطيع أي رجل مهما كانت صلابته أن يحتمل وقعه إلّا إذا كان من أهل بيت العصمة عليهم السلام. وكمثال على ذلك فإن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي ـ وهو من الشعراء المعروفين بالصلابة ـ وقف علىٰ ثلاثة من أولاده قد فقدهم في إحدى المعارك، فقال قصيدته:

أمن المنون وريبه تتوجّع ... والدهر ليس بمعتبٍ من يجزعُ
أودىٰ بنيّ فأعقبوني حسرة ... عند الرقاد وعبرة لا تقطع
سبقوا هواي وأعنقوا لهواهُمُ ... وتخرّموا ولكل جنب مصرعُ
فالعين بعدهُمُ كأن جفونها ... كحلت بشوكٍ فهي عورا تدمعُ

إلىٰ أن قال:

وتجلّدي للشامتين أُريهُمُ ... أني لريب الدهر لا أتضعضعُ[٢]

ولكنه في النهاية لم يقوَ على وقع المصيبة فسقط متهالكاً على التراب لا يستطيع الحركة، ثم عمد إلى النياق وذبح فصائلها أمام أعينها، وذبح كلّ حيوان عنده في الحظيرة، ليوجد مشهداً من الألم، ويتسنّىٰ له أن

(١) انظر محاضرة (أضواء علىٰ خطبة الزهراء عليها السلام) في ج ٢ ص ١٧٧ ـ ١٩٢ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٢) الكنىٰ والألقاب ١: ٧٦.

يوجد من يتألّم معه في ذلك المشهد. لكن الحسين عليه السلام وقف صبوراً في محنته، ولله درّ السيد حيدر الحلّي إذ يقول:

له اللّه مفطوراً من الصبر قلبه ولو كان من صُمّ الصفا لتفطّرا
ومنعطفٍ أهوىٰ لتقبيل طفله فقبّل منه قبله السهمُ منحرا[1]

وهكذا فعل هذا الرجل بعد أن صُرع أبناؤه، ثم وقفت زينب عليها السلام صلبة قويّة لم تهِن ولم تضعف أمام المحنة، بل وزيادة علىٰ ذلك فإنها كانت تعلم بما سيؤول إليه أمرها، ومع ذلك فقد أصرّت علىٰ المضيّ في هذا الطريق الحاشد بالأشواك؛ كي تؤدّي رسالتها وتدافع عن عقيدة ودين جدها صلى الله عليه وآله وأبيها أمير المؤمنين عليه السلام.

كانت (سلام اللّه عليها) تحمل بيسراها لواء رعاية الأطفال وبيمناها لواء ضيافة الرجال. فهكذا أراد لها الحسين عليه السلام أن تكون قبل انطلاقة الثورة، كما أنه عليه السلام رسم لها طريقها ووظيفتها لمرحلة ما بعد انطلاقة الثورة، فكانت عليها السلام تمسح الألم عن نفس أخيها السبط سيد الشهداء عليه السلام بوقوفها إلىٰ جانبه، وبتقديمها الدعم والمساعدة له.

من مظاهر صلابة زينب الكبرىٰ عليها السلام في الطف

وقد تركت (سلام اللّه عليها) بيتها وسافرت مع الحسين، فلمّا وصلوا إلىٰ كربلاء ونزلوا فيها قالت لأبي عبد اللّه عليه السلام: «إن قلبي قد استوحش من هذا الوادي». فقال لها: «**هوّني عليك وتعزي بعزاء اللّه**». فتعزّت وصبرت ووقفت ذلك الموقف، حتىٰ إنها ضحّت بولديها يحيىٰ وعون وإخوتها وأبناء عمومتها، فذهبت كل أُسرتها أمام عينيها. وكان من مظاهر صلابتها

(١) ديوان السيد حيدر الحلّي ٧٨.

أن وقفت بوجه يزيد وقالت له: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء؛ فأصبحنا نساق بين يديك كما تُساق الأُسارى أن بنا علىٰ اللّه هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك ونظرت بعطفك جذلانَ مسروراً حتىٰ رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأُمور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً، لاتطِش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1]؟

أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول اللّه ﷺ سبايا قد هُتكت ستورهن وأُبديت وجوههن؟»[2].

إلىٰ آخر خطبتها التي هزّت بها أبعاد المجلس.

ومن مظاهر صلابتها (سلام اللّه عليها) أيضاً أن كانت تمرّ علىٰ جثث الضحايا فتنظر إلىٰ الأعضاء المقطعة والدماء السائلة، وتستمرّ في طريقها حتىٰ تقف علىٰ الأعضاء المتناثرة لأبي عبد اللّه الحسين عليه السلام، وترمق السماء بطرفها وتقول:

«اللّهم تقبل منّا هذا القتيل قرباناً لوجهك». وهي صلابة ما بعدها صلابة؛ إذ لم يشهد التاريخ مثلها.

ومن مظاهر صلابتها أن كانت تجمع شتات العيال والأطفال في طريق الأسر، وتحمي العائلة في غياب الكفيل، وترجع إلىٰ المخيّم، وتمرّ عليها لحظات الليلة الحادية عشرة من المحرّم:

وسجىٰ الليل والرجال ضحايا والنساءُ المخدّرات ذهولُ

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

اليتامىٰ تشرّد وضياع والثكالىٰ مدامع وعويلُ
وعليل عضّت عليه قيود وزنود يفري بها التنكيلُ
ودم شاطئ الفرات سيبقىٰ الـ ـدهر يرويه والربىٰ والنخيلُ[(١)]

* * *

قضية دخول التشيع إلىٰ إيران

فالسجاد عليه السلام بناء علىٰ هذا هو أكبر أبناء الحسين عليه السلام من زوجته بنت يزدجر.

ويذهب الطبرسي إلىٰ أن بنات يزدجرد اثنتان: واحدة تزوّجها محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، وقد ولدت له القاسم الذي يعتبر أحد فقهاء المدينة. والثانية تزوّجها الإمام الحسين عليه السلام فأنجبت له الإمام زين العابدين عليه السلام[(٢)].

ولقد دارت حول هذا الزواج مناقشات ومطارحات عكست العقليّة الهمجية وعقلية التشنّج الغريبة التي كان ولا زال البعض عليها. فكثير من المؤرّخين والكتّاب يعتبرون دخول التشيّع إلىٰ إيران لهذا السبب، حيث إنهم يعزون دخول التشيّع لهذا البلد إلىٰ زواج الإمام الحسين عليه السلام من امرأة فارسية، فأصبحوا أصهار أمير المؤمنين عليه السلام، فكان هذا عاملاً رئيساً في دخول التشيّع إلىٰ مجتمعهم.

والحقيقة أن هذا النمط من التفكير يجعل أولادنا يسخرون منا، ذلك أن هؤلاء الذين يكتبون مثل هذا ليسوا كتّاباً عاديين وإنما هم معروفون ومشهورون مثل أحمد أمين، وهو كاتب رائع ومنتج، لكن الهوىٰ إذا أراد

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

(٢) إعلام الورىٰ بأعلام الهدىٰ ١: ٤٨٠ ـ ٤٨١.

أن يتحكّم بقلم الكاتب فإنه يجعل منه قلماً أبله و«يهرف بما لا يعرف». وإلّا فليس من المعقول أن يكون رجل بهذه الدرجة من العمق والإحاطة، ثمّ يقول: إن أُمّة بكاملها تشيّعت لأن الإمام الحسين‌عليه‌السلام تـزوّج إحـدىٰ بناتها.

ويحقّ لنا هنا أن نقاضيه فنقول: لماذا لم يصبحوا علىٰ مذهب التسنّن لأن محمد بن أبي بكر قد تـزوّج مـن أخت التـي تـزوّج مـنها الإمـام الحسين‌عليه‌السلام، وبالتالي أصبحوا أصهار أبي بكر؟ فحكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد.

وهناك رواية أُخرى تقول: إن بنات يزدجر كنّ ثلاثة، وقد تزوّج الثالثة عبد اللّه بن عمر[1]. وهذا يدعّم الإشكال الذي طرحناه آنفاً وهو لماذا لم يتسنن الإيرانيون؟ فالدائرة السنية أصبحت أوسـع هـنا حـيث تـزوّجت إحداهن محمد بن أبي بكر فأصبحوا أصهار أبي بكر، وتزوّجت الثـانية عبد اللّه بن عمر فأصبحوا أصهار الخليفة عمر بن الخطاب. وهذا يؤدّي بنا إلىٰ نتيجة هي أن التشيّع لم يكن عاطفيّاً، ولم ينشأ عن عامل عاطفي.

ثمّ إن التشيع أقدم من هذا بكثير، فهو أمر قد حدث في زمن الفتوحات الإسلامية الأُولىٰ، ومنذ أن فتح الري؛ حيث كان هناك أفراد ـ وإن كانوا قلائل ـ في الجيش الإسـلامي مـمن يـحملون الحبّ والولاء لآل بـيت النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله، فكان أن انتشر التشيّع بهذه الصورة في إيران.

وفوق هذا فإن هناك بعضاً من الكتاب ممّن يصرّون علىٰ أن التشيّع في إيران أيام الصفويين قام بهذه الصورة وبالسيف والدم. مع أن الواقع ليس كذلك؛ لأن العقائد التي تفرض بالدم ستضمحلّ وتذوب وتزول، فالفكر

---

(١) البداية والنهاية ٩: ١٢٢.

إذا لم يأخذ طريقه الطبيعي بشكله المألوف فلن يخلد ولن يتجدد أبداً.

الحكام الأُمويون الذين عاصرهم الإمام السجاد عليه السلام

لقد عاصر عليه السلام في طفولته معاوية بن أبي سفيان ثمّ ابنه يزيد ثمّ ابنه معاوية ابن يزيد الذي لم تطل مدّة خلافته، حيث إنه لم يبقَ في الحكم سوىٰ أربعين يوماً؛ إذ أنه خلع نفسه بعدها قائلاً: إني أروي عن النبي صلى الله عليه وآله أن الخلافة محرّمة علينا، فإذا كان أبي وجدي قد تحمّلا هذا الوزر فأنا لا أستطيع أن أتحمله. ومن أراد أن يتثبّت من هذا فلينظر (حياة الحيوان)[1]

---

(١) حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩، وقد جاء في خطبته: أيها الناس ما أنا بالراغب في الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم. وإني لأعلم أنكم تكرهوننا أيضاً لأنا بلينا بكم وبليتم بنا.

ألا إن جدي معاوية قد نازع في هذا الأمر من كان أولىٰ به منه ومن غيره؛ لقرابته من رسوله الله صلى الله عليه وآله وعظم فضله وسابقته، وهو أعظم المهاجرين قدراً وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأولهم إيماناً وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة، ابن عم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وصهره وأخوه، زوّجه صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة، وجعله لها بعلاً باختياره لها وجعلها له زوجة باختيارها له، أبو سبطيه سيدي شباب أهل الجنة وأفضل هذه الأُمة، تربية الرسول وابني فاطمة البتول من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية، فركب جدي معاوية منه ما تعلمون وركبتم معه مالا تجهلون، حتىٰ انتظمت لجدي الأُمور.

فلما جاءه القدر المحتوم واخترمته أيدي المنون بقي مرتهناً بعمله فريداً في قبره، ووجد ما قدمت يداه ورأىٰ ما ارتكبه واعتداه، ثمّ انتقلت الخلافة إلىٰ يزيد أبي، فتقلد أمركم لهوىٰ كان أبوه فيه، ولقد كان أبي يزيد بسوء فعله وإسرافه علىٰ نفسه غير خليق بالخلافة عن أُمّة محمد صلى الله عليه وآله، فركب هواه، واستحسن خطاه، وأقدم علىٰ ما أقدم من جرأته علىٰ اللّه، وبغيه علىٰ من استحل حرمته من أولاد رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فقلّت مدته وانقطع أثره وضاجع عمله، وصار حليف حفرته رهين خطيئته، وبقيت أوزاره وتبعاته، وحصل علىٰ ما قدم، وندم حيث لا ينفعه الندم، وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه: فليت شعري، ماذا قال وماذا قيل له؟ هل عوقب بإساءته وجوزي بعمله وذلك ظني؟

للدميري في ترجمته لهذا الرجل.

ولما خلع نفسه وعاد إلىٰ منزله، استقبلته أُمّه قائلة: ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك. فقال لها: وددت واللّه ذلك. ثمّ قال: ويلي إن لم يرحمني ربي.

ثمّ إن بني أُميّة قالوا لمؤدّبه عمر المقصوص: أنت علّمته هذا ولقنته إياه، وصددته عن الخلافة، وزيّنت له حبّ علي وأولاده، وحملته علىٰ ما وسمنا به من ظلم، وحسّنت له البدع حتىٰ نطق بما نطق وقال ما قال. فقال: واللّه ما فعلته، ولكنه مجبول ومطبوع علىٰ حبّ علي. فلم يقبلوا منه ذلك، وأخذوه ودفنوه حياً حتىٰ مات.

وعاصر (سلام اللّه عليه) بعد معاوية بن يزيد مروان الذي لم يطل حكمه أيضاً فقد كانت فترة حكمه ستة أشهر، وكانت كما عبر عنها أمير المؤمنين عليه السلام «**كلعقة الكلب أنفه**»[1].

ثمّ جاء بعد ذلك حكم ابنه عبد الملك بن مروان الذي وطدّ عصر المروانيين وعهدهم، وثبّت حكمهم. وهو الذي يروىٰ عنه أنه وصّىٰ ابنه بوصيّة جاء فيها: لا تقعد بعد موتي تعتصر دموعك كالأمة الوكعاء، جرّد سيفك؛ فمن قال لك برأسه هكذا، فقل له بسيفك هكذا[2].

والغريب أن بعض المسلمين يأخذون أحكامهم الشرعيّة عن هذا الرجل، بل ويعتبرونه من الفقهاء، وأنكىٰ من ذلك أن كثيراً منهم لا يروي عن الحسن والحسين عليهما السلام ويروون عنه ظناً منهم أنه أكثر وثاقة. يقول

إلىٰ أن قال: واللّه لئن كانت الخلافة مغنماً، فلقد نال أبي منها مغرماً ومأثماً، ولئن كانت سوءاً فحسبه منها ما أصابه.

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٧٣.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط: ٢٠٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨١، البداية والنهاية ٩: ٧١، ١٨٣.

عميد إحدىٰ الكليّات الإسلاميّة: إنما لم يروِ البخاري عن الصادق لأنه لم يجد طريقاً صحيحاً إليه[١]. فالبخاري وغيره إنما لم يرووا عن الصادق عليه السلام ورووا عن غيره؛ لأنهم لم يجدوا طريقاً صحيحاً واحداً اليه عليه السلام من وجهة نظر هذا.

وهذا إدّعاء عجيب وغريب فإننا نقرأ في تاريخنا عن الحسن الوشّاء أنه قال: «دخلت إلىٰ مسجد الكوفة، فوجدت أربعة آلاف شيخ كلّاً يقول حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام»[٢].

وهذا إن دلّ علىٰ شيء فإنما يدلّ علىٰ عظمة مدرسة هذا الإمام العظيم، وضخامتها العلمية علىٰ شتىٰ الأصعدة؛ سواء الفقهية منها أو الكلامية أو التفسيرية، أو غير ذلك من أنواع العلوم. فهل يقال لمثل هذه المدرسة ولمثل هذا الإمام العظيم بأنه لا يوجد طريق واحد صحيح إليه حتىٰ يُروى عنه، ويقال في الطريق إلىٰ عبد الملك: إنه طريق صحيح؟ إن هذه مفارقات عجيبة في تاريخنا المدوّن. وهذا طبعاً لا يضير الإمام الصادق عليه السلام أو غيره من أيّمة أهل البيت عليهم السلام بشيء، وهذا الشعار لا ولن يدنّس مقدار شعرة شيئاً من فيوضات أهل البيت عليهم السلام، أما قارئ هذا التاريخ المزوّر فهو الذي سيتضرّر به؛ لأنه سيشرب من منبع ملوّث.

وكل هؤلاء الذين عاصروا الإمام عليه السلام كانوا يمثّلون الخطّ المعادي للإسلام والخطّ الذي حاول هدم الإسلام؛ ولذا فإنها كانت فترة صعبة وعصيبة بكل ما تحمله من شدّة وقسوة وأحداث رهيبة مروّعة[٣].

---

(١) سيأتي بيان هذا وردّه في محاضرة (دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا) ج ٦ ص ١٣١ ـ ١٥٥ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٢) رجال النجاشي: ٤٠ / ٨٠، وفيه: تسعمئة شيخ.

(٣) من قبيل واقعة الحرّة وقتل المختار الثقفي، وغيرهما من حركات التوابين التي عاصرت

تهافت الغزالي

وممّا يحزّ في النفس أنك تمرّ بتاريخنا المدوّن فتجد أقلاماً تمدح يزيد، وتصفه بصفات المؤمنين، بل وتدافع عنه كما فعل الغزالي حيث يقول: لا ينبغي شتم يزيد ولا سبّه؛ لأنه مسلم وقد تاب. ثمّ يتساءل فيقول: من قال: إنه هو الذي قتل الحسين، أو إنه تسبب في ذلك؟ مع أن الغزالي نفسه يكفّر من يسبّ أحد الصحابة[1]. فهل يعقل أن يحكم بكفر من سبّ صحابيّاً ولا يحكم بكفر من قتل ابن بنت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسبعمئة صحابي كلّهم من حملة القرآن؟

علىٰ أية حال فإن الإمام عليه السلام لم يشترك في واقعة الحرّة لهذا السبب؛ لأنه عليه السلام كان يرىٰ أن هذه المعركة سوف لن تنتهي إلىٰ نتيجة إيجابية، فواجه زحمة الأحداث بما هو معروف عنه من حكمة وحصافة رأي.

أخلاق الإمام السجاد عليه السلام من منظار الآية الكريمة

ولنحاول الآن أن نطبّق الآية الكريمة علىٰ أخلاق الإمام السجاد (صلوات اللّه وسلامه عليه وعلىٰ آبائه)؛ لنرىٰ مدىٰ تأثّره عليه السلام بأخلاق القرآن الكريم وتأثير القرآن الكريم عليه، وكيف أن القرآن الكريم لم يفارق سلوكيّاته وأخلاقه العالية، وكلّ حركاته وسكناته. فلنتناول هذه الآية الكريمة فصلاً فصلاً، ولنتدارسها علىٰ ضوء ما قدمنا:

الإمام عليه السلام.

(١) إحياء علوم الدين ١: ١٩٣، وانظر حياة الحيوان ٢: ١٧٦.

الأول: إنفاقه عليه السلام في السرّاء والضرّاء

تقول الآية الكريمة: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾، أي فيما ساء وضرّ وفيما سرّ. والإنفاق في الضرّاء له عدّة وجوه، منها الإنفاق علىٰ العدوّ ومساعدته وإطعامه وإيواؤه وتوفير الملجأ والمسكن له. فالبعض حينما يأتيه عدّوه طالباً منه أمراً، أو يرىٰ عدوّه في أمسّ الحاجة إلىٰ مساعدته هو، فإنه لا يمدّ له يد العون والمساعدة، بل إنه لا يتصوّر لحظة أو يدور في خلده أنه سيأتي عليه يوم يساعد عدوّه فيه.

لكن القرآن يريد أن يعوّدنا علىٰ هذا الخلق؛ فهو يطلب منا أن نمدّ يد المساعدة لكل إنسان ظاهره يوحي بأنه فعلاً محتاج للمساعدة، وألّا ننقّب خلفه.

وهذا مع من تشكّ في فعليّة حاجته أو مع من لا تميل له ولا ترغب فيه، وهنا يكمن موضع العظمة والكرامة؛ فأن تُجبر نفسك علىٰ فعل يريده اللّه منك فيما ساء وسرّ لهو أمر يوحي بالكرامة والعظمة. والآن لنرَ ذلك وموقعه من الإمام السجاد عليه السلام:

إنفاقه عليه السلام في السرّاء

لقد تكفّل عليه السلام بإعالة جماعة كبيرة من الناس قُطعت عنهم عطاءاتهم؛ لأنهم ذوو المستشهدين مع أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه. فكان عليه السلام يتولّىٰ إيصال المال والطعام، بل وحتىٰ الماء إلىٰ هؤلاء وإلىٰ غيرهم من محتاجي المدينة، فكان يستقي لضعفة جيرانه[1] إضافة إلىٰ ما كان يقوم به من إعالة هؤلاء الذين استشهد كافلوهم مع أمير المؤمنين عليه السلام. ويروىٰ عن الزهري

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: ٢٠٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٨١، البداية والنهاية ٩: ٧١، ١٨٣.

أنه قال: رأيته ذات ليلة شاتية ممطرة، وكانت شديدة البرد، يأخذه الهواء يميناً وشمالاً، وهو يطرق أبواب المدينة المنوّرة باباً باباً، ويعطي أهـلها هداياه الكريمة بيده الشريفة.

إنفاقه عليه السلام في الضرّاء

كما أنه (صلوات اللّه وسلامه عليه وعلىٰ آبائه) كان يـنفق ويسـاعد حتىٰ عوائل أعداء أهل البيت عليهم السلام، ومن ذلك أنه بعد أن استفحل الوضـع المتشنّج في المدينة قبل ثورة الحرّة وأثناءها، لجأ أكثر من أربعمئة عائلة إليه فأعالهم وأعانهم هو وصحابته الخلّص بعد أن هاجمهم أهل المدينة وقرّروا القضاء عليهم، وبعد أن سدّ كل أصحاب الشأن في المدينة أبوابهم في وجوههم، حتىٰ أُولئك الذين كان هواهم مع التيار الأُموي كعبد اللّه بن عمر وغيره؛ حيث رفض تقديم العون لمروان وعائلته[1].

فالذي حصل أن الإمام السجاد عليه السلام تكفّل بحماية هذه العوائل الأربعمئة وبإعالتهم ومعيشتهم وحمايتهم إلىٰ أن انتهىٰ الوضع المتشنّج في المـدينة وعاد الهدوء إليها.

الإمام عليه السلام يجير عائلة مروان

وكما ذكرنا فإن أربعمئة من العوائل الأُموية طوردت وحوصرت، وكان من جملة هذه العوائل الأربعمئة عائلة مروان بن الحكم، وكـان مـروان نفسه معهم، فما كان من الإمام عليه السلام إلّا أن أجاره وعائلته، ثم أخرج عائلته إلىٰ الطائف؛ لأن الثوار أرادوا قتله وقتلهم مع من كانوا يريدون قتله مـن الأُمويين في المدينة؛ حيث أمر الإمام السجاد عليه السلام ابنه عبد اللّه أن يأخذ زوجة مروان عائشة بنت الخليفة الثالث ـ حينما أرادت أن تـخرج مـن

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

المدينة هرباً من الثورة ـ إلى الطائف، ففعل وبقي مرابطاً على باب بيتها ثلاثة أشهر لحراستها[١].

وهذا ليس غريباً من رجل عظيم مثل الإمام السجّاد عليه السلام؛ ذلك أن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام وقف بعد واقعة الجمل منادياً، والقتلىٰ تنيف على الثلاثين ألفاً: «**لا تجهزوا علىٰ جريح، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تهيجوا النساء بأذىٰ**»، ولينادي: «**لا يصلن لزوجة رسول الله صلى الله عليه وآله منكم أذىٰ**». ويأتي ليقف علىٰ رأس المرأة ليقول: «**ما أنصفك الذين أخرجوك من بيتك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك**». ثمّ وضع لها بيتاً وعشرين خادمة[٢]، فتأمل النبل.

فهذا معدن أمير المؤمنين عليه السلام، فهو تلك النفس المطمئنّة، وذلك الجأش الطامن الثابت، وتلك الروح الكبيرة؛ فليس غريباً منه عليه السلام أن يقف ذلك الموقف، أما هي فحينما وصلها نعيه عليه السلام خاطبت ناعيه قائلة:

فإن يكُ نائياً فلقد نعاهُ نعِيٌّ ليس في فيه الترابُ[٣]

وهذا في الواقع يبيّن لنا المفارقات التاريخية التي احتلّت مساحة واسعة من تاريخنا، وشغلت مجالاً كبيراً منه. فكان أن عاش تاريخنا هذه المفارقات بكلّ أبعادها.

فالآية الكريمة تقول: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾، أي سواء كان الإنفاق فيما يجب الإنسان أن ينفق وفيمن يحبّ، أو فيما يكره وفيمن

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣٤: ٤٥٦.

(٢) شجرة طوبىٰ ٢: ٣٢٤، وقعة الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٦.

(٣) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥. حيث إن العرب كانوا يقولون لمن جاء ينعى عزيزاً عليهم: ملأ اللّه فمك تراباً، وهي هنا تقول له: لا ملأ اللّه فمك تراباً؛ كرهاً منها له عليه السلام.

يكره من أعدائه؛ لأن المطلوب وراء الإنفاق هو وجه اللّه تعالىٰ.

الثاني: كظمه عليه السلام غيظه وعفوه

ثمّ قالت: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾، أي لا يظهرون غيظهم وغضبهم. يقول البيهقي والمراغي في تفسير هذا المقطع من الآية الكريمة: إن علـيّ بـن الحسين عليهما السلام كان في بيته، وكانت جارية له تصبّ الماء علىٰ يده من إبريق تحمله، فسقط الإبريق علىٰ جـبهته فشـجّها حـتّىٰ أدمـاها، فـارتعدت الجارية وقـالت له: مـولاي، ﴿وَالكَـاظِمِينَ الغَـيْظَ﴾. فـقال عليه السلام: «كـظمت غيظي». قالت: ﴿وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. قال عليه السلام: «قد عفا الله عنك». قالت: ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾. فقال عليه السلام: «اذهبي فأنت حرّة لوجه الله تعالى»[1].

وهو عليه السلام إنما شابه بهذه الخصلة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، فقد روى الإمام الصادق عليه السلام ـ وكان يذكر سيرة جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام لحضّار مجلسه ـ أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يلبس الخشن ويقوّت نفسه بالعجوة، ويـطعم اليتامىٰ الجوز. وكان يعمل عمل رجل وجهه بين الجنة والنار، ثمّ قـال: «واللّه ما أطاق عمل جدّي أمير المؤمنين عليه السلام إلّا علي بن الحسين».

وفعلاً كان هذا من سمات شخصيّة زين العابدين عليه السلام، فمن جملة الأُمور التي شابه بها جدّه أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يجمع كلّ الأرقّاء الذين عنده ليلة العيد من كلّ سنة في وقت الإفطار ويسقيهم الماء ويجلس معهم على الطعام، وإذا كان أحدهم قد أذنب ذنباً ذكّره به، فيخاف العبيد، ثم يأمرهم أن يدعوا له حيث يقول لهم: «قولوا: اللهمّ اعفُ عن علي بن الحسين كما عفا

---

(١) لم يتوفّر لدينا تفسيراهما، انظر: الأمالي (الصدوق): ٢٦٨ / ٢٩٤، الدر المـنثور ٢: ٧٣، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٧، البداية والنهاية ٩: ٢٥.

عنّا »[1]. ثم يعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل ويقول، لكل واحد منهم: «استعن بها علىٰ دهرك، أصلح اللّه لك أمرك فيها».

وكذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام، فقد أعتق من كدّ يده وعرق جبينه ألف مملوك.

ثمّ قالت: ﴿وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، وهنا موضع العجب؛ فقد مرّت بالإمام عليه السلام فرص كان بوسعه فيها أن ينتقم بها من أعدائه؛ ومن ذلك حينما دخل مسرف بن عقبة المدينة بعد واقعة الحرّة، وقال لهم: ايتوني بالناس ليبايعوا بالقوّة، إلّا الإمام السجّاد عليه السلام فأحضروه مكرّماً محترماً، فلما دخل عليه أعظمه مسرف وأكرمه، ولما أراد أن يخرج ودعه بأدب واحترام وقال له: مرني يابن رسول اللّه. فقال له عليه السلام: «لا أُريد لنفسي شيئاً، ولكن رفقاً بالمسلمين».

وهذا في الواقع قمّة تجسيد مفاهيم القرآن في أخلاق الإمام السجاد عليه السلام.

الإمام يجير إسماعيل بن هشام الأُموي

وممّا يذكر في هذا الصدد ـ كما يروي عمر بن علي بن الحسين عليهما السلام ـ أن هشام بن إسماعيل المخزومي كان والي عبد الملك في المدينة وكان ناصبياً يسيء لأهل البيت عليهم السلام وخصوصاً للإمام السجاد عليه السلام، فكان يجمعهم كلّ يوم جمعة تحت المنبر ويأخذ بشتم أمير المؤمنين عليه السلام حتىٰ يُبلغ، وهو إنما يفعل هذا مبالغة في إيذاء العلويّين، وكان أذاه للإمام

---

(١) الصحيفة الكاملة السجاديّة / دعاؤه عليه السلام في آخر ليلة من شهر رمضان، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٤٤٤، بحار الأنوار ٤٦: ١٠٤، ٩٥: ١٨٧.

السجادعليه السلام أشدّ. وقد بقي والياً إلى زمن الوليد بن عبد الملك الذي عزله؛ لأنه اختلس أموالاً كثيرة من بيت المال، وولّىٰ مكانه عمر بن عبد العزيز، وأرسل إلىٰ عمر أن أوقف إسماعيل في الشمس واضربه بالسياط وأرجع الأموال.

فكان هشام هذا يخاف أن يمرّ به زين العابدينعليه السلام فيشمت به، إذ أنه كان يظن أن الإمام علىٰ شاكلته. وذات مرّة كان الإمامعليه السلام يمشي وإذا به يرىٰ حشداً، فسأل فأخبروه الخبر، فمنععليه السلام الإساءة إليه، حيث إنهعليه السلام جمع كلّ أصحابه وأهل بيته وقال لهم: «**لا تتعرّضوا لهذا الرجل بسوء أبداً**». فقال أحد أولاده: يا أبه، نحن إنما ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمامعليه السلام: «**كِله إلى اللّه**». وطلب منهم ألّا يبدوا على وجوههم أي امتعاض، ثم همس في أُذنه قائلاً: «**انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به، فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا**».

وأرسل له الإمامعليه السلام كلّ ما أعوزه من مال؛ ليسد به عجزه، فكان بعد ذلك يقول فيه: ﴿**اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[1]، وكان أن ترك هذا الأُموي النصب له[2].

الدعاء والعبادة

وهو المجموع في (الصحيفة السجادية) المعروفة بإنجيل آل محمدصلى الله عليه وآله أو زبور آل محمدصلى الله عليه وآله. وهي صحيفة حقّ علىٰ كل بيت مؤمن أن يحتفظ

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

منها بنسخة؛ لأنها أهم رابط يحدد مسلك الإنسان إلىٰ اللّه ويربطه به.

وكما أنهعليه السلام خصّص قسماً من وقته للدعاء، فكذلك خصّص قسماً منه للعبادة. يروي المؤرّخون أن لونهعليه السلام كان يصبح شديد الاصفرار بمجرّد إقدامه علىٰ الوضوء، ويسأله أحدهم: ما بالك يا بن رسول اللّه؟ فيجيبه: **«ويلك، أتدري بين يدي من أقف أنا»**[1]. وهكذا لا يعرف عظمة اللّه إلّا أولياء اللّه الذين يعرفونه حق المعرفة، فهو الذي **«من خشيته ترعد السماء وسكانها، وترجف الأرض وعمّارها، وتموج البحار ومن يسبح في غمراتها»**[2].

فالإمامعليه السلام يقول له: إنك لا تدري بين يدي من أقف، أنا أقف بين يدي جبار السماوات والأرض[3].

وهكذا كانت هذه الفترة بمثابة فرصة ذهبية تسنّت للإمام ليعبّر فيها عن مدىٰ خضوعه للّه واندكاكه في ملكوته عبر هذه الأدعية المباركة وألوان

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٣٢٤ / ٦٣، الطبقات الكبرىٰ ٥: ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٧٨، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٢٣.

(٢) مصباح المتهجّد: ٥٨٠ / ٦٨٩، الاقبال بالأعمال الحسنة ١: ١٤٠.

(٣) كما ورد من أنهعليه السلام كان قائماً في صلاته فزحف ابنه محمدعليه السلام - وهو طفل - إلى بئر كانت في داره بعيدة القعر، فسقط فيها، فنظرت إليه اُمّه فصرخت، وأقبلت تضرب نفسها من حوالي البئر وتستغيث به وتقول له: يابن رسول الله، غرق والله ابنك محمد. وكلّ ذلك لا يسمع قولها ولا ينثني عن صلاته، وهي تسمع اضطراب ابنها في قعر البئر في الماء. فلما طال عليها ذلك قالت له جزعا على ابنها: ما أقسى قلوبكم يا أهل بيت النبوة! وهو مستمرّ في صلاته ولم يخرج عنها إلّا بعد كمالها وتمامها، ثم أقبل عليها فجلس على رأس البئر، ومدّ يده الشريفة إلى قعرها - وكانت لا تنال إلّا برشاء طويل - فأخرج ابنه محمداً بيده وهو يناغيه ويضحك، ولم يُبلّ له ثوب ولا جسد بالماء.

دلائل الإمامة: ١٩٧، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٨.

العبادة الأُخرىٰ التي كان يمارسها، إضافة إلىٰ دوره التثقيفي والتوجيهي. فكان يسهر ليله في عبادة اللّه تعالىٰ، ويقضي نهاره صائماً، أما الحجّ فقد حجّ مراراً عديدة. وكانعليه السلام معروفاً عنه شدة السهر في سبيل اللّه خاشعاً متهجّداً.

ومما يروىٰ عنه في هذا الصدد أن اُخته فاطمة بنت الحسينعليه السلام دخلت عليه فرأت دقة ساقه واصفرار وجهه وإلىٰ جبينه المعفّر وكوعيه وقد أكلتهما الأرض فرقّت لحاله وأدركتها العبرة وبكت، ثمّ قالت له: سيدي، حسبك هذا الذي أنت فيه؛ فقد أرهقت نفسك ووقفت حتىٰ انتفخ ساقك وورم قدمك، وبكيت حتىٰ قرحت عيناك، وأصابك الضعف والهزال مما أنت فيه من طاعة اللّه تعالىٰ. فكان جوابهعليه السلام أن قال لها: «**أعطوني هذه الصحف التي فيها بعض عبادة جدي علي بن أبي طالب**». فلما أعطوه إياها فأخذها ثمّ نحّاها قائلاً: «**من يصبر ويقوىٰ علىٰ عبادة علي بن أبي طالب؟**»[١].

أي أنهعليه السلام يقرّر أن هذه العبادة لا تعدّ شيئاً إذا ما قيست بعبادة علي بن أبي طالبعليه السلام، وأنهعليه السلام يريد أن يتأسّى بجدّه إمام العارفينعليه السلام.

نشاطه الاجتماعي

وأُحبّ أن أُنوّه إلىٰ أن نشاطاته العلمية والعبادية تلك لم تكن لتعيقه عن ممارسة واجباته الاجتماعية، فقد كان يزور المرضىٰ ويحيي مناسبات الناس العامّة. وكان يستشار من قبل الدولة، فيعطي مشورته بكل صدق[٢]. كما أنهعليه السلام كان يدعم الجيوش الإسلامية الفاتحة بروحيته

---

(١) شرح الأخبار ٣: ٢٧٢، الإرشاد ٢: ١٤٢، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٩٠.

(٢) قد مرّت قصة سكّ النقود الإسلامية وأنها بمشورتهعليه السلام في ج١ ص ١٣٢ من موسوعة محاضرات الوائلي.

العالية، وهو ما يثبته وجود دعاء طويل في صحيفته المشرّفة يعرف باسم «دعاء أهل الثغور» يدعو فيه للمسلمين وجنودهم المرابطين علىٰ ثغور البلاد الإسلامية بالنصر والظفر.

الإسلام ينظم العلاقات الاجتماعيّة الأُسريّة

الإسلام قام بتنظيم العلاقات الأُسرية والاجتماعية كافّة، ووضع ضوابط تحكم علاقة الإنسان بمجتمعه وبنفسه وبأُسرته. وهو يخرج مع الإنسان في أوّل خطوة من خطواته وهو يجتاز باب بيته، ويدلف معه إلىٰ الشارع، فهو يقول له: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾[١]. ثمّ إنه يأمره بأن يحمل الخير لغيره كما يحمله لنفسه، بل وأن يحمل الخير للدنيا لا الشرّ، ويأمره بأن يكون متواضعاً ومتخلّقاً بأخلاق الأنبياء عليهم السلام وورثتهم، وألّا يصعّر خدّه للناس، وألّا يمشي في الأرض مرحاً، ثمّ يؤكد ذلك بقوله الكريم: ﴿**إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً**﴾[٢].

ويدخل مع الإنسان إلىٰ الأسوق والشركات، ويقول له: ﴿**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾[٣].

وبهذا فالإسلام يجعل الإنسان دائماً في مواجهة الحدث الذي هو ذاهب إليه، ولن يترك له منطقة فارغة دون أن يملأها بما يناسبها من القوانين والأحكام. فالإسلام إذن لا يكتفي بتنظيم الدولة فقط، بل إنه

(١) النساء: ٨٦. (٢) الإسراء: ٣٧.
(٣) الأعراف: ٨٥.

ينظّم البيت والسوق، والنفس والذوات، وعلاقة الإنسان بزوجته وأخيه، وأُسرته ومجتمعه، ويؤطرها بقواعدها المناسبة، ويدفع الإنسان للعمل الدؤوب لتحصيل هذا.

يروي المفضل بن عمر أنه لقي الإمام الصادقعليه السلام في فصل الصيف، وبيده مسحاة وهو يرشح عرقاً، فسأله قائلاً: إلىٰ أين يا سيدي؟ فقال له: «عندي بستان، وأردّت أن أسقيه وأُصلحه». فقال له: إذا متّ فماذا تقول للّه؟ فأجابهعليه السلام بأنه سيقول حينها بأنه قد خرج إلى حيث وجّهه وأمره، أي من حيث يكتسب قوته، فقد قال تعالىٰ: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾[1]؛ لأن اللّه يحبّ العبد المحترف[2]، وما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده[3]، فسكت المفضّل. فهوعليه السلام يريد أن يقول له: إذا لم تكن تفقه المسائل، فلا تتفيقه على غيرك؛ فإن اللّه قد أمرني بأن أعمل وأعول عيالي، فأنا ذاهب لأمر اللّه، بل أنا في حدود طاعة اللّه تعالى وفي نطاق أوامره.

اجتراح المال في الحلال وصرفه في الحلال

وهذا أيضاً تصوّر سليم للزهد رسمته لنا السنة المشرّفة، فالإنسان يجب أن يعمد إلىٰ الطرق المشروعة في الكسب فينتهجها، وبعد أن يحصل علىٰ المال الحلال يضعه في قناة نظيفة مشروعة توصله إلىٰ هدفه

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) الخصال: ٦٢١، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

الصحيح من موارد الصرف التي يرتضيها اللّه لنا. فهذا التصرّف في الكسب والعطاء عبارة عن تفاعل مع المجتمع بالمورد، كما أنه لأجله، فإن كان هذا التفاعل غير سليم ومنحرفاً فسوف ينعكس سلباً علىٰ المجتمع.

والانحراف هنا قد يتمثّل بسرقة حقّ الغير، أو غشّ الغير في المعاملة وغيرها، أو خديعته لأجل الاستيلاء علىٰ ما يملك، وهي نوع من السرقة أيضاً ووجه من وجوهها. وقد يتمثّل الانحراف باحتكار السلع والبضائع والأطعمة فيجيع المحتكر الآخرين، وقد يتمثل الانحراف أيضاً بالصرف غير المشروع، كإنفاق المال علىٰ موارد الحرام من شرب خمر وانخراط في مجالس اللهو والفجور وغير ذلك. ومما يروىٰ في هذا المجال أن أبا حنيفة صاحب المذهب الإسلامي المعروف كان له جار من الكيّالين مغرم بالشراب، وكان يغني على شرابه بقول العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

قال فأخذه العسس ليلة وحبسوه، ففقد أبو حنيفة صوته واستوحش له، فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيّال؟ قالوا: أخذه العسس، وهو في الحبس. فلما أصبح أبو حنيفة توجّه إلى الأمير عيسى بن موسى فاستأذن عليه، فأذن له، فلمّا دخل عليه أقبل عليه عيسى بن موسى وسأله عما جاء بسببه، فقال: أصلح الله الأمير، إن لي جاراً من الكيّالين أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسه. فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كلّ من في الحبس إكراماً له، فأقبل الكيّال على أبي حنيفة يتشكّر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعناك يا فتى؟ يعرّض له بشعره الذي ينشده، قال: لا والله[1].

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ٢: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

فمعنىٰ الانحراف في الصرف: انحراف المجتمع بالنتيجة، وإلّا فإن شارب الخمرة إنما يشرب ما يُنفد عقله ويضرّه بعد أن كان قد اشتراه بما تعب من أجله وعرق لكسبه في حرّ الصيف أو في برد الشتاء، فها هو يصرفها في مورد ملوّث. وربما يصرفها كذلك في الاعتداء علىٰ أعراض الناس الذي هو أبرز مصاديق الانحراف في المجتمع.

فالزهد إذن علىٰ ضوء هذا التصوّر الذي نحن بصدده هو اكتساب المال من الحلال وصرفه في الحلال، وهذا هو معنىٰ الزهد في أسلم مفاهيمه، لا أنه ترك لذائذ الحياة؛ لأن هذا مفهوم سلبي للزهد، ويتعارض مع المفهوم الإسلامي له. سئل الإمام الصادقعليه السلام عن الزهد فأجاب السائل بأن اللّه عزّ وجلّ خلق النعم فإن لم يتمتّع بها الإنسان، فمن يتمع بها إذن؟

علىٰ أي حال فإن اللّه خلق الأرض وسخّرها لنا بأجمعها، بما فيها من بحار ومحيطات، وما أودع داخلها من حلية ولباس وطعام ومعادن وزراعة وغيرها. فإذا كان الإنسان لا يتمتّع بهذا كلّه فلمن يُترك إذن؟ هل يترك للحيوان يتمتّع به وحده؟ طبعاً لا؛ فإن لبسك من حلال وأكلك من حلال وتصرّفك من حلال لا ينافي الزهد أبداً، فكلْ ما شئت والبس ما شئت لكن لا تتعدّ حدود اللّه أو حدود مراعاة المجتمع، وهي الضوابط الأخلاقية التي حثّنا الإسلام علىٰ لسان الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله وآله الطاهرينعليهم السلام علىٰ اتّباعها[1].

(١) قال رسول اللّهصلى الله عليه وآله: «إن اللّه افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلّفوها». سنن الدار قطني ٤: ٢٩٨، وفي كنز العمّال ١: ٣٨١ / ١٦٥٦ نحوه.

وقال أمير المؤمنينعليه السلام: «إن اللّه افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدَّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً، فلا

أما القائل خلاف هذا، والداعي إلىٰ نبذ الحياة الدنيا كلّها، فهو شاذّ لا علاقة له بالإسلام ولا للإسلام به؛ لأنه بعيد عن الإسلام وواقع الإسلام الذي يتعامل مع الحياة بشكل واقعي بعيد عن الطوباويّة والمعالجات السلبيّة لمشاكلها، وبعيد عن الهروب من مشاكلها أو آفاتها. كما أن هذا الداعي يصوّر الإسلام بصورة غريبة عنه لا تمسّ حقيقته بشيء أبداً.. بصورة تنفرّ الناس منه وتبعدهم عنه.

وقد يسأل سائل فيقول: لكن ألم يكن أهل البيت عليهم السلام كذلك؟ ألم يمتنعوا من لذائذ الدنيا ويأكلوا الجشب ويلبسوا الخشن ويعيشوا عيشة الفقراء مع أن اللّه تعالىٰ سخّر لهم الدنيا؟

والجواب: أن هذا صحيح، لكن وضع أهل البيت عليهم السلام يختلف عن غيره، ذلك أنهم عليهم السلام قمم ونجوم أهل الأرض وأمانهم ومقتداهم[1] فهم يتأسّون

تتكلّفوها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٥.

ورواه الصدوق رحمه الله وزاد عليه: ثم قال عليه السلام: «حلال بيّن، وحرام بيّن، وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان أترك. والمعاصي حمى اللّه عزّ وجلّ، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها». الفقيه ٤: ٥٣ / ١٩٣.

(١) قال الرسول صلى الله عليه وآله: «أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون». انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣،٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤ وغيرها

وقال صلى الله عليه وآله: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض». المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣،٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤، وانظر شواهد التنزيل ١: ١٨٩، ١٩١.

بأضعف الناس[١].

---

(١) فعن الرضا عليه السلام أنه قال لمحمد بن أبي نصر: «البس وتجمّل؛ فإن عليّ بن الحسين عليهما السلام كان يلبس جبّة الخز بخمسمئة درهم، ومطرف الخزّ بخمسين ديناراً، فيشتو فيه، فإذا خرج الشتاء باعه، فتصدّق بثمنه». وتلا هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾. تفسير العياشي ٢: ١٩ / ٣٤.

ودخل سفيان الثوري وعليه ثياب الصوف على الصادق عليه السلام وكان عليه ثياب رقاق، فقال له: يا مولاي، إن جدّك عليّاً عليه السلام كان يلبس من الثياب ما خشن، فلم لا تقتدي به؟

فقال عليه السلام: «كان جدّي في زمان ضيق بعدُ، لم تتّسع الدنيا علىٰ المسلمين كاتّساعها في هـذا الوقت، ونحن قوم إذا وسّع اللّه علينا، وسّعنا علىٰ أنفسنا؛ لأن اللّه إذا أنعم علىٰ عبده بنعمة، أحبّ أن يرىٰ أثرها عليه. وإنما خلق اللّه الدنيا وما فيها من الملاذّ للمؤمن، لا للكافر؛ لأنّه لا قدر له عنده. ولو كان عليّ عليه السلام في مثل هذا العصر، لما وسعه إلّا أن يسلك مثل ما سلك أهله؛ لئلّا يقال: إنه مُراءٍ، ولئلا يشتم بثيابه ومأكله، مع أن علياً عليه السلام كان والياً، فلو أنّه لبس مثل هذا؛ لاتّهمه المسلمون علىٰ أموالهم. فينبغي له أن يكون كواحد من فقراء المسلمين في المعاش والرياش؛ حتّىٰ يسهل على الفقير فقره إذا نظر للوالي وما هو عليه، وأمّا أَنا، فلست بوالٍ، ولو كنت والياً لاقتديت به». الكافي ٦: ٤٤٢ / ٨.

ويؤيّد قول الإمام الصادق عليه السلام هذا ما روى ابن عبد ربّه من أنه أصـابت الربـيع بـن زيـاد الحارثيّ نشّابة في جبينه، فكانت تنتقض عليه في كلّ عام، فأتاه أمير المؤمنين عليه السلام عائداً له، فقال له أخوه الربيع: يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك أخي عاصماً؟ قال: «وما به؟». قال: لبس العباء، وترك الملاء، وغمّ أهله، وأحزن ولده. فقال عليه السلام: «عَلَيَّ عاصماً».

فأُتي به، فعبس الإمام عليه السلام في وجهه وقال: «ويحك يا عاصم، أترىٰ أن اللّه أباح لك اللذّات، وهو يكره أخذك منها؟ أنت أهون علىٰ اللّه من ذلك. أوما سمعته يقول: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؟ فاطر: ١٢؟ أما واللّه، إن ابتدال النعمة بالفعال، أحبّ إليه من ابتدالها بالمقال. وقد سمعته تعالىٰ يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحىٰ: ١١، ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾؟».

قال عاصم: فعلام اقتصرت أنت يا أمير المـؤمنين عـلىٰ لبس الخشـن، وأكـل الجشب؟ فقال عليه السلام: «إن اللّه افترض علىٰ أئمّة العدل أن يقدّروا أنفسهم بالقوام؛ لئلّا يشنع بالفقير فقره».

دخل أمير المؤمنين عليه السلام علىٰ العلاء وقد بنىٰ له داراً ولا يريد أن يدخلها، فأنّبه الإمام عليه السلام على ذلك، وبيّن له أن الله أكرم من أن يأمره ببناء دار له، ثم يكره له أن يسكنها. ولما احتج له العلاء بسيرته هو عليه السلام في هذا الباب أجابه بما معناه: أن حالك غير حالي؛ فإني أُريد أن أُعايش أضعف الناس، وأن أُشاركهم مستواهم المعيشي؛ فلا أتميّز عنهم؛ لأن هذه هي وظيفة القائد والراعي. ومن ناحية أُخرىٰ فأنا إن فعلت ذلك فربما يظنّ البعض أني أسرقهم أموالهم، ولا أُريد لأحد أن يقول: سلبني علي بن أبي طالب حقّي وتمتّع به في قصر وتركني أرزح في كوخ، بل أُريد أن أُشعره بأني وإياه في مستوىً واحد.

وهذا قد وقع فعلاً، فبعد قدومه الكوفة أعدّ له الجند قصر الأمارة وهيؤوه، وطلبوا منه أن ينزل به، فرفض ذلك وقال: «لا واللّه، إنه قصر الخبال، جنّبونيه». ثمّ اشترىٰ له بواري وحصراً، وبنىٰ له بيتاً من قصب يلامس رأسه إذا قام فيه، ذلك البيت الذي استحال ـ بعد لحوقه عليه السلام بالرفيق الأعلىٰ تبارك وتعالىٰ ـ قمّة شمّاء تناطح السماء عزّة وسمّواً ورفعة وطيب ذكر. وقد قارن أحد الأُدباء المعاصرين بينها وبين قبّة الخضراء التي كان يسكنها معاوية، والتي كلّفته من بيت مال المسلمين ثمانية عشر بعيراً ذهباً وفضّة، ثمّ بعد ذلك حوّلها إلىٰ سجن. وقد كان معاوية يسكنها في الوقت نفسه الذي كان الخليفة الشرعي المنصوص عليه والمنتخب من الأُمة أمير المؤمنين عليه السلام يسكن تلك الخربة التي بناها من البوراي والحصر، يقول هذا الأديب:

فما برح أمير المؤمنين عليه السلام، حتّىٰ لبس عاصم الملا، ونبذ العبا. العقد الفريد ٢: ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

قُـم وارمُـقِ الـنـجفَ الأغـرَّ بـنظرَةٍ يـرتدُّ طـرفُكَ وهـوَ بـاكٍ أرمـدُ

تـلكَ العـظامُ أعـزَّ ربُّك شأنَـها فـتكادُ لولا خـوفُ ربك تُـعبَدُ

أبـداً تُـباكـرُها الوفـودُ يَـحُثُّها مـن كـلِّ صـوبٍ شـوقُها المُـتَوقِّدُ

نـازعتَها الدنـيا فـفزتَ بـورِدِها ثُـمَّ انـطوىٰ كـالحُلْم ذاكَ المـورِدُ

وَسعَت إلىٰ الأُخرىٰ فأصبحَ ذِكـرُها في الخَـالدينَ وعـطفُ ربِّكَ أَخـلَدُ[1]

وأي سعي كان الناس يسعون إليه مع علمهم أنه لم يكن إلّا قصباً وحصراً وبواريَ؟ كان عظماء الناس يسعون إليه علىٰ جفونهم فضلاً عن أرجلهم. وما أروع ما صوّره عبد الباقي العمري في قصيدته، وكان قادماً نحوه في سفينة في نهر الفرات، وفيها أنشد قصيدته التي يقول فيها:

بـنا مـن بـنات المـاء للكـوفة الغـرّا صبوح سرت ليلاً فسبحان من أسـرىٰ[2]

وبعد أن لامست قدماه الرمل الطاهر أنشد قائلاً مرتجلاً أبياتاً رائعة منها:

ولمّـا سـرينا للـغريّ عشـيّةً لمن قد ثوىٰ فيه احتراماً وتبجيلا

ربـطنا بأخـفافِ المـطيّ ثـغورَنا فأوسعت الصحراءَ لثـماً وتـقبيلا

فالدنيا بطبيعة الحال بالنسبة لأمير المؤمنين عليه السلام ولأهل البيت عليهم السلام لا تعني شيئاً، وهم يريدون ألّا يمتازوا عن غيرهم من ضعفة الناس. ثمّ إن القرآن الكريم يرفع عقيرته آناء الليل وأطراف النهار منادياً: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[3].

---

(١) من قصيدة للشاعر السوري محمد مجذوب بعنوان (علىٰ قبر معاوية)، وقد مرّ قسم منها في ج٢ ص٣٤٤ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٢) ديوان عبد الغفّار الأخرس: ١٦٤ (تخميس قصيدة العمري).

(٣) الاعراف: ٣٢.

المراد من الأرض في الحديث الشريف

ثمّ قال عليه السلام: «وأرض اللّه فراشاً»، المراد بالأرض هنا: التواضع، حيث إن الأمر ينتهي بهؤلاء الزاهدين إلىٰ أن يجلسوا حيث هم وحيث ينتهي بهم المجلس، ولا يداخل أحدهم أمر دنيوي من قبيل أن الرفعة والسموّ وغيرهما هي أُمور تكون بتسنّم الكراسي وتناول المناصب. كما أنهم يعلمون جيداً أن الكرسي الذي يمتطيه صاحبه يكون أفضل من صاحبه في كثير من الأحيان. يقول أحد الأدباء، وقد رأىٰ طبيباً اسمه توما راكباً علىٰ حمار له:

قال حمار الطبيب توما لو أنصفوني لكنت أركبْ
لأنني جاهل بسيط وراكبي جهله مركّبْ[1]

وكرامة الإنسان ليست من كرسي يجلس عليه أو طنفسة يفترشها ويتربّع عليها، بل إن من هو أهل لأن يكون كذلك إذا جلس علىٰ التراب أحاله إلىٰ عرش وقمّة من أنفس وأثمن ما في الوجود؛ ولذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يفرح إذا ما كُنّي بأبي تراب. وسبب تلك الكنية وحبّه لها أن النبي صلى الله عليه وآله أدركه ذات يوم نائماً، وقد خلص التراب إلىٰ جسمه، فقال صلى الله عليه وآله له: «قم أبا تراب»[2]. يقول أحد الأُدباء:

أأبا تراب للترابِ تفاخرٌ أنْ كانَ منْ أمشاجهِ لكَ طينُ
الناسُ من هذا الترابِ وكلُّهم في أصلهِ حمأٌ بهِ مسنونُ
لكنما من ذا الترابِ حوافرٌ ومن الترابِ حواجبٌ وعيونُ

(١) المثل السائر ٢: ٣٣٨. (٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٦٠.

فإذا استطالَ بك الترابُ فعاذرٌ ... فلأنتَ من وجهِ الترابِ جـبينُ
وإذا رجعتَ إلىٰ الترابِ فلمْ تمتْ ... كالجذرِ ليس يموتُ وهو دفينُ
لكــنَّهُ يـنمو ويـفترعُ الثـرىٰ ... وترفُّ منهُ براعمٌ وغصونُ[١]

فالحقيقة أن هذا الرجل العظيم قد اتّخذ له من التراب عرشاً، وهو الذي أصبح فيما بعد ذهباً متألّقاً يناطح السماء؛ فهو أبـو تـراب الذي عشـق التراب، وما كان لينقص من قدره أو يقلّل من قيمته، بل التواضع هو الذي يرفع الإنسان ويسمو به[٢]. وهذا لا يعرفه ولا يدركه إلّا ذو النفس الكبيرة والهمّة العالية.. النفس التي تدرك أن كبرها وسموّها هما فيما تحمل من إنسانيّة وعطاء للمجتمع.

الإسلام نظيف

ثمّ قال عليه السلام: «وماءها طيباً»، إن أطيب الطيب هو الماء، والماء هنا كناية عن النظافة، فهؤلاء الزاهدون من صفاتهم أنهم دائماً علىٰ نظافة وطهارة. والرواية تقول: «المؤمن قاذورة»[٣].

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

(٢) قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن في السماء ملكين موكلين بالعباد؛ فمن تواضع للـه رفـعاه، ومن تكبّر وضعاه». الكافي ٢: ١٢٢، مشكاة الأنوار: ٤٠١.

وقال الشاعر:

تواضع تكن كالنجم لاح لنـاظر ... علىٰ صفحات الماء وهـو رفـيعُ
ولا تكُ كـالدخان يـعلو بـنفسه ... إلىٰ طبقات الجـو وهـو وضـيعُ

وقال آخر:

حبلىٰ السنابلِ تنحني بـرؤوسِها ... والفارغاتُ رؤوسُـهن شـوامـخُ

(٣) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان قاذورة، لا يأكل الدجاج حتى يعلف. والقذر: خلاف النظافة، وهو

وهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي تحثّ علىٰ النظافة[1] هو الذي جعلنا ننظر إلىٰ الزهد بهذا المنظار الإيجابي المستقىٰ من السنة، وإلّا فإن البعض يعتقد واهماً بأن الزهد هو الاعتزال عن المجتمع وعدم التفاعل معه، وهو الثياب المتّسخة والجسم القذر. فالإمامعليه السلام يريد أن يصحّح هذا المفهوم المخطوء في أذهان الناس فيقول: «**اتّخذوا... ماءها طيباً**». فاللّه تعالىٰ قد خلق لنا هذا الماء كي نتطهر به ونتنظف، دخل يوما أبو الأحوص الجشمي إلىٰ المسجد، فرآه النبيصلى الله عليه وآله وسخ الثياب نتن الرائحة، فقالصلى الله عليه وآله له: «**هل عندك أموال؟**». قال: نعم. فقالصلى الله عليه وآله: «**من أيها؟**». قال: أعطاني اللّه من كلّها؛ من الإبل والبقر والغنم والمزارع والتجارة. فقالصلى الله عليه وآله: «**أما وجدت ما تلبسه؟**».

مجتنب؛ فمن ثم قيل: قذّر الشيء، إذا اجتنبه كراهة له. قال العجاج:

وقذّري ما ليس بالمقذور

ومنه قالوا: ناقة قذور، إذا كانت عزيزة النفس لا ترعى مع الإبل، ورجل قاذورة، إذا كان متقذّراً. الفائق في غريب الحديث والأثر ٣: ٧٥.

فالقذر لفظ من الأضداد.

(١) كقولهعليه السلام: «تنظفوا بالماء من النتن، والريح الذي يتأذى به. وتعاهدوا أنفسكم فإن اللـه؛ عزوجل يبغض من عباده القاذورة الذي يتأنّف به من جلس إليه». الخصال: ٦٢٠.

قال النبيصلى الله عليه وآله لأنس: «يا أنس، أكثر من الطهور يزد الله في عمرك، فإن استطعت أن تكون بالليل والنهار على طهارة فافعل، فإنك تكون إذا مت على طهارة متّ شهيداً».

وقال أمير المؤمنينعليه السلام: «تنظّفوا بالماء من الرائحة المنتنة؛ فإن الله تعالى يبغض من عباده القاذورة».

وعنهعليه السلام: «غسل الثياب يذهب الهم وهو طهور للصلاة». مكارم الأخلاق: ٤٠:

«تنظفوا بكل ما استطعتم، فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف». الجامع الصغير ١: ٥١٧ / ٣٣٦٩، كنز العمال ٩: ٢٧٧ / ٢٦٠٠٢.

فكأنهﷺ يقول له: ألم تجد ما تغسل به بدنك؟ مع أن هذا الأُسلوب ليس من خلق النبي الأكرمﷺ، فهو واسع الخلق بتعبير القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، لكنه حينما وصل الأمر إلىٰ النظافة وعدم الاهتمام بها وإلىٰ إيذاء الغير بتركها ضاق ذرعاً بأبي الأحوص وقال له ما قال.

فهوﷺ يذكّره بأن اللّه تعالىٰ حينما أنعم عليه بكل هذه النعمة فمن الواجب عليه أن يظهر الشكر له علىٰ ما أنعم به عليه، وأن يتمتّع بهذه النعمة؛ فيلبس اللباس الحسن، وينظف جسمه ويطهره من الأقذار والنجاسات. ويريد من الناس أن يقتدوا به، فقد كانﷺ مثال النظافة والطهارة[2].

روح التسامح في الدين الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللّهِ﴾[3].

أسباب نزول الآية

لقد كانت حالة المسلمين في صدر الإسلام حالة تشابك أُسري مع

(١) القلم: ٤.

(٢) عن الإمام الصادقعليه السلام قال: «كانت لرسول اللهﷺ ممسكة إذا هو توضّأ أخذها بيده وهي رطبة، فكان إذا خرج عرفوا أنه رسول اللهﷺ برائحته». الكافي ٦: ٥١٥ / ٣.

(٣) البقرة: ٢٧٢.

المحيط الذي يعيشون فيه؛ حيث إن أغلب أُمّهاتهم أو إخوانهم أو آبائهم كانوا مشركين، أي أن البعض من الأبناء قد أسلموا وبقي آباؤهم مشركين، وهكذا. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن اليهود كانوا متجذّرين في شبه الجزيرة العربية، وكانت مجموعة كبيرة منهم في المدينة وجماعة في أطراف مكّة وهؤلاء كانوا يصاهرون المشركين؛ ولذلك ترىٰ أنه كان لبعض الأنصار إخوة من اليهود.

وهذا قبل أن يأتي الإسلام؛ فكان بسببه أن حدث تشابك بينهم وأُخوّة وترابط نسبي ومصاهرة. لكن عندما جاء الإسلام دخل بعض المسلمين علىٰ النبي ﷺ وقالوا له: يا رسول اللّه إن آباءنا وأُمّهاتنا وإخواننا مشركون، فهل يجوز لنا أن ننفق عليهم أم لا؟ فبعضنا يرتئي أنه لا يجوز لنا أن ننفق عليهم حتىٰ نحملهم علىٰ الإيمان. وكذلك دخلت أسماء بنت أبي بكر علىٰ رسول اللّه ﷺ وقالت له: إن والدتي وبعض أقاربي مشركون، فهل أستطيع أن أُنفق عليهم؟ وكان الرسول ﷺ قد أمرهم عندما كثر المسلمون أن ينفقوا علىٰ أهل دينهم؛ لأن الأقربين أولىٰ بالمعروف، والذين ليسوا من أبناء دينهم فإن عليهم أن ينتظروا النتيجة. فنزلت الآية الكريمة تبيح للمسلمين أن ينفقوا عليهم من الصدقات غير الواجبة.

إذن سبب النزول من الناحية الابتدائيّة هو وجود اختلاف في العقيدة، وأن هذا الاختلاف لا يوجب التقاطع من الناحية المادية مع وجود القرابة. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية هل إنه يختصّ بعدم إعطاء المال إلىٰ هؤلاء من المورد الخاصّ، أم أنه يمنع عنهم من كلّ الموارد؟ والجواب أنه يمكن إعطاؤهم من كلّ الموارد العامّة عدا الصدقات الواجبة، كما سيأتي.

لا تقطع رزقهم كوسيلة للضغط عليهم

وهناك رأي ثالث يذهب إلىٰ أن معنىٰ الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ﴾: لا تضغط عليهم عن طريق قطع أرزاقهم. وهذه النقطة مهمة جداً؛ فهناك أُناس يستحقّون النفقة وفق ضوابط الشريعة الإسلامية بصفتهم بشراً محتاجين لها وإن كانوا مخالفين للحاكم بالعقيدة. وهذا من مثل ما لو أن زوجة أحد علىٰ دين آخر أي أنها كتابية، ففي هذه الحالة هل يجب على الزوج النفقة عليها، أم لا؟ بحكم النفقة الزوجية طبعاً عليه أن ينفق عليها؛ فمسألة العقيدة لا تتدخّل في منع أرزاق الناس عنهم.

ومن يذهب إلىٰ هذا الرأي المهدوي ـ وهو من علماء أهل السنة ـ فيقول: هو جائز حتىٰ من الزكاة الواجبة، لكن القرطبي وغيره[1] ردّوا عليه بردّ مطوّل. أما الإمام أبو حنيفة فيذهب إلىٰ جواز إعطائهم من زكاة الفطرة أو من الصدقات غير الواجبة.

كان عبد اللّه بن رافع يتناول عشاءه مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة، فسمع الإمام عليه السلام جلبة، فعرف أن شخصاً واقفاً علىٰ الطريق مادّاً يده إلىٰ الناس يتوسّل بهم، فصاح الإمام عليه السلام بعبد اللّه بن رافع وسأله عن أمر هذا الرجل، فأجابه عبد اللّه بإنه مسيحي. فردّ الإمام عليه السلام عليه بأنه يستحق العطاء وإن كان مسيحياً؛ فهذا مواطن وقد عمل علىٰ هذه التربة وسكب عرقه عليها، وتعب في إعمار هذه الأرض، ثم أمره أن يأخذه بيده إلىٰ بيت المال ويفرض له عطاء، وأمره ألّا يتكرّر مثل هذا المنظر

(١) تفسير الثعالبي ١: ٥٢٩.

مرّة أُخرى.

فالإمام عليه السلام يريد أن يقول: إننا قد أخذنا من هذا الرجل طاقاته عندما كان قويّاً، فلا يصحّ أن يترك دون معيل عندما يكبر! ولذلك فإن الفقهاء يقولون: إن النفقات غير الواجبة يجوز أن يُنفق منها علىٰ أمثال هؤلاء.

وهذا ما تقرّره الآية الكريمة إذ تقول للنبي صلى الله عليه وآله: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ**﴾، أي أن تجبرهم علىٰ الإيمان عن طريق عدم إعطائهم النفقة؛ فهذا الفعل غير نبيل، وليس من النبل أن تحارب أحداً برزقه حتىٰ يدخل في عقيدتك. ويكفي أن نعرف أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان يأخذ بيده العطاء إلىٰ جماعة يتقرّبون إلىٰ اللّه تعالى بشتمه، فيوصله إليهم عند أبواب بيوتهم[1] . فانظر إلىٰ الفرق بين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبين الأُمويين الذين حاربوا يتامى الجماعة التي قاتلت مع الإمام علي عليه السلام، وقد كان أغلبهم من الأنصار (الأوس والخزرج).

فهل تدري ماذا فعل معاوية لهؤلاء؟ لقد قطع أرزاق أيتامهم من بيت المال. وقد أشرت سابقاً إلى أنه عندما أراد الأُمويّون أن يدوّنوا التاريخ، وشاهدوا أن للأنصار فضائل قام سليمان بن عبد الملك وأخذ الصحيفة فمزّقها وقال: لا يمكن أن نروي لهؤلاء روايات تصفهم بأن لهم الفضل. ذلك أنهم قاتلوا بأجمعهم مع علي بن أبي طالب عليه السلام إلّا واحداً وهو بشير أبو النعمان بن بشير، ومن بعده لحقه ابنه النعمان بن بشير الذي أصبح فيما بعد والياً علىٰ الكوفة زمان دخول مسلم بن عقيل رضي الله عنه إليها.

فهذان الاثنان فقط هما من لحقا بمعاوية، وإلّا فإن الأنصار بأجمعهم

---

(١) الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

كانوا أبعد من أن ينصروا الأُمويين أو يدافعوا عنهم.

ولذلك فإن الأُمويين حركوا شعراء البلاط ضدهم، وكان شعراء البلاط آنذاك أشبه بجرائد اليوم؛ حيث إن كلّ حزب لديه جريدة تمثّله، فكان أن حركوا الشعراء لشتم الأنصار؛ لأنهم كانوا مع عليعليه السلام. فوقف شاعرهم الأخطل ـ وهو شاعر البلاط، ويجب ألّا ننسىٰ أن الأخطل كان مسيحياً، وكان يخدمه تمزيق وحدة الأُمّة الإسلامية؛ فلا مانع عنده أبداً من السعي في تمزيقها ـ فأنشد قصيدته:

خلّوا المكارم لستُمُ من أهلِها وخذوا مساحيَكم بني النجّارِ

ذهبت قريشٌ بالمكارمِ والندىٰ واللؤمُ تحتَ عمائمِ الأنصارِ[1]

وهي قصيدة معروفة. كما حرّكوا جماعة أُخرىٰ أيضاً لهجائهم، وحرّكوا التاريخ ليخفوا فضائلهم، أي أنهم مارسوا لوناً من الحصار حتىٰ يضمّوهم إلىٰ جانبهم. ولكن الأنصار وقفوا بوجههم وصمدوا صموداً رائعاً.

ولما قتل أمير المؤمنينعليه السلام وانتهىٰ الأمر إلىٰ معاوية، اشترط الإمام الحسنعليه السلام عليه في صلحه معه من ضمن ما اشترط أن يجري لأيتامهم

---

(١) فكان أن بلغ ذلك الشعر النعمانَ بنَ بشير، فدخل علىٰ معاوية وحسر عن رأسه عمامته، وقال: أترىٰ لؤماً؟ قال: لا، بل أرىٰ كرماً وخيراً. ثمّ قال: وما ذاك؟ قال: زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا. قال: أو فعل؟ قال: نعم. قال: لك لسانه.

وأمر أن يؤتىٰ به، فاستشفع فيه يزيد، فتركه. انظر العقد الفريد ٥: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

وقال صاحب (العقد الفريد): «ورجال الأنصار من أشجع الناس. وقد قال عبد اللّه بن العباس: ما استلّت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا اُقيمت الصفوف حتّىٰ أسلم ابنا قيلة». يعني: الأنصار. العقد الفريد» ج١ ص١١٨.

الذين ذهب آباؤهم مع الإمام علي عليه السلام في صفين رواتب من بيت المال مقدارها مليون ونصف المليون درهم سنوياً تنفق عليهم. وقد وافق معاوية علىٰ هذا البند الذي يعدّ من أبرز شروط الصلح، ووقّع عليه. ولكن عندما أخرج الأموال (المليون ونصف المليون درهم) حرّك جماعة وأمرهم أن يذهبوا إلىٰ الركب لينتهبوه، وفعلاً نهبوا هذا المبلغ وأرجعوه إلىٰ معاوية، فكان يقول: ماذا أفعل؟ إن الناس هم الذين نهبوا هذا المبلغ.

دخل الإمام السجاد عليه السلام في يوم من الأيّام على محمد بن أُسامة بن زيد يعوده فسمعه يقول: وا غمّاه. قال: «ما غمك؟». قال: دَيني. ومحمد هذا هو ابن من يقول لأمير المؤمنين: أنا لا أبايعك لأنك تقتل المسلمين والكافرين على حدّ سواء[1]. والذي يقول له: أعطنا سيفاً يفرق بين الحقّ والباطل حتى نبايعك[2].

وأنا واقعاً أتألّم كلّما مررت بهذه الحكاية:

وحسبُكُمُ هذا التفاوتُ بيننا ... وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ[3]

على أية حال سأله الإمام عليه السلام: «كم هو؟». قال: ستون ألفاً. قال الإمام عليه السلام: «هي عليَّ». وكان الإمام قد باع ضيعة كانت عنده، فلم يقم من مجلسه حتى قضى عنه دَينه[4].

سأل المأمونَ ذات يوم أحدُ الأعراب، فرد على الأعرابي بقوله: إنني أكرهك. فقال: إن أعطيتني حقّي فافعل ما بدا لك؛ إنما أحتاج إلىٰ حب

---

(١) الثقات (ابن حبّان) ٢: ٢٧٠. (٢) المصدر نفسه.

(٣) البيت لابن الصيفي. شرح الأخبار ٣: ١٢٩، جواهر المطالب ٢: ٣١٤، شجرة طوبى ٢: ٣٠٤.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٢١، بحار الأنوار ٤٤: ١٨٩، وفيهما أنها جرت بين الإمام الحسين عليه السلام وأُسامة أبيه.

النساء. المهم أن تدع حقي يصل إلي سواء كنت تحبّني أو لا.

فآية المقام تقول للنبي صلى الله عليه وآله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾.

الإنفاق لاتّقاء تهمة البخل

فالمنفق هنا إنما ينفق حتّىٰ لا يهجىٰ ويقال عنه: إنه بخيل، فهو يخاف من الهجّائين، خصوصاً من الألسن التي تحترف الهجاء مهنة. فالبعض منا يظنّ أن من يعطيه هو إنسان عظيم، أو هو يصوّر ذلك لنفسه، وإلّا ـ أي فإن لم يعطه ـ فلا هو كريم ولا إنسان محسن. وبالمناسبة أروي لك أنه عندما أراد معاوية أن يعلن أن زياداً أخوه ـ أي يلحقه بأبي سفيان ـ قال: اعملوا لنا مهرجاناً كبيراً، ولنضرب الطبول، فإذا سأل الناس فقولوا: إن زياد بن أبي سفيان قد أتىٰ. ففعلوا ذلك وأقاموا مهرجاناً في البصرة، وكان فيها شخص أعمىٰ اسمه أبو الأديان العدوي، فمرَّ زياد في موكبه علىٰ أبي الأديان هذا، فقال: ما هذه الجلبة؟ قالوا: الأمير زياد بن أبي سفيان. فقال: واللّه ما ترك أبو سفيان إلّا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمّداً، فمن أين جاء زياد؟

فبلغ الكلام زياداً فأرسل إليه بمئتي دينار، ثم مرَّبه من الغد في موكبه فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، وبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: عرفت صوت أبي سفيان في صوت زياد. وبلغ ذلك معاوية، فكتب الىٰ أبي الأديان العدويّ:

ما ألبثتك الدنانير الّتي بعثت	أن لوّنتك أبا الأديان ألوانا
أمسىٰ إليك زياد في أرومته	نكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا
للّه درّ زياد لو تعجّلها	كانت له دون ما يخشاه قربانا

فأجابه أبو الأديان بقوله:

أحدث لنا صلةً تحيا النفوسُ بها ... قد كدت يابنَ أبي سفيانَ تنسانا
أمّا زيادٌ فقد صحَّت مناسبُه ... عندي فلا أبتغي في الحقِّ بهتانا
من يسدِ خيراً يصبْه حين يفعلُه ... أو يسدِ شرّاً يصبْه حيثما كانا[1]

والتاريخ اليوم يعيد نفسه في كل لحظة مهما امتدّت سنواته، فكل جيفة من الجيف تُمدح بمدح عجيبة وغريبة[2]، في حين أن ذوي المكانة والنفوس الكبيرة لا حظّ لهم في ثنائه، بل إن ثناءه يذهب في هذه البؤر والمستنقعات العفنة، الآسن ماؤها، ويترك من يستحق الثناء عليه والمدح.

وجوه الإنفاق في الصدقات

لذا يقسم العلماء الصدقات باعتبار إنفاقها إلىٰ قسمين:

الأول: ما يكون الأولى إنفاقه علانية

حيث إن قسماً من الصدقات يستلزم الأمر أن ينفق ويعطى علانية؛ ليتأسّىٰ الآخرون بالمنفق، وذلك مثل الزكاة فإنها يستحبّ للإنسان أن يعطيها علانية؛ لتشيع بين الآخرين ولتشجيعهم علىٰ هذا العمل الواجب.

الثاني: ما يكون الأولى إنفاقه سرّاً

والقسم الآخر من الصدقات ما يكون الأفضل فيه أن ينفق ويعطىٰ سرّاً؛ لأن هناك قسماً من المؤمنين المستحقّين المال متعفّفون لا يأخذون

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ١٨٨.

(٢) كما مُدح معاوية ويزيد وعبد الملك وأمثالهما من طغاة التاريخ وجبابرة الجهلة.

من غيرهم علانية؛ فالأولىٰ هنا للمتصدّق أن يذهب إليه ليلاً مثلاً؛ فيعطيه حقّه الذي أوجبه الله تعالى له؛ ليصون ماء وجهه، لأن «صدقة السر تطفئ غضب الرب»[1].

دخل أحد الأشخاص علىٰ الإمام الرضا عليه السلام، وكان الإمام جالساً في مجلسه، فوقف أمامه هذا الرجل وقال: السلام عليك يابن رسول اللّه، رجل من محبيك ومحبي آبائك وأجدادك عليهم السلام، مصدري من الحج، وقد افتقدت نفقتي، وما معي ما أبلغ مرحلة، فإن رأيت أن تُنهضني إلى بلدي ولله علي نعمة، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي تولينى عنك فلست موضع صدقة. فقال عليه السلام له: «اجلس رحمك الله».

وأقبل عليه السلام على الناس يحدّثهم حتى تفرّقوا فقال عليه السلام: «أتأذنون لي في الدخول؟». فقال له سليمان: قدم الله أمرك. فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة ثم خرج وردّ الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال: «أين الخراساني؟». فقال: ها أنا ذا. فقال: «خذ هذه المئتي دينار واستعن بها في مؤونتك ونفقتك وتبرك بها، ولا تَصَدّق بها عني، واخرج فلا أراك ولا تراني».

ثم خرج، فقال له سليمان: جعلت فداك يابن رسول الله، لقد أجزلت ورحمت، فلماذا سترت وجهك عنه؟ فقال عليه السلام له: «مخافة أن أرى ذلّ السؤال في وجهه لقضائي حاجته. أما سمعت حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: المستتر بالحسنة يعدل سبعين حجة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له؟ أما سمعت قول الأُوَل:

إذا جـئته يـوماً إليـه بـحاجة رجعت إلىٰ أهلي ووجهي بمائِهِ»[2]

(١) الكافي ٤: ٧ / ١، ٨ / ٣، تأويل مختلف الحديث: ١٩٠.

(٢) الكافي ٤: ٢٤ / ٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٠.

فمن مكارم الأخلاق أن تحفظ كرامة هذا المحتاج لأن كرامته عنده أغلى من كل شيء، وأنت إن أعطيته علانية وهو في مثل هذه الحالة فقد يدخل في عملك الرياء، بالإضافة إلىٰ تجريح كرامة السائل. فالعطاء السرّي من هذه الناحية أفضل.

نرجع لموضوعنا، فالإمام علي عليه السلام دفع درهماً بالنهار ودفع درهماً بالليل ودفع درهماً سرّاً ودفع درهماً علانية، علىٰ غرار ما جاءت به الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً﴾[1]. فيقول جملة من العلماء والمفسّرين ـ من مختلف المذاهب الإسلامية، وليست فقط الإماميّة ـ أن هذه الآية نزلت في الإمام علي عليه السلام[2].

محاولات القضاء علىٰ ثورة الحسين عليه السلام

لقد كان صوت الحسين عليه السلام يُخيف الظالمين ويرعبهم، فحاولوا ألّا يصل هذا الصوت إلى أسماع الإنسان، فماذا صنعوا من محاولات لإسكاته؟

المحاولة الأُولىٰ: وأد صوت الحسين عليه السلام

لقد حاول الأُمويّون دفن هذا الصوت الذي كان يشدو بفكر الإمام الحسين عليه السلام تحت التراب، ولكنه تمرَّدَ على التراب، وحاولوا ألّا يقربه أحد؛ لأن في الدنوّ منه خطراً يخشاه الظالمون، فماذا صنعوا؟ إن أول ما يمكن أن يوصل للحسين عليه السلام هو ذكرُه والاحتفال به؛ ولذا صبت عليه

(١) البقرة: ٢٧٤.

(٢) انظر: العمدة: ٣٤٩، المعيار والموازنة: ٧٥، خصائص الوحي المبين: ٢٠٤، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٧٦، شواهد التنزيل ١: ١٤٦، ١٤٩.

القوة كلّ ما تملك من وسائل الإرهاب لتمنع من الاحتفال بذكره. فكان المسلمون في أيام الأُمويين إذا أراد منهم أحد أن يحتفل بذكرى الحسين عليه السلام فإنه لا يقوى على ذلك إلّا في طيّ الكتمان والأقباء المظلمة، ولكن هذا الصوت ارتفع رويداً رويداً وأخذ يدوي وينبعث، وإذا به يتمثّل به الشعراء ويقوله الأُدباء ويتناقله الحكماء، ولا يكاد يمر عام إلّا وتجد ذكره في أسماع الناس في أغلب أصقاع المسلمين، وإذا بنا نسمع من يقول:

من لقلبٍ متيمٍ مستهامِ ... غير ما صبوةٍ ولا أحلامِ

أخلصَ اللهُ لي هواي فما أُغـ ... ـرقُ نزعاً ولا تَطيش سِهامي

إلى أن يقول:

وقتيلٍ بالطفِّ غودرَ منهم ... بين غوغاءِ أُمَّـةٍ وطُغامِ[1]

فما إن فُرض على هذه المجالس أن تكون سرّيّة حتى خرج ذلك الصوت من قمقمه وانطلق ثائراً متمرّداً على استبدادهم. فهو لم يبقَ في طيّ الكتمان، بل إنه ارتفع عالياً مطالباً بدم الحسين عليه السلام.

الثانية: منع زيارة قبره عليه السلام

ثمّ انتقلوا من مرحلة منع الصوت إلى مرحلة منع الاتّصال الحسي بالحسين عليه السلام، فحيل بين قبره وبين زائريه، وأُوقف الحرس على تراب كربلاء ليمنعوهم من الوصول إلى القبر الشريف. وكأن مجرد الوقوف على القبر يؤدّي إلى استلهام الثورة منه عليه السلام والاتّصال بروحه، وتكهرب نفسية

---

(١) الأبيات للكميت الأسدي من قصيدة أنشدها بين يدي الإمام الصادق عليه السلام. مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٣٧، الهاشميات والعلويات: ٢٠.

الزائر، فأرادوا منع حصول هذا عبر منع هؤلاء من زيارته؛ لئلّا يحصل هذا الأثر غير المرغوب فيه، فوضعت المسالح على أرض كربلاء، وزرعت الجيوش في الطريق، وبعث الإرهاب، وشنت الحملات ضد كل من يدين له عليه السلام بالحب والولاء[١].

ولا أستطيع أن أصف لك ما جرى، فهذه القطع منذ أن وضعت في القبر وإلى الآن تومئ إلى الأحرار من قرب أو بعد، والناس تنثال عليه، والدويّ كان وما زال يرتفع: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[٢]. وقد حاول المتوكل أن يمنع الزائرين بشتى الوسائل فلم يستطع[٣].

امرأة تدفع الضريبة لزيارة الإمام الحسين عليه السلام

وها هي الشمس تشرق كل يوم على مشهد كان وما يزال إذا تملّته النفوس الكبيرة عرفت قيمته..امرأة عجوز حنى الدهر ظهرها، تتوكّأ على عصا وتحمل بيدها صرّة أثقلها حملها، فيها ألف دينار، وتقف على المسلحة فتقول لأصحابها: بلغني أنكم منعتم الزائرين فلا يصل أحد إلى قبر الحسين عليه السلام حتى يدفع ألف دينار، وهذه الألف قد جمعتها من ألم وكدّ منذ صغري وأنا أغزل لأجمع لأيام فقري وفاقتي، فخذوها مني، ودعوني أصل إلى قبر الحسين عليه السلام. ويقشعرّ جلد رئيس المسلحة، ويتساءل: أي دافع يدفع هذه المرأة لتضحّي بأغلى أمل في حياتها لتصل إلى الحسين عليه السلام؟

---

(١) انظر: الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥.

(٢) إبراهيم: ٣٧، وانظر تأويل الآيات الباهرة ١: ٢٤٦ / ٨.

(٣) انظر: الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبيين: ٣٩٥، وفيهما قصّة إبراهيم الديزج، وهي مشهورة، وقد مرّت في ج١ ص٩٧ ـ ٩٨ من موسوعة محاضرات الوائلي.

إنه صوت الحسين عليه السلام الذي يصل إلى الأعماق والمشاعر..إنها جاذبية الحسين عليه السلام التي تنجذب نحوها النفوس وتدور حولها، ولا لوم على الفَراش إذا عشق السراج، ولا لوم على النفس إذا هفت للطيب، ولا لوم على الإنسانية إذا رنَّ في سمعها صوت البطولة فطربت له، فتلك سجايا خلقها اللّه تعالى في النفوس، وما تزال تعيش في النفوس.

ضريبة الدم لقاء زيارته عليه السلام

ثم رأى المتوكل أن الأموال يسهل دفعها ففرض ضريبة من الدماء، وكان يقتل من كل مئة عشرة، وكانت الأعناق تتسابق للقتل أو زيارة الحسين عليه السلام. ثم تضاعفت الضريبة حتى وصلت إلى أن يُقتل (٩٠٪) من الزائرين، ومع ذلك تمتدّ الأعناق وتتسابق لتصل إلى القبر، فكان الزائر يصل إلى القبر بعد أن يعبر على تسع من الجثث، ليلتمس القبر ويقول: **«لبيك داعي اللّه، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك، ولساني عند استنصارك، فقد أجابك سمعي وبصري»**[1].

ولم يكن هذا الزائر بالأبله، فهو لا يقدّس الأحجار، إن المسلم عندما يستلم الحجر الأسود المقدّس فهو لا يقدّس فيه حجراً، إنما يقدّس فيه أمراً للّه من وراء الحجر، ومعنىً سامياً، وإلّا فلا فرق بين حجر وحجر. إن من يمسك قبر الحسين عليه السلام لا يقدّس حجراً ولا ذهباً وُضع على القبر، ولا هيكلاً أخذ بريقُه ببصره، كلا إنما يقدّس روحاً مرفرفة على جسد وُزِّعَ أشلاءَ في ميدان البطولة، وإنساناً قتل في معترك الحق من أجل الإنسانية.

إذن ما استطاعت الوسائل التي وضعها المتوكل في طريق الزائرين أن

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، بحار الأنوار ٩٨: ٣٣٧.

تقف حجر عثرة في طريقهم إلى الحسين عليه السلام ، وإنما قُدمت الأعناق وضربت وسالت الدماء من أجل الوصول إلى هذا القبر المطهّر.

ما الذي يريده الزائر من القبر الشريف؟

ماذا يجد الإنسان في هذا القبر؟ كلّ إنسان يتحرّك من أجل إشباع شيء ما عنده، فالتاجر يتحرك ليشبع عنده غريزة جمع المال، ومن يرد الأكل يتحرك لإشباع المعدة، والأديب المفكر يتحرك ليشبع تطلعه إلى المعرفة، فماذا يريد هذا الزائر من وقوفه على قبر الحسين عليه السلام؟ إنه يريد إشباع حاجة عظيمة، وهي أن يقدّس الدم الذي أُهرق من أجل الإنسانية، ويستوحي الدم الذي صرخت كلّ قطرة منه في وجه الظلم: «**واللّه لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد**»[1].

والزيارة الشريفة تقول: «**أشهد لقد اقشعرت لدمائكم أظلة العرش مع أظلة الخلائق**»[2]. فما هي أظلة الخلائق التي اقشعرت؟ إنها المشاعر التي تلتفّ حول هذا الدم.. إنها المشاعر التي يستقطبها الجسد، ولكنه لا يستقطبها جسداً، وإنما يستقطبها موقفاً، وإصبعاً ما زال يشير من وراء القرون الطويلة منذ ألف وأربعمئة سنة وهو يومئ للأحرار: إن هذا هو الدرب الذي يجب أن يسلكه الشهداء والمضحّون:

وتركتَ للأجيال حين يلزُّها عَنَتُ السُّرى ويضيقُ عنها المهربُ
جثث الضحايا من بنيك تُريهمُ أن الحقوق بمثل ذلك تُطلب

إن الحسين عليه السلام هو الإنسان الذي تمرّد على التراب وعاش ألقاً وفكراً، وقتل من أجل الإنسانية. ونحن في هذه الليلة نستجلي موقف إنسان

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها: أقرّ إقرار.
(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٤٢، المزار: ١٤٤.

حمل تطلّعات الإنسانية وآلامها، وكان خطراً على الظالمين؛ لأن آمال الإنسانية حملتها النبوّات، وحملها القادة والمضحّون، فضحّوا من أجلها. أما الظالمون فهم نبت مسموم في الدنيا، وغريب على طبع الإنسانية، يخاف أن يزحف إليه صوتها فيجتثّه؛ لذلك وقفوا بوجهه ليمنعوا وصوله إليهم. فماذا صنع المتوكّل؟ جاء لبقايا الأثر المادي، فهدم قبر الحسين عليه السلام وحرثه، ثم جاء إلى سدرة كانت على القبر فأبى إلّا أن يقتلعها؛ لأنها علامة تُوصل إلى القبر، فقطع السدرة، وأجرى الماء على القبر حتى خفيت معالمه[1].

لكن تلك العظام أبت أن يضيع ذلك الأثر، وتلك الأجزاء التي تحت التراب أبت أن تكون جزءاً من التراب لا يُعرَف، نـدَّ بـه العطر، وإذا بأعرابي يزحف إلى القبر، وكلّما وصل إلىٰ مكان أخذ شيئاً من التراب فشمه، إلى أن وصل إليه، فتناول منه حفنة ثم شمّها وألقاها وأنشأ يقول:

أرادوا ليُخفوا قبرَهُ عن مُحبِّه وطيبُ تراب القبر دلَّ على القبر[2]

وكم حاول الظالمون أن يُبعدوا الأنظار عن هذا القبر، ولكن حتى لو قدّر لهذا القبر أن يُمحى فإن الحسين عليه السلام لا يُمحى من النفوس. إن له في كلّ قلب قبراً على حد تعبير الشاعر[3]. وأنا لا أستطيع أن أُسميه قبراً

---

(١) انظر ج ٤ ص ١٩٠ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٤٥، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٧.

(٣) وهو قوله:

لا تطلبوا قبر الحسيـ ـنِ بشرق أرضٍ أو بغربِ
ودعوا الجميع وعرّجوا نحوي فمشهده بقلبي

وإنما أُسميه معبداً أو مسجداً؛ إذ أن للحسين عليه السلام في كلّ نفس معبد ومسجد؛ لأن النفوس ما زالت تقدّس البطولة وتعشقها، فهو عليه السلام عنوان مجد في مسجد البطولة، ومعبد الكرامة.

فإن كان الحسين عليه السلام قد قتل من أجل الإنسان فلماذا نأسى عليه؟ وهل يعتبر هذا الاجتماع أسى على الحسين عليه السلام؟ أنا لا أعتبره كذلك، لأننا إنما نأتي إلى هنا لنستلهم الحسين عليه السلام، أما المأساة فهي أمر قهري، فنحن لسنا أقوى نفساً وأعصاباً من النبي صلى الله عليه وآله، فقد مر على بيت فاطمة عليها السلام يوماً، فصاح: «أثَمَّ لَكَع؟ أثَمَّ لكع؟»[1]. (اللكع هو الطفل الصغير، وإن أطلق على الكبير فيعني: القليل العقل[2]). فخرجت له فاطمة عليها السلام تحمل حسناً وحسيناً، فأخذهما فقبلهما، ثم وضع يده تحت حنك الحسين عليه السلام وأقعى بوجهه إليه فقبله، ولحظ المسلمون في عينيه دمعة، فقال له بعض أصحابه: نراك تبكي يا رسول اللّه، قال: «ذكرت ما يتعرض له هذا الجبين».

ويقول لأُم سلمة: «يا أُمَّ سلمة، جاءني جبرئيل فأخبرني أنّ ولدي حسيناً يُقتل بأرض العراق، وأتاني بهذه التربة من موضع قتله، فخذيها وضعيها في قارورة، فإذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أنه قد قتل»[3].

هذا موقف النبي صلى الله عليه وآله، ومهما بلغنا من قوة أعصاب فلن نستطيع أن

وقد مرّ قبل قليل.

(١) العمدة: ٤٠٣، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، فتح الباري (المقدمة)، ١٧٩، ثم قال ابن حجر: قوله: «أثم لكع؟». قال الهروي: هو الصغير في لغة بني تميم، وقيل: الجحش الراضع، وقال ذلك للحسن على سبيل الإشفاق والرحمة. (٢) لسان العرب ٨: ٣٢٢ ـ لكع.

(٣) بحار الأنوار ٤٤: ٢٣٨، ٢٦٨، المعجم الكبير ٣: ١٠٨ ـ ١٠٩ / ٢٨١٩، ٢٣: ٢٨٩ / ٦٣٧، كنز العمّال ١٣: ٦٥٦ / ٣٧٦٦٦.

نتعداه. ففي الوقت الذي نستلهم فيه الحسين عليه السلام فكراً وفكرة وشعاراً، فإننا لا ننسى أن ننظر إليه ونحن دمعة، ونتصوّره ونحن لوعة؛ فهو قتيل العبرة، وما ذكر عند مؤمن إلّا دمعت عيناه[1]. وليس هو للدمع فقط إنما هو للبطولة، ونحن إن كنا صنعناه من دمع فلأن الدمع أمر قسري.

الأبعاد السلبيّة للتكفير

ونلاحظ أن شرائح من الناس يروق لهم أن يكفّروا الناس، وكلّ ما عندهم من عقد يصبّونها على الورق أو يصبّونها على ألسنتهم. ونحن بدورنا نقول لهؤلاء: هل تملكون دليلاً على كفر من تكفّرون، أو أنكم لا تملكون هذا الدليل، وليس الأمر أكثر من أحقاد وفرىً؟ فتعريف المسلم قوله: «أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه»، ويصلّي إلى القبلة، ويأكل من ذبائح المسلمين وإن كانت الشهادتان أنفسهما تحقنان دمه وتصونان ماله وعرضه. فما هو الدليل على كفر هؤلاء إذن[2]؟

دعوى سبّ الصحابة

إنهم يدّعون أن هؤلاء أنكروا ضرورة من ضرورات الدين، ويقصدون بالضرورة شتم بعض صحابة النبي صلى الله عليه وآله، ومن يشتم الصحابة فليس مسلماً.

---

(١) كامل الزيارات: ٢١٤ / ٣٠٧.

(٢) يقول الحسن عليه السلام: «حرّمت هذه الآية دماء أهل القبلة». الدر المنثور ٣: ٢١٣، لأن المسلمين تتكافأ دماؤهم وأموالهم وأعراضهم كما في الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١، وقد مرّ.

لكن هؤلاء الذين يُرمون بشتم الصحابة هل في كتبهم الفقهيّة والعـقيديّة كتاب يأمر بشتم هؤلاء أو سبّهم؟ ثم هـل إن السبّ يـوجب الكـفر؟ إن صحابة رسول اللّه صلى الله عليه وآله بشر، وكانت تحدث بينهم اختلافات قد تؤدّي إلى الشتم، فلاحظ علاقة عبد الرحمن بن عوف بـالخليفة الثـالث، وعـلاقة الخليفة الثالث بطلحة، وعلاقة الخليفة الثالث بالزبير، وعلاقة الخـليفتين بجملة من الصحابة، حيث كانت تحصل بينهم مشادّات تتطوّر إلى لون من الاختلاف ثم التناحر والتباغض. فهم بشر، لكن بعد ذلك يـعود الصـفاء بينهم ويرجعون إلى الأُخوّة الإسلاميّة[1].

فإذا كان هؤلاء يلتزمون بتكفير من يسبّ صحابيّاً فلماذا لايكـفّرون الذين شتموا الإمام علياً عليه السلام (٨٠) سنة على المنابر[2]؟ ولماذا لايكـفّرون الذين سفكوا دماء المسلمين[3]؟ ومع ذلك فـهؤلاء السـابّون السـفّاكـون مسلمون في نظر هؤلاء المكفّرين. فهل إن الإمام علياً عليه السلام من الصحابة أم لا؟ لقد كان معاوية يقنت بسبّ علي بن أبي طالب عليه السلام، ويأتي عمرو بن العاص فيقول: بل وأزيدكم الحسن والحسين وأُمهما فاطمة. فهل هؤلاء مسلمون؟

فإن كان عندك مقياس للتكفير فعليك أن تلتزم به في جميع المواضع، فلِمَ لَم تلتزم به إزاء الكثير من المواقف التي مرّت عبر تأريـخنا الحـافل بأمثال هذه المفارقات؟

---

(١) فالخليفة الثاني رفع الدرة ذات مرّة على أبي هريرة وضربه علىٰ رأسه وقال له: قد أكثرت الكذب. انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ ـ ١٩٣.

(٣) قد مرّ مثلاً أنه بلغ عدد القتلىٰ في واقعة الحرّة أكثر من عشرة آلاف قتيل منهم سبعمئة من حملة القرآن. انظر: سير أعلام النبلاء ٣: ٣٢٥، الاستيعاب ١: ٢٢٨، الإصابة ٦: ١٩٦، أنساب الأشراف ١: ٢٥٨، البداية والنهاية ٦: ٢٦٢، ٨: ٢٤٢.

ولأضرب لكم مثلاً، لقد دعيت إلى ندوة في إحدى محطات التلفزة، فذكرت فيها أن النبيﷺ لمّا نزل عليه الوحي، ونزلت عليه أول سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] إلى آخر السورة كان الإمام عليعليه السلام إلى جانبهﷺ، وكان يسمع الوحي. وهذا ما لم أخترعه، فالإمام عليعليه السلام ذكر هذا في إحدى خطبه حيث قال: «**ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول اللهﷺ وخديجة وأنا ثالثهما؛ أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليهﷺ، فقلت: يا رسول الله، ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلّا إنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعلى خير**»[2].

وهوعليه السلام سيّد الصادقين، فلما انتهيت من ذلك، كثرت الاتصالات عليَّ إلى درجة كبيرة، وكلّها تستنكر: لماذا تقول: إن علياً سمع الوحي؟ لايجوز أن يسمع الوحي إلاّ رسول اللّهﷺ.

وهذا في واقع الأمر شيء غريب جدّاً؛ إذ أن القرطبي في تفسيره عندما تناول الآية الكريمة: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[3] قال: الوحيد الذي سمعها هو النبيﷺ وأبو بكر[4]. فكيف سمع أبو بكر الوحي؟ ولماذا يسمعه هو ولايسمعه غيره؟

ولنعرّج قليلاً على كتاب (منهاج السنّة) لابن تيمية، فهذا الرجل حينما يأتي إلى بعثة أُسامة بن زيد عندما أمّره النبيﷺ على أبي بكر وعمر فإنه

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٢، المعروفة بالخطبة القاصعة.

(٣) القصص: ٥٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٢٩٩.

يكذّبها ويقول: إن تأمير أُسامة على الجيش الذي فيه أبو بكر وعمر من الكذب الذي يعرفه من له أدنىٰ معرفة بالحديث؛ فإن أبا بكر لم يكن في ذلك الجيش بل كان النبيﷺ يستخلفه في الصلاة في حين مرض إلى أن مات، وأُسامة قد روي أنه عقد له الراية قبل مرضه، ثم لما مرض أمر أبا بكر أن يصلّي بالناس، فصلّى بهم إلى أن مات النبيﷺ[1].

أمّا ابن سعد في (الطبقات) فيقول: وأمّر النبيﷺ أُسامة على جيش فيه الخليفتان أبو بكر وعمر[2].

وحينما يتكلّم ابن تيمية عن ابن سعد يعبر عنه بقوله: إنه من أهل الثقة في النقل، وأهل الصلاح، ورجل معتمد في أقواله. لكنه في الأمر يكذّب ما نقله ابن سعد، وهذا تكاذب.

فهذه مقاييس توجب الخلل، والذي يدرسنا ـ تاريخاً وفكراً ـ من الخارج يلاحظ عدم الالتزام في النقل، وسيعبّر عن ذلك بقوله: ليس عندهم مقاييس ثابتة يعتمدونها في نقل الحوادث ومقايستها.

فالآية الكريمة إذن تعطينا قاعدة مفادها أن من تاب بعد إشراك فإننا يجب أن نعامله معاملة المسلم، أما حالنا الآن فإن المسلم الذي يولد في بيت مسلم ويتمسّك بشعائر الإسلام فإنك تجد تكفيره قائماً على قدم وساق. لماذا هذا؟ ولمصلحة من؟ وما هو الدليل على كوننا كفرة؟

ونحن نتفاءل ببعض الأصوات الطيبة المتأثّرة بنبرة «لا إله إلّا اللّه»، والتي يجري على قلمها روح الإسلام، فمثلاً قرأت أمسِ كلمة للدكتور شملان العيسىٰ بعنوان (تسييس الاطفال) يقول فيها: رأيت أطفالاً يلبسون ملابس مكتوباً عليها (ياحسين)، فلفتت نظري هذه الظاهرة،

---

(١) منهاج السنّة ٤: ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٢) الطبقات الكبرى ٢: ٢٤٩.

فبدأت أُفكّر، وقد أرادوا جني شيء من التوت، فاستأذنوني وجنوا. ففكّرت بهذه الظاهرة، فتوصّلت إلى نتيجة مفادها أن هذه العملية هي ردّة فعل لتأكيد الذات، فهؤلاء بما أن السلف قد كفّروهم، فإنهم يفعلون هذا كعمليّة ردّ فعل لتأكيد العقيدة.

فالقارئ يلمح شيئاً من الإنصاف وروح التعقّل في هذا الكلام؛ ولذلك علينا أن نحرص علىٰ وحدة المسلمين وأن نكون في خندق واحد؛ حيث إن آلامنا واحدة. ولكن أقولها ببالغ الأسف: هناك ألسن تظن أن ليس عليها من اللّه رقيب.

أقسام الإخاء

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، أي إذا توجّه مسلم لقبلتك، وأكل من ذبيحتك، وشهد بشهادتك، وقرأ القرآن نفسه، وصلىٰ إلى الكعبة فإنه أخوك في الدين، وعليك أن ترتّب آثار الأُخوّة عليه؛ وهي مودّته وحفظ دمه وماله وعرضه. وهذا ما يعبّر عنه بالإخاء الديني. فهناك العديد من العلاقات التي تحكم الناس في الدنيا، وهي متنوعة منها:

الأولى: أُخوّة الدين

وهي مجموعة العلاقات والأُطر القائمة علىٰ أساس العقيدة. وهو ما يعبّر عنه بالأُخوّة الدينيّة.

الثانية: أُخوّة الدم

وهي ربما تكون أُخوّة غير دينيّة، كأن يكون لك أخ من أُمّك وأبيك لكنه علىٰ دين غير دينك. وهذا يترتّب له عليك حقّ الدم والرحم، أي أنه تتعيّن له عليك حقوق الرحم.

وممّا يروى في هذا المضمار أن أبوي أسماء كانا مسيحيين، فدخلت علىٰ النبيﷺ وقالت: يارسول اللّه، إن اللّه يأمر ببرّ الوالدين، ووالداي لا تربطني بهما علاقة عقيدة، فأنا مسلمة وهما كافران يختلفان معي في عقيدتي، فهل أبرّهما؟ فقال: «نعم، برّي أبويك». فالعلّة هنا هي الأُبوّة.

الثالث: أُخوّة الإنسانيّة

وهي أُخوة سامية، ويؤكّده التعبير القرآنيّ في الناس حيث يقول: ﴿**يَابَنِي آدَمَ**﴾[1]، ويقول الرسول الأكرمﷺ: «**كلّكم لآدم وآدم من تراب**»[2].

فهذا الإنسان حتىٰ لو كان كافراً أو ملحداً ما دام لم يرفع سيفاً في وجه الإسلام، فعلى كل منّا مسؤوليّة تجاهه؛ لأن اللّه يقول: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[3].

لكن هناك اختلاف بين الفقهاء في مقدار ما يُعطى هذا الإنسان من الحقوق الشرعية؛ ماليّة كانت، أو غير ماليّة، والماليّة هل يُعطاها من الصدقات أو من غيرها، كل ذلك موضع اختلاف بين فقهائنا كما قلنا. فالبعض يرى إعطاءه من الزكاة والبعض الآخر يرى إعطاءه من الصدقات. وهذا حرص من الإسلام عليهم؛ فإنه يرى أنهم أُناس ولهم معدة تجوع، ولهم جسد يعرى، ثم إن لبعضهم كرامة تمنعهم من مدّ أيديهم، حتى مع حاجتهم للطعام واللباس: «إذا كنتم تريدون رحمتي،

(١) الأعراف: ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٦، يس: ٦٠.

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

(٣) الممتحنة: ٨.

فارحموا خلقي».[1]. فهذا هو خُلق الإسلام.

كما أنه ليس من خلق الإسلام أن ترىٰ غيرك جائعاً، ولا تشبعه لأنه يخالفك في الرأي والمذهب، فروح الإسلام أكبر من هذا، وهي تعطف حتىٰ على الذين يخالفوننا في العقيدة، فلا تسلّط سوط العذاب علىٰ من يخالفونك، فالناس أحرار فيما يعتقدون، ولا ينبغي أن يقطع عنهم عطاؤهم. خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات مرّة من مسجد الكوفة فالتقاه أحد المسلمين وقال له: أنا لا أُبايعك، ولا أخرج معك لقتال، ولا أجتمع معك في جمعة أو جماعة، ولا أُجاهد معك. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «**وأنا لا أُكرهك، ولا أمنع عنك عطاءك ما دام المسلمون منك في أمان**»[2]. أي أنك تملك هذا الحقّ.

خلاصة البحث

فقوله تعالى: ﴿**فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾ يتلخّص منه ثلاثة أقسام من الأُخوّة كما أشرنا: الأُخوّة الإنسانيّة (الإطار العام)، والإطار الأقلّ عموماً وهو الأُخوّة العقائديّة، ثم الأُخوّة الأخصّ وهي الأُخوّة التي ترتبط بالدم.

---

(١) الرسالة السعدية: ١٦٥ / ٥٢، عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٨، ميزان الاعتدال ١: ٦٣٦، كنز العمّال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.

وقال وهب: مكتوب في الكتب القديمة: «إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا عبادي». الامتاع والمؤانسة: ١٣٠ / ٢.

(٢) مرّ هذا في ج١ ص٢٠٠ من موسوعة محاضرات الوائلي، وأشرنا هناك إلى أنه قريب منه ما في (الإصابة) في ترجمة سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي حيث قال عنه: وقال ابن الكلبي: كان سلمان اعتزل القتال في الفتنة هو وقوم ارتابوا بالقتال، فأقاموا بالرقّة، فكان علي يرسل إليهم الأعطية ويقول: «لا نمنعكم حقّكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

وهذه العلاقات تختلف شدّة وضعفاً، فالإنسان لايميل إلى بعض الإخوة في حين تجده يذوب في البعض الآخر، يقول أحد أُدبائنا:

إن أخاك الصدقَ من كان معكْ ومـن يـضرَّ نـفسَه لينفعكْ
ومن إذا ريبُ الزمـان صـدعكْ شتّت فيه شملـه ليجمعكْ[1]

أسباب فساد ادّعاء أُبوّته تعالى لعيسى عليه السلام

ثم انتقلت الآية لتبيّن فساد العقيدة التي تقول بأنه ليس خالق النبي عيسى عليه السلام فقط، بل إنه والده أيضاً، فقالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَـهُ وَلَـدٌ﴾، وهنا مسائل:

الأولى: أن هذا خرق للواقع والطبيعة

فالولد إنما يتكوّن عن طريق القوانين الطبيعية، أي يجتمع الأبوان في الفراش فيحصل الحمل عند الأُم، ثم يبقى تسعة أشهر حسب النظرية العلميّة للحمل الطبيعي. والبارئ جلّ وعلا لا يحتاج إلى كل هذه الفترة ليتم نموّ الطفل ويولد: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]؛ فهو تعالى لا يحتاج إلى أن ينتظر الطرق الطبيعية للحمل والولادة.

الثانية: أن وجود الابن منافٍ للغنى عن الغير

فالأب إنما يريد الولد لعجزه، فهو يطلبه لغرض هو حاجته إليه من ناحية العاطفة، أو للاستعانة به، فالولد يسد عجز أبيه ويرعاه ويكفيه حاجاته وما يهمّه. وهذا هو النظام التكويني والطبيعي، أمّا واقعنا الآن فقد اختلفت كل القيم التي يجب توافرها فيه، حيث يلاحظ فيه أن بصمات الأُسرة قد أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً، أمّا نظام الأُسرة الإسلامية الملتزمة

---

(١) نهج السعادة ٧: ٤٢٦.
(٢) يس: ٨٢.

فهو خلاف ذلك؛ إذ نلاحظ فيه عاملاً مهمّاً يعدّ من أبرز مظاهرها، وهو أن عمليّة تبادل الأدوار بين الأب والابن هي عمليّة طبيعيّة جدّاً؛ فالأب له دور التربية، والابن له دور الطاعة، فيطيع أباه ويخدمه ويقضي كل حاجاته.

فالولد خلق لهذا، أما الآن فإنّ الأُسرة الإسلامية بدأت تتفكك أيضاً حيث إن الأب بدأ يتخلّى عن دور الموجّه والمربّي، والابن كذلك تخلّى عن دور الطاعة. ومن هنا جاءت المؤثّرات المروّعة.

إن معالم الأُسرة الإسلاميّة بدأت تتلاشى، وهذا طبعاً بفعل وسائل التكنولوجيا الحديثة التي أخذت أنفسنا وأولادنا. أعرف شخصاً يسكن في لندن قد جمع كل متعلّقاته وأشياءه، وهيّأ نفسه لأن يترك بيته هناك، وكان يقول: عندي خمس بنات، ولوسائل الإعلام هنا تأثير عليهن، وكذلك هذه البيئة الفاسدة؛ ففكّرت بالسفر: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ**﴾[1].

فعلى المسلم أن يستغلّ وسائل الوقاية وأن يبتعد عن المؤثّرات، كما أن المفروض أن تتمّ معالجة هذه المشاكل بكل جدّية واهتمام، وعدم تركها والانشغال بقضايا أُخرى. إننا بأمسّ الحاجة إلى الأخلاق الإسلامية والآداب الإلهية، وهذه العصرية بشكلها الحالي ما هي إلّا رجوع إلى البدائيّة وإلى الوحشيّة والإباحيّة.

فالقرآن الكريم يقول: ﴿**أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ**﴾، أي أن الباري جلّ وعلا غير عاجز حتى يحتاج إلى الولد، فكيف يكون له ولد.

---

(١) التحريم: ٦.

الثالثة: أن الولد قد يكون نقمة على أبيه

فالولد ربما يشكّل حالة لاتسرّ أباه؛ فهو كما يمكن أن يكون نعمة لأبيه، فكذلك يمكن أن يكون نقمة عليه ووبالاً، أو أن تبعاته ربما تلحق أباه وإن كان هذا الجانب ربما يؤخذ في الخير وربما يؤخذ في الشر، فمن يكره علي ابن أبي طالب عليه السلام فإنه يحمّل أباه (أبا طالب رضي الله عنه) ما كان يكرهه منه عليه السلام، فيحمل علىٰ أبي طالب رضي الله عنه ويرميه بالشرك. مع أن الحق أن تكون هذه الأُمور خاضعة لقرائن معيّنة، وأن تحدّدها المواقف، وعلى ضوئها يحدّد الشخص.

فهذا الرجل رضي الله عنه كان ليلاً ونهاراً حاملاً سلاحه يدافع عن النبي صلى الله عليه وآله وعن المسلمين، وعندما حوصر المسلمون في الشعب الذي عرف فيما بعد باسمه وقف معهم ثلاث سنين كان فيها واحداً منهم يصيبه ما يصيبهم ويناله ما ينالهم. وكان ليلَ نهارَ يلازم رسول اللّه صلى الله عليه وآله هو وأولاده ويحرسونه[1].

---

(١) المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٦٧-٦٦، سيرة ابن إسحاق ٢: ١٤٠. وفي ذلك يقول أبو طالب رضي الله عنه:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا لؤيّاً وخصّا من لؤيٍّ بني كعبِ
ألم تعلما أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطّ في أول الكتبِ
وأن الذي ألصقتُمُ من كتابكم لكم كائن يحسى كراعية الشعبِ
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ويصبح من لم يجنِ ذنباً كذي ذنبِ
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا أواصرنا بعد المودّة والقربِ
فلسنا وربِّ البيت نسلم أحمدا لعزاء من عض الزمان ولا كربِ
ولسنا نملّ الحرب حتى تملّنا ولا نشتكي ما قد ينوب من النكبِ
ولكننا أهل الحفائظ والنهى إذا طار أرواح الكماة من الرعبِ

وهو الذي وقف معه ﷺ حينما اجتمع شيوخ قريش على مقارعة الحق المتمثّل بالرسول الأكرم ﷺ، وذلك حينما رأوا منه تلك المواقف الصلبة إزاءهم ورأوا موقف الرسول الأكرم ﷺ، فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان أجمل فتيان قريش ـ فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أبهى فتى في قريش وأجملهم، فخذه إليك فاتّخذه ولداً فهو لك، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك؛ لنقتله، فإنما هو رجل برجل.

فقال أبو طالب: واللّه ما أنصفتموني؛ تعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا واللّه ما لا يكون أبداً. فقال له المطعم بن عدي بن نوفل ـ وكان له صديقاً مصافياً ـ: واللّه يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئاً، لعمري قد جهدوا في التخلّص ممّا تكره وأراك لا تنصفهم. فقال له أبو طالب رضي الله عنه: واللّه ما أنصفوني ولا أنصفتني، ولكنك قد أجمعت علىٰ خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك[1].

وجاؤوه أُخرى فقالوا له: إذن ما يريد منّا ابن أخيك محمد؟ فإن أراد حكماً علينا ملّكناه، وإن أراد مالاً منّا أعطيناه من صفوة أموالنا، وإن أراد الزواج زوّجناه ممّن يريد. فالتفت أبو طالب إلى الرسول ﷺ وقال له: أتسمع ما يقول قومك؟ فقال ﷺ: «**واللّه ياعمّ، لو وضعوا الشمس في يميني**

وفي قوله رضي الله عنه:

ألم تعلما أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطّ في أول الكتبِ

أكبر دليل وأقوى برهان على إيمانه رضي الله عنه فضلاً عن إسلامه.

(١) الطبقات الكبرىٰ ١: ٢٠٢، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥، مجمع البيان ٤: ٣١، الميزان ٧: ٥٨.

والقمر في شمالي علىٰ أن أترك هذا الأمر ما فعلت».

فلمّا سمعوه نفضوا ثيابهم وقاموا وهم يقولون: لا سبيل إلىٰ هذا[١].

وهو المعلن على كل الملأ مخاطباً به رسول اللّهﷺ:

واللّه لن يصلوا إليك بجمعهم حتىٰ أُوَسَّدَ في التُّراب دفينا[٢]

أدلة واهية على كفر أبي طالب

فكان يدافع عن المسلمين وعن رسول اللّهﷺ بكل ما يستطيع، وقدم أولاده للتضحية في سبيل دين اللّه ورسولهﷺ. وكان يحمي الإسلام بنفسه، ومع هذا يقال عنه: إنه مشرك. ويستدلّون عليه بأدلّة واهية، منها مثلاً الآية الكريمة: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى**﴾[٣] حيث يدّعى أنها نزلت في أبي طالب، وذلك أن النبيﷺ دخل عليه وهو في نزعه، وكان معه جماعة من قريش، فقال له: «**قل لا إله إلّا اللّه، حتى أشهد لك بهذا**»، وكانت الجماعة

---

(١) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

(٢) ومعه هذان البيتان:

فاصدع بأمرك ما عليك مخافة وابشر وقرّ بذاك منك عيونا

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البريّة دينا

مناقب آل أبي طالب ١: ٨٩، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥. ولله دَرّ ابن أبي الحديد حيث يقول:

ولولا أبو طالبٍ وابنُهُ لما مُثِّل الدّين شخصاً فقاما

فذاك بمكّة آوىٰ وحامىٰ وهذا بيثرب جسّ الحماما

فلله ذا فاتحاً للهدىٰ وللّه ذا للمعالي ختاماً

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤.

(٣) التوبة: ١١٣.

تقول له: لاتترك دين آبائك، ومنهم أبو جهل، فامتنع، فلما رفض أن يقولها، قال له النبيﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عن ذلك». فنزلت الآية لهذا السبب[١].

الردّ على هذه الحجّة الواهية

وهذه الحجّة غير صحيحة ألبتّة، وذلك لأسباب منها:

أولاً: أن أبا طالبؓ توفّي في مكّة، والآية نزلت في المدينة[٢]، فلماذا هذا الكذب على الرسول الأكرمﷺ؟

ثانياً: أن النبيﷺ قد استغفر لأبي طالبؓ، ولو أنه كان مشركاً لما استغفر له الرسول الأكرمﷺ. ومن أراد التحقّق فليرجع إلى تفسير القرطبي[٣] حيث إنه قد ذكر ذلك.

ثالثاً: أن القرآن الكريم يقول: ﴿**وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[٤] والخصم يقرّ بأنه إذا كانت المرأة مسلمة وكان زوجها غير مسلم فإنهما يفرّق بينهما، وفاطمة بنت أسد بإجماع الجميع مسلمة ومن سيدات المسلمات، فلو كان أبو طالبؓ مشركاً كما يُدّعى فلمَ لمْ يفرّق الرسول الأكرمﷺ بينهما؟

ثمّ إن ما ذكرنا له من هذه المواقف الطويلة والعريضة مع الإسلام ألا

---

(١) صحيح البخاري ٥: ٢٠٨، ٦: ١٨، صحيح مسلم ١: ٤٠، جامع البيان المجلد: ٧، ج١١: ٥٧، ٥٨، المجلد: ١١، ج٢: ١١٣، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٢٠، معاني القرآن ٣: ٢٥٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٧٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الممتحنة: ١٠، وطرف الآية الكريمة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

ينهض حجّة كافية على إثبات إسلامه (رضوان اللّه عليه)؟ وهذا كلّه لأنه أبو طالب، أي أبو أمير المؤمنين عليعليه السلام، أما الذي يرفع عقيرته صباحَ مساءَ ويقول: يا بني أُمية، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة.[1] والقائل لعثمان: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أُمية تداول الولدان الكرة، فو الله ما من جنّة ولا نار[2]، فهو مسلم، بل ومن سادات المسلمين.

ونحن ندعو الشباب المسلم إلى أن يقرأ التاريخ بتمعّن؛ لأن فيه الكثير من الأكاذيب، وليتتبّع المصادر، حيث إن تاريخنا اختلطت فيه أنماط من المؤثّرات، يقول أحد الشعراء.

أيا موسع التأريخ نقداً وخبرةً	ومبتدعاً في نهجه ليس يجترُّ
تجلّىٰ له التأريخُ بحراً فخاضه	وغاص إلىٰ الأعماقِ فانكشف القعرُ
فأبصر زيفاً يستطيل وواقعاً	يذادُ ومقياساً إلىٰ الخلطِ ينجرُّ
وأنباءَ يرويها الهوىٰ ونوازعاً	تحكّم فيها الحبّ والبغض والتبرُ
ومرّت به الأقلام منهن قانعٌ	بفضل فُتات الظالمين ومعترُّ

فهناك ألوان من الأقلام قد كتبت التاريخ بمختلف المؤثّرات، فإذا أراد المنصف أن يقرأ رواية ما فعليه أن يعرف ما وراءها وما هي أهدافها ومدى صحتها، فلا يحكم على الأشياء بمجرّد قراءة رواية ما، خصوصاً ما يتعلّق منها بالحبّ والبغض. ثمّ إنّ علي بن أبي طالبعليه السلام قد وُضع في

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤، وقد ذكرنا جملة من أحواله في محاضرة (أصحاب النار وأصحاب الجنة).

موضع لايُحسد عليه، فقد قاتل دفاعاً عن الإسلام، لكنهم حمّلوه تـبعة دماء قريش، وقريش هم الذين كتبوا التاريخ، وعبّروا عنه بتعابير عجيبة، ولذلك يخاطبه أحد الأُدباء:

أسرف الدهرُ في عدائِك حـتى ... ليس بين الاثنين من إصـلاحِ
وتـصدّى لأن يسـاويك بـالأد ... نى ويدني سنم الذرا للـبطاحِ
إنــها نكــبة المـقاييس فـينا ... أن يـقاس الخـرنوبُ بـالتفّاحِ

الإطلاق في الوصيّة بالوالدين

هذا هو الجوّ العام الآية، لكن نودّ أن نسأل سؤالاً آخر هو: لماذا يطلق القرآن في وصيّته الولدَ بوالديه؟ أي أن القرآن الكريم عندما نـصّ عـلى توصية الولد بوالديه فإنما نص على الوالدين مطلقاً، مع أن هـناك آبـاء وأُمهات ليسوا على المستوى المطلوب أحياناً، أي أن وظيفتهما حينئذٍ لم تكن أكثر من إخراج الولد الدنيا، ثم يكلونه إليها دون أن يكون لهما دور إيجابي في تربيته. ثم لماذا لم يوصِ في المقابل الوالدين اللذين يتّصفان بما ذكرنا بولدهما؟

ونقول: إن القرآن الكريم لا يحتاج لأن يوصي الوالدين بـالولد؛ لأن الشفقة على الولد تجري من الوالدين مجرى الدم من العروق، فإذا مرّت نائبة على الولد فإنها تصيب الأب والأُمّ قبل أن تصيب ولدهـما، وهـذا المعنى مجبول عليه حتى الحيوان، وليس الإنسان فقط.

وفي تشريعنا الإسلامي في آداب الذباحة ـ حيث أُبيحت لنـا لحـوم الحيوانات ـ أن هذه الحيوانات يكـره أن تـذبح أمـام أبـويها، ويـروي المؤرّخون أكثر من حادثة في هذا الخصوص لحيوان يذبح ولده أمـامه

فيؤثّر ذلك فيه، حيث يروى أن ناقة ذبح طفلها أمامها ثم ذبحوها فوجدوا صدعاً في كبدها من الأثر الذي أحدثه حزنها وألمها عليه. فالحيوان ـ كما الإنسان ـ يحسّ ويشعر؛ ولذا فإنه يستشعر الألم الذي يعتصره، كما أن عنده شفقة على طفله. ويمكن مراجعة الكتب التي تعنى بالسلوك الحيواني لكلّ الحيوانات على اختلاف مستويات إدراكاتها.

وهناك مسألة يثيرها الفسيولوجيون، وهي: هل إن إحساس الحيوان ناتج من الغريزة، أم لكمية محدودة من العقل؟ فنحن نرى حيواناً يقفز حفرة، فهل هذا التصرّف ينبع من غريزته أم أن عنده نسبة من الإدراك؟ يميل العلم إلى أن له نسبة من الإدارك، وهذا ما أثبته العلماء. وهذه النسبة من الإدراك هي التي تجعله يتألّم ويشعر بطفله؛ لذلك فإن القرآن الكريم لا يحتاج لأن يوصي الوالدين بالولد؛ فالأبوان يعتزّان بالولد غاية الاعتزاز؛ فهو روحهما التي بين جنبيهما؛ وهو الرباط الذي يربط بين القلبين المتنافرين.

وهذا الأمر يتّضح أكثر من خلال الرجوع إلى المحاكم لمعرفة نسبة الطلاق التي تقع بين من لم ينجبوا أطفالاً بعدُ، حيث نجدها النسبة الأعلى بين المطلّقين؛ لأن الأبوين إذا رزقا بطفل انخفضت نسبة الطلاق بينهما؛ لأنهما سيفكّران ـ إن كانا واعيين ـ في أن الطفل سيضيع إن وقع الطلاق بينهما.

عمر بن المنذر

والولد ثمرة الفؤاد والريحانة، وخصوصاً الأب؛ فإنه إذا كان عنده أولاد فإنه سيعتزّ بهم ويفاخر، يروى أنه كان عمرو بن المنذر بن ماء السماء يسمى من شدّة بأسه محرّقاً، وقد اجتمعت الوفود عنده مرّة، فأخرج من

لباسه بردين وقال: ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أُحيمر فأخذهما فائتزر بواحدة وارتدى الاُخرى، فقال له عمرو بن المنذر: أنت أعزّ العرب قبيلة؟ قال: نعم؛ لأن العزّ كلّه في معدّ، والعدد في معدّ ثم في نزار ثم في مضر ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب، فمن أنكر ذلك فليناظرني.

فسكت الناس، فقال عمرو بن المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، وخال عشرة، وها أنا في نفسي وشاهد العزّ شاهدي. ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مئة من الإبل. فلم يقم إليه أحد، فخرج بالبردين، وضُرب المثل بعزّه وببرديه[1].

فعامر بن اُحيمر هذا يعتزّ بأولاده ويفتخر بهم أمام الملوك، بل ويفاخرهم بهم. وهذا ليس عند العرب فقط، بل هو موجود حتى عند أبناء الحضارات الاُخرى كالحضارة الأوروبيّة، حيث كان الأوروبيّون يفتخرون بذلك.

مشروع الاُسرة بين الإسلام والغرب

هذا مع أنه ربما يعترض أحد بأن هناك تحديداً للنسل فرضه العامل الاقتصادي، وفي أوروبّا نجد أن هناك عوامل اُخرى غير العامل الاقتصادي أوجبت عليهم أن يقتصروا في الإنجاب على ولد واحد. ومن جملة هذه الاُمور الحماية، حيث إن النظام الحاكم فيها يوفّر الحماية لكل أفراد الشعب، فلا يحتاج الإنسان حينئذٍ لعشيرة تحميه، أو لأولاد

---

(١) خزانة الأدب ١: ٤١٢، وقد مرّ نظيره في محاضرة (نظام تعدد الزوجات في الإسلام).

يدافعون عنه. فالنظام يوفّر لمواطنيه كلّ أسباب الحماية، في حين أننا نجد أن مسألة الحماية في بلادنا العربيّة وفي حضارتنا العربيّة الممتدّة إلى الآن قد تكون غير موجودة؛ حيث إن الحكّام يريدون المواطنين حماية لهم دون العكس.

فمسألة الاعتزاز بالأولاد كانت موجودة عند العرب منذ القدم، وموضع الشاهد في قصّة عامر بن أُحيمر أن الآباء يعتزّون بأولادهم ويفاخرون بهم. وهذا الأمر يجري حتى مع الأُم أيضاً، فهناك مثلاً قصة تروى عن امرأة تعيش في مكان دُعي بعدُ باسم وادي السباع، وهو موضع بين البصرة والكويت قتل فيه الزبير، وقد سمي وادي السباع؛ لأن هذه المرأه كانت ضاربة خباءها فيها، فجاءهارجل يروم الاعتداء عليها، فكان أن نادت: ياذئب يافهد ياكلب يانمر، وكان هؤلاء أبناءها، وكان عددهم سبعة أسمتهم كلّهم على أسماء السباع، فجاؤوها يتراكضون، فهرب ذلك الرجل منهم. فسمي الوادي بوادي السباع من حينها لذلك.

فالأبناء إذن موضع اعتزاز من الأبوين وإن اعتزاز الأب بهم أكثر. وهذا ما تعكسه حضارتنا، حيث إن الولد يُدعى باسم أبيه، فيقال: (فلان بن فلان)، أمّا إذا أرادوا احتقار أحد فإنهم ينسبونه لأُمّه، كقولهم: (يابن الزرقاء). والغريب أن أحد المفسرين حينما يفسّر الآية الكريمة: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ**﴾[1] يقول: إن اللّه تعالى يأمرنا أن ندعو الأبناء لآباءهم لكن نبي اللّه عيسىٰ عليه السلام ليس له أب؛ ولذلك فإنّ الناس يدعون يوم القيامة لأُمّهاتهم لأجل النبي عيسى عليه السلام، ويدعى الحسن والحسين باسم أُمّهما فاطمة تشريفاً لهما.

---

(١) الأحزاب: ٥.

والذي يذكره هذا المفسر غير مقبول، بل الصحيح خلافه وأنه ليس كذلك؛ فإن فاطمة عليها السلام وإن كانت ابنة رسول اللّه صلى الله عليه وآله لكن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أشرف الناس وأفضلهم بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وذلك بنصّ رسول الله صلى الله عليه وآله عليه حيث قال لفاطمة عليها السلام: «**زوّجتك خير الناس من بعدي**». والإمام الحسين عليه السلام نفسه يرتجز ويفتخر بكونه ابن الإمام علي عليه السلام[1].

إشكالية الجمع بين الصلاتين

ثمّ قالت: ﴿**وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ**﴾، والمراد منه هو الوقت المقارب للنهار.

وهنا يسأل البعض: هل هناك روايات أو آيات أُخرىٰ تحدد هذه المعنىٰ؟ ولماذا تجمعون بين الصلاتين؟ مع أن القرآن الكريم حدّد أوقات الصلاة بقوله: ﴿**بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ**

---

(١) فهو عليه السلام القائل:

أنا الحسينُ بنُ علي   أحمي عيالاتِ أبي
آليتُ ألّا أنثني   أمضي على دينِ النبي

مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٨، بحار الأنوار ٤٥: ٤٩، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٩٧.

والقائل:

أنا الحسينُ بنُ علي بن أبي   طالبٍ البدرِ بأرضِ العربِ
ألم تروا وتعلموا أن أبي   قاتلُ عمرٍو ومبيرُ مرحبِ
ولم يزل قبلَ كشوفِ الكربِ   مجلّياً ذلك عن وجه النبي
أليس من أعجبِ عُجبِ العجبِ   أن يطلبَ الأبعدُ ميراثَ النبي
واللّه قد أوصى بحفظ الأقربِ

بحار الأنوار ٧٥: ١٢٤.

الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾[١]؟

والجواب: أن الروايات صريحة في هذا المعنىٰ، ومسألة الجمع بين الصلاتين بدون عذر في الحضر وفي السفر مما تسالم عليه المسلمون علىٰ الإجمال ـ يعني ليس عندنا فقط ـ فهناك مثلاً كتاب ألّفه خصيصاً لهذا الفرض أحد علماء أهل السنة، واسمه (إزالة الحظر عمّن جمع بين الصلاتين في الحضر)[٢]، وهو أحمد الصديق الغماري، يذكر فيه آراء علماء المذاهب الإسلامية، وهناك كتاب آخر مذكور في (المسائل الفقهية) للسيد عبد الحسين شرف الدين، يذكر أدلة الجمع بين الصلاتين، وكذلك اقرأ (فقه الإمام الصادق عليه السلام)[٣] للمرحوم الشيخ محمّد جواد مغنية (تغمّده اللّه برحمته)، حيث يذكر فيه آراء علماء المذاهب في الجمع بين الصلاتين، حيث إن شريحة كبيرة من علماء المذاهب الإسلامية لهم آراء واضحة في أدلتها تذهب إلىٰ جواز الجمع بينهما من غير عذر.

والآية الكريمة صريحة بهذا المعنىٰ، وكان رسول اللّه صلى الله عليه وآله يجمع بدون عذر، وأئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا كذلك يجمعون، ورأي أهل البيت عليهم السلام هو رأي القرآن.

سئل عبد اللّه بن عباس (رضوان اللّه عليه) ذات مرّة: لماذا يجمع رسول اللّه صلى الله عليه وآله بدون عذر؟ فقال: أراد ألّا يحرج أُمّته[٤].

---

(١) الإسراء: ٧٨.

(٢) عنه في الفقه على المذاهب الخمسة ١: ١٤١ / التعليقة: ٢ للمؤلّف.

(٣) الفقه على المذاهب الخمسة ١: ١٤١ ـ ١٤٣.

(٤) علل الشرائع ٢ :٣٢١ / ٤، مسند أحمد ١: ٢٢٣، ٣٤٦، ٣٥٤، صحيح مسلم ٢: ١٥٢، سنن أبي داود ١: ٢٧٠ ـ ٢٧١ / ١٢١١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ١: ١٢١ / ١٨٧،

فبرودة الشتاء مثلاً أو حرارة الصيف وأعمال الناس التي يزاولونها ربما تحول دون الإتيان بها كما أمر اللّه تعالىٰ فيما لو فرقوا؛ فصلاة الصبح يأتي بها المكلّف في بيته، أمّا الظهر أو المغرب فربما جاء متعباً مرهقاً ومنهكاً من العمل فربما صلىٰ الظهر وتكاسل عن العصر أو ربما صلىٰ المغرب وتكاسل عن العشاء. فالجمع أولىٰ به من هذه الجنبة؛ فالجمع هنا يكون درءاً للحرج علىٰ الأُمّة. واللّه تعالىٰ يُحب أن يُؤخذ برخصهِ كما يحب أن يؤخذ بعزائمه؛ لأن الرخصة كرم وكرم اللّه تعالىٰ لا يُرد.

إذن جواز الجمع موجود عند الكل، أما الاختلاف الموجود فهو الاختلاف عن الإسلام وليس في الإسلام، أي الاختلاف عن الدليل.

وعليه فإنه الآية الكريمة عندما تقول: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ**﴾ فإنها تعني أن الظهر والعصر يمكن الجمع بينهما في الوقت المحدد، ومن بعد ذلك يأتي ﴿**وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ**﴾، أي أوقاتاً متقاربة وقريبة إلىٰ النهار، والتي هي عبارة عن المغرب والعشاء. إن هذا التأكيد علىٰ الصلاة ناشئ من كون الصلاة عبارة عن الصلة بين الرب وعبده، وهي هوية المسلم؛ حيث يأتي العبد يوم القيامة فيسأل أوّل ما يسأل عنه، عن صلاته؛ فإن جاء بها، وإلّا ضربت أعماله عرض الحائط[1].

السنن الكبرى (البيهقي) ٣: ١٤٥، ١٦٧. وفي المضمون نفسه انظر: مسند أحمد ٥: ٢٠٢، صحيح مسلم ٤: ٧٥، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ٢٦٠.

(١) وردت أحاديث كثيرة في الحثّ على الصلاة والتأكيد عليها، منها أن رسول اللّه ﷺ: قال: «الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود يثبت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب». المحاسن ١: ٤٤ / ٦٠.

وقال ﷺ: «وأوصيكم... بالصلاة التي هي عمود الدين وقوام الإسلام فلا تغفلوا عنها».

نظرية الإحباط وبطلانها

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـئَاتِ﴾، وهنا نذكر في المقام نظرية التحابط أو الإحباط، وهي نـظرية يـذهب إليـها المـعتزلة، وجماعة من غير المعتزلة أما عندنا وعند الأشاعرة فهي نـظرية بـاطلة. لكن ما هو التحابط؟ إن هذه النظرية تعني رفع العمل، فمثلاً لو أن رجلاً قضىٰ عمره كلّه مصلّياً صائماً وذهب إلىٰ الحجّ، وأدّىٰ واجباته كلّها لكنه في آخر عمره شرب الخمر، فإنه هذا الخمر يمسح جميع حسناته وأعماله من سجل أعماله من أوّل عمره إلى آخره.

هذا هو معنىٰ الإحباط عند المعتزلة، أما عندنا فإن الإحباط ليس بهذا المعنىٰ، بل هو بمعنىٰ الدفع، أي لو أن رجلاً قضىٰ عمره مؤمناً متقياً للّه عزّ وجلّ، مصلياً ومؤدياً تكاليفه لكنه في آخر عمره ـ والعـياذ بـاللّه ـ كانت عاقبته السوءى، ففي مثل هذه الحالة ما أمر ذلك العمل؟ إن ذلك

دعائم الإسلام ٢: ٣٥٠.

وعنه ﷺ أنه قال: «الصلاة عماد الدين». وقال: «الصلاة عمود الدين». وقـال: «الصـلاة عماد الإيمان». الجامع الصغير ٢: ١٢٠ / ٥١٨٥ ـ ٥١٨٧.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: «إن عمود الدين الصلاة، وهي أول ما يُنظر فيه من عمل ابن آدم؛ فإن صحّت نظر في عمله، وإن لم تصحّ لم ينظر في بقيّة عـمله». تـهذيب الأحكام ٢: ٢٣٧ / ٩٣٦.

وعنه عليه السلام أنه قال: «أُوصيكم بالصلاة التي هي عمود الدين وقوام الإسلام، فلا تغفلوا عنها». دعائم الإسلام ١: ١٣٣.

وعنه عليه السلام أنه قال: «الصلاة عمود الدين، وهي أول ما ينظر الله فيه من عمل ابن آدم، فإن صحّت نظر في باقي عمله، وإن لم تصحّ لم ينظر له في عمل. ولا حظّ في الإسلام لمن تـرك الصلاة». دعائم الإسلام ١: ١٣٣.

العمل لا يقال عنه: إنه رفع؛ لأن الذي يقع لا يرفع، لكن هـذا الارتـداد سوف يكشف عن أن عمله الأوّل غير صحيح.

فهذه الأعمال توزن يوم القيامة، والذي يرجح يؤخذ به، فإذا رجحت السيئات علىٰ الحسـنات فكأنـما الحسـنات لم تـعمل بـه وإذا رجـحت الحسنات علىٰ السيئات فكأنما السيئات لم تعمل به، وإذا تساوت تساقط منه كل شيء إلّا أن تدركه الرحمة.

فمعنىٰ ﴿الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـئَاتِ﴾ هو الذي ذكرناه، أي أن الحسنات إذا صارت أكثر من السيئات فإنها تمحوها.

نوع اللام في قوله تعالىٰ: ﴿الْحَسَنَاتِ﴾

لكن ما هو نوع الألف واللام في ﴿الْحَسَنَاتِ﴾؟ وهل هـي للـعهد، أم للجنس؟ هناك خلاف بين المفسّرين حول هذا الأمر، وهـم فـيه عـلىٰ رأيين:

الرأي الأوّل: أنها للعهد

وهذا معناه أن هذه الصلوات التي صليّتها ـ الصلوات الخمسة ـ هـي الحسنات التي تذهب السيئات. لكن كيف تذهب الحسـنات السـيئات؟ سوف أنقل بعض الروايات لأُقرب لك المعنىٰ، فعن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة، فأخذ منها غـصناً يـابساً فـهزّه حـتى تحاتّ ورقه، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قـلت: ولم تفعله؟ فقال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ، وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غصناً يابساً فهزّه حتى تحاتّ ورقه، فقال: «يا سلمان، ألا تسألني لم أفعل هذا؟». فقلت: ولم تفعله؟ قال: «إن المسلم إذا توضّأ فأحسن الوضوء، ثم صلّى الصلوات الخمس تحاتّت خطاياه كما يتحاتّ هذا الورق. قال اللّه تعالىٰ:

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذلكَ ذِكرىٰ لِلذّاكِرِيْنَ﴾... »[١].

إذن الصلاة مطهرة للإنسان، وكل فرض يطهّر ما بينه وبين الفرض الذي يليه. هذا بناء علىٰ أن المقصود باللام في ﴿الحَسَنَاتِ﴾ هي اللام التي للعهد، أي أن المقصود بها هو الصلوات الخمس المعهودة في ذهن الإنسان، والروايات المذكورة في الباب ـ ومنها ما ذكرنا ـ كلها قرائن مساعدة علىٰ إرادة هذا المعنىٰ، وهو أن المقصود بالحسنات في الآية هي الصلوات الخمس التي يصليها الإنسان. وفي هذا المضمون روايات كثيرة[٢].

الرأي الثاني: أنها للجنس

ويكون المقصود هنا جنس الصلاة أو جنس الحسنات، فالفقهاء أو العلماء لم يضعوا تعريفاً شرعياً للحسنة، ولم يخصّصوا لها اصطلاحاً. فالمشرّع يتبع فيها العرف العام، فلو سألت أحداً: ما هي الحسنة؟ لأجابك بأنها من مثل ما لو أطعم أحد جائعاً، أو كسا عرياناً أو تصدق بصدقة، أو برّ والديه أو قضى حاجة مسلم.

إذن فالمرجع في هذا هو العرف. لكن يبقىٰ عندنا أن نشير إلىٰ أن لدينا دليلين حول المسألة: الدليل العقلي، والدليل الشرعي. فالحسنات لا

---

(١) مجمع البيان ٥: ٣٤٥، بحار الأنوار ٧٩: ٣١٩، مسند أحمد ٥: ٤٣٧، جامع البيان، المجلد: ٧ ج ١٢: ١٧٧.

(٢) قال رسول الله ﷺ: « إنما مثل الصلاة فيكم كمثل السري على باب أحدكم يخرج إليه في اليوم والليلة يغتسل منه خمس مرّات. فلم يبقَ الدرن مع الغسل خمس مرّات، ولم تبقَ الذنوب مع الصلاة خمس مرّات ». الفقيه ١: ٢١١ / ٦٤٠، مسند أحمد ٢: ٤٢٦، ٤٤١، ٣: ٣١٧. والسري: النهر.

تقتصر فقط علىٰ الصلاة دون غيرها، بل هي تشمل كل عمل حسن، وكل ما يرضي اللّه تعالىٰ فهو حسنة كبرّ الوالدين ورعاية العيال، وإطعام الإنسان لأهله. فهذه كلها أعمال مبرورة عند اللّه تعالىٰ، وتعتبر هذه كلها حسنات؛ ولذلك كان الرسولﷺ يمدح من كان يقوم بمثل هذه الأعمال، كما ورد في كثير من الروايات ومنها ما روي من أنه بعث رسول اللهﷺ في غزوة الخبط أبا عبيدة في سرية فيها من المهاجرين والأنصار ثلاثمئة رجل إلى حي من جهينة، فأصابهم جوع شديد، فقال قيس بن سعد: من يشتري مني تمراً بجُزُر؛ يوفّيني الجُزُر هاهنا وأُوّفيه التمر بالمدينة؟ فقال عمر: واعجباه لهذا الغلام، لا مال له ويدين في مال لغيره!

فوجد قيس رجلاً من جهينة فقال له: بعني جزراً وأُوفّيك حقّه أوسقة من تمر بالمدينة. فقال الجهني: والله ما أعرفك فمن أنت؟ قال: أنا ابن سعد بن عبادة. فقال الجهني: ما أعرفني بنسبك! أما إن بيني وبين سعد سيد أهل يثرب خلة.

فابتاع منه خمسة جُزُر كلّ جزور بوسق من تمر، واشترط عليه البدوي أن يوفّيه من بساتين لهم حدّدها له، فقال قيس: نعم. قال: فأشهد لي. فأشهد له نفراً من الأنصار ومعهم نفر من المهاجرين، قال قيس: أشهِد من تحب. فكان فيمن أشهد عمر بن الخطاب، فقال عمر: لا أشهد؛ فهذا يدان ولا مال له، إنما المال لأبيه. فقال الجهني: والله ما كان قيس ليخني بابنه في أوسقة من تمر، وأرى وجهاً حسناً وفعالاً شريفاً.

فأخذ قيس الجزر فنحر لهم كل يوم جزوراً، فلمّا كان اليوم الرابع نهاه أبو عبيدة وعمر وقالا له: عزمنا عليك ألّا تنحر، أتريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك؟ فقال قيس: يا أبا عبيدة: أترى أبي يقضي ديون الناس ويحمل الكل ويطعم في المجاعة، ولا يقضي عني أوسقة من تمر لقوم مجاهدين

في سبيل الله؟ فكاد أبو عبيدة يلين له، وجعل عمر يقول: امنعه. فمنعه أبو عبيدة وأبى أن ينحر لهم بعد ذلك.

وكان أن بقيت جزوران، فقدم بهما قيس المدينة ظهراً يتعاقبون عليهما، وبلغ سعداً ما أصاب القوم من المجاعة، فقال: إن يكُ قيس كما أعرف فسينحر للقوم. فلمّا قدم قيس لقيه سعد، فقال: ما صنعت في مجاعة القوم؟ قال: نحرت ثلاثاً ثم نهيت. قال: أصبت، فمن نهاك؟ قال أبو عبيدة. قال: ولم؟ قال: زعم أنه لا مال لي، وأن المال لك، فقلت: أبي يقضي عن الأباعد ويحمل الكلّ ويطعم في المجاعة، ولا يصنع هذا بي؟ قال: فلك أربع حوائط أدناها حائط منه تجذ خمسين وسقاً. قال وقدم البدوي مع قيس فأوفاه أوسقته، وحمله وكساه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنه في قلب بيت جود»[1].

قيس بن سعد

إذن فإطعام الطعام حسنة يثيب اللّه عليها فاعلها، وقيس بن سعد أُنموذج مشرّف يجب أن يحتذىٰ، وهو من محبّي الإمام أمير المؤمنين (سلام اللّه عليه)، والكلمات تعجز عن أداء حقّه؛ فقد كان ذا فتوّة وبطولة وصدق ووفاء وإيمان لا حدود لها.

ولقيس هذا موقف مشرّف مع معاوية وذلك حينما أراد أن يحجّ، فجعل طريقه علىٰ المدينة، وجاء إلىٰ الجرف ـ المعسكر الذي كانوا يعسكرون به ـ وعندما شارفها دخل جماعة إليها يهيّئون الناس لاستقباله.

وكان عند الأنصار حساسية تجاه الأُمويين، وتحكم علاقتهم بهم

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٩: ٤١١ ـ ٤١٣، ٤١٥.

حالات من التوتّر؛ فهم لا يستطيعون أن ينسوا مواقف الأُمويين المشينة منهم، فقد قطعوا عنهم حتىٰ عطاء أطفالهم[١]، فجاؤوا إلىٰ قيس وقالوا له: لا بدّ أن تخرج لاستقبال الخليفة، فأبىٰ أن يخرج معهم، فأُجبر علىٰ ذلك، فخرج، فلمّا رآه معاوية وقد أتىٰ وحده استقبله، وكان عمرو بن العاص واقفاً إلىٰ جانب معاوية، وقال له: ما لي لا أرىٰ الأنصار؟ قال: ليس عندهم رواحل. فقال معاوية: فأين ذهبت نواضحكم؟ (يريد أنهم فلّاحون، والناضح: البعير الذي يستقى به[٢])، فقال سعد: أفنيناها يوم بدر، يوم ضربناك وأباك علىٰ الإسلام حتىٰ أدخلناك فيه كرهاً.

فأراد معاوية أن يجيبه، فسحب عمرو بن العاص رداءه وقال له: دعه، فإنه امرؤ إن أجبته بواحدة أجابك بأربعة. فسكت[٣].

فقيس هذا كان نموذجاً عجيباً، فقد كانت وقفته مع الإمام الحسن عليه السلام معروفة، حتىٰ إن معاوية لم يستطيع أن يأخذ البيعة منه لنفسه[٤]. ومما يروىٰ أنه قال لمعاوية: أني حلفت ألّا يقع بيني وبينك لقاء إلّا ويكون

---

(١) انظر محاضرة (روح التسامح في الدين الإسلامي) من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٢) لسان العرب ١٤: ١٧٤ ـ نضح.

(٣) قريب منه في مناقب آل أبي طالب ١: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٣٢٣ ـ نضح، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، الجامع لأحكام القرآن ٤: ٣٥.

(٤) قال ابن أبي الحديد: قال أبو الفرج: وقد روي أن الإمام الحسن عليه السلام لمّا صالح معاوية اعتزل قيس بن سعد في أربعة آلاف فارس، وأبى أن يبايع، فلمّا بايع الإمام الحسن عليه السلام أُدخل قيس ليبايع، فأقبل على الحسن عليه السلام، فقال: أفي حلّ أنا من بيعتك؟ فقال عليه السلام: «نعم». فأُلقي له كرسي، وجلس معاوية على سرير والحسن عليه السلام معه، فقال له معاوية: أتبايع يا قيس؟ قال: نعم. ووضع يده على فخذه، ولم يمدّها إلى معاوية، فجاء معاوية من سريره، وأكبّ على قيس حتى مسح يده على يده، وما رفع إليه قيس يده. شرح نهج البلاغة ١٦: ٤٨.

بيني وبينك الرمح والسيف. فقال معاوية: أنا أبرّ يمينك وأضع بيني وبينك الرمح والسيف. فأبىٰ وأراد قتال معاوية، لكن الإمام الحسن عليه السلام عزم عليه ألّا يفعل؛ لأن هذه الدماء سوف تذهب هدراً، وهي مما يجب أن يُحفظ، فترك القتال[1].

وعلىٰ أية حال فإن قيساً كان رجلاً ملء النفس، وموقفه هذا سُرّ بـه الرسول صلى الله عليه وآله وأثنىٰ عليه.

إذن الحسنات هي كل عمل يؤدّي إلىٰ رضوان اللّه تـعالىٰ، وكـل مـا يؤدّي إلىٰ نفع الناس فهو حسنة. وهكذا فإن الحسنات يذهبن السيئات، والحسنة مهما كان نوعها فهي مما يصب في خانة رضوان اللّه وخانة نفع الناس.

لكن أي الحسنات أفضل؟ فإن من السهل علىٰ بعض الناس أن يدفع كمية من المال، ولكن ليس سهلاً عليه أن يُجرح في سبيل اللّـه، ومـن السهل علىٰ الإنسان أن يقوم بموقف كرم أو جود، لكن ليس من السهل عليه أن يقدم فلذة من أفلاذ كبده ويضحي به عطاء خالصاً لوجه اللّـه، فأي حسنة أعظم من هذا العطاء؟ هذا العطاء الذي لا حدود له.. وقف أبو الشهداء عليه السلام يوم عاشوراء أوّل نزوله إلىٰ الساحة ورفع رأسـه إلىٰ السـماء وقال: «**اللهم إني زاحف بهذه الأُسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر**»[2]. وفعلاً لم يدع صغيراً ولا كبير إلّا قدمه في سبيل اللّه، وهكذا كانوا أضاحي:

يوحدُهم دربُ الفداءِ فيستوي   بهم طاعنٌ في سنِّه ورضيعُ

---

(١) الغدير ٢: ١٠٤، وقريب منه في شرح نهج البلاغة ١٦: ٤٣.

(٢) الاحتجاج ٢: ٢٥، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ٨٣.

خصوصيّات الليلة العاشرة من المحرّم

كان لهذه الليلة (الليلة العاشرة من المحرّم) خصوصيّة عند الإمام الحسين عليه السلام؛ فقد كان يكثر من قراءة هذه الآية الكريمة فيها. وفي قراءته لها معنىً هو أن في حياة الإنسان نِقاطاً فاصلة بين الخير والشرّ، حيث يكون في منطقة اختيار؛ فإمّا أن يذهب إلى جانب الحقّ أو إلى جانب الباطل. ونحن سنستعرض محتويات هذه الليلة؛ لنعرف مدى هذه الخصوصيّة عنده عليه السلام:

الأولى: قراءة هذه الآية الكريمة

فالإمام الحسين عليه السلام أراد من خلال هذه الآية الكريمة أن يذكّر معسكر يزيد بن معاوية بأن هذه اللحظات هي لحظات حاسمة في حياته وتاريخه ووجوده؛ فهو إما أن يكون بجانب الحقّ أو بجانب الباطل؛ لأنه سيكون هناك تمايز وتفضيل من قبل اللّه سبحانه وتعالى للبشر على ضوء مواقفهم. مع أن البعض يقول: إن هذا المعسكر هو معسكر عبيد اللّه بن زياد وليس معسكر يزيد؛ فيزيد لم يرضَ بقتل الإمام الحسين عليه السلام[1].

وهذه ليست أول بادرة تزوير في التاريخ؛ فالتاريخ كان ولا زال

---

(١) كابن تيمية، انظر: اجتماع الجيوش الإسلاميّة ١: ١٠٥، منهاج السنّة ٤: ٥٥٩، مجموع الفتاوى ٣: ٤١٠ ـ ٤١١، ٤: ٥٠٦ ـ ٥٠٧، ٢٧: ٤٧٠، ٤٧٩ ـ ٤٨٠، ٤٩٣. أما ابن العربي فقد ألّف كتاباً في شأن الإمام الحسين عليه السلام زعم فيه أن يزيد قتله بحقّ بسيف جدّه. انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣. قال المناوي في كتابه هذا بعد ذكر عبارة ابن العربي هذه: نعوذ بالله من الخذلان.

عرضة للتزوير، غير أن المحقّقين من أبناء المذاهب الإسلاميّة كافّة يلقون بتبعة الأمر وبالمسؤوليّة على يزيد نفسه.

لكن ما الذي حدث بعد قراءة هذه الآية الكريمة؟ لعل تأثير قراءة هذه الآية الكريمة كان واضحاً وكبيراً، فالذي حدث أنه التحق (٣٢) جندياً من معسكر يزيد بمعسكر الإمام الحسين عليه السلام ليلتها، حيث تسلّلوا واحداً بعد الآخر. وكان من المتوقع أن يلتفّ الناس حول الإمام الحسين عليه السلام بشكل أكبر؛ لأن ظلم بني أُمّية وجورهم وصلا إلى درجة أن النفوس معها تشبّعت بالألم، فهذا أحد الشعراء يخاطبهم:

وإن تأتوا برملةَ أو بهندٍ ... نبايعها أميرَ المؤمنينا
إذا ما مات كسرىٰ قام كسرىٰ ... نعدُّ ثلاثة متناسقينا
فوا لهفا لوَ ان لنا سيوفاً ... ولكن لا نعودُ كما عُلينا
إذن لضربتمُ حتىٰ تعودوا ... بمكّة تلعقون بها السفينا
شربنا الغيظ حتىٰ لو سقينا ... دماء بني أُميّة ما روينا
لقد ضاعت رعيّتكم وأنتم ... تصيدون الأرانبَ غافلينا[1]

فهذه الأبيات تعكس الألم والسأم اللذين كلكلا على النفوس؛ ولذلك فإنّ معاوية بن يزيد بن معاوية صعد علىٰ المنبر وواجه الأمر بواقعيّة بعد أن آل الأمر إليه، فخطب الناس واصفاً بني أُمية بأنهم قد وصل الأمر بهم إلى درجة من الاعتداء علىٰ الناس بحيث إنهم لم يتركوا دماً إلّا سفكوه،

(١) الأبيات لعبد الله بن همام، وقيل: حمام، ابن نبيشة بن رياح، الملقّب بالعطّار؛ لجودة شعره. تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٥٢ ـ ٣٥٣، وفيه: لبايعنا أميرة مؤمنينا، وقد ذكر بيتين منها فقط، وكذلك ذكرهما في البداية والنهاية ٨: ٣٦٢.

ولا مالاً إلّا أخذوه، ولا عرضاً إلّا هتكوه، فيجب عليهم أن يتخلّوا عن الأمر ويدفعوه إلى أهله. وبالفعل تخلّىٰ هو عنه؛ حيث قال: ولقد خلعت بيعتي من أعناقكم. فلمّا رجع إلى بيته قالت له أُمّه: ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك. فقال لها: وددت واللّه ذلك. ثمّ قال: ويلي إن لم يرحمني ربي.

ثمّ إن بني أُميّة قالوا لمؤدّبه عمر المقصوص: أنت علمته هذا ولقنته إياه، وصددته عن الخلافة، وزينت له حب علي وأولاده، وحملته علىٰ ما وسمنا به من الظلم، وحسنت له البدع حتىٰ نطق بما نطق وقال ما قال. فقال: واللّه ما فعلته، ولكنه مجبول ومطبوع علىٰ حب علي. فلم يقبلوا منه ذلك، وأخذوه ودفنوه حياً حتىٰ مات(١).

رجل وسليمان بن عبدالملك

فالأُمويّون لم يتركوا شيئاً إلّا انتهكوه، فمثلاً دخل رجل على سليمان بن عبد الملك ـ وكان جالساً علىٰ كرسي الخلافة في يوم من الأيّام ـ فقال له: أصلح اللّه الخليفة، أُناشدك اللّه وأسألك أن تذكر يوم الأذان. قال: مايوم الأذان قال: يوم الأذان هو اليوم الذي يقول عنه القرآن الكريم: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(٢). قال: من الذي ظلمك؟ قال: عمّالك؛ أخذوا ضيعتي فبقيت جائعاً بائساً. قال: تُردّ لك ضيعتك.

---

(١) انظر حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩. وقد ذكرنا أغلب كلامه في محاضرة (نفحات من سيرة الإمام السجّاد عليه السلام)، فراجع.

(٢) الأعراف: ٤٤.

والمقصود هنا أنه كانت هناك ضياع تسلب، وأموال تنهب، وأعراض تهتك وتستباح، ودماء تسفك، ووصل الأمر إلى حد الانغماس في ذلك؛ ولذا فإنه كان من المؤمّل أن يلتحق الناس بالإمام الحسين عليه السلام.

لماذا خرجت زينب مع الإمام الحسين عليه السلام؟

ومع هذا فإن الإمام الحسين عليه السلام أصرّ على أن تخرج زينب معه؛ لأنه عليه السلام أراد أن يبرهن علىٰ أنه إذا دار الأمر بين الدفاع عن بيضة الدين وساحة الأُسرة فإنّ جهاد المرأة يكون إلى جانب جهاد الرجل كلّاً منهما يؤدّي دوره في ساحة الجهاد. فإصراره عليه السلام على خروج زينب معه ـ مع أنها كانت امرأة متزوّجة ذات بعل، هو عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب ـ هو ما ذكرنا. وكان ولداها (محمد وعون) قد خرجا معها، فتركت بيت زوجها وخرجت إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام لتؤدّي دورها ورسالتها[1]. إن إصرار الإمام الحسين عليه السلام علىٰ ذلك هو بغية التأكيد على أن المعركة لاتقف عند السيف فقط، فكما أنّ السيف له دور فللكلمة دورها كذلك، فالدم له دور والموقف له دور. وهو عليه السلام يؤكّد لهم بهذا أن المعركة لاتنتهي بإلقاء السيوف. وبالفعل فإنه حينما دخلت زينب عليها السلام أول مرحلة لها وهي الكوفة ورأت أهلها يبكون اتّخذت مرتفعاً وقالت: «أما بعد، يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر، أتبكون وتنتحبون؟ فلا رقأت الدمعة[2]، ولا هدأت الرنّة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، تتّخذون

---

(١) الإرشاد ٢: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ١٢٤، تاريخ الطبري ٤: ٣٥٧.

(٢) رقأت الدمعة: جفّت وانقطعت. لسان العرب ١: ٨٨ ـ رقأ.

أيمانكم دخلاً بينكم، فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي، وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضبٍ من اللّه ورسوله، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة.

ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كبد لرسولﷺ اللّه فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السماوات يتفطّرن منه، وتنشقُّ الأرض، وتخرُّ الجبال هدّاً.

ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء، طلاع الأرض والسماء، أفعجبتم أن مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أخزىٰ وهم لا ينصرون».

يقول خزيم بن فاتك الأسدي: نظرت إلى الناس حيارىٰ يعضّون على الأنامل، ويقولون: حسبك يابنت الطيّبين، لقد أحرقت قلوبنا[1].

فهذه المرأة صرع لها عشرة إخوة وولداها الاثنان وأولاد عمّيها جعفر وعقيل، فمن الصعب أن تقوم بهذا الدور، بحيث تجمع الأطفال والعيال، وتحاول ألّا تفرّط بوصيّة الإمام الحسين؈، ثم تقوم بهذه الأدوار الإعلامية الضخمة؛ فكان هذا الدور في الكوفة، وهناك دور آخر في الشام، وثالث في الطريق. ولقد جعلت الكلمة تأخذ طريقها إلى القلوب، وتلعب دورها إلى أن انتهىٰ الأمر إلى مجلس يزيد بن معاوية، حيث وقفت تخطب تلك الخطبة الضخمة التي أذهلت الناس.

فالهدف إذن هو أن تكون (سلام الله عليها) الشطر الثاني من النهضة..شطر الخطبة والإعلام والموقف، بعد أن انتهى دور الشطر الأول،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦١، الاحتجاج ٢: ٢٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٧.

وهو دور السلاح. وهذا هو الذي أراد الإمام الحسين عليه السلام أن يجسّده الليلة.. أن يبيّن أن المرأة لاتقلّ عطاء عن الرجل إذا لزم الأمر ذلك، يقول الشيخ الصدوق: دخلت زينب على الحسين عليه السلام ليلة العاشر وهو يقرأ القرآن، فوضع القرآن على المحراب وتوجّه إليها واشترك معها في المصائب[1]. فهو عليه السلام قد وضع زينب أمام الصورة الحقيقيّة وأخبرها بأنها ستواجه نهار العاشر من المحرّم أمرين: الأول أجساد صرعىٰ ودماء، وأنها ستراه قتيلاً علىالتراب مغسّلاً بدمه، والثاني السبي وآلام السياط.

وهكذا كانت شريكته في الكفاح، فعندما رجع الحسين عليه السلام ولم يبقَ عنده أحد يقدم له فرسه أو يناوله سلاحه، وقف بباب الخيمة وهو يقول: «**من يقدّم لي جوادي؟**». فمرّت زينب بتثاقل وجاءته بالجواد وهي تتمتم بهدوء وتقول: أيُّ أُخت تقدّم لأخيها فرس المنيّة؟ ما أجلدني وما أقسىٰ قلبي؟ جاءت بالجواد فلمح الحسين عليه السلام في عينيها دمعة، فعزّ عليه أن يرىٰ الدموع في عينيها، فمدَّ يده إلى منديله وأخرجه فمسح به دموعها، ثم أدناها إليه وقال لها: «**أُخيّة تعزّي بعزاء اللّه، لا يذهبن بحلمك الشيطان، اعلمي أن أهل السماء لا يبقون، وأهل الأرض يموتون، ولي ولكلّ مسلم برسول اللّه صلى الله عليه وآله أُسوة حسنة. أُخيّة تمسكي بحبائل الصبر**»[2]. فصاحت: والوعتاه يابن أُمّ، أراك تغتصب نفسك اغتصاباً، إن ذلك أقرح لقلبي وأجرىٰ لدمعتي. ثم ندّت في عينيها دمعة[3].

---

(١) الأمالي: ٢٢١.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩،البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

(٣) مقاتل الطالبيّين: ٧٥.

الملامح العامّة لمعسكري الهاشميّين والأُمويّين

وهنا أودّ أن أروي حادثة تلقي الضوء على معسكري الهاشميّين والأُمويّين، وهي أن عقيل بن أبي طالب دخل ذات يوم علىٰ معاوية فقال له: لقد دخلت علىٰ معسكر أخيك علي بن أبي طالب ودخلت على معسكري، فما هو الفرق الذي وجدته بين المعسكرين؟ فقال عقيل: دخلت إلىٰ معسكر أخي علي فرأيت ليلهم كليل رسول الله ﷺ ونهارهم كنهار رسول الله ﷺ، فهم بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، وذاكر وصائم، إلّا إن رسول الله ﷺ ليس فيهم، ودخلت إلىٰ معسكرك فما وجدت فيه إلّا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله ﷺ ليلة العقبة[1].

فهو يقول له: إن مجموعتك تحمل تراث الجاهليّة، وتقف ضدّ الإسلام، وتحمل الأحقاد، وتنادي: يا لثارات بدر.

دوافع الصراع الهاشمي ـ الأُموي عند المؤرّخين

وهذا تصوير صحيح لذلك الواقع المخزي، فكيف ذلك؟ عند التأمّل فيما وصف به الأُمويّون الصراع في واقعة الطفّ نعرف أن المسألة لم تكن صراعاً يتجسّد بأشخاص، وإنما هو صراع يتجسّد بمبادئ، فالأُمويّون يكفرون بما جاء به رسول الله ﷺ وبمقدّسات المسلمين التي يجب أن تُستهدف بنظرهم؛ ليعيدوا نفوذهم وما كانوا عليه من رئاسة. وهذا المعنىٰ كان يطفح علىٰ ألسنتهم في كل مناسبة[2]، فما هي الأشياء التي

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ١١٣، شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) ومنه قول أبي سفيان: تلاقفوها يابني أُميّة تلاقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان،

استهدفوها؟ وما هي البواعث لهم على ذلك؟ هناك نقطة أغفلها من كتب في واقعة الطفّ؛ فهؤلاء انقسموا على أنفسهم إزاء تحليل بواعث هذا الصراع إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أصحاب الدافع القبلي

فهذا البعض يقول: إن هذا هو مظهر من مظاهر الصراع القبلي، فبين بني هاشم وبني أُميّة عداء مستحكم في الجاهلية، وقد استمرّت أُميّة بهذا العداء وهذا الصراع القبلي حتى سقوط دولتها.

القسم الثاني: أصحاب الدافع الشخصي

أمّا هؤلاء فيقولون: إن المسألة شخصيّة، حيث ذكروا قضية أُرينب بنت إسحاق[1]، وأنها هي السبب في الصراع الذي وقع فيما بعد بين الإمام الحسين عليه السلام ويزيد. وهذا رأي تافه لايستحقّ أن يناقش.

القسم الثالث: أصحاب الدافع الاجتماعي

وهؤلاء يقولون: إن جذور الصراع تاريخية، وباصطلاحنا هو صراع بين طبقة من المحرومين وبين طبقة كانت تستأثر بمقدّسات الناس وتنتهكها، فكانت النهضة اجتماعية، فاراد الحسين عليه السلام أن يستردّ للمسلمين حقوقهم[2].

مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك. شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

(١) قصص العرب ٤: ٢٩١ / الرقم: ٩٤.

(٢) أي كما فعل أبوه أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال: «والله لو وجدته قد تُزُوِّج به النساء ومُلِك به الإماء لرددته؛ فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق». نهج

الدافع الحقيقي وراء الصراع

ولكل واحد من هؤلاء الدارسين اتّجاهه في تفسير هذه الواقعة، لكنهم جميعاً غفلوا عن ناحية أُخرى هامّة جدّاً، ولم يكتبوا عنها، أو لم يشبعوها دراسة، هذه الناحية هي أن يزيد قد ربّاه النساطرة، والنساطرة مسيحيون، وكذلك أُمّه ميسون الكلابية فقد كانت مسيحية، وبهذا يكون أخواله ومعلّموه مسيحيّين. ولمّا تزوّجها معاوية وأدخلها الشام، دخل عليها يوماً من الأيام فسمعها تنشد:

لبيتٌ تخفق الأرواحُ فيه	أحبُّ إليَّ من قصرٍ منيفِ
وكلبٍ ينبح الطرّاقَ دوني	أحبُّ إليَّ من قطّ أليفِ
ولبسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني	أحبُّ إليَّ من لبسِ الشفوفِ
وخرقٌ من بني عمّي نحيفٌ	أحبُّ إليَّ من عجلٍ عليفِ[1]

فطلّقها معاوية وأرسلها إلىٰ أهلها في البادية، فخرجت إليها وهي حامل بيزيد، فوضعته هناك، وفيها نشأ بين أخواله الذين علّموه الخطّ المسيحي في التربية، فكان يتناول الخمرة بشكل طبيعي كما يشرب الماء، ولم يتربَّ علىٰ النظام العائلي في الإسلام.

والنساطرة قد عرفوا هذا الأمر عند يزيد، وهم يحملون علىٰ الإسلام حقداً، وأوروبّا المسيحية لا زالت حتىٰ الآن تحمل حقداً دفيناً على الإسلام، ولا يمكن لأحد أن يتصوّر مدى حقدها علىٰ الإسلام، فالكاتب المسيحي متوتّر جدّاً إزاء قضايا الإسلام، وهو ينفجر انفجاراً عنيفاً عليه. وهذا مع توفّر فنون العلم والمعرفة، وقد عرفت سيرة الرسول ﷺ وأنه يحمل التيار الإنساني، وموقفه من أهل الكتاب كان غاية في الرقّة واللين

(١) تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٣٣ ـ ١٣٤

والاحترام، لكن ذلك لم يمنعهم عن أن يحملوا الحقد علىٰ الإسلام، ويقذفوه بكل نقيصة، ويعبرّوا عنه بأنه هجمة همجيّة بدوية اجتاحت الحضارات وقضت علىٰ التقدّم. وإذا مرّوا بجميع مايرتبط بالإسلام فإنهم يزيّفونه ويجعلونه تافهاً في نظر الناس، حتى وصل الأمر بأحد المستشرقين أن يقول: إذا قرأت القرآن فإني أشعر بالغثيان.

ونحن نقول له: ما الذي يجعلك هكذا، والقرآن هوالذي يحمل كلّ هذه المبادئ السامية والقيم الإنسانيّة؟ أليس هو الذي يقول: ﴿**وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[1]، و ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً**﴾[2]، و ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[3]؟ فهل هذا اللون من المبادئ يلجئ الإنسان إلى أن يشعر بالغثيان عند قراءتها؟

فهذه تيارات متدفّقة من الفكر الإنساني، وقد وصلت به الجرأة إلىٰ التهجّم علىٰ القرآن، بل يقول: إن محمداً كان جالساً في بيته ويأكل من أموال النهب والسلب وبطنه متكرّشة، وهذا حقد مروّع. وليعلم أن هذا الكلام صادر في قرننا هذا قرن التنوّر والعلم والأحكام القائمة على أساس الحقائق العلميّة لا الادّعاءات والتحكّمات، أعني القرن العشرين، فكيف هم إذن آنذاك؟ وكيف هي أحقادهم؟

إن أُولئك الذين ربي يزيد عندهم كانوا يعرفون تركيبة يزيد، ويعرفون أنه ولي العهد وسيصبح هو المتولّي لشؤون المسلمين؛ ولذا عمدوا إلى أن يملؤوه بالحقد علىٰ الإسلام والمسلمين. ولهذا السبب نجد أن مستشاريه

---

(١) لقمان: ١٨. (٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) النحل: ٩٠.

كانوا من الأجانب، وكان أحدهم «سرجون» مولىٰ معاوية، وهو من النساطرة. فمن مجموع هذه الملابسات نشعر بوجود تيار أجنبي له دخل في التعبئة ضدّ الإسلام.

فالمربي يصوغ الشخصيّة أكثر من الأب، ويزيد كان المجوس والنساطرة أساتذته ومستشاريه، وكان الحضن الذي ربي فيه مسيحيّاً. فكل هذه العوامل تفسر لنا الموقف الذي وقفه يزيد بن معاوية من الإسلام، وضدّ مقدّساته.

ولو كان باقياً على التيار الجاهلي الذي كان عليه أجداده لكان أفضل من التيار الذي عادىٰ الإسلام؛ لأن التيار المسيحي منظم ومخطّط له، أمّا التيار الجاهلي فبدوي وتستطيع أن تغيره بشيء من العوامل البسيطة، لكن التيار المسيحي كان مدروساً ومنبعثاً عن وعي وعلم.

مقدّسات المسلمين التي استهدفها يزيد

والذي يؤيد هذا المعنىٰ أن كل شيء مقدّس في نفوس المسلمين قد استهدفه يزيد بن معاوية. فما هي هذه المقدسات عند المسلمين؟

المقدّس الأول: الكتاب الكريم

إن أول المقدسات عند المسلمين هو القرآن الكريم، كتاب الله عزّ وجلّ الذي تلتقي عليه مشاعر المسلمين، وهو إمام المسلمين، والذي يقودهم فكرياً، وسلوكهم يتأثّر بمفاهيمه غاية التأثّر. فهذا الرجل استهدف هذا الكتاب بكل تعاليمه؛ حيث ضرب فكرة العدل، وسفك الدم، وانتهك حرمة الأُسرة، وعُرف بالانحلال حتىٰ مع المحارم، ووصل الأمر إلى درجة أن يضع الأُمويون القرآن بين رماح منصوبة ويقذفونه بالسهام

ويمزّقونه[١].

المقدّس الثاني: الكعبة

أمّا المقدس الثاني الذي تلتقي حوله مقاصد المسلمين ومشاعرهم في شرق الأرض وغربها فهو الكعبة الشريفة، وقد استهدفها الأُمويون استهدافاً لا حدود له. هذا في حين أن الجاهلي حتى لو كان له ثأر عند أحد، فإنه لا يمدّ إليه يداً لو كان في الأشهر الحرم، أو في الكعبة؛ حيث إنه يحترم الأشهر الحرم ويحترم الكعبة. والإسلام أكد هذا المعنى، ففرض علينا فيما لو أن شخصاً ارتكب جريمة توجب الحد ثم التجأ إلى الكعبة ألّا نخرجه منها، بل يبقىٰ فيها؛ لأنه قد لاذ بها، لكن يضيّق عليه بالطعام والشراب حتىٰ يخرج، فيقام عليه الحد.

فالإسلام دعم ما كان عليه العرب من أمر تقديس الكعبة ومراعاة حرمتها. والكعبة موضع قداسة حتىٰ ممن لا يعبد الله، فحتى عبّاد الأصنام كانت الكعبة مقدسة عندهم، أما الأُمويون فقد هتكوا حرمتها مادياً ومعنوياً: مادياً حين سلطوا عليهاّ المنجنيق و الأحجار وأحرقوها، ولمّا حاصر الأُمويون عبد الله بن الزبير فيها، دخلت عليه أُمه وقالت: مابك؟

---

(١) قال القرطبي: حكى الماوردي في كتاب (أدب الدنيا والدين) أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف فخرج له قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إبراهيم: ١٥. فمزّق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيدُ

إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا أيّاماً حتى قتل شرّ قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم على سور البلدة. الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٥٠.

قال: هؤلاء ليس عندهم وازع من أن يجرّوا الحرب إلىٰ الكعبة، وأنا أرى أني لا أسلم حتىٰ بعد موتي. فقالت: إن الشاة لا يضرّها السلخ بعد الذبح[١].

فكان الرجل يعرف نفس الأُمويين، وفعلاً هدموا الكعبة، ثم قتلوه، ولم يكتفوا بقتله، بل صلبوه داخل الكعبة حتى سالت الدماء فيها[٢].

وهؤلاء قد استهدفوا الكعبة مرّتين[٣] ولم يبقوا لها حرمة في النفوس، مع أنها مركز من مراكز المسلمين، بل من أهم مراكزهم، فلذا هم يقدّسونها. وكانت هذه الحرمة التي أضفاها الله تعالى على الكعبة مصدر حقد الأُمويين عليها؛ ولذا فإنهم يرون أن من واجبهم أن يقضوا عليها ويهينوها. وفعلاً عرّضوها للهوان.

المقدّس الثالث: عترة النبي ﷺ

ولهذا خرج الإمام الحسين عليه السلام يوم الثامن (يوم التروية) من مكّة، حيث إنه عليه السلام حل إحرامه وجعلها عمرة مفردة، وعلّل ذلك للمتسائلين بأنه

---

(١) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧.

(٢) انظر: التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، وقد ضعّف السند، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ – ٢٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

(٣) ذكرت الأُولى في الهامش السابق، أما الثانية فحينما أعدّ الحجّاج جنده ورماها حتى هدم جدرانها. سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤.

يحترم الكعبة المقدّسة، ولا يريد لها أن تهتك حرمتها بسببه. ونحن نؤكّد أنه لو كان الإمام الحسين عليه السلام داخل الكعبة لقتلوه؛ لأن في كتاب الوليد إلىٰ عامل مكّة أن اقتل الحسين عليه السلام ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة.

فهذا العظيم ـ الإمام الحسين عليه السلام ـ هو أحد أفراد الطرف المقدّس الثالث في الإسلام، وهم العترة الطاهرة، بعد الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله الذي يقول: «**إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض**»[1].

وقال صلى الله عليه وآله: «**إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض**»[2].

وهذا المعنىٰ يأخذه الإمام الشافعي حيث يقول:

ولما رأيتُ الناسَ قد ذهبت بهم ... مذاهبُهم في أبحُرِ الغَيِّ والجهلِ

ركبتُ علىٰ اسمِ اللهِ في سُفُنِ النَّجا ... وهم آلُ بيتِ المصطفىٰ سيّدِ الرسلِ

وأمسكتُ حبلَ الله وهو ولاؤهم ... كما قد أُمرنا بالتَّمسُّكِ بالحبلِ[3]

فهذا هو الولاء للعترة، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتىٰ للسماء مايكرهون، وأهل بيتي أمان لاهل الأرض فإذا ذهب**

(١) شرح نهج البلاغة ١٠: ٢٧٠، ينابيع المودّة ٣: ٦٥.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(٣) بحار الأنوار ٢٩: ٧٧، رشفة الصادي: ٢٥.

أهل بيتي أتىٰ أهل الأرض مايكرهون»[١].

وهذا المقدّس استهدفه الأُمويّون بكل ما أُوتوا من قوّة وطاقة، وقتلوا أشياء كثيرة من الأخلاق الكريمة التي كان العرب يشعرون بالعار منها، فالعربي مثلاً كان إذا شتمته امرأة أو قاتلته فإنه يستحي أن يردّ عليها أو يقاتلها؛ لأن قتل المرأة يشكّل عاراً في حضارة العرب وكذلك ضربها. أمّا الأُمويّون فقد ضربوا النساء وقتلوا الأطفال. وحتى في الأحكام الإسلاميّة عندنا فإن المرأة في حالات معيّنة تحبس حبساً مؤبّداً، غير أن الإسلام أعفاها (في حالات معيّنة من الفقه الجنائي) من القتل، فالرجل يُقتل بها أمّا المرأة فلا تُقتل به[٢].

فالأُمويون قد استهدفوا حرمة العترة وحرم رسول الله ﷺ، فقد قتلوا الرجال وانتهت المعركة، فلماذا أحرقوا الخيم علىٰ طفل ذي سنتين أو أربع سنين؟ فهل هذه قيم إسلاميّة، أو حتى عربية[٣]؟ إن هذه التصرّفات تنمّ عن حقد، ودافعها الأول هو إزالة مكانة العترة وحبّهم من النفوس.

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣،٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤.

(٢) لم ينقل من طرقنا إلّا عن ابن الجنيد وفاقاً لأهل السنّة، كما في جواهر الكلام ٤٢: ١٧٠. وكذلك لا تقتل المرأة ولو ارتدّت كما في الخلاف ٥: ٣٥١ /المسألة: ١، المجموع شرح المهذّب ١٩: ٢٢٨، ولا عند الحرب إلّا إذا شهرت السلاح وقاتلت كما في مواهب الجليل ٤: ٥٤٣.

(٣) وقد قال لهم الإمام الحسين عليه السلام: «إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون». اللهوف في قتلى الطفوف: ٧١.

المقدّس الرابع: المدينة المنوّرة

ومن المقدّسات التي استهدفها الأُمويّون المدينة المنورة، والأُمـويّون لهم موقف سلبي خاصّ من مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك يعود لسببين:

السبب الأول: أنها تحمل شعار: لا لخلافة الأُمويّين

فلا تجد لبنة من جدران المدينة إلّا وتحمل شعار رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن الخلافة محرّمة على ولد أبي سفيان**»[1]، فالمدينة كلّها سمعت صوت النبي صلى الله عليه وآله علىٰ المنبر حينما كان واجماً، فقال له أصحابه: يارسول الله مابالك؟ قال: «**رأيت بني أُمـيّة يـنزون عـلىٰ مـنبري نـزو القـردة يـردّون النـاس عـن الديـن القهقرىٰ**»[2].

وقد رأىٰ النبي صلى الله عليه وآله ذات يوم أبا سفيان راكباً ومـعاوية يـقوده ويـزيد يسوقه، فقال صلى الله عليه وآله: «**لعن الله السائق والراكب والقائد**»[3].

فكل هذه الشعارات سمعها أهل المدينة، وكانت تعجّ بها جدرانها.

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢١٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٢، ٣٢٦، حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) جامع البيان: المجلّد ٩ ج ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨. فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُميّة ألف شهر.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُميّة.

وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غـرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

(٣) المعجم الكبير ٣: ٧٣، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١٩١، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٥.

السبب الثاني: أنها معقل أنصار رسول الله ﷺ

فالمدينة معقل الأنصار الذين يعبّر رسول الله ﷺ عنهم بقوله: «**إن الأنصار عيبتي وكرشي**»[١]، حيث إنه ﷺ كان يعتبرهم أهله؛ فقد وقفوا كلّهم إلى جانبه ﷺ إلّا واحداً من الأراذل وهو النعمان بن بشير، وكذلك كانوا إلىٰ جانب الإمام علي عليه السلام. ولذلك فإن المدينة المنوّرة كانت تحتضن كلّ من يقف بوجه الأُمويّين، وهي تحمل شعار الإسلام. فدخل في خلد هؤلاء أن المدينة أخذت الزعامة من مكّة، فقد كانوا لا يعرفون مسألة النبوّة، بل كل ما يهمهم هو السلطة، فحينما دخل النبي ﷺ في فتح مكّة قال لعمه العباس: «**احبس أبا سفيان في مضيق الوادي، ولتمرّ عليه كتائب المسلمين**». فلمّا رأىٰ الكتائب قال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فقال له: ويحك، ليس هو الملك وإنما هي النبوة[٢].

---

(١) بحار الأنوار ٣٨: ١٧٧، مسند أحمد ٣: ١٦٢، ٥٠٠، ٥: ٢٢٤.

(٢) تاريخ الطبري ٢: ٣٣٢، أُسد الغابة ٥: ٢١٦، البداية والنهاية ٤: ٣٣٢، تاريخ مدينة دمشق ٣: ٤٥. ويروى أنه جاء به العبّاس بن عبد المطّلب إبّان فتح مكّة إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال له: «ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلّا الله؟». فقال: بأبي أنت وأُمّي، ما أحلمك وأكرمك! لقد علمت أنه لو كان معه غيره، لأغنىٰ عنّا شيئاً يوم بدر. فقال ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟». فقال: بأبي أنت وأُمي، ما أحلمك وأكرمك! أما هذه، ففي النفس منها شيء. فقال له العبّاس: ويحك أسلم قبل أن تُضرب عنقُك. فأظهر الإسلام حينئذ؛ حقناً لدمه، فقبل النبي ﷺ منه ذلك.

ولمّا دخل النبي ﷺ مكّة، خرج علىٰ أبي سفيان وهو في المسجد الحرام، فلمّا نظر إليه أبو سفيان، قال في نفسه: ليت شعري، بأي شيء غلبني محمّد؟ فأقبل إليه رسول الله ﷺ، وضرب بيده بين كتفيه، وقال: «بالله غلبتك». بغية الباحث (ابن أبي أُسامة): ٢٨٤ / ٩٤٣.

وحينما رأىٰ الناس يطؤون عقب رسول الله ﷺ يوم الفتح، حسده، وقال في نفسه: لو

وهكذا فإن هؤلاء يظنّون أنه صراع علىٰ الملك، وأن النبيﷺ قد انتزع الملك لنفسه[١]:

لعبت هاشمُ بالملكِ فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزلْ[٢]

فالمدينة المنورة مقدّسة بما حملت من آثار الوحي، وبما تزعّمته من قيادة للجزيرة ولمجتمع المسلمين، وبما سمعته من قول الوحي والرسولﷺ فيهم. وكان أن استهدفها الأُمويون لهذين السببين، حتى وصلت الأُمور إلىٰ درجة مزرية، حيث أباحوها ثلاثة أيام، وهُتكت أعراض المسلمين؛ إذ أُبيحت لجنود أهل الشام، وكان الجندي يأخذ الطفل من صدر أُمه ويضرب به الجدار حتى ينتثر مخّه علىٰ الأرض، وتركوا الخيل تبول داخل القبر النبوي الشريف، وسالت الدماء التي سفكوها أنهاراً، ونهبت الأموال، ثم بعد ذلك يجلس مسرف بن عقبة ويقول: ايتوني بأهل المدينة يبايعوا علىٰ أنهم عبيد أقنان نتحكّم بدمائهم

عاودت الجمع لهذا الرجل. فجاءه النبيﷺ، فضرب بيده في صدره، وقال له: «إذن يخزيك الله». الإصابة ٢: ١٧٩ / ٤٠٤٦، البداية والنهاية ٤: ٣٤٨.

(١) روي أن أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أُميّة تداول الولدان الكرة، فو الله ما من جنّة ولا نار. وكان الزبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: اعزب. فقال: يا بني أهاهنا أحد. قال الزبير: نعم، والله لأكتمنّها عليك. شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥.

وروي أنه لما بويع لعثمان دخل رحله فدخل إليه بنو أُميّة حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بني أُميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة. فانتهره عثمان، وساءه بما قال، وأمر بإخراجه. شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) البيت لابن الزبعرى، وقد تمثّل به يزيد مرّتين كما سبق أن أشرنا. انظر: الأخبار الطوال: ٢٦٧، تاريخ الطبري ٨: ١٩٣، البداية والنهاية ٨: ٢٠٩، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٨.

وأموالهم وأعراضهم[١].

فهذه هي بصماتهم التي خلّفوها في المدينة التي هي موضع قداسة عند المسلمين، والمنطلق الذي بزغت منه الحضارة الإسلاميّة، وعلى التراب الذي وطئه رسول الله ﷺ. فالنعرة الجاهليّة لايروق لها ذلك التطوّر، فهذه ليست مسألة حقد شخصي، ولو كانت المسألة مسألة دم فإنه يكفيها أن آلتهم القمعيّة بسر بن أرطاة قتل ثلاثين ألفاً، وهذا ما ذكره المؤرّخون، كما في (تاريخ الطبري)[٢] و(الكامل) لابن الأثير[٣] و(مروج الذهب)[٤] للمسعودي، وذلك من المدن التي مرَّ بها حينما أرسله معاوية إلى المدينة واليمن. وقد سبىٰ الكثير من النساء المسلمات من همدان، فكنّ أوّل نساء يسبين في الإسلام، وبعد سبيهن أُقمن في الأسواق ليبعن[٥]. فالمسألة إذن كانت استهدافاً للإسلام.

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣٨١، مروج الذهب ٢: ٨٢، تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.
(٢) تاريخ الطبري ٤: ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٣) الكامل في التأريخ ٣: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.
(٤) مروج الذهب ٣: ٣١ ـ ٣٢.
(٥) الاستيعاب ١: ٢٤٣ / ١٧٥.

بناء الإنسان المسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَـقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾(١).

مباحث النص الشريف

المبحث الأوّل: خصائص السور المكية والمدنية

المعروف أن سور القرآن بعضها مكي، وهو مجموعة السور التي نزلت في مكّة المكرّمة، وبعضها الآخر مدني وهو مجموعة السور التي نـزلت في المدينة المنوّرة. وهناك آيات نزلت في الطريق إلىٰ هذين البلدين أو في أماكن قريبة منهما لكن تلحق إما بهذا أو بـهذا. ونسـبة المكـي إلىٰ القرآن (١٩: ٣٠) أي ما يوازي (٦٢/٧٪) تقريباً، ونسبة المدني (١١: ٣٠) أي ما يوازي (٣٦/٣٪)؛ والسبب في ذلك أن القرآن الذي نزل في مكّة إنما نزل لبناء الإنسان وتصحيح عقيدته وتخليصه من شوائب الشرك ورواسبه. وبناء الإنسان ليس بالأمر السهل أو الهيّن، بل هو من أصعب الأُمور، ويستغرق وقتاً طويلاً لكي يؤتي أُكله.

وعملية تربية هذا الإنسان يمكن تشبيهها بالأرض التي يراد زراعتها، فهي تستصلح بعدّة مراحل: قطع النباتات والأعشاب الضارّة، ثمّ حراثتها، ثمّ بزلها لو كانت مالحة، ثمّ تغذيتها بالسماد، وبعد ذلك تأتي مرحة بذر البذور، وتنميتها وسقيها حتىٰ تثمر. والإنسان كذلك لكن ـ كـما قـلنا ـ يحتاج إلى فترة أطول وعمليّة أعقد؛ لأن الإسلام بصدد قلع عقيدة راسخة

(١) المدّثّر: ١١ ـ ١٣.

عنده، ثمّ يزرع عقيدة جديدة محلّها، ثمّ يتعاهد هذه العقيدة حتىٰ تـنمو وتكبّر في نفسه. فبناء عمارة ضخمة قد لا يستغرق وقتاً، لكن بناء العقيدة يأخذ قروناً، وها نحن بعد أربعة عشر قرناً لايزال بعضنا يعمل بـعادات الجاهلية كرمي السن المقتلع تجاه الشمس، وغيره كثير. والإنسـان مـن حيث إنه أشرف الموجودات فإن بناءه يحتاج إلىٰ زمان طويل، وعـمل ضخم، ومعاناة، كي تثمر النتيجة المرجوّة من ذلك.

والإسلام نزل في الجزيرة التي يعتنق أهلها ميراثاً جاهليّاً متجذّراً في نفوسهم ليس من السهل إزالته، بل لابدّ لذلك مـن هـذه الفـترة الطـويلة والمقدار الضخم من التوجيه؛ كي يمكن وضـع العـقيدة الجـديدة مكـان السابقة.

المبحث الثاني: في سبب النزول

وبعد هذا البيان لننظر إلى الآيات الكريمة ولنرَ ما الذي تعالجه؟ ومـا هو سبب نزولها؟

أما سبب نزولها فإن الوليد بن المغيرة ـ وكان ثرياً ثراءً فـاحشاً، وله ثلاثة عشر ولداً، وكان أيضاً من جبابرة قريش وذا مكـانة كـبيرة عـند قومه، وكان يفتخر بأنه لا يوازيه أحد ـ دخل علىٰ رسول اللّه ﷺ فوجده يقرأ القرآن، والقرآن له إيقاع يأخذ بالألباب وله جذبات روحية رائـعة، والعرب يستذوقون الكلام الجميل ـ أي بتعبيرنا: سمّيعة ـ وينبهرون من الكلمة التي لها رنين وموسيقىٰ، وكان الوليد ذا حسّ أدبي، فسمعه يقرأ: ﴿حم * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾[1].

فخرج من عنده وهو يقول: «سمعت كلاماً لا هو من كلام الجن ولا

(١) غافر: ١ ـ ٢.

من كلام الإنس، أعلاه مورق وأسفله مغدق، وإن عليه حلاوة وإن فيه طلاوة». فقيل له: أتسميه شعراً؟ قال: لا، قيل: أفتسميه كهانة؟ قال: لا، فمحمد ليس شاعراً ولا كاهناً. قيل: فنقول: سحر؟ قال: أما هذا فنعم، لأن كلام هذا الرجل يفرّق بين المرء وزوجه، فما إن يسمعه سامع حتىٰ يتّبعه ويترك أهله وأبناءه وزوجه؛ فهذا التعبير به أنسب. فنزل النصّ الشريف[1].

المبحث الثالث: في صاحب الحال ﴿وَحِيداً﴾

تقول الآية الكريمة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾، وهذه الحال يمكن إعادتها علىٰ الخالق، ويمكن إعادتها علىٰ المخلوق. ويختلف المعنىٰ باختلاف صاحبها الذي تعاد عليه. وللمفسّرين هنا في تحديد صاحب الحال فرضان:

الفرض الأوّل: أنه الخالق جلّ وعلا

وعليه فإن المعنىٰ حينئذٍ سيكون: اتركني وحدي مع هذا المتباهي بأن له تجارة يسيطر بها علىٰ غيره، وأبناء يعزّ بهم ويدافعون عنه، وجاهاً ومكانة في قومه، ومالاً كثيراً يشتري به مايريد من أسلحة لمحاربة المسلمين، مع ما كان عليه المسلمون في أوّل أمرهم من كونهم ضعافاً لا يملكون شيئاً من وسائل التحرّك، فلا سلاح ولا مقاتلين.

ثم إن الطبقة التي انتمت إلىٰ الإسلام أوّل أمره هي طبقة الفقراء والكادحين والضعفاء، وهذا هو غالب شأن النهضات الإصلاحية؛ إذ أوّل من يتابعها وينتمي إليها هم هؤلاء، أما الأغنياء فليس هناك شيء يدفعهم لخوض أمثال هذه التجربة التي قد يدور في خلدهم أنها ربما تكون غير

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٦٥.

ناجحة وبالتالي سيخسرون أموالهم ومكانتهم وجاههم.

إذن هؤلاء ليس عندهم أي دافع للخروج مع الحركات الإصلاحية، أما الفقراء منهم فخلاف ذلك؛ لأنهم يحاولون ـ من خلال تدعيم هذه الحركات ـ تحسين مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وهذا ما يؤكده القرآن الكريم بقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾[1]، أي دعني معهم أُعاملهم بما يستحقّون؛ لأن أموالهم وجاههم ومكانتهم شغلتهم عن اللّه وعن اتّباع دينه.

فاللّه تعالىٰ يخاطب نبيّه صلى الله عليه وآله ويقول له: إنكم لا تستطيعون أن تقوموا بهذا الأمر لوحدكم وبأنفسكم؛ ولذا فاتركوا الأمر لي، فأنا سأقوم بمعالجة هذا الطريق وتعبيده وتهيئة سبله لكم. وهذا ـ كما هو معروف ـ شأن كلّ الشعوب المستضعفة؛ حيث إنها تجبر علىٰ تحمّل الظلم والتعدّي والاعتداء، وعناد الظالم إلىٰ أن تتسنّىٰ لها فرصة للتحرّك والأخذ بحقها. والتاريخ خير شاهد علىٰ ذلك[2].

وهذا ما حصل بالفعل من ناحية مبدئيّة؛ فقد أذلّ كبرياءهم وحطّم طاغوتهم، وإلّا فمن غير المعقول أن يكسب المسلمون معركة بدر، وهم أقلّ عدداً وعدّة؛ فكانوا يحملون الجريد وكان عندهم خمسة سيوف وفرَسان اثنتان، أما قريش فكانت مسلحة تسليحاً كاملاً بما عندها من ترسانة وأموال، فضلاً عن المقاتلين.

وهكذا تغلّب الجريد علىٰ السيوف. وأُلفت نظرك إلىٰ أن هذه الجريدة كانت يُصاحبها العزم والعقيدة، وإذا صحبها ذلك فإنها ستفعل في ساحة

---

(١) المزمل: ١١.

(٢) كما في الثورة الفرنسية والأمريكية وثورة الهند وثورات البلاد الإسلاميّة والعربية.

الحرب ما يعجز عن فعله أقوىٰ سلاح، بل إنها ستكون أشدّ فتكاً بـهذه الخصوصية. والجندي إذا سلّح بـالعقيدة فـإنه يـزوّد بأعـظم الأسـلحة، وسيحارب أعتىٰ قوّة، أما إذا كان منهزماً من الداخل فمهما أعطيته مـن سلاح فإنه لن يجدي معه نفعاً، ولن يستفيد منه أو يفيد به، ولن يفعل أي فعل عبر استعماله، يقول أحد الأُدباء:

أيـها المسـتعير ألف سـلاح لأعـاديك أيـن مـا تسـتعيرُ

هزّك الذعر لا الحديد ولا النـا ر وعبءٌ علىٰ المدىٰ المذعورُ

وهذا هو الذي يحصل بالفعل، فالإنسان إن لم يتسلّح بـالعقيدة التـي يجب أن يدافع عنها فلن يكسب النصر أبـداً. والمسـلمون إنـما صـنعوا انتصاراتهم، ووصلوا إلىٰ هذه الانجازات الضخمة من إسقاط أعتىٰ دولتين كبريين آنذاك بما كانوا يملكونه من عزائم، وما يسلَّحون به من عـقيدة تدفعهم إلىٰ اقتطاف النصر اقتطافاً. وهكذا كان أحدهم يحمل في نـفسه عزيمة جيش بأكمله.

وكلّنا يسمع أو يقرأ عن البعض ـ حينما يُراد وصف شـجاعته ـ بأنـه يعدل عشرة آلاف فارس، وهذا معناه أن عنده عزيمة جيش؛ فلا يخاف الموت ولا يخشىٰ الحرب، بل إنه يلقي بنفسه في لهواتـها. وأنـا أقـصد بالعزم هنا العزم الواعي لا العزم الأهوج واللاواعي.

فاللّه تعالىٰ حينما قال لرسوله الكريم ﷺ: ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً**﴾، فإنه تعالىٰ فعلاً عبّد الطريق للمسلمين عبر إذلال قريش وتحطيم كبريائهم وغطرستهم، وأعطاهم التأييد بالنصر من عنده[1]؛ لأنهم كانوا منقطعين إلىٰ

---

(١) قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِـنْ الْـمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُـمْ بِـخَمْسَةِ آلاَفٍ مِـنْ

اللّه عزّ وجلّ، ولم يلتجئوا إلىٰ قوّتهم وإمكانياتهم، وهو ما يعبّر عنه بقوله: «لا حول ولا قوة إلّا باللّه»، أما الآخر الذي يتجرّد من هذه الارتباطات فإنه يقول: لي حول ولي طول وقوة، وأنا أتصرّف من منطلق قوتي وإمكاناتي. ومثل هذا فإنه لن ينال النصر أبداً ولو علىٰ المدىٰ القصير.

وهذا كلّه مبتنٍ علىٰ كون ﴿وَحِيداً﴾ حالاً من الخالق تبارك وتعالىٰ.

الفرض الثاني: أنه المخلوق

وللمفسّرين في هذه المسألة أربعة آراء هي:

الرأي الأوّل: أن اللّه خلقه وليداً وحيداً

أي اتركني مع هذا الإنسان الذي يتكبّر ويتجبّر، وقد خلقته وليداً لوحده، لا حول له ولا قوّة.

الرأي الثاني: ادّعاؤه أنه أوحد أهل زمانه

ومعنىٰ هذا أن البعض من قريش كان يقول: إني وحيد بين قومي عزّاً وقوّة ومالاً ومنعة؛ فلا يدانيني في هذا الأُمور أحد، فأنا الوحيد من بينهم المتّصف بهذه الصفات. فيخاطب اللّه تعالىٰ هنا نبيّه الكريم بقوله: ﴿ذَرْنِي﴾ أي اتركني معه؛ لأن أمواله وقوّته ومنعته التي يتحدّث عنها سوف لن تنفعه حيال اللّه أبداً؛ فاللّه تعالىٰ قادر علىٰ أن يسلبه إياها في أيّة لحظة.

الرأي الثالث: أنه سيحشر وحيداً

الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٥.

وقال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ التوبة: ٢٦.

وهذا الرأي يتداخل مع الرأي الثاني ذلك أن هذا الإنسان المغترّ بالدنيا والمخدوع بماله وقوّته ليس له في حقيقة الأمر أي شيء من ماله، وكذلك المتعزّز والمتمنّع بأولاده؛ ذلك أن أولاده شأنهم وشأنه القبر، فإذا أوصلوه قبره وأهالوا عليه التراب رجعوا عنه. وهؤلاء الأولاد ربما ذكروه بشيء من البرّ والقرآن، أما البعض فربما لا يكتفي بنسيانه من فعل البرّ وقراءة القرآن، بل إنهم ربما أساؤوا إليه وهو ميت.

أمّا المال فلا يدخل معه إلىٰ قبره منه شيء سوىٰ الكفن: «**خذ مني كفنك، واتركني للوارث**»[١]. فهو سيترك كل ما كان يملك بالملكيّة الاعتبارية التخويلية وراءه للوارث، ولا يخرج من الدنيا إلّا بالكفن.

وكذلك المكانة الاجتماعيّة والمنصب والسلطة والجاه فإنه سيخلّفها وراءه، ولن يستفيد منها هناك بشيء إلّا إذا أحقّ حقّاً وأبطل باطلاً، وهو عمله الصالح. وكذلك أُسرته وجميع وسائل الكمال الأُخرىٰ التي كان يتزوّد بها، فإنه يخلّفها وراءه ويخرج من الدنيا لوحده. مرّ أحدهم علىٰ قصر النعمان، فأنشأ يقول:

ماذا أُؤمّل بعدَ آل محرّق ... تركوا منازلَهم وبعدَ أيادِ

أهلِ الخورنقِ والسديرِ وبارقٍ ... والقصرِ ذي الشرفاتِ من سندادِ[٢]

---

(١) الكافي ٣: ٢٣١ / ١، الفقيه ١: ١٣٧ / ٣٧٠، وليس فيه: «واتركني للوارث» بل تمامه: «فيلتفت إلى ولده فيقول: والله إني كنت لكم محبّاً، وإني كنت عليكم لمحامياً، فماذا عندكم؟ فيقولون: نؤديك إلى حفرتك، ونواريك فيها. فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إنك كنت علي لثقيلاً، وإني كنت فيك لزاهداً، فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم حشرك، حتى أُعرض أنا وأنت على ربك».

(٢) البيتان للأسود بن يعفر التميمي. كتاب التوّابين: ٤٤. تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ١١٠. ونسبا لأعشى قيس، انظر البداية والنهاية ٢: ٢٤٤.

فهؤلاء مع ما بنوا من عظيم الدور والقصور تركوها ولم يأخذوا منها شيئاً.. تركوها تعوي بها الريح، ويرتادها ابن آوىٰ ووحش الفلاة:

إن ذاك القصرَ الذي داعب الأفــ ـــقَ وخرّت له الملوكُ سجودا
هتف الورْقُ في ذراه ينادي أين من صيّروا الملوكَ عبيدا

فالذي نستفيده من سنّة التاريخ هذه أن الكوخ الذي يُعمر بطاعة اللّه هو الذي يبقىٰ خالداً مع الدهر. فحينما دفن الإمام الحسين عليه السلام وضعوا علىٰ قبره الشريف صخرة وسدرة ليهتدي بها زوّاره إليه، وحتىٰ هذه السدرة اقتلعها المتوكّل ليموّه موقع القبر علىٰ زائريه بعد أن أعياه منعه إيّاهم عنه. وكذلك رفع تلك الصخرة عنه. والآن انظر إلىٰ تلك القصور الضخمة التي شيّدت آنذاك كالجوسق والجعفري، وانظر إلىٰ ضريح الحسين عليه السلام، وإلى المدافع والمعارك التي حاولت هدمه، فهل استطاعت ذلك؟ طبعاً لا، وحتىٰ لو تمكّنت من ذلك فإنها كمن لم يفعل شيئاً[1]؛ لأن الإمام الحسين عليه السلام يعيش بين الأضالع، وفي القلوب والمشاعر. وهذا هو الخلود الحقيقي الذي هو عبارة عن أخذ المخلّد مكاناً من المشاعر والوعي. وقد ناجاه عليه السلام أحد الشعراء بقوله:

تسامرني والكائناتُ هجوعُ لدنياك في قلبِ الظلامِ شموعُ
سهرت عليها الليلَ استلهم الرؤىٰ فألهمَني ممّا وهبت نجيعُ

---

(١) قال الأعشى:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقَها فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

ديوان الأعشى: ١٤٤.

نجيعٌ مشىٰ عبر القرونِ بخصبِه فلا دهرَ إلّا من حباه ربيعُ

وفعلاً كان الإمام الحسين عليه السلام هكذا.

الرأي الرابع: أنه لا أب شرعيّ له

لقد كانت العرب تسمي المتكوّن من ماء حرام، أو اختلطت فيه المياه وحيداً. وهكذا مذكور في أغلب التفاسير كتفسير القرطبي[1] والفخر الرازي[2] و(روح المعاني) للآلوسي ومن تفاسير الشيعة (مجمع البيان)[3] للطبرسي وغيره[4]، فكلّ هؤلاء وغيرهم يذكرون هذه النظرية في تفسير ﴿وَحِيداً﴾.

وإنما كانت العرب تسميه كذلك لأنه لا يندمج مع المجتمع الإنساني عن طريق الآباء الشرعيين، خلاف المتولّد عن طريق شرعي؛ فإنه يندمج بالإنسانية عبر سلسلة آبائه وأجداده وصولاً إلىٰ جدّنا آدم عليه السلام.

وقد يعبّر عنه بلفظ (ابن أبيه). وفي التعبير مشكلة لمن يطلقه إزاء من يطلقه بحقّه، وقد تعرّضت له أُم المؤمنين عائشة ذات يوم؛ إذ كان زياد قد كتب رسالة إليها، فلمّا أرادت أن تردّ له الجواب تحيّرت في الذي ستكتبه له؛ هل تكتب: زياد بن أبي سفيان وهذا كذب؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله يقول: «الولد للفراش»[5]، أم: زياد بن أبيه (كما هو المعروف) وهذا يترك أثراً في نفسه وخاطره ويغضبه؟ وبعد تفكير كتبت: من أُم المؤمنين عائشة إلىٰ ولدها

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٧١.
(٢) التفسير الكبير ٣٠: ١٧٥.
(٣) مجمع البيان ١٠: ١٧٩.
(٤) تفسير القمي ٢: ٣٩٤.
(٥) الكافي ٥: ٤٩١ / ٢، ٤٩٢ / ٣، ٧: ١٦٣ / ١ - ٢، مسند أحمد ١: ٢٥، ٥٩، ٦٥، ٦٩، وغيرها كثير.

زياد. فلمّا وصلت الرسالة إليه تبسّم، فسأله أحد جلسائه قائلاً: أراك تبسّمت؟ فقال: لقد لقيت أُمّ المؤمنين عائشة من هذا العنوان نصباً[١].

والذي نفهمه من هذا التعبير القرآني علىٰ ضوء هذا التفسير أن الأُسرة هي التركيب السليم الذي يساوق الفطرة في بناء المجتمع.

معنىٰ ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾

والبحث هنا يتمحور حول ركيزتين:

الركيزة الأُولى: المراد من المال

المال لغة مأخوذ من التموّل، وهو الاقتناء[٢]، فالمال هو كل ما يُتموّل به، أي ما يقتنىٰ به ويشترىٰ. ويقال في التعبير الاقتصادي عن المال: إنه كلّ ما فيه إشباع.

أقسام المال

والإشباع تارة يكون إشباعاً مباشراً (إشباع رغبة مباشرة)، وتارة يكون إشباعاً غير مباشر (إشباع رغبة غير مباشرة). فكل ما فيه إشباع رغبة مباشرة أو غير مباشرة يسمى عند الاقتصاديين مالاً. وبناء على هذا فإن المال على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يشبع إشباعاً مباشراً

وهو ما فيه إشباع رغبة مباشرة، كالخبز مثلاً والثوب والدار التي تسدّ حاجات مباشرة للإنسان. فهو حينما يجوع فإنه يسدّ جوعه بالرغيف،

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٤، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ١٧٧.

(٢) لسان العرب ١١: ٦٣٥ ـ مول.

وحين يعرى يعالج عريه بلبس الثوب، وحين يفتقر إلى المأوى يشبع هذه الرغبة باقتناء دار والسكن فيها.

القسم الثاني: ما يشبع إشباعاً غير مباشر

أمّا ما فيه إشباع رغبة غير مباشرة فمثل ما لو أراد أحد أن يتعلّم كيف يستعمل الماكنة التي تصنع النسيج، أو التي تطحن الحبوب. فهذا مال أيضاً لكنه يشبع من ناحية غير مباشرة. وهكذا وسائل الإنتاج الأُخرىٰ.

القسم الثالث: العمل

ذلك أن العمل يتموّل به. وقد يسأل سائل: كيف يُتموّل بالعمل؟ فيقال في جوابه: إن صاحب العمل أو الصنعة لا يستحقّ الزكاة وإن لم يملك المال؛ لأن ما بيده من صنعة أو مهنة تدرّ عليه المال بالتدريج، فهو يأخذ آخر النهار أو آخر الأُسبوع وارد عمله ذاك ليعيل به نفسه. فهي إذن بمثابة المال؛ كونها توفّر له هذا السبيل في العيش.

وهذا هو الذي يطلق عليه الفقهاء اسم غني بالقوّة؛ كونه يملك المهارة والقابليّة على العمل، كالمهندس الذي يملك نظريّات معيّنة فيقوم بتطبيقها في مجال عمله، أو العامل الذي يملك خبرة فنيّة في مجال عمله أو غيرهما. فهؤلاء يملكون المال عن هذا الطريق. وهو ما يقابل الغني بالفعل، وهو الذي يملك المال فعلاً.

إذن فكلّ ما فيه إشباع مباشر؛ كالخبز والثوب، أو إشباع غير مباشر كالماكنة، أو تكون نتيجته كسب المال كالعمل فهو يسمى مالاً. أمّا النقد فهو ثمن للمال وليس المال نفسه، أي أنه وسيط في عملية التبادل. ونفهم من هذا أن العمل قسم من أقسام المال.

موارد الثروة غير المشروعة

وأُلفت نظرك إلىٰ حقيقة معتمدة في الاقتصاد الإسلامي، وهي أن كل ثروة لا تأتي من العمل فهي ثروة غير مشروعة إلّا أن تكون عن طريق أقرّها الشارع المقدس كالهبة والميراث، وغيرهما. أما أن يكسب أحد ثروته عن طريق السرقة أو السلب والنهب، وهو المسمىٰ بعرف البعض (البلطجي)، فهذا محرم قطعاً، وصاحبه مهما كسب من مال، ومهما تكدّست عنده من ثروة فهو في الحقيقة لا يملكها ولا تعدّ ثروة بالنسبة له؛ لأنها جاءت عن طريق غير مشروع؛ فهو لص. وكذلك من يأخذ ثروته عن طريق الغش والخداع والادّعاء بغير حق.

وهناك الكثير من ألوان التحصيل القذرة، والأساليب غير النظيفة، لكن الإسلام لا ينظر إليها علىٰ أنها ملكيّة وماليّة داخلتان في نطاق الكسب المشروع. فالإسلام يعدّ المالية المشروعة ما يكسبه الإنسان من كدّه وعرقه وتعبه، ويعدّ هذاالمقدار الضئيل المكتسب عن طريق عرق الجبين أفضل من قناطير مقنطرة من الذهب لم تكسب عن حلّ.

فتعب الإنسان مقدّس من وجهة نظر الإسلام، ومبارك فيه؛ لأن اللّه يبارك الكسب الطيب والعمل المشروع ويحبّ العبد المحترف[1]، فما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده[2].

أي أن تتعب وتعرق وتأكل من نتاج ذلك التعب والعرق؛ فهذا الطعام هو أفضل ما أكله ابن آدم، لا ما يأكله عن طريق الغش والرشاوى والربا؛ وهي جملة أُمور حرّمها الإسلام؛ لأنها لم تكن عن عمل، فضلاً عن كونها

---

(١) الخصال: ٦٢١، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

امتصاصاً لدم الآخرين وتعيّشاً علىٰ كدّهم ومتاجرة بمجهودهم.

فكل هذه الموارد لا تعدّ مصادر شرعية للثروة في نظر المشرّع الإسلامي، وما يكتسب عن طريقها يعد مالاً حراماً لا يملكه مكتسبه، ولا تصحّ تصرّفاته فيه.

الركيزة الثانية: معنىٰ المال الممدود

نرجع لموضوعنا، فنقول: ما معنىٰ الممدود في قوله تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً**﴾؟ إن بعض الناس فيما سبق كان يملك جواري عبيداً وخدماً، فهو يقوم بتشغيل هؤلاء في أمواله وأملاكه، ويقوم بتوظيف أمواله عبرهم. وبعض هؤلاء كان ـ والعياذ باللّه ـ يدفع جواريه للعمل في الفجور والعهر والرذيلة ليكسب المال من عملهن هذا، كما هو الحال مع عبد اللّه بن أُبيّ الذي كان يجبر جواريه علىٰ البغاء في سبيل المال[1]. وممّا يذكر في هذا المجال أن أحدهم دخل علىٰ النبي ﷺ فقال له: يا رسول اللّه، إن فلاناً قد توفي وترك أيتاماً وجارية جميلة، أفندفعها لأن تعمل في البغاء لتعولهم؟ فعنّفه النبي ﷺ أشدّ تعنيف، وردّه بأنه لم يجد طريقاً لإعالتهم غير طريق الرذيلة؟ ثمّ قال له: «اخرج»[2].

وقد يستغرب البعض من هذا، مع أننا الآن نشاهد مثل هذا الأمر لكن

---

(١) فقد كان له ستّ جوارٍ يدفعهن لتلك الرذيلة، وبعد تحريم الزنا جئن إلى رسول اللهﷺ فشكون عبد الله إليه، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النور: ٣٣. انظر: مجمع البيان ٧: ٢٤٦، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٢٥٤.

(٢) لم نعثر عليه بنصّه، لكن وردت أحاديث كثيرة تحرّم كسب البغي، انظر: أمالي المرتضى ٢: ٧، فتح الباري ٤: ٣٥٤، وغيرهما.

بثوب آخر غير الثوب الذي كان عليه أيام الأُول، أمثال الدعايات التي يروَّج بها للبضائع حيث توضع صور فتيات عاريات عليها كي يسهل تسويقها وبيعها. فأين كرامة الإنسان؟ وأين مراقبة اللّه في هذه الدنيا؟ ألسنا نحن العرب أصحاب مجد نتغنّىٰ به عن الستر والنجابة[1]؟

فهذه الألوان التي يقوم البعض عبرها بابتزاز المال تهدر كرامة المرأة، مع أن هذه الأموال التي تكتسب بهذا الطريق لا قيمة لها أمام كرامة المرأة وعفّتها. فهذه المرأة ربما كانت محتاجة ومضطرّة للعمل لإعالة نفسها أو عائلتها، فلماذا يقوم المجتمع باستغلالها أبشع استغلال، مع أن المفروض بكل فرد متمكن في هذا المجتمع أن يوفّر لهذه المرأة حاجاتها ومستلزمات حياتها الأولية كما يوفّر ذلك لأهله وعياله؛ فإنه حتماً فيه من يستطيع توفير ذلك دون أن يسبّب له العنت والمشقّة.

علىٰ أي حال فإن المال يمكن أن يقسم إلىٰ قسمين: ممدود كذاك الذي ذكرته الآية الكريمة، ومنقطع، أي له مورد معين في السنة أو في الشهر.

والمعنيّ في هذه الآية الكريمة كان عنده خدم وجوارٍ يشغّلهم في أمواله، وكذلك كانت أمواله تزداد بفعل تجارتيالشتاء والصيف؛ ولذا اسمته ذا مالٍ ممدود ـ أي غير منقطع كما هو حال الغالبية التي تملك وارداً موسمياً فيبقون يعيشون عليه طيلة أيام السنة ـ أما ذو المال

---

(١) قال مسكين الدارمي:

ما ضرّ جاراً لي أُجاوره ... ألّا يكون لبابه سترُ

أعمىٰ إذا ما جارتي خرجت ... حتىٰ يواري جارتي الخدرُ

شرح نهج البلاغة ١٧: ١٠.

الممدود فتجارته عامرة مستمرّة علىٰ أيام السنّة وفي كل المواسم بلا انقطاع ولا حدّ لها.

فالآية الكريمة تقرّر أن هذا قد أطغته أمواله، فهو يعيش في مجتمعه حالة من حالات الطغيان؛ ولذا فإنها تخاطب الرسول الأكرمﷺ وتقول له: اترك أمره إلىٰ اللّه تعالىٰ؛ فإنه هو الذي سيقتصّ منه ويذلّه. كما أنها تؤكد حقيقة أن ماله ليس ملكاً له حقيقة أي أنه سيتركه لغيره ذات يوم ويلاقي ربّه وحيداً لا ناصر له ولا ردء، أما الأموال فسيأخذها غيره شاء أم أبىٰ.

ثمّ إن هذا الآخذ قد لا يذكره منها بخير أبداً، فلن يفكّر أو يقول: إن هذا قد تعب وأكدىٰ في جمعها وتنميتها؛ بل كل ما يهمّه هو الاستيلاء عليها والتمتّع بها دون أن يصل منها إلىٰ مورِّثه شيء من الخير أو الثواب.

وليُعلم بأن الإنسان لا تنقطع علاقته بالدنيا بمجرّد موته، بل إنها تظلّ قائمة، وتظلّ روحه ترفرف علىٰ أهله تنظر إليهم وتنتظر منهم أن يذكروها بخير يخفّف عنها عذاب القبر، وهول المحشر والحساب بعد ذلك[1]. فالميت يرمق الأحياء بطرفه يرجو نوالهم وذكرهم إياه. فيجب علىٰ المسلم ألّا ينسىٰ ذويه وموتاه، خصوصاً أبويه؛ إذ أن من موارد البرّ لهما ذكرهما بعد موتها بالقرآن والدعاء والصدقة.

---

(١) سئل أبو الحسن الأوّل عليه السلام عن الميت: يزور أهله؟ قال: «نعم». فقيل له: في كم يزور؟ قال: «في الجمعة وفي الشهر وفي السنة على قدر منزلته». فقيل له: في أي صورة يأتيهم؟ قال عليه السلام: «في صورة طائر لطيف يسقط على جدرهم ويشرف عليهم؛ فإن رآهم بخير فرح، وإن رآهم بشرّ وحاجة حزن واغتمّ». الكافي ٣: ٢٣٠ / ٣.

ثلاثة لا يدخلون الجنة

يقول الرسول الأكرمﷺ: «خلق اللّه الجنة، والجنة تراح من خمسمئة عام، وثلاثة لا يشمّون ريحها: المنّان بعطائه، ومدمن الخمر، وعاقّ والديه»[1].

ومعنىٰ «تراح» أي يشّم ريحها. فالجنة لطيبها وطيب طعامها تشمّ رائحتها علىٰ بعد خمسمئة عام.

١ ـ المنّان بعطائه

أما المنّان بعطائه فهو الذي يُحسن إلى غيره بأمر، أو يتصدّق عليه بصدقة ثمّ يبدأ بتذكيره به كل حين وكلما سنحت له الفرصة بذلك. وقد يذكّره بذلك بأُسلوب يجعله يشعر بالذلّة والانكسار والألم. فالحديث الشريف يخاطب هذا فيقول له: إنك مادمت قد فعلت جميلاً فاترك الجميل للجميل، ولا تشوّه ذلك الجميل بهذا الصفة الذميمة؛ فإن من المروءة أو من المجد والكرم أن الإنسان حينما يعطي فينبغي عليه ألّا يمن علىٰ من أعطاه وأنعم عليه من الناس الضعفاء بهذا العطاء؛ كيلا يحرق حسناته بسيئات هذا العمل.

فهذا المنّان لا يشم ريح الجنة كما يقول أصدق القائلين (صلوات اللّه عليه وعلىٰ آله أجمعين).

٢ ـ مدمن الخمر

أما مدمن الخمر، فكذلك لا يشمّها. والمدمن هو الذي لا يفارق الخمرة

(١) المعجم الصغير ١: ١٤٥، الجامع الصغير ١: ٥٤٨ / ٣٥٤٢، كنز العمّال ١٦: ٥٣ / ٤٣٩٠٣.

ولا تفارقه، بل تلازمه حتىٰ ساعة الموت وربما مات وهو سكران فاقد العقل. دخل شخص علىٰ النبي صلى الله عليه وآله وقال له: يا رسول اللّه إني أتيتك وأنا عارف بمحاسن الإسلام، وأنا أُريد أن أُسلم، لكن علىٰ أن تعطيني شيئاً واحداً. فرحب به النبي صلى الله عليه وآله ثمّ قال له: «**ما تريد؟**». قال: أريد أن تعطيني رخصة في أن أشرب الخمر إلىٰ سنة. فرفض الرسول صلى الله عليه وآله ذلك، وطالبه بتركها من ساعته تلك إن هو أسلم[1]؛ لأن اللّه حرّمها؛ فهي «**أُم الخبائث**»[2].

ومعنىٰ «**أُم الخبائث**» أنها أُم المصائب والمكاره والآفات كلّها. وكلنا قد رأىٰ شارب خمر وهو يترنّح من سكره وكأنه ريشة في مهب الريح، لا يعي من أمره شيئاً، وقد يفعل أي شيء ويرتكب أي حرام لأنه لا يعي من أمره. شيئاً. وقد نظم أحد الأُدباء في هذا الباب أبياتاً يقول فيها:

---

(١) قريب منها ما روي عن أعشىٰ قيس من أنه نظم قصيدة يمدح فيها الرسول صلى الله عليه وآله، وهاجر إليه لينشدها بين يديه، وكان مطلعها:

ألم تغتمضْ عيناك ليلةَ أرمدا وعادك ما عاد السليمَ المسهّدا

فقالت قريش: هذا صنّاجة العرب، وما مدح أحداً إلّا رفعه. فرصدته علىٰ طريقه، فلمّا مرّ بهم قالوا: أين تريد؟ قال: أردت صاحبكم لأتّبعه. فقال له أبو سفيان: إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك. إلى أن قال: يحرم عليك الخمر. قال: أوّه أرجع إلىٰ صبابة بقيت في المراس فأشربها. قال أبو سفيان: فهل لك في شيء هو خير مما هممت به؟ قال: وما هو؟ فقال: نحن وهو الآن في هدنة، فتأخذ مئة من الإبل وترجع إلىٰ بلدك سنتك هذه حتىٰ تنظر ما يصير إليه أمرنا؛ فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً، وإن ظهر علينا أتيته. فقال الأعشىٰ: ما أكره ذلك.

فجمعوا له مئة من الإبل، فأخذها وانطلق إلىٰ بلده منفوحة، فلمّا وصلها رماه بعيره، فمات.

بحار الأنوار ٨٩: ١٣٢، قصص العرب ٢: ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) المجازات النبويّة: ٢٤٢، ٢٤٣ / ١٩٦، كتاب ذمّ المسكر: ٥٠.

محمّد حرّم شر الطّلا	صلّوا عليه وعلىٰ آلهِ
أذهب إلىٰ الحانةِ تؤمن به	إن كنت لم تؤمن بأقوالهِ
فكم ترىٰ بالحان من شارب	يحرّم الخمر بأفعالهِ

فحينما ترَ السكير وما يفعله بنفسه ممّا تشمئز منه النفس الأبية كأن يتمرّغ في الوحل أو يعبّ الماء الآسن القذر، تعرفْ لماذا حرّمها اللّه تعالىٰ. فهذا المدمن الذي لا يفارق الخمرة ولا تفارقه لا يدخل الجنة؛ لأن جوهرة الإنسان عقله، فإذا شرب الخمرة فقد هذه الجوهرة، ومن يفقد عقله لا يغب عن الجميع أمره، وما يمكن أن يفعله بنفسه أو بغيره. فهل من الصحيح أن يعمد الإنسان العاقل إلىٰ جوهرته فيضيّعها وينزفها بهذه السهولة؟ هذه الجوهرة التي يثيب اللّه بها ويعاقب[1] أي أنها ملاك الثواب والعقاب عند الإنسان، والإنسان إذا ضيّعها أصبح أكثر قرفاً من الجيفة.

٣ ـ العاقّ والديه

أما العاقّ والديه؛ فلأن طاعة الوالدين واجب عيني، وهو واجب مقدّس علىٰ الابن ـ والواجب العيني يقدّم علىٰ الواجب الكفائي إذا تعارضا[2]، كما في حالة الجهاد، حيث إن المجاهد إذا تعارض جهاده مع برّه بوالديه، وكان الجهاد له من يقوم به فإنه برّه بوالديه يقدّم هنا ويسقط

---

(١) ورد في الحديث الشريف عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أُكملك إلّا فيمن أُحب. أما إني إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أُعاقب وإيّاك أُثيب». المحاسن ١: ١٩٢ / ٦، الكافي ١: ١٠ / ١.

(٢) منتهىٰ المطلب ٢: ٩٠١ (حجري).

الجهاد عنه. روى ابن عباس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، أُريد أن أُجاهد معك. فقال صلى الله عليه وآله: «**ألك أبوان؟**». قال: نعم. قال صلى الله عليه وآله: «**ففيها جاهد**»[١].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً من اليمن هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «**هل لك أهل باليمن؟**». قال: نعم، أبواي. قال صلى الله عليه وآله: «**هل أذنا لك؟**». قال: لا. قال صلى الله عليه وآله: «**فارجع فاستاذنهما؛ فإن أذنا لك فجاهد، وإلّا فبرّهما**».[٢]

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله يبايعه على الهجرة فقال: إني جئت أُبايعك على الهجرة، وتركت أبويّ يبكيان. فقال صلى الله عليه وآله «**ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**»[٣].

فالأب ينتظر من ولده أن يحمله إذا كبر، وينتظر أن يجد كتفه موطئاً ليده يتوكّأ عليه حال عجزه. وكذلك الأم التي أعطت ابنها خلاصة جسدها وروحها، والتي حملته وتألّمت بسببه ألماً يصل إلىٰ درجة أنه يسلبها النوم والراحة، ثمّ بعد ذلك ساعات الولادة التي تشرف فيها علىٰ الموت، ثمّ بعدها سنوات التربية التي تمرّ عليها وهي تسهر الليل تهزّ مهده وتناغيه هي كذلك تنتظر من ولدها ما ينتظره أبوه منه. فهل يستطيع الإنسان أن يكافئها علىٰ ما فعلته معها؟

ولذا فإن الرسول صلى الله عليه وآله يأمر هذا الرجل بأن يرجع لأبويه كي يؤدّي حقّهما، ويدخل البشر في نفوسهما. يقول صلى الله عليه وآله: «**ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟**».

---

(١) المصدر نفسه. (٢) المصدر نفسه.

(٣) الأدب المفرد: ١٤ / ١٣، المستدرك ٤: ١٥٣.

قالوا: بلىٰ يا رسول اللّه. قالﷺ: «الشرك باللّه، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرّم اللّه إلّا بالحقّ»[١].

فهوﷺ جعل منزلة عقوق الوالدين بعد الشرك باللّه مرتبة؛ لأن عقوقهما يجعل الحياة في عينيهما سوداء مظلمة؛ ذلك أن الابن أقرب الناس والنفوس إلىٰ أبيه، فإذا انتهىٰ به الأمر إلى أن يعقّ والديه فممّا لا شكّ فيه أنه سيكون بعيداً عن رحمة اللّه تعالىٰ؛ لثقل وقع ذلك على نفسيهما.

اتّخاذ الكافرين وليجة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾[٢].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في سبب نزول الآية الكريمة

روي أن السبب في نزول هذه الآية الكريمة هو حاطب بن أبي بلتعة؛ وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام أتت رسول اللهﷺ من مكّة إلى المدينة بعد بدر بسنتين، فقال لها رسول اللّهﷺ: «أمسلمة جئت؟». قالت : لا. قال: «أمهاجرة جئت؟». قالت: لا. قال: «فما جاء بك؟». قالت: كنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد ذهب مواليَّ، واحتجت

(١) مسند أحمد ٥: ٣٦، صحيح البخاري ٨: ٤٩، وقريب منه في الكافي ٢: ٢٧٨ / ٤.
(٢) الممتحنة: ١.

حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني. فقال لهاﷺ: «فأين أنت من شبّان مكّة؟». وكانت مغنية ونائحة، فقالت: ما طُلب مني ذلك بعد وقعة بدر.

فحثّ رسول اللهﷺ بما عهد منه من عطف ورقّة بني عبد المطلب عليها، فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة.

وكان رسول اللهﷺ يتجهّز لفتح مكة، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاها عشرة دنانير، وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكّة، وكتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم.

وخرجت سارة، فنزل جبرائيل عليه السلام، فأخبر النبيﷺ بما فعل حاطب، فبعث رسول اللهﷺ لها من يأتي بالكتاب منها، فأخبرتهم بأن لا كتاب معها، وحلفت على ذلك. فعادوا إلى النبيﷺ فأخبروه أن ليس معها كتاب، وأنها قد حلفت على ذلك، فأرسل إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وعماراً والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وعمر والزبير وطلحة، وكانوا كلّهم فرساناً، وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[1]، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها».

وكانت الظعينة تطلق على القافلة والمرأة، فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول اللهﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت

---

(١) خاخ: موضع بين الحرمين، ويقال له روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد من المدينة. وذكر في أحماء المدينة، والأحماء: جمع حمي، وهي التي حماها النبيﷺ والخلفاء بعده. معجم البلدان ٢: ٣٣٥ ـ خاخ.

بالله ما معها من كتاب، فنحّوها وفتشوا متاعها، فلم يجدوا معها كـتاباً، فهمّوا بالرجوع، فقال الإمام علي عليه السلام: «والله ما كَـذبنا، ولا كُـذبنا». وسـلّ سيفه وقال لها: «أخرجي الكتاب وإلّا والله لأضربن عنقك». فلما رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها، وكانت قد خبّأته في شعرها. فرجعوا بـالكتاب إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

فأرسل صلى الله عليه وآله إلى حاطب فأتاه، فقال له: «هل تعرف الكتاب؟». قال: نعم. قال: «فما حملك على ما صنعت؟». قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت لك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلّا وله بمكّة من يمنعه، وهم عشيرته، وكـنت عريراً فيهم ـ أي غريباً[1] ـ وكان أهلي بين ظـهرانـيهم، فـخشيت عـلى أهلي، فأردت أن أتّخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسـه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدّقه رسول الله صلى الله عليه وآله وعذره[2].

وكانت قريش قد أرسلت سارة تتجسّس لها أخبار المسلمين؛ لأنهم أرهصوا أن الرسول صلى الله عليه وآله سيغزوهم بجملة من الحوادث التي فعلوها خرقاً لاتفاقهم مع الرسول صلى الله عليه وآله. وقد حدسوا بأن سيكون علىٰ إثرها نـوع مـن التحرّك، ومن هذه الحوادث أنهم دخلوا علىٰ خزاعة وهم يـصلّون فـي الليل فقتلوهم وبقروا بطون نسائهم وعملوا أعمالاً مروعة معهم، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وآله، فكانوا يتوقّعون حصول أمر مـا منه صلى الله عليه وآله، فأرسلوا من قبلهم جماعة للتجسّس، ومن هذه الجـماعة هـذه

---

(١) لسان العرب ٢: ٧٤٤ ـ عرر.

(٢) مجمع البيان ٩: ٤٤٥، الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٥٠.

المرأة.

المبحث الثاني: حول خطاب اللّه حاطباً بصفة الإيمان

وبعد هذا البيان لنرجع إلىٰ الآية الكريمة، فهي تقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، وهنا يتساءل المفسرون فيقولون: كيف يخاطب اللّه تعالىٰ حاطباً بلفظة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، مع أن المفروض ألّا يُخاطب بهذه الصورة؛ لأنه قام بعملية التجسّس ضدّ المسلمين لصالح المشركين؟ أي كيف يمكن أن يسمىٰ مؤمناً مع هذا؟

وأنا أعجب من بعض المفسّرين أن يقعوا في مثل هذه الأخطاء، ذلك أن الآية الكريمة لا تخاطب حاطباً وحده، بل هي تخاطب سائر المؤمنين بألّا يقعوا في مثل هذا الفخ، وتطلب منهم أن يستفيدوا من الحادثة، وإلّا فإن حاطباً جاسوس ولو في تلك الفعلة، والجاسوس لا يطلق عليه صفة مؤمن. وإن تنزلنا وقلنا: إنه جائز أن يسمىٰ بالمؤمن حسبما يذهب إليه بعض المفسرين، ولكنه لا يخرج عن كونه عاصياً حتماً.

العامل المشترك في هموم المسلمين

فالآية تخاطب المؤمنين بصورة عامّة وتقول لهم: احذروا أن تقعوا بمثل هذا الفخّ؛ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ**﴾، أي أن عدو اللّه هو عدوّكم وأن عدوّكم هو عدوّ اللّه.

وبتعبير آخر: إن مصلحتكم لا تنفكّ عن مصلحة دينكم وهذا ما يحصل فعلاً عند البعض قديماً وحديثاً؛ حيث يحاول أن يفكّك بين مصلحته ومصلحة دينه، فتراه يقول مثلاً: أنا أفعل هذا الشيء لظروفي

الخاصّة. وهذا غير صحيح حتماً؛ لأن الظروف الخاصّة لأي مسلم لا تنفكّ عن ظروف المسلمين، فهي بصورة عامّة متشابكة ومتلاحمة، فما يضرّهم يضرّك وما يضرّك يضرّهم أيضاً؛ لأنك جزء وعضو في جسم الأُمة، وفي الوقت نفسه فإن الأُمة غطاء لك(١).

إذن لا يوجد فرق بين مصلحتك ومصلحة المسلمين.

وهنا قد يسأل سائل فيقول: أين مصلحة المسلمين التي نتحدّث عنها أنها متشابكة، أو ليس المسلمون الآن يكفّر بعضهم بعضاً؟

وأقول: إن هذه الأصوات هي أصوات شاذّة، ولايمكن أن نعتبرها أصوات أُناس مسلمين؛ لأن صوت المسلم تهمّه مصلحة المسلمين ووحدتهم، وهذه الأصوات الشاذّة إذا كانت لا تزال موجودة في واقعنا؛ فلأنه لا يوجد عند المسلمين وعي كافٍ بخطورة وضعهم وحساسيته، وخطورة هؤلاء الناعقين مع كل ناعق، فإن حصل وتسلّحوا بالوعي الكافي فسوف تسكت هذه الأصوات والأبواق المشبوهة والمشحونة من قبل أعداء الإسلام جميعاً.

وهؤلاء هم مثل الجرثومة، لا يعيشون إلّا في المستنقعات، وإلّا فإن صوت المسلم في الواقع هو صوت المسلمين بصورة عامة؛ يحافظ علىٰ وحدتهم، ويدعو إلىٰ تكثيف وتفعيل دورهم وتقوية وتمكين وجودهم.

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مثل المؤمنين فيما بينهم كمثل البنيان يمسك بعضه بعضاً ويشدّ بعضه بعضاً»، عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٧. وقال صلى الله عليه وآله: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى». مسند أحمد ٤: ٢٧٠.

فالمسلم أخو المسلم حتىٰ لو خالفه في بعض الفروع، فواجب كلّ منهم تقييم عمل الآخر وبيان أخطائه له لأجل نصحه، لا لأجل فضحه والتشهير به والإساءة إليه. أما أن يقول له: أنت كافر، فهذا ممّا لا يجوز ما دام الآخر يحتفظ بالأُصول الإسلاميّة، أي أنه يقول: «**أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه**»، ولا ينكر ضرورة من ضروات الدين؛ وهذا المسلم.

فالمتسائل الذي يقول: أين هذه المصالح المتشابكة المشتركة؟ نجيبه بالقول: إنه ما من شكّ أن المسلم بما يحمل من عقيدة هو جزء من هذا الكيان الإسلامي ككل، وإذا كان جزءاً من هذا الكيان فيجب عليه أن يشعر بأن مصلحته هي مصلحة المسلمين، وأن ما يصيب المسلمين يصيبه.

المبحث الثالث: في تولّي أعداء اللّه

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، أي لا تظنّوا أن من يعادي دينكم هو ولي لكم.

وهنا يطرح سؤال نفسه: هل يجب أن نعادي غير المسلمين.

والجواب: طبعاً لا، لأن اللّه يأمرنا بالتعايش مع الجميع، ونحن الآن في عصر العولمة. فاللّه تبارك وتعالىٰ يأمرنا بالتعايش معهم لكن يحذّرنا منهم، ويأمرنا بألّا نقدّم مصلحة أُولئك علىٰ مصلحة المسلمين. فالمفروض أوّلاً أن نتّجه إلىٰ مصلحة إخواننا المسلمين، وبعد ذلك نتعامل مع الآخرين علىٰ أساس من التكافؤ؛ فهناك قواعد وحدود رسمها لنا الشارع المقدّس نتعامل علىٰ ضوئها مع المعاهَدين أو مع الكفار أو مع

أهل الذمّة. وقد تضمّنت كتب الفقه هذه الأحكام كاملة[١]، فالذي ينبغي إذن علىٰ المسلم أن يجعل مصلحة المسلمين نصب عينيه دائماً.

كيف نستعبر بقصّة حاطب؟

وتدلّ هذه الحادثة علىٰ أمرين:

الأمر الأوّل: استخدام المرأة كآلة ووسيلة للكسب

إن العناوين التي يخترعها هؤلاء غالباً ما تكون بؤراً خطرة، يجب أن نضع عليها ألف علامة استفهام. وهؤلاء يبرّرون فعلهم هذابأن لديهم مؤسسات فنية، لكن ماهي حقيقة مؤسساتهم الفنية هذه؟ هل هي أن تكشف المرأة عن مفاتن جسدها ومواضع الشهوة فيه كما هو دأب هذه المؤسسات التي تعمد إلىٰ ذلك، وتتجاوز كلّ حدود الحشمة والأدب، وتفعل ما يخدش الحياء؟ والغريب أنهم يقولون: إن هذا لون من ألوان التحضّر. فلنحذر من هذا؛ لأن العفن ينبع من هنا، فهذا المناخ ليس مناخاً سليماً ولا نظيفاً. والمناخ غير النظيف لا يوجد عنده ما يمنعه عن نيل أي شيء في سبيل تحقيق رغباته وغرائزه، فهو ينسىٰ كل شيء؛ ولذا فإننا لا نستغرب من أناس مثل هؤلاء ممّن يحكم باسم الإسلام وعنده مغنية تغني:

ألا علّلاني قبل أن نتفرّقا وهاتِ اسقني صِرفاً شراباً مروّقا

فقد كاد ضوء الصبح أن يفضح الدجىٰ وكاد قميص الليل أن يتمزّقا

ويصل به الأمر إلىٰ أن ينسىٰ نفسه أمامها.

أما غيره فلا ينسىٰ نفسه فقط، بل إنه يفقد عقله فيعلّق علىٰ رقبته نعله

---

(١) انظر: الخلاف ٥: ٣٦١ / المسألة: ١، مغني المحتاج ٣: ٧٤.

ويقول: أنا بدنة، اهدوني للكعبة. فما يُنتظر من مثل هؤلاء الذين يصل بهم الأمر إلىٰ هذه الدرجة؟

فالقرآن الكريم هنا يريد أن يرشدنا إلىٰ أن نحذر من هذه الأجواء؛ التي تُستغلّ فيها المرأة من هذا الجانب؛ فإنها إذا استغلّت من هذا الجانب أصبحت وسيلة خطر علىٰ المجتمع.

الأمر الثاني: الخطر الكامن في المرأة

والمراد هنا أن المرأة بما حباها اللّه تعالىٰ من مواطن جمال ورغبة، تمثّل كياناً مرغوباً للرجل، وبحكم الغريزة التي عند الجنسين فإن المرأة ذات تأثير كبير علىٰ الرجل؛ ولذا فإن قريشاً استغلّت هذا التأثير عندها.

لكن لنا أن نتساءل حول منشأ هذا التأثير، والحقيقة أن هناك منشأين لتأثير المرأة:

المنشأ الأوّل: العادات الاجتماعية

فالذي يأتي من العادات الاجتماعية أن بعض العرب وحتىٰ بعض الشعوب الأُخرىٰ من غير العرب كانوا يعطون المرأة نوعاً من الحصانة والقداسة نسبياً، فلا تراع ولا تؤذىٰ، بل كانوا يتحاشون إصابتها بأذىٰ؛ لأنها أُم، والأُم تترك بصمات واضحة علىٰ عواطف الولد؛ أو لأنها زوجة، والزوجة تترك بصماتها علىٰ غرائز الرجل وعلىٰ الجو الأُسري، وغير ذلك.

ولما كانت ذات تأثير، فينبغي علينا أن نهذّبها ونضعها دائماً في الأجواء التي تتناسب مع خطرها، فمثلاً عندما يطالب الإسلام بتعليم المرأة علىٰ لسان الرسول الأكرمﷺ: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**

ومسلمة»[١] فإنه يريد أن يرفعها عن مستوىٰ الجهل، وهذا خلاف من يقول: لا تعلّموهن القرآن، ولا تعلّموهن الكتابة، ولا تسكنوهن في الغرف العالية، ثمّ يقول: هذا حديث نبوي، أي أن النبيﷺ يقول: لا تسكنوهن في غرفة عالية ولا يتعلمن الكتابة؛ لأنهن إذا تعلمن الكتابة فإنهن سيكتبن للرجال[٢].

وهذا كلام ليس فيه أي معنىٰ؛ لأن اللّه عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٣]، وبنو آدم هم الجنسان الذكر والأُنثىٰ. فالإسلام يريد أن يربّيها ويضعها في تماسّ دائم مع أجواء التربية الروحية ـ كما وضعَنا نحن في تلك الأجواء ـ ويشعرها بمسؤوليتها؛ لأنها هي العشّ الذي يربّىٰ فيه الإنسان، وهي المدرسة والعاطفة والحنان. فيجب أن نقدّر خطرها، فنتعامل علىٰ ضوئه بما يناسب مستوىٰ مسؤوليتها بالشكل الذي لا يسمح لهذه الطاقة أن تتحوّل إلى عنصر عداء للإسلام.

ولذلك فإن أعداء الإسلام كانوا أوّل شيء يعمدون إلى التركيز عليه هو المرأة وحقوقها المغتصبة ـ من وجهة نظرهم ـ في المجتمع الإسلامي. وتسمع هناك صيحات تملأ الدنيا: أعطوا المرأة حقّها وحريتها، فما هي الحرية التي يريدونها للمرأة؟ الإسلام لا يمنعها من أن تمارس العمل إذا اضطرّت إليه مع محافظتها علىٰ كرامتها وشرفها وسترها وعفافها، ولا

(١) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٩، ٢٠: ١٢١، كنز العمّال ١٦: ٣٨٠ / ٤٤٩٩٩، وفيه: ولا تعلّموهن الكتاب.

(٣) الإسراء: ٧٠.

يمنعها من طلب العلم ولا من شغل الوظائف والمناصب التي لا تضرّ بفطرتها ولا تتعارض مع أُنوثتها.

بعض وظائف المرأة المختصّة بها

ولا ننسَ أن اللّه عزّ وجلّ خصّ المرأة بتكاليف لم يخصَّ بها الرجل، فالرجل لا يملك ثدياً فيه لبن يرضع أبناءه منها، لكن المرأة تمتلك ذلك، فهي ترضع أطفالها. وكذلك فإن الرجل لا يملك الحجر ليمنح الطفل الحنان والتغذية، والمرأة تمتلك ذلك؛ لأن تغذية الحنان مركبة مع طبيعة المرأة عبر ما يسمىٰ بهرمون الأُمومة الذي يثري صفة الحنان عند المرأة، بحيث يشمّه الطفل وهو في حضن أُمّه، ولا يشمّه في صدر والده؛ لأن جسم الرجل لا يحتوي علىٰ هذا الهرمون.

ولك أن تتصوّر الأشياء التي تغرسها الأُم في نفس الطفل منذ الصغر، فتبقىٰ معه مدىٰ العمر؛ لأنها صادفت المحلّ الملائم والمؤثّر الفاعل.

إذن فالإسلام أعطىٰ كلّ شيء للمرأة من غير أن يُضرّ بفطرتها وعفّتها. فما الذي يريدوه هؤلاء من حرية المرأة مع الحفاظ علىٰ كيانها أكثر من هذا؟ سيّما الآن فإنها في بعض البلدان الإسلاميّة قد أخذت جميع حرّياتها، ولا يطلب الإسلام مقابل هذا أكثر من أن يحفظ المجتمع لها أخلاقها وأجواء عفّتها؛ لأنه إذا لم يستطع أن يحفظ لها عفّتها فسوف تسود حالة اللانظام في الدنيا كلّها.

وغالباً تكون هذه الدعوات دعوات مشبوهة تقف وراءها أهداف مريضة، وهذه الدعوات توحي بأن المرأة غالباً ما تكون سهلة المنال ورخيصة، وتقع تحت الرجل ورهن إشارته في أي ساعة شاء. فهو ينظر

إليها كغريزة، مع أن معاملتها كذلك تعني شتمها والإساءة إليها؛ لأن هذه اللون من التعامل معها يكون بعيداً عن الدور الذي يراد لها أن تلعبه، أو يناط بها، وهو كونها مدرسة تربّي الأجيال وتقوم بإعدادها.

وهذا هو الفرق بين من يعامل المرأة علىٰ أنها كيان محترم وفعّال في المجتمع، وأنها مدرسة تعدّ المجتمع وتربي الأجيال، وبين من يعاملها علىٰ أنها غريزة، كأن يقول رجل لزوجته: إنما نحتاجكِ لبضع دقائق. فهذا كفر بالفطرة وكفر بما وضع اللّه عزّ وجلّ للمرأة التي تقوم بعبء لا يقوم به الرجل. فليس الرجل وحده هو من يقوم بعبء لا تستطيع أن تقوم به المرأة؛ فكل له وظائفه الخاصّة.

فالآية إذن تشير إلىٰ خطر المرأة؛ وإلىٰ أن البعض من مزاياها جاءت من مواريثنا الاجتماعية أو الدينية التي تمنع من ضرب المرأة مثلاً، وتعتبره عاراً علىٰ الرجل؛ لما عليه أمر تركيبتها النفسية وكيانها الجسدي، أو مكانتها داخل الأُسرة.

ولذلك فإن النبيﷺ كان يعنّف هؤلاء الذين كانوا يضربون المرأة، ويوبّخهم علىٰ أنهم يضربونها ثمّ بعد ذلك يضاجعونها، وكيف أنهم يجمعون بين هذين الجوّين: الجوّ الحيواني وهو الأوّل، والجوّ الإنساني الذي كلّه رقّة وشفافية وهو الجوّ الثاني. فالإسلام ينهىٰ عن هذا النوع من التعامل، وأوجد له تعاملاً بديلاً هو التعامل بالحسنىٰ.

فالمرأة إذن لها كرامتها وكذلك لها خطرها، أي بقدر ما تحمل من مكانة يجب ألّا تستغل من قبل أعداء الدين وأعداء الخلق وأعداء الفضيلة لهدم المجتمع. فيجب أن نكون يقظين لهذا الأمر.

المنشأ الثاني: الغريزة

وهو أمر لا يخفىٰ علىٰ أحد تأثيره، فغالباً ما تُستخدم النساء في تحقيق الكثير من الأغراض سيما في أغراض التجسّس، وهو ما حاولت قريش فعله. وقد مرّ في ثنايا البحث ما فيه كفاية حول هذا الأمر.

حجّة الظالمين

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿**يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ**﴾، وهذه النقطة خطرة وحسّاسة جداً؛ فإن خروج الإنسان من بلده ليس أهون من خروج الروح من الجسم؛ فمن لا وطن له لا هوية له. والبلد ليس مجرد تراب يعيش عليه الإنسان، بل هو المشاعر التي يختزنها المرء في نفسه، والذكريات والتاريخ والعزّة والكرامة. فإخراج المرء من بلده يعني انسلاخ روحه من جسمه. وكيف يخرج؟ يُخرج بدعوات مفتعلة، وسأروي لك هذه الحادثة لترىٰ مدىٰ صحة هذا الأمر، يروي المسعودي في تاريخه المسمىٰ (مروج الذهب) كما ينقله عنه المجلسي في (البحار)[1] أنه كان للمعتصم غلام تركي اسمه بغا وهو من القوّاد، وكان المعتصم لا يعصي له أمراً، وقد وصف هذا الأمر أحد الشعراء فقال:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قال له كما يقول الببّغا[2]

---

(١) بحار الأنوار ٥٠: ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٢) البيتان لجنبذ الكاتب، وقبلهما:

خلافةٌ جائرةٌ فاسدةٌ ما تبتغىٰ

فكان بغا رجلاً قوياً، وكان ينزل إلىٰ الحرب دون أن يلبس الدرع أو يضع لامة الحرب، بل ينزل حاسراً وبيده السيف ويقاتل ويخرج من الحروب سالماً لم يُصب بشيء أبداً، فقالوا له: لماذا تعرّض نفسك إلىٰ التهلكة فلا تلبس درعاً؟ قال: سأروي لكم أمراً حدث معي، فأعطاني ضماناً ومناعة ضدّ ما تخوّفونني منه. فقالو له: ما هذا الأمر؟ ومن أين لك هذه المناعة؟ فقال: استدعاني المعتصم يوماً، فلما دخلت عليه سمعت جدالاً عالياً بينه وبين رجل كان في مجلسه، فلما رآني قال لي: ارمِ هذا الرجل في بركة السباع.

وكانت بركة السباع معدّة للانتقام ممّن لا يُرغب فيه، حيث يجمعون تلك السباع المفترسة التي فيها، ثمّ يلقون غير المرغوب فيهم داخلها فيتلذّذون بتعذيبهم وهم يتناثرون أشلاء بين مخالب السباع وأنيابها. فهل هذا هو الإسلام؟

علىٰ أية حالٍ يقول بغا: فلما أتيت به إلىٰ بركة السباع شاهدته وقد رفع رأسه إلىٰ السماء ثمّ قال: «إلهي، أنت تعلم أنني لم أنصر إلّا دينك، ولم أُوتَ إلّا عن طريق توحيدك، وإني ما دافعت إلّا عن عقيدتك وعن ديني الذي أدينك به، أفتراك تسلمني؟».

يقول بغا: فأخذ جسمي يرتجف، وأحسست بوجع في قلبي، وأحسست أن من الحرام أن أُلقي هذا بين السباع، فوقفت حائراً بين تنفيذ هذا الأمر وبين عدم تنفيذه؛ لأني سمعت هذا الرجل يناجي اللّه عزّ وجلّ

صـــاحبُها مـــحتجبٌ يفرق من حـرِّ الوغـىٰ

ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ٤٨٨ / ٧٩١، باختلاف يسير، مع ذكر مناسبة قولهما في المستعين.

بما ناجاه به.

يقول: فأخذته معي إلىٰ غرفتي وحبسته فيها، ثمّ جئت إلىٰ المعتصم، فقال لي: ماذا صنعت بالرجل؟ فقلت له: ألقيته في البركة. فقال: أما سمعته يقول شيئاً؟ قلت: لا، فأنا أعجمي، وهذا يتكلّم اللغة العربية، ولم أفهم ما الذي قاله. فقال لي: اذهب.

يقول: فخرجت، ولما أصبح الصبح أقبلت ففتحت الباب عليه وقلت له: أنا سوف أُطلق سراحك، وأنت تعرف أني قد وازنت بينك وبين دمي، لكن أُريد منك أن تُبقي هذه الحادثة في أيام المعتصم سرّاً؛ ذلك أن البوح بها سوف يهدر دمي. وعليه سوف أُطلق سراحك وأُعطيك مايكفيك وترجع إلىٰ أهلك، ومقابل هذا أُريد أن أعرف سبب إرسال المعتصم خلفك، وسبب رميك بالبدعة.

فأخذ يسرد حكايته فقال واللّه أنا لست من أهل البدع، فأنا مسلم، أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد برسالة النبي ﷺ، وألتزم بأحكام الإسلام، غير أن هؤلاء أرسلوا لنا والياً، فأخذ يسطو علىٰ أعراض الناس، ويعتدي عليهم، وينهب أموالهم، ويشكّك المسلمين بعقائدهم، فاستنصرت عليه الناس فلم أجد من ينصرني عليه.

وكنت كلما فكّرت في أن هذا سوف يفسد في الأرض ويعارض الشريعة استصرخت الناس مستنصراً، غير أنهم لم ينصروني خوفاً من بطشه. فبيّتّ في نفسي أن أقتله، فترصّدته حتىٰ سنحت لي الفرصة ليلاً، فهجمت عليه وقتلته، وما أردت من ذلك واللّه يعلم بهذا إلّا وجه اللّه؛ لأن هذا الرجل أفسد في الأرض، واستحقّ القتل بما قام به من عمل. فاعتقلني هؤلاء، ولمّا لم يستطيعوا إخراجي من وطني بعذر الدفاع عن

الدين وقتل الوالي الكافر، رموني بهذه التهمة، وأخرجوني من داري ظلماً بها.

يقول بغا: وبعد هذه الحادثة رأيت رسول اللّهﷺ في المنام ومعه جماعة، فلما وقع بصره عليّ قال: «بغا». قلت: أجل. قال: «لقد سرّني ما أسديته إلىٰ مسلم من أُمتي، ولقد دعا لك هذا بدعوة استجابها اللّه له فيك». قلت: يا سيدي، من هو هذا؟ قال: «صاحب بركة السباع». قلت: يا رسول اللّه إذا كان قد دعا لي، فأنا أُريد ألّا أُحرم من دعائك أنت، فادعُ لي يا رسول اللّه بطول العمر. فقال النبي: «اللّهم أطل عمره، وأنسئ في أجله»، فقلت: خمس وتسعون سنة؟ قال: «خمس وتسعون سنة». فقال رجل كان بين يديه: «ويوقىٰ من الآفات». فقالﷺ: «ويوقىٰ من الآفات». فقلت للرجل: من أنت؟ قال: «أنا علي بن أبي طالب».

يقول: فتريدون مني الآن ـ بعد أن دعَوَا لي بطول العمر وبالوقاية من السوء ـ أن ألبس درعاً[1]؟

والقصد من هذه الحادثة أن هذا يقول: أخرجوني من داري بحجّة أني مبتدع، وهذا هو ما يسمىٰ بحجّة الظالمين، فهؤلاء لا يملكون غير إحدىٰ تهمتين: مبتدع أو خائن أو ما شابههما؛ لأنه لم يسجد للصنم.

فالآية تحذّر المسلمين من هذا المصير حيث تقول: ﴿**يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ**﴾. وفعلاً أخرجوا النبيﷺ من وطنه مكّة المكرّمة، ولمّا غادرها التفت إليها ثم خاطبها (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله) بقوله: «**الله يعلم أنّني أُحبّك، ولولا أن أهلك أخرجوني عنك لما آثرت عليك بلداً**»[2].

---

(١) مروج الذهب ٤: ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ٩: ١١٠٣٠/٣٣٤، ٣٤٦ ـ ١١٠٤٦/٣٤٧، مسند أحمد ٤: ٣٠٥.

يقول المؤرّخون: إنهﷺ كان يسأل القادمين من مكّة عن أحـوالهـا، وذات يوم سأل أحدهم قائلاً: «كيف خلّفت مكّة؟». قال: تركت السنام وقد أعذق، والبسر وقد أغدق. فدمعت عينا النبيﷺ.

وهكذا كانت عيناهﷺ الشريفتان تدمعان؛ لأن الوطن في الواقع يظل يعيش في أعماق الإنسان[1]؛ ولذا فإن الشاعر يخاطب بلده بقوله:

فـداء رمـالك لا تـقطعِ حـديثك للـعين والمسـمعِ
حنيني بها في المسا والصباح وفـي يـقظاتي وفـي مـهجعي
فـإني بـه قـاعد والرؤىٰ تـهوّم فـي عـالم مـمتعِ
سأهفو لقربك وسط الجنان أوِ ان كنت في سبسبٍ بلقعِ

نعم يبقىٰ الإنسان مشدوداً إلىٰ تربته وإلىٰ وطنه، فالنبيﷺ كان يبكي

---

(١) في (قصص العرب) أن جماعة من أهل البصرة قالوا: خرجنا نريد الحجَّ، فلما كنّا في بعض الطريق، إذا غلام واقف على محجَّته، وهو ينادي: أيّها الناس، هل فيكم أحد من أهل البصرة؟ فقلنا له: ماتريد؟ قال: إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم.

فملنا إليه، فإذا شخص ملقى علىٰ بعدٍ من الطريق تحت شجرة لايحير جواباً، فجلسنا حوله، فأحسّ بنا، ورفع طرفه وهو لايكاد يرفعه ضعفاً، وأنشأ يقول:

ياغريب الدار عن وطنه مفرداً يبكي علىٰ شَجَنه
كـلّما جـد البكـاء بـه دبّتِ الأسقامُ فـي بـدنه

ثم أُغمي عليه طويلاً. وإنّا لجلوس حوله، إذ أقبل طائر، فوقع على الشجرة، وجعل يُغرّد، ففتح عينيه وراح ينصت لتغريد الطائر، ثم قال:

ولقد زاد الفؤاد شـجاً طائر يبكي علىٰ فننه
شفّه ما شفّني فـبكىٰ كلُّنا يبكي علىٰ سكنه

ثم تنفَّس تنفُّساً فاضت نفسه منه، فلم نبرح من عنده حتىٰ جهّزناه. وإذا هو العـباس بـن الأحنف.

قصص العرب ٤: ٢٣٩، رائق الضمير ١: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

ويحنّ إلىٰ مكّة، وهذا ما فعله الإمام الحسين عليه السلام حينما أراد أن يخرج من المدينة فقد جاء إلىٰ قبر جدّه صلى الله عليه وآله وسلم وإلىٰ قبر اُمّه عليها السلام..إلىٰ الأماكن التي تعيش في أعماقه..إلىٰ تربة المدينة، ولكن أخرجه ما هو أقوىٰ، وقد عزّ حتىٰ علىٰ عائلته أن تبتعد عنها، فخرجت العائلة والاُسرة ومعها الأهل، ولكن عندما رجعت لم يكن في الركب سوىٰ الأرامل واليتامىٰ؛ ولذلك فإنّ زينب اُخت الحسين عليه السلام وقفت علىٰ أعتاب المدينة وانفجرت بالبكاء، وراحت تسترجع الذكريات وكيف خرجت وكيف رجعت..انفجرت دموعها وانفجر عندها الحنين، فاتجهت تخاطبها:

مدينةَ جدِّنا لا تقبلينا فبالحسراتِ والأحزانِ جينا

خرجنا منك بالأهلين جمعاً رجعنا لا رجالَ ولا بنينا[١]

سجود العبادة وسجود التعظيم

ونأتي الآن للسجود؛ لنرىٰ أي شيء هو، فالسجود حركة، وهذه الحركة تحتمل أكثر من معنىٰ، فهي تحتمل معنىٰ العبادة كما أنها تحتمل معنىٰ التعظيم. ومن خلال القرائن يمكننا أن نميز بين السجود العبادي والسجود التعظيمي، ولدىٰ الناس قواعد عرفية يتعاملون بها، ففي بعض المناطق تستعمل حركات معينة لوسائل التعظيم والتكريم لا تستعمل في مناطق غيرها، كأن يضرب أحدهم علىٰ كتف الآخر معظّماً له، في حين أنه في مناطق اُخرىٰ تستخدم حركات غيرها للدلالة علىٰ ذلك.

والسجود من هذا النوع، لأنه تارة يكون دالّاً علىٰ العبادة وعنواناً لها،

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٨، ينابيع المودّة ٣: ٩٤.

وأُخرىٰ يكون مدلوله التعظيم والتكريم.

ومعنىٰ العبادة أن يسجد أحد لغيره؛ لأنه يراه أهلاً للعبادة. وهذا المعنىٰ لا يصحّ إلّا للّه عزّ وجلّ. وأما إذا كان الانحناء أو السجود لأجل التعظيم فلا بأس به إن كان عن أمر الله تعالى.

أقسام التعظيم عند الفقهاء

وبعده هذا البيان نرجع إلىٰ وسائل التعظيم من وجهة نظر الفقهاء ومن ميزانهم، وكيف أنهم يقسمونها. يقول الفقهاء: إن الخضوع والتعظيم له ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون منشؤه الدوافع الفطرية

أي أن يكون الخضوع والتعظيم لأُناس بدوافع فطرية، كخضوع المتعلّم للمعلم، فعندما يجلس طالب العلم أمام الفقيه فإنه يتواضع له ويخضع. وهذا ليس بعنوان أن هذا الفقيه متّقٍ للّه ومنتقىً منه، بل لأن المعلم سوف يبني المجتمع بناءً فكريّاً، وهو بناء أهمّ من البناء الجسدي الذي يوفّره ويقوم به الأبوان؛ لأنهما يبنيان دماً ولحماً. ومع كون بنائهما بناء جسديّاً محدوداً باعتبار أنه سيموت يوماً وينتهي، والجسد يذهب إلىٰ القبر، لكنهما يستحقّان كل ذلك التعظيم والتكريم، فالمعلم الذي يبني بناء فكرياً وعقيدياً وهو بناء أهمّ فإنه يجب أن يعظّم ويكرّم لأجله.

فهذا التعظيم فطري كما قلنا، أي أنه موجود عند الإنسان بالفطرة. وهذا التعظيم مباح كما يقول الفقهاء، وليس فيه إشكال.

الثاني: أن يدّعىٰ أنه للّه وهو ليس له

كالخضوع والتعظيم للصنم، فهؤلاء الذين يخضعون للصنم يدّعون بأن تعظيمه مرتبط بتعظيم اللّه، مع أنه في واقع الأمر غير مرتبط به ولا يُنمىٰ

إليه بأية علاقة. ومن هذا التعظيم الخضوع للآراء الباطلة تعصّباً.

وهذا النوع من التعظيم باطل، فكل تعظيم لصنم أو للأديان الفاسدة والعقائد الباطلة، وما سوىٰ الدين الإلهي هو تعظيم باطل وحرام؛ لأن هذا نوع من أنواع الإشراك في العبادة.

الثالث: أن يكون بأمر من اللّه تعالىٰ

وفي هذه الحالة يكون الخضوع لمن أمر اللّه عزّ وجلّ، وهو بالنتيجة خضوع له تعالى، فاللّه عزّ وجلّ قد أمرنا بالخضوع للمساجد مثلاً وللأولياء والأنبياء والكعبة الشريفة وأداء بعض الحركات بها بما يُشعر بمعنىٰ العبادة. ولهذا الأمر يكون خضوعنا لهؤلاء الأشخاص وهذه الأماكن خضوعاً للّه تعالىٰ؛ لأن هذا الأمر من اللّه عزّ وجلّ.

وعليه فخضوعنا في حقيقته ليس خضوعاً للكعبة بل لأمر اللّه، وكذلك الأمر مع الأنبياء عليهم السلام، فنحن لا نعظم النبي عليه السلام باعتباره دماً ولحماً، بل باعتبار أنه نبي اللّه، ومعنىٰ كونه نبي اللّه: أن اللّه تعالى أرسله للبشر، وأمره بتعظيمه وبتكريمه. فتعظيمه عليه السلام وتكريمه تعظيم لأمر اللّه تعالى وتكريم له.

ويندرج تحت تعظيم النبي صلى الله عليه وآله تعظيم الأيمّة عليهم السلام؛ لأنه بالنتيجة تعظيم لأمر اللّه تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[1]، وأولو الأمر قطعاً هم الأيمّة عليهم السلام.

حقيقة السجود لآدم عليه السلام

ومن هذا القسم كان السجود لآدم عليه السلام، فهو بأمر من اللّه جلّ وعلا، أي أن تعظيم آدم عليه السلام هو بالتالي تعظيم للّه تعالىٰ.

---

(١) النساء: ٥٩.

ومن هنا نقول: إنه ليس كلّ سجود عبادة، فقد يكون رمزاً للتعظيم، وكلّ عمل منوط بالنية: «**إنما الأعمال بالنيات**»[1]. فإذا كانت الأعمال بالنيات، فسجود الإنسان تُحدّد طبيعته ويُناط جوازه وعدم جوازه بنيّته لا غير. فالنيّة هي التي تحدّد فيما إذا كان سجوده سجود عبادة أو سجود تعظيم.

محاولات رمي الشيعة بالشرك والنيل منهم

وفي هذا الخضمّ تجد من يتّهم الشيعة بالشرك، ويرميهم به من غير أن يعلم حقيقة نيّاتهم؛ من قبيل الوقوف علىٰ القبور، والتمسّك والتمسّح بها، مصوّرين ذلك ـ بدوافع الحقد ـ للآخرين بأنه سجود لغير اللّه، وبالنتيجة فإن فاعله مشرك. لكن من قال ذلك؟ ومن منّا قال: أنا أعبد غير اللّه؟ وهل دخل ذلك المدّعي قلوبنا ومشاعرنا؟ ونحن حينما نقف علىٰ قبر إمام فإنما نقف عليه ونحن نعتقد بأننا نقيم عند عبد من عباد اللّه تعالىٰ، ونقف على ضريح ولي من أوليائه. ويشهد بهذا قولنا مخاطبين إياه في زيارته: «**أشهد أنك قد أقمت الصلاة**»[2] فهل المعبود يصلي؟

فنحن إذن نخاطب عبداً من عباد اللّه وحجّة من حججه.. نخاطب الإمام الحقّ. فوقوفنا علىٰ المشاهد المشرّفة والمراقد المقدّسة للنبي صلى الله عليه وآله والأيمّة المعصومين عليهم السلام، ليس فيه أي قرينة تدلّ علىٰ أننا عندما نقف

---

(١) تهذيب الأحكام ١: ٨٣ / ٢١٨، ٤: ١٨٦ / ٥١٨ ـ ٥١٩، صحيح البخاري ١: ٢.

(٢) الكافي ٤: ٥٧٠، ٥٧٣ / ١، كامل الزيارات: ٣٧١، ٤٠٩. وفي الزيارة عينها: «أشهد أنك عبد الله وأمينه». المصدر نفسه. بل إن أمير المؤمنين عليه السلام جعل من نفسه الشريفة الطاهرة عبداً لرسول الله صلى الله عليه وآله وذلك حينما سأله أحد اليهود فقال له: أفنبي أنت؟ فقال له: «ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد صلى الله عليه وآله». الكافي ١: ٨٦ / ٥، ٩٠ / ٨، التوحيد: ١٧٤ / ٣.

هناك فإننا إنما نعبد النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام، لا أبداً، فليس في وقوفنا هناك شائبة عبادة أو الاستعانة بغير اللّه البتة.

إننا نستعين باللّه، ونعرف أن هذا محلّ من محالّ رحماته، لأن رحمة اللّه قريب من المحسنين[١]، وهؤلاء محسنون، فنحن حينما نقف في هذا المقام فإن في تصورنا أننا سنكون أقرب ما نكون إلىٰ اللّه في مقام مؤهّل بأن يقبل فيه الدعاء[٢].

تساؤل مشروع

ولنا أن نتساءل ونقول: لماذا هذا الإصرار علىٰ تكفير طائفة بأكملها؟ ولماذا هذا الإصرار علىٰ قول: إن هذا مشرك؟ وما هي المصلحة من تكفير مسلم؟ فهذا المسلم قد جاء قاطعاً مراحل طويلة، وبذل أموالاً طائلة؛ كي يصل إلىٰ قبر الرسول صلى الله عليه وآله ويقف عليه، والرسول صلى الله عليه وآله نفسه ندبنا إلىٰ زيارة القبور، وقال: «**من زارني وجبت له شفاعتي**»[٣].

يقول عبد اللّه بن مليكة: كنت يوماً واقفاً علىٰ باب السيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله، فجاءت من الخارج، فقلت لها: أين كنت يا خالتي؟ فقالت: كنت عند قبر أخي عبد الرحمن. فقلت لها: أليس قد نهىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله عن زيارة القبور؟ قال: نعم، نهىٰ ثمّ نُسخ هذا النهي، وأمرنا بزيارتها؛ لأنها تُرقّق القلب، وتُذكّر الآخرة[٤].

---

(١) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الأعراف: ٥٦.

(٢) لقد خصّ الله تعالى الإمام الحسين عليه السلام بأربع خصال: جعل استجابة الدعاء تحت قبته الشريفة، والإمامة في ذرّيته، والشفاء في تربته، وألّا يعدّ أيّام زائريه من أعمارهم. عدة الداعي: ٤٨.

(٣) كامل الزيارات: ٤٤ / ١٤، المغني ٣: ٥٨٨، كنز العمّال ١٥: ٣٨٣ / ٤١٤٨٦.

(٤) المستدرك على الصحيحين ١: ٣٧٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٤: ٧٨، فتح الباري ٣:

الآثار الإيجابيّة لزيارة القبور

إن الوقوف علىٰ القبور له عدّة مردودات إيجابيّة علىٰ الإنسان، منها:

الأول: الاتّعاظ بالموت وعدم الاغترار بالدنيا

فالإنسان عندما يقف علىٰ القبر يشعر بتفاهة الدنيا، ويؤول إلىٰ نتيجة يناجي بها نفسه: إننا بعد هذه الأموال الطائلة والقصور وغيرها سندفن هنا بين أربعة أحجار. فيأخذ الإنسان بالتفكير في مصيره ونهايته وما سيكون عليه أمره في نهاية المطاف، فيخضع ويخشع[1].

الثاني: ذكر الميت بما يرجع عليه حسناتٍ عند اللّه

فالإنسان حينما يقف علىٰ قبر المؤمن ويقرأ له شيئاً من القرآن، أو يهدي له ثوابه فإن هذا مما سينفعه عند الحساب ويردّ عنه وحشة القبر؛ لأن الإنسان عندما يموت فإن جسده هو الذي يبلى بموته، أما روحه فهو باقٍ لا يموت، بل يبقىٰ يلتذّ ويعذّب بما فعل صاحبه في الدنيا، وبما يصل

---

١١٨. وقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة». سنن ابن ماجة ١: ٥٠٠ / ١٥٦٩، المعجم الصغير ٢: ٤٣ وغيرهما، وفي تلخيص الجيّد ٥: ٢٤٧ ما نصّه: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي أنّها تُرقّ القلب، وتُدمع العين، وتُذكّر الآخرة؛ فزوروها». وانظر: الموطّأ ٢: ٤٨٥، المجموع شرح المهذّب ٥: ٣١٠، مغني المحتاج ١: ٣٦٥، وغيرها.

قال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٨٨ ـ بعد أن نقل قوله صلى الله عليه وآله: «زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة» ـ ما نصه: «فزيارتها مندوبة للرجال بهذا القصد، والنهي منسوخ».

وفي كشف القناع ٢: ١٧٤، بعد أن نقل الأحاديث المارّة، أورد عبارة الماتن: «ولا يمنع كافر من زيارة قريبه المسلم»، ثمّ علّق قائلاً: حيّاً كان أو ميّتاً. ثمّ نقل كراهتها للنساء دون حرمتها. وقال في كشف القناع ٤: ٣٠١ مانصّه: فإن زيارة القبور للرجال سنّة.

(١) قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «كفىٰ بالموت واعظاً». الكافي ٢: ٨٥ / ١، وفيه: موعظة، بدل: واعظاً، تحف العقول: ٣٥.

إليه من أهله وذويه.

وعليه فهذا الرأي ـ أنه سجود تعظيم ـ هو الذي عليه علماء المسلمين كافّة. ونحن إنما نملك رافداً من روافد الفكر في الإسلام، وهو الفهم الظاهري الذي يثبت بظواهر الألفاظ؛ إذ أننا عندما نقرأ الآية ونعرف منها أن اللّه عزّ وجلّ أمر بالسجود لآدم فإننا نفهم من هذا الظهور اللفظي أن هذا السجود ليس معناه العبادة، بل هو تعظيم لآدم لما يحمل في طياته من امتثال لأمر اللّه، حيث إنّ اللّه لو علم أن في هذا شائبة عبادة لما أمر به؛ لأنه تعالىٰ لا يأمر بالمعصية مطلقاً.

وقد يقول قائل: إن اللّه ليس فقط لا يمنع من أمر المعصية، بل يأمر بها ويخلقها أيضاً.

والجواب: أن هذا قول عجيب، ويعذّب عليه قائله؛ لأن الذي يزني سيقول: إن اللّه هو الذي خلق فيّ طبع الزنا. وإذا كان اللّه قد خلق فيه طبع الزنا فما هو ذنبه إذن لكي يعذبه عليه؟

وقد يجيب هذا المدّعي بأن اللّه تعالىٰ يقول: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ**﴾[1]، ونحن لا نستطيع أن نقترح علىٰ اللّه.

ونقول: إن هذا صحيح، وهو أننا لا نستطيع أن نقترح علىٰ اللّه تعالىٰ ما الذي يفعله، ولكن اللّه لا يفعل القبيح، ولا يمكن أن يأمر بفعل القبيح ثم يعذّبنا عليه، حاشا للّه.

إذن كان أمر اللّه عزّ وجلّ بالسجود لآدم تعظيماً له، ولذا كان امتثال هذا الأمر طاعةً للّه جل وعلا، وليس فيه أي شائبة معصية. وكذلك عندما

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

أمر الله تعالى بتعظيم الأوليـاء، فـنحن لا نـعبد الولي؛ لأن الولي نـفسه محتاج إلىٰ رحمة اللّه تعالىٰ، وهو عبد من عبيد اللّه يتأثّر بالضرر والنفع، وبحاجة إلىٰ عطاء اللّه. فليس من أحد فينا يـعتقد بأن هـؤلاء الأوليـاء يضرّون وينفعون من دون اللّه. ولكن لا أدري لماذا يتّهمنا هؤلاء بالشرك والعبادة لغير اللّه، ولا يقنعون بهذا الكلام وهذه الأدلة؟

فنحن نقول لهـم: اعـرضوا هـذه المسألة عـلىٰ المـقاييس الشـرعيّة والعقليّة، فإذا خضع إيرادكم لها، فهو مقبول! أما أن تـفتروا تـهمة عـلىٰ شريحة من المسلمين وتكفّروهم بدون دليل، فهذا مما لا يرضىٰ به اللّـه عزّ وجلّ، ولا يرتضيه العقل.

المبحث الثالث: تداعيات خلق الإنسان من تراب

ولنرجع إلىٰ الآية الكريمة حيث إنها تقول: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْـجُدُوا لآدَمَ**﴾.

سبب تسمية آدم عليه السلام

وهنا يرد سؤال وهو: ما هو السبب في تسمية آدم عليه السلام بهذا الاسم؟

والجواب: هو أن كلمة آدم مأخوذة من أديم الأرض، أي وجه الأرض، ومعنى هذا أنه عليه السلام خلق من التربة. وهذا الإنسـان الذي خـلقه اللّـه مـن التراب ـ بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ يترتّب عليه أُمور، منها:

الأمر الأوّل: ارتباطه بتربته ووطنه

فالإنسان يلاحظ أنه غالباً ما يكون ملتصقاً بتربته ووطنه الذي ولد فيه ونشأ به. فهو مأخوذ من أديم الأرض، وأصله هذا يوحي إليه بـضرورة الدفاع عنها، يقول القرآن الكريم: ﴿**وَمَا لَـنَا أَلّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا**

مِنْ دِيَارِنَا ﴾[١].

ونفهم من هذه الآية أن الذي يُخرج من دياره يجب أن يجاهد في سبيل استعادتها واستعادة أرضه ووطنه، ولا يصحّ أن يجلس في بيته ويقول: إلهي خلصني من هذا الذي أخرجني من وطني ودياري، بل عليه الجهاد في سبيل اللّه واستعادة كرامته. ينقل التاريخ أن أحد ملوك الأندلس عندما أخرجه الروم من أهله وملكه بكىٰ، وكانت والدته جالسة فقالت له:

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تدافع عنه دفاع الرجال

فالأرض لها مكانة في النفوس، وليس للإنسان أُم حنونة تحتويه مثل الأرض، فعليها يصبح ومنها يأكل، وفي نهاية الأمر تضمّه وتحتويهه. ولذا فإن الإنسان إذا مات ولم يوضع في باطن التراب فإنه يصبح مرعب المنظر وتفوح منه رائحة كريهة.

ولأهمية الأرض عندنا كان لها حكم في موضوع الإرث بالنسبة للزوجة عندما يموت زوجها، فهي لا ترث الأرض منه. والسبب هو: منع الأجنبي عن دخول هذه الأرض. فالشابّة التي يتوفّىٰ زوجها عندما تريد أن تتزوّج فإن هذه الأرض التي ورثتها من زوجها ـ لو قيل بتوريثها منها ـ قد يأخذها الزوج الجديد، وبالتالي تصبح ملكاً للأجنبي.

وقد يسأل البعض ويقول: إن البنت أيضاً من الممكن أن تتزوّج، وبالتالي تنقل الأرض إلى الأجنبي؟

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

فنقول له: الأمر يختلف هنا؛ لأن البنت لازالت تحمل اسم الوالد، ووجوده ممتدّ فيها، غير أن الزوجة ليست كذلك؛ إذ أن وجوده غير ممتدّ فيها، وتنتهي العلاقة بينه وبينها بالموت أو بالطلاق مثلاً[1].

إذن فالإنسان يحنّ إلىٰ أرضه التي ولد فيها، ويبقىٰ كذلك وإن كانت هذه الأرض صحراء قاحلة، وهذا شيء فطري.

الإنسان بضرورة تواضعه

فإن في خلق آدم من أديم الأرض معنىً يجعله يشعر بشيء من التواضع، فهناك من الناس من لا يستطيع أن يتحمّل النعم التي أنعم اللّه بها عليه، من مال أو جاه؛ سواء كان اجتماعياً أو غيره. وهذا البعض قد يخرج عن طوره الإنساني، وربما ادّعى الربوبية والعياذ باللّه. ولهذا كانت هذه الضرورة. فالإنسان عندما يعرف أنه من التراب ويرجع إلىٰ التراب، ويستشعر هذه الحقيقة ويتيقّن بها، فإن ذلك يجعله يذعن ويتواضع.

ولهذا المعنىٰ لقّب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بـ«أبي تراب»؛ لأن التراب كان يخلص إلىٰ جسده. وفي هذا دلالة علىٰ تواضعه. وهناك رواية تقول: «**يا علي أنا أوّل من ينفض التراب عن رأسه وأنت، ثم الخلائق**»[2]. وهذا بالطبع

(١) قال الإمام الرضا عليه السلام: «علّة المرأة أنها لا ترث من العقار شيئا إلّا قيمة الطوب والنقض؛ لأن العقار لا يمكن تغييره وقلبه، والمرأة يجوز أن ينقطع ما بينها وبينه (الزوج) من العصمة ويجوز تغييرها وتبديلها، وليس الولد والوالد كذلك؛ لأنه لا يمكن التفصّي بينهما، والمرأة يمكن الاستبدال بها. فما يجوز أن يجيء ويذهب كان ميراثه فيما يجوز تغييره وتبديله إذا أشبههما، وكان الثابت المقيم على حاله كمن كان مثله في الثبات والقيام». الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٩.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٦٥٦ / ٨٩١، مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٠٦.

بعد الأنبياء وبعد النبي صلى الله عليه وآله. فـ«أبو تراب» يعني المتواضع.

وأقول: لو كانت واحدة من مؤهّلات علي بن أبي طالب عند غيره لرفعوه إلىٰ السماوات العُلىٰ. انظر إلىٰ تاريخ المسلمين وتأمّله هل عرف رجلاً أشجع من علي بن أبي طالب عليه السلام؟ ثم لاحظ الحقائق الواقعيّة والميدانية فيه؛ إن هذا الرجل كان سيف المسلمين المصلت المدافع عنهم، الذي كان وما يزال يتغنّىٰ به الدهر وبسيفه. يقول أحد الشعراء:

بسيف أبي رغوان سيفِ مُجاشعٍ ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن طالبِ[1]

فهذا هو الرجل الذي كانت الأمثال تضرب به، كانوا إذا جاء علي عليه السلام قالوا: احذروا الحطم، احذروا القضم[2]؛ إذ لم يكن أحد يستطيع أن يدني نفسه منه؛ لأن رأسه حينئذٍ سيفارق بدنه.

هذه شجاعته، وأما علمه فيكفي أن نأخذ بقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»[3]. وهذه الرواية ترويها العشرات من كتب المذاهب

(١) البيت للفرزدق، قاله لمّا ضرب عنق رومي فنبا السيف عنه، فقال: كأني وابن اليقين وقد هجاني، ثمّ أنشد البيت. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٣، وروي البيت ومناسبة قوله بشكل آخر في تاريخ الطبري ٥: ٣٠٦، شرح نهج البلاغة ٥: ٢٢.

(٢) لأنه عليه السلام كان يحمل ساعداً يُعبَّر عنه بالحاطم والقاضم. شرح الأخبار ٢: ٤٢٨، مناقب آل أبي طالب ٣: ٩١.

قال ابن الأثير وابن منظور في مادة قضم: «كان علي بن أبي طالب عليه السلام إذا نزل إلى الحرب تَنادىٰ الجيش وصاحوا: احذروا الحطم، احذروا القضم». النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٧٨ ـ قضم، لسان العرب ١٢ ـ ٤٨٨ ـ قضم.

وقال الراوندي وابن الأثير: «كانت ضربات علي عليه السلام بكراً؛ إذا علا قدّ، وإذا توسّط قطّ». الخرائج والجرائح ٢: ٥٤٢ / ٣، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٨١ ـ قط.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٣: ١٢٧، مسند أبي يعلي ٢: ٥٨ / ٦٦٩، المعجم الكبير

المختلفة. ولكن يدّعي مدّعٍ فيقول: لا وجود لهذا الحديث[1]. فأليس هذا شيئاً غريباً؟

أو من يحاول أن يقلّل من فصاحته فيقول: إن ما هو موجود في (نهج البلاغة) ركيك! ولنا أن نسأله: ارجع إلىٰ كتب الأدب وكتب العرب، فهل ستجد ديباجة مشرقة ورائعة مثل ديباجة (نهج البلاغة)؟ وهل هناك ما هو أفصح ممّا في هذا الكتاب؟ وهل سمعت كلاماً أفصح من كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول في دعائه عند الصباح: «**اللهمّ يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلّجه، وسرّح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، وأتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرّجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه، يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملاءمة كيفيّاته**»[2]؟ فتأمّل هذا النوع الرائع من العطاء والأداء! وهكذا جميع خطبه.

فعلي بن أبي طالب عليه السلام كان يملك من الصفات: الفصاحة والشجاعة والبلاغة والعطاء والكرامة والاعتزاز بالنفس والنبل الذي لا حدود له. فأي نبل سامٍ هذا الذي يدفعه ليدخل مباشرة بعد واقعة الجمل علىٰ أُم المؤمنين ليطمئن علىٰ أوضاعها؛ لأنها زوج النبي صلى الله عليه وآله[3]؟ وأي نبل كريم

١١: ٥٥.

(١) العلل (الدار قطني): ٣: ٢٤٧، كشف الخفاء ١: ٣٠٣ / ٦١٨. ونقل المتقي في كنز العمّال ١٣: ١٤٧ / ٣٦٤٦٢ عن الترمذي قوله: إنه منكر.

(٢) قطعة شريفة من دعائه عليه السلام عند الصباح. انظر: بحار الأنوار ٨٤: ٣٣٩ / ١٩، ٩١: ٢٤٣ / ١١.

(٣) وإضافة إلى ذلك أمر الجيش بالكف عنها كما في تفسير العياشي ٢: ٢٠ / ٥٣، وأمر أخاها محمداً بإكرامها وإيصالها إلى بيتها، ثم هيّأ لها يوم الجمل أربعين خادمة يخدمنها. تاريخ الطبري

هو حيث إنه عليه السلام يصفح عن مثيري الفتنة، إذ وقفت له امرأة بباب دار أحد البيوت، وقالت له: يا قاتل الأحبّة، أيتمت ولدنا أيتم اللّه ولدك. فقال عليه السلام: «لو كنت قاتل الأحبّة لقتلت من في هذه الحجرة»[1]، وكان فيها مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير والوليد بن عقبة بن أبي معيط؟ إن هذا اللون من النبل هو الذي دأب عليه علي بن أبي طالب وأهل بيته (صلوات الله وسلامه على رسوله وعليهم أجمعين).

خلقٌ أقلُّ نعوتِه وصفاتِه أن الجلالَ بمثلِه مقرونُ[2]

ومع كل هذه المزايا الموجودة لدىٰ هذا الرجل يأتي التاريخ ويضعه بجانب الطليق معاوية، ويقول لكليهما (رضي اللّه عنه).

فسلام اللّه عليه حين قال: «**أنزلني الدهر حتىٰ قيل: معاوية وعلي**»[3].

وأقول: إن نقل هذه الأُمور في التاريخ سوف يخلق من يشكل علىٰ مقاييسنا هذه:

ألم ترَ أن السيفَ يزري بحدّه مقالةُ أن السيفَ أمضى من العصا[4]

رجع

نعود إلىٰ موضوعنا: فآدم عليه السلام سمي بهذا؛ لأنه من أديم الأرض، ذلك

٥: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، الفتوح (ابن أعثم) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.

(١) هي صفيّة بنت الحرث الثقفيّة امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي. دعائم الإسلام ١: ٣٩٤، مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٠٥. وقد مر في ج٢ ص٣٠ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٢) ديوان المحاضر ١: ١٩.

(٣) الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ٤٥.

(٤) بيت من جملة أبيات استظهر البعض نسبتها إلى الإمام المهدي عليه السلام. انظر: بحار الأنوار ١٠٥: ١١٧، المناظرات في الإمامة: ٣٤٥.

ليتعظ ويعود إلىٰ التواضع. وأيضاً من أهداف خلق آدم من أديم الأرض هو تكريم الأرض أيضاً، يقال: لديك أُم، وأُمك هذا التراب أو هذه التربة.

الأهداف التربويّة لجعل عمليّة الخلق على مراحل

ثم إنها بعد أن ذكرت أن الله هو الخالق بينت مراحل الخلق فقالت: ﴿**خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ**﴾. ومعنى أنه تعالى خلقنا من تراب مع أن آدم عليه السلام هو الذي خُلق من تراب، ونحن خلقنا من نطفة هو أننا خلقنا من التراب أيضاً، لكن ليس بصورة مباشرة، حيث إننا نشأنا من النطفة، والنطفة من الطعام، والطعام من الشجر والزرع، والزرع من الأرض؛ وبهذا يصحّ أن يقال بأننا قد تكوّنّا من التراب. ولهذه التدريجيّة في الخلق جملة من الأهداف نذكر منها:

الهدف الأول: نفي الشعور بالغطرسة

إن القرآن الكريم يحاول أن ينفي عندنا الشعور بالغطرسة، حيث إن بعض الناس قد يظنّ أنه مخلوق من مادّة تختلف عن المادة التي خلق منها الآخرون، وأن دمه دم خاصّ، أو أنه ذو أعراق خاصّة. وهذا اللون من التفكير لازال موجوداً إلىٰ الآن حيث يعتزّ بعض الناس بقبيلته إلى درجة لا يعترف معها بغيرها، فيرون أنهم السادة والعظماء، وأن غيرهم لا شيء أمامهم. فهذا المعنىٰ يؤكّد القرآن الكريم على ضرورة طرده من النفوس؛ لأنه يولّد الغطرسة والكبرياء واحتقار الناس، وهذا معنى يأباه الدين؛ لأن الدين إنما جاء ليزرع الخُلُق في الناس ويغرس فيهم أن الإنسان أخو الإنسان بغضّ النظر عن أي ناحية أُخرىٰ: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ**

شُعَيْباً ﴾[١].

وقد يسأل سائل فيقول: نحن نعرف أن أهل مدين أُناس كفرة، وأن شعيباً عليه السلام نبي، فكيف يعبّر عنه بأنه أخوهم؟

والجواب: أنه عليه السلام أخوهم في أصل المنشأ والخلقة، أي من تراب واحد، فلا يوجد فرق بين الناس في أصلهم ونشأتهم[٢]، مع أن أوروبّا لا زالت تعتقد إلىٰ الآن بأنها الجنس المميّز، وأن الأوروبّيين هم الذين بنوا صرح الحضارة، وهم الذين صنعوها. ويقولون: إنكم مدينون للجنس الأشقر؛ فهو الذي صنع الحياة وطوّرها. وهم يتعاملون معنا معاملة قائمة علىٰ أساس أننا كيان بدائي، في حين أنه لا يوجد فرق بين إنسان وآخر؛ فالكل من منشأ واحد.

كنا جالسين في مكان ما في انكلترا، فجاء شخص انكليزي وقال: نحن لا نتعامل معكم علىٰ أساس العنصرية، والدليل علىٰ هذا أنكم ملونون، ونحن مع ذلك نجالسكم.

---

(١) الأعراف: ٨٥.

(٢) وقد مرّ سؤال أحدهم الإمامَ السجادَ عليه السلام عن قول أمير المؤمنين عليه السلام حول أهل النهران: «إنهم إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم»، فكيف ساغ له قتل إخوانه؟ فأجابه الإمام السجاد عليه السلام بقوله: «ويلك، كيف قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟». قال: قوله: «إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم». فقال عليه السلام: «ويلك أما تقرأ القرآن؟». قال: بلى. قال: «فقد قال الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾، فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشيرتهم؟». فقال له الرجل: لا، بل في عشيرتهم؟ فقال عليه السلام: «فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم». فقال له ذلك الرجل: فرّجت عني فرجّ الله عنك. تفسير العياشي ٢: ٢٠/٥٣.

فانظر كيف أنهم إلى الآن مازالوا يعيشون هذه الذهنية. وهذا الذي أراد القرآن أن يطرده من أذهاننا، فالإسلام جاء لزرع الخُلُق فقال: إن أصلكم واحد وهو التراب.

الهدف الثاني: التذكير بحقيقة الموت

فالقرآن الكريم يحرص على أن يبقينا على اتّصال دائم بالله عبر تذكيرنا بالحقيقة المرّة للموت؛ وكذلك لكي نتّعظ بها، وذلك أن بعض الناس لا تمرّ فكرة الموت بأذهانهم، فتراهم منشغلين بحياتهم ومركزهم الاجتماعي وغيره وبأموالهم، فينسون الله تعالى وما فرض عليهم من التكاليف التي يتهذّبون عن طريقها، وبها يرتقون إلى المستوى الإنساني. فالقرآن الكريم يواجه هؤلاء بهذه الحقيقة: ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**﴾[1]، أي يرجع إلى التراب، فاعلم أيّها الإنسان أن جميع ما عندك من وسائل الراحة والترف والرفاهية ستعطيها للتراب.

وهذه حقيقة مرّة، فالأرض التي نمشي عليها هي جبهات وأيادٍ وخدود، فهناك أجيال وأجيال تكدّست تحت قدميك وأنت تمشي عليها[2]، وهذا أحد الشعراء يصف وادي السلام عن بعد فيقول:

تكوّر فيه كلُّ جيل بحفرةٍ ... فلخّصت الأجيالَ تلك الحفائرُ

---

(١) الأنبياء: ١٠٤.

(٢) قال أبو العلاء المعرّي:

خفّف الوطءَ ما أظنّ أديمَ الـ ... أرضِ إلّا من هذه الأجسادِ
ربَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ... ضاحكٍ من تزاحمِ الأضدادِ
سر إن اسطعت في الهواءِ رويداً ... لا اختيالاً على رفات العبادِ

شرح نهج البلاغة ١١: ١٤٨ ـ ١٤٩.

تُرى للعيونِ الزرقِ فيه جداولٌ وللعزماتِ الصلبِ فيه عساكرُ
بها يستوي مَن مات من عهدِ آدمٍ ومَن مات من أمسٍ فكلٌّ دواثرُ
ركائبُ أجيالٍ تيممن ماجداً يؤمِّل جدواه مقيمٌ وزائرُ
ومثلُ علي وهو ما عزَّ مثله سريّ يرجّي رفدَه من يجاورُ

وهكذا تكدّست الأجيال في الحفر عبر العصور والأزمنة، لكننا ننسى هذه الحقيقة المرّة. يروي المؤرّخون أن الإسكندر أعجبته نفسه؛ لأنه التفت وراءه، فرأى جيشاً ضخماً يربو على مليوني محارب، فشعر بشيء من الاعتزاز والزهو، وفي هذه الأثناء مرَّ بشخص جالس عند القبور ينبش فيها، فقال له: ما تصنع؟ قال: أنا أنبش القبور في هذه المقبرة منذ فترة؛ لأرى إن كانت العظام المتبقّية فيها تتميّز عن بعضها البعض أو لا. ففيها عظام متنوّعة لعظماء وعباقرة وملوك وفلاسفة وأُناس بسطاء كلّهم ماتوا ودفنوا هنا، فأردت أن أُميّز بين عظام هؤلاء وعظام هؤلاء، فرأيت أنها لا تختلف. وهذا المعنى طلب أحد الأعراب أن يكتبوه على قبره:

ياواقفينَ ألم تكونوا تعلموا أن الحِمام بكم علينا قادمُ
لو تنزلون بشِعبنا لعرفتُمُ أن المفرطَ في التزوّدِ نادمُ
لا تستعزّوا بالحياةِ فإنكم تبنون والموتُ المفرّقُ هادمُ
ساوى الردى مابيننا في حفرة حيث المخدَّمُ واحد والخادمُ[1]

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٥٩٩. ومثلها ما أنشده أبو علي الحسن بن فراج الطرابلسي من قصيدة:

حكمَ الإلهُ على الورى بفناءِ مستأثراً من دونهم ببقاءِ
فإلى نفادٍ كلّ شيء صائرٌ وإلى مماتٍ مرجعُ الأحياءِ

فهذه الحقيقة يجب ألّا يغفل عنها الإنسان، بل الذي ينبغي عليه أن يذلّ نفسه أمام اللّه وأمام الموت حينما يذكرهما، وأن يحسن سلوكه؛ فليس هناك واعظ مثل الموت[1]. فالآية أرادت أن تنبّه الإنسان لهذا، وأن توقظه من رقدته.

والإنسان فيه قابلية للسمو وفيه قابلية للانحدار حسب تربيته وسلوكه واستعداده، فالبعض يسمو إلى مستوى رائع، وعندما نقرأ سيرته فإننا نحسّ بها كأنها جنة من الجنان، أما البعض الآخر فعندما نقرأ سيرته فإننا نحس كما لو أنّا على أنياب ذئب يريد أن ينهشنا. فصحيح أن الإنسان من تراب، لكن بوسعه أن يسمو ويكون نوراً وألقاً.

حول إيمان أبي طالب رضي الله عنه

ومن خلال هذا الطرح أُريد أن أُلفت نظرك إلى مسألة هامّة جدّاً هي مسألة إيمان أبي طالب رضي الله عنه، وما يثار حولها من زوبعة ونقاش لا تخفى دوافعه، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله عندما بُعث كان أبو طالب رضي الله عنه متزوّجاً من فاطمة بنت أسد (رضي الله عنها)، فبقيا على عقد زواجهما إلى أن مات أبو طالب رضي الله عنه، فلو كان أبو طالب كافراً فكيف يجعل الرسول صلى الله عليه وآله تحته امرأة

ساوى الردى بين الورى لكنّهم ... فيما سواه ليس هم بسواءِ
ما في الخليقةِ والمهيمنِ غابرٌ ... من ساكني الخضراءِ والغبراءِ
أين النجاءُ لذي حياةٍ من ردى ... كلّا وهل يسطاعُ ردُّ قضاءِ

معجم السفر ١: ٢٧١.

(١) قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «كفىٰ بالموت واعظاً». مصباح الشريعة: ١١٣، الجامع الصغير ٢: ٢٧٢ / ٦٢٤٥.

مسلمة وهي من أوائل المسلمات، وإذا كانت المرأة المسلمة تستبين من زوجها المشرك، فلماذا ترك الرسولﷺ أبا طالبرضي الله عنه مع فاطمة بنت أسد، واعتبرهما زوجين شرعيين، ولم يفرق بينهما؟ فهل يعقل أن النبيﷺ أهمل حكماً من أحكام الله؟ معاذ الله؛ فهوﷺ على ثقة من أن أبا طالبرضي الله عنه كان مسلماً، ولكنه كان يكتم إسلامه.

وقد يقول البعض: إنكم تصرّون على هذا؛ لأنه أبو الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام.

ونقول له: إن الإمام علياًعليه السلام كلّه ألق مهما كان أبوه، فلا يحتاج لأن نجلب له فضيلة من الخارج، بل إنهعليه السلام يكفيه ماعنده، فكلّ ذرّة من كيانه مفخرة من مفاخر الإسلام، ولكلّ ذرّة من كيانه مفخرة كذلك. فالمسلمون مثلاً ما عدا الإمامية يقولون: إن أُمّ النبيﷺ وأباه ماتا كافرين، ومع ذلك فإن هذه المحاولة لم تضرّ بالنبيﷺ في شيء، وإن كان هذا قولاً فظيعاً ومردوداً، وقد ردَّ عليه حتىٰ من أبناء بعض المذاهب الإسلاميّة الأُخرى. فلا يجوز أن يخلق نبي من صلب نجس.

فهذا الحكم إذن يدلّ على أن أبا طالبرضي الله عنه كان مسلماً مؤمناً، وكان يخفي إسلامه.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإننا نريد بعد ذكر هذا المعنى أن نرجع ونتساءل: هل هذا الحكم يستند إلىٰ دليل معتبر؟ فعندما أصف شيئاً بحكم من الأحكام فلابد من الاستناد إلى دليل، وإلّا فإن الحكم بدون دليل لا يعتبر حكماً شرعياً وإنما هو تحكّم باطل. مع أن فقهاءَنا يجوّزون أن يتزوج أي مسلم امرأة من الشيعة؛ سواء كان هذا المسلم حنبلياً أو

شافعيّاً أو مالكيّاً؛ لأنه يقول: «أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه». في حين أن بعض الفقهاء من المذاهب الأُخرىٰ يستفتىٰ حول جواز التزوّج من الشيعة فيقول: لا يجوز. ونحن نقول: لماذا؟ وما هو الدليل على ذلك؟

فمن كتبهم (الفقه على المذاهب الأربعة) و(الأنكحة الفاسدة) حيث إنهم قد ذكروا فيها أنهم لا يسوّغون الزواج من الشيعة؛ بدعوىٰ أنهم مرتدّون، ويزعمون أن جبرئيل عليه السلام خان الأمانة ومال بالوحي من علي بن أبي طالب عليه السلام وأعطاه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله.

ونحن نقول: إذا ثبت هذا عنهم وعندهم فإنهم كفرة. لكن أين يوجد هذا؟ إنّ كل مآذننا تشهد وتقول: «أشهد أن محمداً رسول اللّه»، ونقول: إن علياً عليه السلام يتشرّف بخدمة رسول الله صلى الله عليه وآله[1]، فكيف ينسب هذا المعنى لهم؟ وكيف يُكفّر كمّ هائل قوامه الملايين من المسلمين؟ وعلى أي دليل اعتُمد؟

نحن نقول: إنّ الذي يعتقد بأن النبي غير رسول الله محمّد بن عبد اللّه بن عبد المطلب صلى الله عليه وآله فهو كافر؛ لأنه أنكر ضرورة من ضرورات الإسلام. أليس عيباً أن تقولوا ذلك بحقنا؟ وهذه مصيبة يجب أن يُلتفت إليها؛ حرصاً على وحدة المسلمين، وإماطةً للأذى عنهم.

وعليه فالكفاءة تتحدّد بالإسلام والخلق فقط.

---

(١) مرّ بنا عن قريب قول أمير المؤمنين عليه السلام، وقد سأله أحد اليهود فقال له: أفنبي أنت؟ فقال له: «ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد صلى الله عليه وآله». الكافي ١: ٨٦ / ٥، ٩٠ / ٨، التوحيد: ١٧٤ / ٣.

عقد النكاح وأحكامه

ثم ينبغي ألّا تكون في العقد أشياء تخلق مشكلة فيما بعد، أو أن يكون فيه شرط يفسد العقد، كأن يعقد على امرأة بشرط أن يكون له حقّ فسخه بعد ثلاثة أشهر. أي أنه يجري العقد بصيغة الدوام غير أنه يشترط حقّ الفسخ بعد ذلك، فهذا الشرط باطل، والعقد باطل أيضاً.

الشرط الباطل

وهناك حالات يكون العقد فيها صحيحاً لكن الشرط فقط هو الذي يبطل، وذلك مثل ما لو اشترطت المرأة شرطاً منافياً للعقد، كأن تشترط في عقد الزواج بألّا يمسّها الزوج. فهذا الشرط يلغو ويبقى العقد صحيحاً.

ومن تلك الحالات أيضاً مالو كان الشرط مخالفاً للشرع، مثل أن تقول الزوجة له: تتزوّجني بشرط ألّا تتزوّج عليَّ. فهذا الشرط باطل؛ لأنه خلاف الحقوق التي أعطاها الله تعالىٰ للزوج، فمن حقّه أن يتزوّج عليها، لكن عليه أن يفكر قبل القدوم على الزواج الثاني في قدرته علىٰ أن يجمع بينهما بالعدل، وأن يفكر في أنه هل يستطيع تربية الأطفال بالشكل الصحيح أم أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ولا يقدر عليه؛ فيعرّض إحدى زوجاته للذلّ، ويترك أطفالها يعيشون الحرمان؟

روي عن النعمان بن بشير أنه قال: سألت أُمّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي، فقالت له إمي: لا أرضى حتى تشهد النبيﷺ. فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبيﷺ، فقال: إن أُمّه سألتني بعض الموهبة لهذا. فقالﷺ: «ألك ولد سواه؟». قال: نعم. قال: «لا

تشهدني على جور». وفي رواية غيرها: «ألك بنون سواه؟». قال: نعم. قال ﷺ: «فكلّهم أعطيت مثل هذا؟». قال: لا. قال: «فلا أشهد على جور»[1]. ذلك أنه خلاف العدل.

فالإنسان بمثل هذا التصرّف يخلق مشكلة بينه وبين أزواجه وأبنائه، ويخلق العداء والبغضاء بين الإخوة. فالمسألة ليست في القدرة على التعدّد فقط، بل في وجود قدرة نفسية وأخلاقيّة علىٰ العدل والمساواة داخل الأُسرة. فعندما أعطانا اللّه تعالىٰ الحقّ في ذلك فإنه أوجب علينا في المقابل أن نقدّر استعمال ذلك الحقّ. وهذا مثل موضوع الحرّيّة الفرديّة، فإنها وإن كانت قد منحت للإنسان لكن على ألّا تخرج عن حدّها؛ فإن ذلك إساءة للحقّ الذي أعطاه الله تعالى إيّاه.

ومن تلك الحالات أيضاً أن تشترط عليه عند الزواج ألّا تلاقي ضرّتها، فهذا ممّا لا تملكه، أو أن تشترط ألّا يصل رحمه وأقاربه، فهذا الشرط أيضاً باطل؛ لأنه خلاف الحقّ والشرع، لكن العقد صحيح، فهي هنا تأمره بما حرّم الله عليه، وتنهاه عمّا أمره به؛ حيث إن الله أمره أن يصل رحمه.

فمثل هذه الشروط يفترض بنا مراعاة ضوابطها الشرعية، لكننا نجهل الأحكام الشرعية المتعلّقة بهذا الجانب أو بغيره، والمفروض بنا أن نراجع رسالة أحد العلماء العدول، ونوسّع معلوماتنا حول هذا الأمر، وإذا لم نعرف مسألة فالواجب يحتّم علينا حينئذٍ أن نسأل عنها لا أن نبقىٰ علىٰ ما نحن عليه من جهل فظيع بأحكام الله تعالى.

---

(١) جامع المقاصد ٩: ١٧١، مسند أحمد ٤: ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١، صحيح مسلم ٥: ٦٦.

حقوق الزوجة وواجباتها في المنظور الإسلامي

وبعد تخطي العقبات والولوج إلى الحياة الزوجية، يسارع الشارع المقدس إلىٰ التأكيد علينا حول ضرورة صيانة حقوق الزوجة ووجوب مراعاتها والإشفاق عليها، يقول الرسول الأكرم ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوانٍ»[١]. وفي رواية: «إنهن عوارٍ عندكم»[٢]. أي أنكم استحللتم هذه المرأة بكلمة الله، فاستوصوا بها. فالقرآن والسنّة يأمران الزوج بأن يعامل زوجته بالحسنى، ويقرّران أنه هو المسؤول عن نفقتها من كساء وسكن وطعام، أمّا هي فمسؤولة عن ألّا توطئ فراشه من لا يحب، فلا تدخل أحداً لا يريده أن يدخل؛ لأن البيت بيت الرجل، ومن دواعي الانسجام أن تتقيد الزوجة بما يريده. ومن واجباتها ألّا تخرج من بيتها بدون إذنه؛ فهي محسوبة عليه، فإذا خرجت بدون إذنه لعنتها ملائكة السماوات والأرض[٣].

وفي المقابل فإن علىٰ الزوج ألّا يتعسف في استخدام الحقّ، بل إن عليه المعاملة بالحسنىٰ، كما عليها أن تعامله بالحسنىٰ وأن تحفظه في ماله وفي نفسها، وأن تخلق له الجوّ الذي يريده المشرّع في البيت.

فالرجل يكافح الحياة ويصارعها ويواجه مواقف صعبة أثناء عمله، ولذا فهو بحاجة إلى أن يجد من يمسح عنه الألم عندما يرجع إلىٰ بيته، وليس غير بسمة الزوجة؛ لأن المرأة تحمل السعادة له بذلك، ولذلك نرىٰ

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٥٥ / ١٦، سنن ابن ماجة ١: ٥٩٤ / ١٨٥١.

(٢) إيضاح الفوائد ٣: ٢٦٧، فتح القدير ١: ٤٦٢.

(٣) الكافي ٥: ٥٠٦ ـ ٥٠٧ / ١، مسند أحمد ٣: ٣٤٨.

الرجل يعتزّ بزوجته هذه.

وهنا أُحب أن أروي لك قصة أبي الدحداح الأنصاري، فحينما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] دخل أبو الدحداح علىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الله يطلب منا القرض؟ قال: «نعم، يطلبه منكم ليدخلكم به الجنة». فقال أبو الدحداح: يا رسول الله، إذا أقرضت الله، أتضمن لي ولأولادي ولابنتي الدحداحة من الله العطاء؟ قال النبي ﷺ: «نعم». قال: يا رسول الله، فاشهد عليَّ وأعطني يدك.

فوضع يده بيد النبي ﷺ وقال: اشهد عليَّ يا رسول الله أن عندي حديقتين لا أملك غيرهما وقد وضعتهما في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «أمسك عليك واحدة لك ولأطفالك، وضع الثانية في سبيل الله». فقال: أُشهدك يا رسول الله، أني أُعطي أفضلهما وهي حديقة بها ستّمئة نخلة. فقال له النبي ﷺ: «جزاك الله خيراً».

فرجع أبو الدحداح إلىٰ الحديقة، فوجد فيها امرأته أُمّ الدحداح وأولادها وقد وضعوا في جيوبهم تمراً جمعوه ليأخذوه معهم، فقال لها: يا أُمّ الدحداح، أنا وهبت هذه الحديقة لله. فقالت: شكر الله سعيك، ونعم البيع بيعك، وانتظرْ عطاء الله. ثم أخذت تستخرج التمر من جيوب الأطفال وتضعه في الحديقة إلىٰ جانب التمر الذي كانوا قد جمعوه، ثم أخذت أولادها وذهبت إلىٰ الحديقة الثانية[2].

---

(١) البقرة: ٢٤٥.

(٢) مجمع البيان ٢: ١٣٧، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢٣٧، ٢٣٨، وفي هذه الواقعة قال النبي ﷺ: «كم من عذق رداح ـ أي ثقيل ـ ودار فياح ـ أي واسعة ـ لأبي الدحداح».

فالمرء إذا انسجم في أُسرته تحقّقت له السعادة. ومن نعم الله على المرء الزوجةُ الصالحة. ونحن لا نستطيع أن نصل إلى الأُسرة الإسلاميّة المثالية مالم نعرف المعادلة التي يجب أن تتوفّر بين الزوجين من وجهة نظر إسلاميّة، فالرجل والمرأة عليهما أن يقرأا ما يتعلّق بالأُسرة وتنشئتها.

الهجرة الحركيّة والهجرة النفسيّة

لقد سبقت عمليّة الهجرة التاريخيّة الحركيّة هجرة نفسيّة أعدّ لها الرسول الأكرم ﷺ كامل عدّتها، ففي الوقت الذي هاجر فيه رسول الله ﷺ من مكّة إلى المدينة كان قد قام بعمليّة الهجرة النفسيّة هذه. وهي عمليّة تقوم على أساس إعداد الشرائح المسلمة لتقبّل المضمون الإسلامي حيث وجد، فهي حركة انتقال داخل النفس من دنيا الشرك إلى دنيا الإسلام؛ فسلّحت النفس بالعقيدة. ولذلك تعتبر السنوات الثلاث عشرة التي قضاها الرسول ﷺ في مكّة عمليةَ إعداد نفسي، حيث بدأ ﷺ بتنظيف النفوس من الشرك ومن عادات الجاهليّة، ومن ثم أهّلها لتلقّي الأدوار المقبلة، ثم انتقل ﷺ من مكانه الذي نزل فيه الوحي عليه في مكّة إلى المدينة المنوّرة.

والهجرة النفسية أهمّ من الهجرة الحركية؛ لأن الانتقال من مكّة إلى المدينة عمل بسيط، لكن الهجرة النفسية خلاف ذلك. وعلماء الاجتماع يبحثون عنها في مسألة التخلّف الحضاري، أي أن الإنسان من السهل أن تكون له حضارة ماديّة ينتقل خلالها من طور إلى آخر، أمّا الحضارة الفكريّة فليس من السهل عليه أن يتقبّلها؛ فتحوّل الوقود إلى الغاز بدلاً من الحطب، أو تحوّل وسائل النقل إلى السيارة بدلاً من الحيوان أمر سهل؛ إذ أنه على وفق هوى الإنسان، أمّا تغيير العادة في البيت أو النفس

فليس سهلاً.

وعليه فالجانب الفكري ليس من السهل بمكان تغييره، سيّما إذا كان متأصّلاً في النفس، وخصوصاً إذا أخذ جانباً عقيدياً؛ فإنه يصبح من الصعب معه تغيير الإنسان وتحويله عن عقيدته التي كان عليها إلى عقيدة اُخرىٰ.

فالنبي ﷺ عندما نظر إلى الأمر بفكره الثاقب رأى أن من الصعوبة أن يطوّع أهل مكّة للاستعداد لملء النفس بعقيدة تحلّ محلّ العقيدة الاُولىٰ التي هم عليها، فهؤلاء كانوا يعبدون (٣٦٤) صنماً على ظهر الكعبة، فمن الصعوبة بمكان أن تنتزع منهم الإيمان بهذه الآلهة المجسّدة في صورة أصنام وتقول لهم: آمنوا بربّ واحد آخر لا يمكنكم أن تروه: **﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾**[1].

وعليه ففترة من الزمن قوامها (١٣) سنة كانت انتقالاً من عالم إلى عالم آخر، حيث إنها هيّأت الأوّليّات والقواعد، ثم أعدّت النفوس، ثم بعد ذلك بُدئ بالهجرة الحركيّة من مكّة إلى المدينة. وكان أن هبط جبرئيل عليه السلام على الرسول الأكرم ﷺ، وأخبره بأن قريشاً قد أعدّت العدّة للقضاء عليه، وأنهم قد اجتمعوا في دار الندوة وقرّروا أن يشركوا القبائل في قتله ﷺ وذلك بأن يضعوا أسيافهم عليه مرّة واحدة ويقتلوه، فيضيع دمه بين القبائل، ولا يستطيع الهاشميّون أن يقابلوا القبائل بصورة عامّة.

نعم هبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل الآية الكريمة: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾**[2]، وأمره أن يهاجر ويخرج من مكّة.

---

(١) ص: ٥. (٢) الأنفال: ٣٠.

وبالفعل هيّأ ﷺ نفسه للخروج، وخرج معه أبو بكر ودخلا معاً إلى الغار، وكان ﷺ قد استدعى أمير المؤمنين عليه السلام قبل ذلك وأمره بالمبيت على فراشه، وقال ﷺ له: «إن الله أمرني أن أُضجعك مكاني هذه الليلة، وأن تعتجر بردائي وتنام مكاني». فالتفت إليه الإمام عليه السلام قائلاً بإذعان كامل: «يا رسول الله، إذا نمت مكانك أو تسلم؟». قال: «بلىٰ». قال: «روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا».

فبات عليه السلام على فراش النبي ﷺ، وقريش مجتمعة خارج الدار، وأخذ الرسول كفّاً من التراب فقذفهم به، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾[1] وجاوزهم، فمرَّ بهم رجل وقال: ماذا تنتظرون؟ قالوا: ننتظر خروج محمد. قال: تبّاً لكم؛ لقد مرَّ عليكم وقذفكم بالتراب. فهجموا على أمير المؤمنين عليه السلام، فانبرىٰ عليه السلام لهم بسيفه قائلاً: «ما وراءكم؟». قالوا: أين محمد؟ قال: «أوتركتموني عليه حارساً؟»[2]. وشهر السيف في وجوههم، فكرّوا عنه راجعين.

وقد خلّدت السماء هذه اللحظة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللّهِ﴾[3]، وهبط جبرئيل وميكائيل عليهما السلام وكلّ منهما يقول: «بخٍ بخٍ لك يابن أبي طالب، من مثلك وقد باهىٰ الله بك ملائكة السماوات؟»[4]:

ومناقبٌ لك دون أحمدَ جاوزت ... بمقامك التوصيفَ والتحديدا

---

(١) يس: ٩.

(٢) مسند أحمد ١: ٣٤٨، فتح الباري ٧: ١٨٤.

(٣) البقرة: ٢٠٧.

(٤) الأمالي (الطوسي) ٤٧١ ـ ٤٧٢، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٦٢، التفسير الكبير ٥: ١٧٤.

فعلىٰ الفراش مبيتُ ليلك والعدا تهدي إليك بوارقاً ورُعودا
فرقدتَ مثلوجَ الفؤادِ كأنّما يُهدي القراعُ لسمعكَ التغريدا
ووقيتَ ليلتهُ وبتَّ مُواسياً بالنفسِ لا فشلاً ولا رِعدِيدَا
رصدوا الصباحَ لينفقوا كنزَ الهدىٰ أوَما درَوا كنزَ الهدىٰ مرصودا
يا مُنشئَ الأفلاكِ والأملاكِ بل لولاكَ ما عَرفَ الوجودُ وجودا[1]

فخرج ومعه أبو بكر حتى دخلا الغار، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى حمامتين وحشيّتين، فبنتا عشّاً لهما على بابه وباضتا فيه، وأوحى إلى العنكبوت فنسجت على بابه أيضاً. ولذلك عندما جاءت قريش مع القائف[2] الذي انتهى بها عند الغار، ووجدت خيوط العنكبوت قالت: إذا كان محمد قد دخل الغار فإنه سيخرق هذه الخيوط. يقول أحد الشعراء:

(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٤١.

(٢) القائف: الذي يتبع الآثار. الصحاح ٤: ١٤١٩ ـ قوف. والقيافة ضربان: قيافة البشر، وقيافة الأثر فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان لمعرفة نسبه وأصله. وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج، يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفراً فيلحقه بأبيه منهم. وحكي عن بعض أبناء التجار أنه كان في بعض أسفاره راكباً على بعير يقوده غلام أسود، فمرّ بهذه القبيلة، فلمّا نظر إليه أحدهم قال: ما أشبه الراكب بالقائد. فلما رجع إلى اُمّه ذكر لها القصّة فقالت له: إن أباك كان شيخاً كبيراً ذا مال وليس له ولد، فخشيت أن يفوتنا ماله، فمكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك. ولولا أن هذا شيء ستعلمه غداً في الدار الآخرة لما أعلمتك به في الدنيا.

وأما قيافة الأثر فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف، وقد اختصّ به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبّعوا آثار قدمه حتى يظفروا به. ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ، والمرأة من الرجل، والبكر من الثيب، والغريب من المستوطن. انظر المستطرف في كل فن مستظرف ٢: ٨٣.

ألقِني في لظى فإن أحرقتني	فتيقّن أن لستُ بالياقوتِ
صنع النسج كلّ من حاك لكن	ليس داود فيه كالعنكبوتِ

وأكّد هذا المعنى أحد الأدباء فقال:

نسج داود ما حمى صاحب الغا	ر وكان الفخار للعنكبوتِ[١]

وبالفعل كانت من مفاخر العنكبوت؛ حيث أمره الله تعالى أن ينسج على باب الغار، وكان أن رجعت قريش.

المبحث الثاني: الدروس المتوخّاة من الهجرة

والآن لنتساءل: ما هي العبر والمواعظ المستودعة في هذه الحادثة؟ هناك عدّة دروس يمكن رصدها أمام هذا الحدث التاريخي العظيم، ومنها:

الدرس الأول: أن الهجرة الحركيّة سبقتها هجرة نفسية

وقد أشرت إلى هذا فيما سبق من البحث، لكن قد يقول قائل: إن الهجرة الحركيّة قد تشكّل عبئاً على النفس، حيث إن الإنسان مشدود بطبعه إلى تربة وطنه شدّاً عنيفاً، فليس من السهل أن يفارق بلده ومسقط رأسه. يقول أحد الشعراء في بلدته:

وكنّا ألفناها على كلّ حالةٍ	وقد يؤلفُ الشيءُ الذي ليس بالحسنْ
كما تؤلفُ الأرضُ التي لم يطِب بها	هواءٌ ولا ماءٌ ولكنها وطنْ[٢]

ولذلك فإنه ليس من السهل مفارقة مسقط الرأس؛ ولهذا تقول الآية الكريمة: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ**﴾[٣]، فهي تعطف الخروج من الوطن على قتل النفس؛ لشدّة وقعه

---

(١) البداية والنهاية ٣: ٢٢٢، ٦: ٣٠٣، ٣١٨، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ٢٤٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٩١، البداية والنهاية ٣: ٢٢٢، ٦: ٣٠٣، ٣١٨، السيرة النبوية (ابن كثير) ٢: ٢٤٠.

(٣) النساء: ٦٦.

عليها. فالإنسان إذا خرج من وطنه فكأنما خرجت روحه من جسده.

وفي الفقه الجنائي عند المسلمين أن من العقوبات المشدّدة هي التغريب عند ممارسة بعض الجرائم، حيث يهجَّر مرتكب الجريمة تلك إلى بلد آخر. وهي عقوبة متأصّلة في الحضارة العربيّة قبل الإسلام. فإذا قتل أحد شخصاً فإنه يُجلىٰ عن بلده. فالإنسان تشدّه للدار أواصر من الصعب انتزاعها، حتى إنها تتحوّل إلى جزء من كيانه، يقول أبو تمام:

وحبّب أوطانُ الرجالِ إليهمُ ... مآرب قضّاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ ... عهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا[1]

فهذه التربة قد نشأت مع عواطفه ومشاعره. فمسألّة الهجرّة ليست سهلة، ولذلك فإنّ رسول الله عندما خرج من مكة أدار وجهه إليها وقال: «**الله يعلم أنني أُحبّك، ولولا أن أهلك أخرجوني عنك لما آثرت عليك بلداً**»[2].

وهنا نقطة أُحبّ أن أُشير إليها، وهي أنه قد يقول قائل: أوليس يعدّ خروج رسول الله ﷺ نوعاً من الهرب من المشركين؟

ونقول: كلا؛ لأن النبي ﷺ كان أشدّ الناس صلابة، وأكثرهم استهانة بالنفس في سبيل الله، وكان الإمام علي عليه السلام في شدّة شجاعته يقول: «**وكنا إذا اشتدّ البأس نلوذ برسول الله ﷺ**»[3]. فليست المسألة مسألة هروب، وإنما مسألة موقف ومبدأ؛ كان الرسول ﷺ يعرف أنه يحمل رسالة ضخمة، وإذا

---

(١) أمالي المرتضي ٤: ٦١، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٩٢، المستصفىٰ (الغزالي): ٤٩.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ٩: ٣٣؛ ١١٠٣٠، ٣٤٦ـ ٣٤٧؛ ١١٠٤٦، مسند أحمد ٤: ٣٠٥.

(٣) الرسالة السعدية: ٧٩، وبمعناه أحاديث كثيرة. انظر: مسند أحمد ١: ٨٦، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥٧٨، وغيره.

بقي هنالك فسوف تموت هذه الرسالة.

فالتراب أحياناً يرفض بعض النباتات في حين أنها تنبتها تربة أُخرى، فتترعرع فيهاوتنمو. فالنبيﷺ لاحظ أن رسالة الإسلام لن تنمو في مكّة؛ لأن فيها صلابة شديدة ولوناً من التعصّب لميراثهم الديني والاجتماعي. فهوﷺ بقي في مكّة (١٣) سنة ولم يتّبعه فيها إلّا أفراد قلائل. فهذه التربة كانت غير مؤهّلة لحمل الرسالة، أي أنها لا تمتلك خلفيّة حضارية، أمّا المدينة فهي ذات تاريخ حضاري معروف.

العمق الحضاري للمدينة وخصائص مجتمعها

إن بعض علماء الاجتماع يردّون الفكر إلى التراب، ويقرّرون أنه ينبع منه. فالتربة ذات تأثير في تكوين مزاج الفرد. والمزاج عند أهل المدينة غيره عند أهل مكّة؛ ذلك أن المدينة لها خواصّ معيّنة؛ ولذا ارتأى النبيّﷺ أنها أنسب المدن لزرع الحضارة الدينية التي يدعو (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله) إليها.

ولذلك فإن الفترة التي قضاها في مكّة كان لها صلة بالعقائد، أمّا في المدينة فقد أسّس دولة المسلمين، وبدأت التشريعات الإسلاميّة تأخذ عمقها في التطبيق، ونزلت الآيات ذات العلاقة بالتنظيم الاجتماعي، فلم يخف النبيﷺ ولا أصحابه؛ حيث إنهم كانوا يعرفون أن حمل الرسالة الإسلاميّة سيكلّفهم ثمناً غالياً، وقد ينتهي الأمر إلى إزهاق أرواحهم.

فالذي دفع الرسول ليهاجر من مكّة إلى المدينة هو الحرص على أن تلعب الرسالة دورها، وأن تتجذّر فيها وتنمو.

وقد تغيرت الأحوال في المدينة، حيث إن النبيﷺ وضع فيها

التشريعات، وكان ﷺ قد أمر الإمام علياً عليه السلام أن يؤدّي الودائع إلى أهلها في مكّة ثم يلتحق به بعد ذلك.

قضيّة التأريخ الهجري

وهنا نقطة أُحبّ أن أتوقّف عندها؛ لأهمّيتها، وهي أن المسلمين يؤرّخون بالتاريخ الهجري، فمتىٰ حصل هذا التأريخ؟ إن هجرة الرسول ﷺ لم تكن في المحرّم وإنما كانت في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فلماذا إذن نجعل بداية التاريخ الهجري في شهر المحرم؟

إن توضيح هذا يستلزم بيان مقدّمة، فنقول: كان العرب يؤرّخون بالأحداث العظيمة كموت الحارث بن هشام، وبواقعة الفيل، وفي زمن عمر احتاج المسلمون إلى أن يؤرّخوا كتبهم فأشار عليهم أمير المؤمنين عليه السلام أن يؤرّخوا بالهجرة، فاستحسن عمر بن الخطاب الفكرة وأمر بتنفيذها[1].

الإسلام أذاب كلّ الحواجز الطبقيّة

لقد عمد الإسلام الحنيف إلى خلق مجتمع واحد يحكمه الدين

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٢: ٣، البداية والنهاية ٧: ٨٥، الكامل في التاريخ ١: ١١.
ذلك أنّه رفع إلى عمر سنة (١٧) أو (١٨) هجرية صكّ أجله إلىٰ شعبان، فقال: أيَّ شعبان هو؟ أشعبان الآتي أم الماضي، أم شعبان الذي نحن فيه؟ فقام إليه رجل فقال: أرّخوا. قال: عمر: وما أرّخوا؟ فقال الرجل: شيء تفعله الأعاجم، فتقول: في شهر كذا من سنة كذا. قال عمر: حسن.

ثم اختلفوا بأي شيء يؤرّخون؛ فقال بعضهم: أرّخوا بتاريخ الروم. وقال بعضهم: أرّخوا بتاريخ الفرس. فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: «أرخوا من مهاجرة رسول الله ﷺ».فأرخوا.

ثم اختلفوا في الشهر الذي يبتدئون منه سنة تاريخهم، فقال قوم: من رمضان؛ لأنه أفضل الشهور. وقال آخرون: «من ربيع الأول؛ فإنّه شهر المولد والهجرة».

ثم رأوا أن يكون من المحرّم لأنه شهر رجوع الناس من حجّهم، وهو أيضاً شهر حرام.

والأخلاق، وتربطه علاقات قائمة على أساس الإيمان والإخاء؛ ولذا فإن الرسول الأكرمﷺ شرع في إذابة الحواجز التي خلفتها الجاهليّة عند العرب والمسلمين. وبمجرّد أن وصل النبيﷺ إلى المدينة وضع القاعدة الأساسيّة لبناء المجتمع فيها، وهي تذويب كل تلك الحواجز التي تشكّل فاصلاً بين وحدة المسلمين وتلاحمهم وتآخيهم.

الحواجز العنصريّة

إن الكثير من الناس آنذاك كان يعيش تحت تأثير الحاجز العنصري الذي كان متأصّلاً عند العرب، ومتغلغلاً في نفوسهم. وكمثال على هذا ما يروى من أنه قيل لرجل من العرب: لماذا لاتتّخذ ندُماء وأصدقاء؟ قال: ومن يصلح لمنادمتي؟ إنما ينادمني الفرقدان[١]، وهذا قمّة الغطرسة والغلوّ.

وكان الحجاج بن أساة يرفض أن يصلّي جماعة، ولمّا سئل عن السبب، قال: أُصلي معكم حتىٰ يزاحمني البقّالون والحمّالون[٢]؟

---

(١) هو جذيمة الأبرش، انظر المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٢٨٥. والفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان، ولكنهما يطوفان بالجدي. وقيل: هما كوكبان قريبان من القطب. وقيل: هما كوكبان في بنات نعش الصغرى.

وفي أمثالهم: لأبكينّك الفرقدين، أي طولَ طلوعهما.

فائدة نحويّة: النجوم كلها تنتصب على الظرفيّة، كقولنا: لأبكينّك الشمسَ والقمرَ والنسرَ الواقعَ. وهذا من باب إقامة الأسماء مقام الظروف، قال ابن سيده: وعندي أنهم يريدون: طولَ طلوعهما، فيحذفون اختصاراً واتّساعاً.

انظر: الصحاح ٢: ٥١٩ ـ فرقد، لسان العرب ٣: ٣٣٤ ـ فرقد.

(٢) كتاب المجروحين ١: ٢٢٥.

ومن هذا أيضاً ما يروى من أنه جاء ثلاثة إخوة إلى سوار بن عبد الله بن قدامة القاضي، فقال أحدهم: إننا إخوة وقد مات أبونا، ونحن الاثنان أشقّاء، أمّا الثالث فأُمّه أمة، ونريدك أن تقسم الميراث بيننا. فقال: ليس في البين مشكلة؛ فلكل واحد منكم الثلث. قالا: لا نراك فهمت. قال: بل فهمت؛ فإنه أخوكما. قالا: تعطي ابن الأمة كما تعطي ابن الحرّة؟ فقال: بلى. فقالا: إنك لقليل الخالات بالدهناء[1]. أي بتعبير آخر إنك لست ابن البادية.

وهذا يدلّ على أن الإسلام لم يصل إلى أعماق هؤلاء؛ لأن الإسلام يصنع الإنسان، وهذا إنما يتمّ بإذابة الحواجز التي يكون في طليعتها حاجز الشعور العرقي والطبقي.

الحواجز الاجتماعيّة

وهناك حاجز آخر هو الحاجز الاجتماعي الذي هو عبارة عن الثروة والمال، فماركس يعبّر عن المال بأنه «صنمية الذهب»، أمّا نحن فنسميها، «الطغيان»؛ حيث نجد في القرآن: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ**﴾[2].

فالأموال تحدث عند الإنسان شعوراً بالتعالي على الناس؛ ولذا فإن النبي ﷺ أعطى أولويّة لمعالجة مسألة الأموال والنسب والمسألة الاجتماعية، ووضع نماذج ذوّبت هذه الحواجز، وبيّن أن الإنسان سيتركها إلى التراب ولن يصحبه في رحلته هذه ذهب أو فضة، أو منزلة اجتماعيّة أو عِرق مرتفع أو نسب عالٍ. يروىٰ أن أحد الأعراب أمر أن

(١) الكامل في الأدب ٢: ٤٨.
(٢) العلق: ٥ ـ ٦.

تكتب على قبره هذه الأبيات:

ياواقفين ألم تكونوا تعلموا	أن الحِمام بكم علينا قادمُ
لو تنزلون بشعبنا لعرفتُمُ	أن المفرّطَ في التزوّدِ نادمُ
لا تستعزّوا في الحياة فأنتُمُ	تبنون والموتُ المفرّقُ هادمُ
ساوى الردى مابيننا في حفرةٍ	حيث المخدّم واحد والخادمُ[1]

فالتعاليم الإسلاميّة ذوّبت هذا الشعور، واعتبرت أن الإنسان بمضمونه لا بماله وعِرقه ونسبه. وكذلك النبي محمدﷺ فإنه ذوّب هذا الحاجز العِرقي عمليّاً بتزويجه زيد بن حارثة من حفيدة عبد المطلب (سيد البطحاء). كما أنهﷺ تزوّج إماء، وأغلب أُمهات الأيمّة عليهم السلام إماء.

الحواجز االنفسيّة

بعد أن ذوّب الرسول الأكرمﷺ (صلوات الله وسلامه عليه) الحواجز الاجتماعيّة بهذا الفعل عمد إلى تذويب الجانب النفسي الذي هو وليد الجانبين العرفي والاجتماعي، فالإنسان قد يؤمن بأن الإسلام علىٰ حقّ وأنه جاء بتعاليم فيها سعادة الدنيا والآخرة، لكنه هل من الممكن أن تتقبّلها نفسيّته بسهولة أم لا؟ إن هناك الكثير من الأحكام التي لا يتقبّلها الإنسان إلّا إذا رُوّض على الإيمان حتىٰ يذوب الحاجز النفسي.

وقد لعب الرسولﷺ دوراً كبيراً ومهمّاً في هذا المجال، واستلّ من قلوب المسلمين هذه الحواجز، وقام بعمليّة التآخي بين أصحابه في السنة الأُولى من الهجرة، فآخىٰ بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي رضي الله عنهما، وبين أبي

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٥٩٩.

ريحة الخزاعي وعبد من العبيد، وبين حمزة بن عبد المطلب ومن هو أدنىٰ منه.. آخىٰ بين المهاجرين والأنصار. وفي هذه المناسبة أودّ أن أذكر أن الإمام عليّاً عليه السلام بقي وحده دون أن يؤاخي الرسول صلى الله عليه وآله بينه وبين أحد، وكانت عيناه تفيضان من الدمع، فقال: «يارسول الله، أراك آخيت بين أصحابك وتركتني؟». فقال له الرسول صلى الله عليه وآله: «إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»[1].

وهذا المعنىٰ يشير إليه عبد الباقي العمري في أبياته:

يا أبا الأوصياءِ أنت لطه	صهرُه وابنُ عمِّه وأخوهُ
إن للهِ في معانيك سرّاً	أكثر العالمين ماعرفوهُ
أنت ثاني الآباء في منتهىٰ الدو	رِ وآباؤه تعدّ بنوهُ
خلق اللهُ آدماً من ترابٍ	فهُو ابنٌ له وأنت أبوهُ[2]

فعملية المؤاخاة كانت بعد الهجرة مباشرة.

الدرس الثاني: أنها خلقت بوادر إيجابية في أخلاق الصحابة

فعندما انتقل رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون إلى المدينة بدأت بوادر إيجابية عظيمة تظهر في أخلاقيّات أهل المدينة من المسلمين، وأخذت تهتزّ لها الدنيا إعجاباً، فحينما يأتي صحابي لآخر هو عبد الرحمن بن عوف ويقول له: عندي دار كبيرة، وأنت لاتملك داراً فسأُعطيك نصف داري، وأشاطرك أموالي وأثاثي، وعندي زوجتان سأُطلّق واحدة لتتزوّجها، فهذا ممّا لا يمكن المرور به مروراً عابراً أو تجاوزه دون أن نقف ونخشع عند

(١) انظر الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، أُسد الغابة ٤: ١٦، الإصابة ٤: ٤٦، البداية والنهاية ٧: ٢٥.
(٢) شجرة طوبى ٢: ٢٢٠، الغدير ٦: ٣٣٨.

جلالة هذا الموقف. وهو أُنموذج رائع من نماذج عدّة لاتوجد في غير مدرسة الرسول الأكرمﷺ.

ففي هذه الفترة استطاع النبي محمدﷺ أن يبلّغ فيها رسالة الإسلام إلىٰ الناس الذين كان من شأنهم في الجاهليّة أنهم إذا حمل أحدهم رمحه فإنه لايقتل عدوّه فقط، وإنما يتناول أخاه وأقرباءه وأصدقاءه وأهله أحياناً، يقول شاعرهم:

وأحياناً على بكر أخينا إذا مالم نجد إلّا أخانا[1]

فرسول اللهﷺ، صنع ـ بعناية الله تعالىٰ وفضله ـ هذا اللون من التعاطف، وشدّ المسلمين إلى بعضهم البعض:

ياعطاءَ القرآنِ يصنعُ دنيا الـ ـحبِّ في أُمّـةٍ من الجلمودِ

في حين أننا إذا نظرنا الآن إلى وضع المسلمين فسنجده ممّا يؤلم حقّاً، وإلّا فما الذي يمكن أن نرجع إليه غير الشريعة؟ فلماذا هذا الحال؟ إن على المسلمين أن يدركوا أن هذه خلافات مصطنعة وراءها مرتزق أو حاقد أو إنسان يريد أن يدمّر الأُمّة؛ حيث لا يوجد مبرّر واحد لتمزّق المسلمين وتشرّدهم وتشرذمهم؛ فالانفراد بالرأي غير مقبول.

فرسول اللهﷺ ضرب لنا مثلاً سامياً حينما هاجر هو والمسلمون إلى المدينة، حيث ذوّب هناك جميع ما كان بينهم من حواجز، فأصبحوا يداً واحدة، ونشروا الهدى، وحملوا السيف للذود عن حياض الإسلام والمسلمين.

---

(١) البيت للقطامي. الصحيح من السيرة ٢: ١٨.

هذه بعض من دروس الهجرة، فالذي ينبغي ألّا تمرّ علينا ذكرى الهجرة أو ذكرها دون أن نستوحي معانيها. فالواجب أن نتذكّر تاريخنا المشرق، وأن نقارن بينها وبين الفترة التي نعيشها.

المبحث الثالث: دور الأنصار في حياة الأنبياء عليهم السلام

والأنصار جمع النصير، مثل أشراف وشريف[١]، وهؤلاء قد ينصرون على الأمر المادّي أو على الأمر المعنوي. فلننظر لهذا التقرير لدور الأنصار من المنظار الذي كان عليه أنصار النبي صلى الله عليه وآله، ولنرَ جهة الاعتبار بالنسبة لصحبة النبي صلى الله عليه وآله عندما كثر أصحابه، وكيف أنها عند الله جهة استقامة، في حين أنها عند البعض غير ذلك؛ فإذا كان عند هذا البعض مال كثر أصحابه وجماعته، أما من لا يملك مالاً فيعبّرون عن أتباعه بالأراذل: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[٢]. فهؤلاء يقولون هذا للنبي عليه السلام لأنهم ليس همّهم الاستقامة في شيء مطلقاً، وإنما كلّ همّهم هو المال. والحال أن الصحابة الذين التفوا حول نبينا صلى الله عليه وآله.. أُولئك الروّاد الأوائل الذين نأكل من ثمارهم الآن، وبجهدهم استمرّ الإسلام حيث ضربوا أروع الأمثلة في التضحية لم يكونوا إلّا فقراء متواضعين لله جلّ وعلا.

ونقرأ صوراً إيمانية لهذه النخبة الكريمة التي تأسّت بالرسول صلى الله عليه وآله وجعلته مثلها الأعلى، وهي صور تهزّ الإنسان من أعماقه، ومنها ما روي

---

(١) تحفة الأحوذي ١٠: ٢٧٢. (٢) هود: ٢٧.

من أن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل أسود حبشي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يارسول الله، قد فُضّلتم علينا بالألوان وبالصور (الملامح) وبالنبوّة، أترى إذا اتّبعت دينك وعملتُ بما عملتَ أنت، أكائن أنا معك في الجنة؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله **«بلى والذي نفسي بيده، وإنه ليُرى بياض الأسود وضياؤه في الجنة من مسيرة ألف عام»**.

فأسلم الرجل وحسن إسلامه ولازم النبي صلى الله عليه وآله، حتى نزلت سورة: **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾**[1].

وهنا أودّ أن أُشير إلى أن الصحافي المصري محمداً التابعي حينما يمرّ بكلام الدكتورة بنت الشاطئ في تناولها لشرح هذه السورة وتقريرها أنها نزلت في الخمسة أصحاب الكساء[2]، وهم النبي صلى الله عليه وآله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، حيث نزلت السورة بمناسبة النذر المعروف، فإنه يعقب على كلامها بقوله: إن التفسير الذي تروي عنه ما هو إلّا خرافات، كتفسير النيسابوري[3] وتفسير الزمخشري[4]، وإن هذه السورة لا علاقة لها بهؤلاء[5]، وإن الدكتورة بنت الشاطئ تخرّف بهذا الخصوص،

---

(١) الإنسان: ١.

(٢) انظر: المعجم الأوسط ٧: ٣١٩، فيض القدير شرح الجامع القدير ١: ٢١٧ / ٢٠٤.

(٣) أسباب نزول الآيات: ٢٩٧.　　　(٤) الكشّاف ٤: ٦٧٠.

(٥) قد مرّ أن ابن تيمية هو الذي أثار هذا الأمر، وحاول من خلاله نفي هذه الفضيلة عن أهل البيت عليهم السلام وإن كانوا بما حباهم الله به لا يضيرهم إنكار فضيلة من فضائلهم، لكنه الحقد:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقَها　　　فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

ديوان الأعشى: ١٤٤.

وقد صرّح به في مجموع الفتاوى ٤: ٤١٩، ومن مظاهر حقده ما بثّه في كتبه، انظر منهاج السنة

والمفروض بها أن تعرف اختصاصها، وأن هذا ليس من عملها.

ونسأل: لماذا هذا التحامل على أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله؟ إن عندنا ركاماً هائلاً من التعمية والحقد والتزوير يجثم على صدر التأريخ الإسلامي، ولا بدّ من إزالته كي تعرف الأجيال المسلمة حقائق التاريخ الحقيقي المشرّف والناصع، وتستفيد منه في حياتها، وتتلاقح مع التجارب المارّة فيه؛ وإلّا فإن المسلمين كافّة هم من سيكون الضحية. فلماذا نمنعهم إذن من أن ينهلوا من هذا المعين الصافي والمنهل الطاهر، منهل الرسول صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام؟

على أيّة حال، لما نزلت هذه السورة: ﴿**بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً * إنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِراً وَإمَّا كَفُوراً * إنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً * إنَّ الأبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً * إنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ**

٥: ٧ ـ ٥. وقد ذكرنا هناك ما نقله كلٌ من ابن الجوزي في زاد المسير ٨: ١٤١، والشوكاني في فتح القدير ٥: ٣٤٣ في مكان نزول هذه الآية الكريمة ممّا فيه دحض لهذا القول السخيف ورفع له. انظر ج ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ من موسوعة محاضرات الوائلي.

قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾[1]، جاء الرجل الأسود يسمع الآيات الشريفة، ثم قال للنبي ﷺ: يارسول الله، وإن عينيَّ تريان ماتراه عيناك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «بلى والله». فرفع رأسه وفاضت روحه الطاهرة.

فهذه صورة إيمانية تهزّ الإنسان من أعماقه، قال عبد الله بن عمر: فقام النبي ﷺ بتجهيزه، وإنزاله إلى القبر، وسمعته يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾[2]. فقلنا: ما الخبر يارسول الله؟ فقال: «والذي نفسي بيده، لقد أوقفه الله وقال: أي عبدي، وحقّي لأُبيّضنّ وجهك ولأبوّئنّك من الجنة حيث تشاء»[3].

فتأمّل هذه الصورة الرائعة، حيث حظي هذا الصحابي وأمثاله بهذه المنزلة الكبرى، وهي القرب من رسول الله ﷺ، ولم يخالفوه، فكان جزاؤهم هذا.

رجع

فالنبي ﷺ لم يلجأ إلى القتال أول بعثته؛ لأنه لم يكن لديه في مكّة أنصار فيهم الكفاية لأداء هذه المهمّة والقيام بها، لكن حينما هيّأ الله تعالى له من يتّبعه عن إيمان وعقيدة، وأصبح له أنصار بحقّ أخذ باستعمال هذا

(١) الإنسان: ١ ـ ٢١. (٢) الإنسان: ٢٢.

(٣) المعجم الكبير ١٢: ٣٣٤، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٤٨.

العلاج.

من هم الأنصار؟

ثم إن عندنا صنفين من الأنصار؛ مهاجري مكّة، وأنصار المدينة؛ ذلك أن المهاجرين هم أنصار أيضاً لكنهم كانوا إلى جانب النبيﷺ في مكّة، وكان عددهم قليلاً، لكن الذين وقع عليهم عبء القتال وإقامة الدعوة بعد ذلك هم أنصار المدينة (الأوس والخزرج). وهكذا اختصّ مصطلح المهاجرين بأهل مكّة، فيما اختصّ مصطلح الأنصار بالأوس والخزرج.

محاولات التفريق بين الأنصار والمهاجرين

ولم يرُق المنافقين ما كان عليه الأنصار من أهل المدينة والمهاجرون من حبّ ووئام ووفاق؛ فراحوا يعملون جاهدين في حياكة المؤامرات؛ لخلق نوع من الحساسية بين الطرفين، فلعبوا دوراً كبيراً في تخريب العلاقة بينهما، وإلقاء بذور الفتنة في بعض الأحايين. واستمرّت آثار هذا الخلاف بعد ذلك وإن كانت كمينة. وبالنتيجة كانت هناك عدّة محاولات منهم لتخريب هذه العلاقة بينهم، وتمزيق وحدة الصفّ الإسلامي. ونذكر من هذه المحاولات وآثارها السلبية:

الأولى: قضيّة فيء بني النضير

وهي قضيّة تمثّل أبرز مظاهر الاحتكاك بين المهاجرين والأنصار، فقد كان فيء بني النضير يعود للنبيﷺ خاصّة، لكنهﷺ رأىٰ أن التوازن في المجتمع مختلّ، حيث إن بعض المسلمين (وهم أنصار المدينة) كان عندهم مزارع وتجارة، والمهاجرون لا يملكون شيئاً، لأن قريشاً قد سلبتهم كل أموالهم، فوزّعﷺ الفيء على المهاجرين فقط دون الأنصار[1].

---

(١) انظر: شرح الأخبار ١: ٣١٨، مسند أحمد ٣: ٥٧، ٧٦، ٢٤٦، ٤: ٤٢، صحيح البخاري ٥:

فاستغل عبد الله بن أُبي هذه النقطة هو والمنافقون من أتباعه، فأخذوا يدورون بين الأنصار ويقولون: لقي محمد حزبه وأعطاهم المال، يأخذ ممّا أفاء الله عليه بأسيافنا، ويعطيه لجماعته، والله ﴿**لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**﴾[1].

فوصلت الكلمة إلى رسول الله ﷺ، فلم يردّ عليه وقتها، وكان قد قرّر أمراً. ولمّا سمع ابن عبد الله بما قال أبوه وقف له بباب الدار في المدينة عندما رجع وقال له: والله لا تدخل البيت حتى يرضى عنك رسول الله ﷺ، وحتى تعرف من هو الأعزّ ومن هو الأذلّ. ثم جاء فدخل على النبي ﷺ وقال له: روحي لك الفداء، لقد سمعت ما قال أبي، وعلمت أنك متألّم لذلك، وأنك تريد أن تقتله، فلي عندك رجاء. فقال رسول الله ﷺ: «ما هو؟». فقال: إذا أردت قتله، فأطلب منك أن أتولّىٰ ضرب عنقه. قال ﷺ: «لماذا؟». قال: لأمرين:

الأول: أن تعلم أننا لأي أمر نقتل آباءنا وأبناءنا.

والثاني: أني أخشىٰ أن تدركني حميّة الجاهليّة، فأقتل قاتل أبي لعلّي لا أصبر علىٰ رؤيته إذا رأيته، فأرتدّ عن الإسلام[2]. فعفا عنه الرسول الأكرم ﷺ إكراماً له.

الثانية: حرب أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية وملابساتها

واستمرّ الاحتكاك بين المهاجرين والأنصار، وقد ساعدت عليه عوامل أُخرى منها أن كلّ الأنصار كانوا إلى جانب علي بن أبي طالب في صفين،

---

(١) المنافقون: ٨. ١٠٤، ١٠٥، البداية والنهاية ٦: ٢٠٨.

(٢) مجمع البيان ١٠: ٣٧٣ ـ ٣٧٥، جامع البيان: المجلّد ١٤ ج ٢٨: ١٤٢ ـ ١٤٨.

وكان لمعاوية رجل واحد من الأنصار وهو البشير أبو النعمان الذي انضمّ إلى أبيه فيما بعد، وهو والي عبيد الله بن زياد على الكوفة حينما دخلها الإمام الحسين عليه السلام.

فالذين كانوا إلى جانب الإمام علي عليه السلام كان عليهم أن يدفعوا الثمن، وأي ثمن هو؟ إن الأُمويّين حينما أرادوا كتابة التاريخ كانوا كلّما مروا بالأنصار أو بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أعرضوا عن كلّ منقبة لهم، ولم يذكروهم بخير. كان خالد بن عبد الله القسري أحد الذين كتبوا التاريخ الإسلامي، وكان عنده كاتب، فقال له يوماً: هناك روايات تمدح علي بن أبي طالب وتمدح الأنصار، فهل أذكرها؟ قال: لا، لا تذكرها إلّا أن تجدهم في قعر جهنم.

ودفع أبناء الأنصار[1] جزءاً من الثمن، وهو أن الذين قتل آباؤهم في صفين قطع معاوية عنهم عطاءهم، وأماتهم جوعاً، مع أن أولاد الشهداء لهم ضمانات ماليّة من بيت المال حتى يخرجوا من مسمّى اليتم. ثم أخذوا يلاحقونهم ملاحقة شديدة ويهدّدونهم.

وحينما جاء معاوية للحجّ وخرج الناس لاستقباله، لم يخرج معهم أحد من الأنصار، فحاول الوالي إكراههم على الخروج لاستقباله، وانتهىٰ الأمر إلىٰ قيس بن سعد بن عبادة، فأبىٰ أن يخرج، لكنهم أجبروه علىٰ ذلك فخرج.

---

(١) الذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم وفي آبائهم: «فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار». شرح الأخبار ١: ٣١٨، مسند أحمد ٣: ٥٧، ٧٦، ٢٤٦، ٤: ٤٢، صحيح البخاري ٥: ١٠٤، ١٠٥، البداية والنهاية ٦: ٢٠٨.

وكان عمرو بن العاص إلىٰ جنب معاوية الذي استقبله، فرأى أنه قد أتىٰ وحده، فقال له: ما لي لا أرىٰ الأنصار؟ قال: ليس عندهم رواحل. فقال معاوية: فأين ذهبت نواضحكم؟ (يريد أنهم أهل زراعة). فقال له قيس: أفنيناها يوم بدر، يوم ضربناك وأباك علىٰ الإسلام حتىٰ أدخلناك فيه كرهاً. فأراد معاوية أن يجيبه، فسحب عمرو بن العاص رداءه وقال له: علىٰ رسلك، إن أجبته بواحدة أجابك بأربعة. فسكت[1].

فكانوا يلاحقونهم في كل شيء، ولكن هذا لا يضيرهم. وقد كان الرسولﷺ يعبّر عنهم بقوله: «عيبتي»[2]. وقد كانوا أحبّاء الرسولﷺ الذي أغدق عليهم المنزلة تلو المنزلة بما لا حدود له. وكانوا صحابة كراماً، وقد بذلوا كل ماعندهم من دم ومال وعطاء في طريق الاسلام[3]. فهؤلاء أنصار الله جلّ وعلا.

نماذج من أنصار أمير المؤمنين عليه السلام

أمّا أنصار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فنذكر منهم بعض

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٣٢٣ ـ نضح، شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٩٦ ـ ٢٩٧، الجامع لأحكام القرآن ٤: ٣٥، باختلاف عنها.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ومنها أن فنحاص بن عازورا أحد رؤساء اليهود كان يمشي يوماً في المدينة، فوجد الأوس والخزرج جالسين متصافين، فلم يرُق له ذلك، فجلس عندهم وقال لأحد رجال الأوس: أنسيت حينما حدثت بينكم وبين الخزرج معركة فقام شاعر الخزرج وشتمكم فقال فيكم كذا وكذا؟ ثم التفت إلىٰ الخزرج وقال لهم ما قال للأوس. وأخذ يُذكّر كلّاً من الطرفين بما يثير الحميّة في نفسه حتىٰ صاح أحدهم: يا للأوس، وصاح الآخر: يا للخزرج. فتداعوا إلىٰ السلاح حتىٰ أوشكوا أن يتقاتلوا. فبلغ الخبر النبيﷺ فخرج إليهم وقال: «أبدعوىٰ الجاهليّة وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها جاهليّة منتنة». أسباب نزول الآيات: ٧٧، الدر المنثور ٢: ٥٨.

النماذج، وإن كان في التاريخ ثغرات افتعلها الحقد. ومن هؤلاء الأنصار عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي استشهد في واقعة صفين، وكان أبواه أول من استشهد في سبيل الإسلام حيث شدّتهما قريش للأوتاد، وعرّضتهما للعذاب: وطعنتهما بالحراب.

فابنهما عمار ثمرة هذا الزواج المبارك، وقد قال له النبي صلى الله عليه وآله: «**يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدنيا ضياح من اللبن**»[1].

فلمّا كان في يوم صفين استسقى، فلم يكن ماء، فسقي لبناً، فأخذه وقال: لا إله إلّا الله، لقد قال لي رسول الله: «**يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدنيا ضياح من اللبن**». وأخذ سيفه وقاتل قتال الأبطال حتّى صرع.

والغريب أن يصدر من المؤرخ الحافظ عندما يستعرض واقعة صفين قوله: وعندما قتل عمار مع علي اتّضح لنا أن الحقّ مع علي[2]. أي أن الحقّ لم يتّضح أنه لأمير المؤمنين عليه السلام إلّا عندما قتل عمار رضي الله عنه معه، ولولا ذلك لما عرفنا أن أمير المؤمنين عليه السلام على الحقّ. وهذا إجحاف به عليه السلام، وبنهجه القويم، فهو عليه السلام لا يحتاج إلى مثل هذه التزكية ،وهو الذي يقول فيه

---

(١) انظر: دعائم الإسلام ١: ٣٩٢، الاختصاص: ١٤، مسند أحمد ٢: ١٦١، ١٦٤، ٢٠٦، ٣: ٥، ٢٢، ٢٨، ٩١، ٤: ١٩٧، ١٩٩، ٥: ٢١٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٦: ٢٨٩، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٥، صحيح البخاري ٣: ٢٠٧، صحيح مسلم ٨: ١٨٦، البداية والنهاية ٣: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وغيرها كثير.

(٢) قريب منه مقولة الشهاب الخفاجي: «وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله: «إذا اختلف الناس كان ابن سميّة مع الحقّ». وابن سمية هو عمار، كان مع علي (كرّم الله وجهه)، وهذا هو الذي ندين الله به، وهو أن عليا (كرّم الله وجهه) على الحقّ، ومجتهد مصيب في عدم تسليم قتلة عثمان» وإن كان ـ حسب الظاهر ـ في دلالة الحديث أمر آخر.

النبي صلى الله عليه وآله: «أنت نفسي التي بين جنبي»، مع أنه يرويها بنفسه. وهناك ثلاثمئة آية نزلت فيه عليه السلام، وترويها كتب التفسير، وإنّ عماراً قد اكتسب الشرف والمنزلة بولائه لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، وبصحبتهم.

إذن فأمير المؤمنين عليه السلام إنما طلب الأنصار لا ليستعين بهم في القتال؛ فهو القائل: «لو تظاهرت العرب على قتالي ماوليت عنها»[1]، والقائل: «إذا مكّنت عدوّي من ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقىٰ علَيّ»[2]. وهو عليه السلام تصدِّقه مواقفه، فلو أراد لكفاه سيفه، فلماذا إذن يحرص على تحصيل مجموعة من الأنصار؟

الهدف كما قلنا هو الإعانة على أداء رسالته، والمشايعة له في الرأي. أي أنه عليه السلام إذا التفّ حوله مجموعة من الأبرار فإنهم سيعطون للناس انطباعاً بأن طريق الحقّ هو هذا. لنروِ محاورة بين عقيل بن أبي طالب ومعاوية، فمعاوية يسأل عقيلاً: أنت مررت بجيش علي بن أبي طالب، ثم مررت بجيشي، فهل تستطيع أن تعطيني ملامح كلا الجيشين؟ فالتفت إليه وقال: مررت بجيش أخي علي بن أبي طالب عليه السلام فما رأيت فيهم إلّا قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً، ونهارهم كنهار رسول الله وليلهم كليل رسول الله، فكأنه جيش رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكن الرسول صلى الله عليه وآله ليس فيهم، ومررت بجيشك فما رأيت إلّا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة؛ حيث يوجد الطليق وغيره[3].

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٤٧٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥، بحار الأنوار ٤٢: ١١٣.

فسكت معاوية حيث إنه لم يرَ في جماعته سوى الطريد وغيره من أمثال الوليد بن عقبة ومروان بن الحكم: ومن حذا حذوهم من هذه النماذج. في حين أننا نرى النماذج الخيّرة والصالحة هي التي تقف إلى جانب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام..أُولئك الأبرار والأتقياء.

الأقلام المأجورة

هناك من ذوي الأقلام من يكتب ويقول: ما الذي دفع بعلي للقتال؟ أو لم يكن الأفضل له أن يجلس في المدينة بدلاً من أن يسفك دماء المسلمين؟

والحقيقة أن هذا كلام حاقد؛ لأن ما يهم الإمام علياً عليه السلام هو إبراز وجه الحقّ، ولتقل الناس فيه بعد ذلك ما تقول، يقول عليه السلام: «**لا تستوحشوا في طريق الهدىٰ لقلّة أهله**»[1] ولو كنتم وحدكم؛ لأنكم مع الحقّ. فروّاد الحقّ دائماً هم الأقلّية، فلذا كان له مجموعة من الأنصار غاية في الرفعة، فتجد حجر بن عدي الكندي وآل العبدي والأصبغ بن نباتة وآل نباتة..وهذه الأُسر الناصعة ذات التاريخ المشرق والمواقف المشرّفة.

المبحث الرابع: نماذج من أنصار الحسين عليه السلام

ومن بعد هذا السرد نأتي إلى صحابة الإمام الحسين عليه السلام، وهؤلاء ولو أنهم (رضوان الله عليهم) كانوا قلّة، لكن عند التأمل في معطيات حياتهم وسيرتهم نجد أنهم كانوا على جادّة الحقّ والصواب بوقوفهم إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام. فلنلقِ نظرة عليهم؛ لقد كان مع الحسين عليه السلام بعض من صحابة النبي صلى الله عليه وآله، وهم بدريّون، وهذا من دواعي الاستغراب الذي تثيره

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٠١.

تساؤلات بعض من الكتّاب الذين يقولون: لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام للقتال، فإنه إنما يرمي بنفسه إلى التهلكة؟

فوجود أهل بدر يبدّد هذا التساؤل؛ حيث إنه لا يمكن أن ينحرف واحد منهم عن جادّة الصواب. هذا بعد التنزّل إلى كون الإمام الحسين عليه السلام يحتاج في تزكية ثورته إلى وجود جمع من البدريين فيها، وكان منهم مسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر الأسدي، وغيرهما. كما أنه عليه السلام كان معه مجموعة من التابعين.

ثم إنه عليه السلام نفسه كان من الصحابة، وهو سيّد شباب أهل الجنة[1]، أفلا يكفي أنه عليه السلام كان على طريق الحقّ؟ لقد خرج عليه السلام ولم يكن معه العدد المفروض وجوده من الأنصار في أمثال هذه الثورات والتحرّكات، لكن هذا كان يحصل حتى مع الأنبياء عليهم السلام عندما لا يتوفّر عندهم العدد الكافي للتحرّك، فهم مع هذا لا يتركون هذا الأمر الإلهي وإن قلّ أنصارهم؛ إذ أن هذا الأمر لا يقدح في نبوّتهم. فالحقّ أنه لايخدش مشروعيّة حركتهم أن الملتحقين بهم عدد قليل[2]؛ فغالباً ما تكون القلّة هي صاحبة الحق وهي المميّزة.

فالإمام الحسين عليه السلام خرج مع مجموعة من الصحابة بلغ عددهم سبعين رجلاً، وكانوا يمثّلون نخبة العالم، وأفلاذ كبد الدنيا، والتاريخ ينحني لذكرهم. وكانت قريش تقول للنبي صلى الله عليه وآله: إن صحابتك قد اتّبعوك لأنهم وجدوا عندك خيراً.

وهنا يشكل البعض فيقول: إذا كان مع النبي صلى الله عليه وآله رجال من هذا الأُنموذج

---

(١) مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٤، وغيرها كثير.

(٢) هذا في واقع الأمر وإن كان في نظر جهلة الناس خلاف ذلك.

فأليس في أصحاب الحسين عليه السلام من مثل هذا النوع؟

وهذا الإشكال باطل؛ ذلك أن الذين خرجوا مع الإمام الحسين عليه السلام هم رؤوساء رهطهم، وأصحاب رئاسة ومكانة، وذوو شرف في قومهم. كما أنهم ممّن عُرف بالدين والعلم والخلق. والإمام الحسين عليه السلام زادهم شرفاً إلى شرفهم بوقوفهم معه ضدّ الظلم والطغيان.

وقد توّجهم بهذا الشرف ليلة العاشر من المحرّم عندما وقف وقال: «**أصحابي، أُثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضرّاء، اللهم لك الحمد على أن وهبتنا أسماعاً وأبصاراً، وجعلت لنا أفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين. أمّا بعد: فإني لا أرى أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي؛ فجزاكم الله عنّي خيراً. ألا وإني لأظن أنه آخر يوم لنا من هؤلاء، ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً**»(١).

وتوّجهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله في الزيارة المرويّة عنه: «**بأبي أنتم وأُمّي طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم، وفزتم والله فوزاً عظيماً، فياليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً**»(٢).

وهذه مكانة كبيرة يتمنّاها كلّ طامح إلى الخلود، وكذلك يخاطبهم (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه) بقوله: «**السلام عليكم أيها الأرواح التي حلّت بفِناء قبر الحسين وأناخت برحله**»(٣).

---

(١) انظر حواريّة الإمام الحسين عليه السلام مع إخوته وأصحابه (رضي الله عنهم) في الإرشاد ٢: ٩٢، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

(٢) مصباح المتهجّد: ٧٢٣.

(٣) بحار الأنوار ٦٥: ١٣١ / ٦٢، ٩٨: ١٩٦ / ٣١، بشارة المصطفىٰ: ١٢٥.

حول قضية فدك

ثم قال عليه السلام: **«بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم»**، فما هي فدك؟ هنالك قسم من الأنفال مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وهو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾**[1]، وهناك قسم يؤخذ بالحرب كأن يعدّ المسلمون جيشاً ويقاتلوا به عدوّ الله تعالى ثم يحصلوا بقتالهم هذا على غنائم العدوّ. ومسألة فدك تعتبر من القسم الأول وهو مما لم يوجف عليه بخيلٍ ولا ركاب. فلو أن العدو جاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وصالحه على ألّا يقاتلهم فيبقوا في أماكنهم، وهم ـ مقابل ذلك ـ يتنازلون للرسول صلى الله عليه وآله عن مبلغ من المال أو عن أرض، فهذا يسمى أنفالاً. وكما قلنا فإن فدكاً من هذا النوع، ومثل هذه الأموال تكون ملكيتها مختصة بالنبي صلى الله عليه وآله، وهذا ما نصّ عليه فقه المسلمين جميعاً فقد هبط جبرائيل عليه السلام على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذه الآية: **﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾**[2]. فاستفسر النبي صلى الله عليه وآله من جبرئيل عليه السلام: **«من هم ذوو القربى؟»**. فأجابه جبرئيل قائلاً: **«إن اللّه يأمرك أن تعطي فدكاً بُلغة لفاطمة، عوضاً عما أنفقته أُمها في سبيل الإسلام»**.

والإنفاق الذي كان من خديجة يفوق الوصف، فقد ذكر المؤرّخون أنه ما من بيت من بيوت مكّة إلّا كان يضارب بأموال خديجة[3]؛ فقد كان

---

(١) الأنفال: ١. (٢) الإسراء: ٢٦.

(٣) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ ـ ٤٤٤ / ٤٦٧ ـ ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨، الدر المنثور ٤: ١٧٧.

مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها. وقد ساقت هذه الأموال كلّها إلىٰ بيت النبي صلى الله عليه وآله، وانتهى الأمر بها أن نامت مع النبي صلى الله عليه وآله على جلد كبش.

فاستدعى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام وأنحلها فدكاً. وقد جرت هذه المسألة في بيت أم أيمن بحضور أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام[1].

لكن الذي حدث أنه بمجرد أن توفي النبي صلى الله عليه وآله، وبعد أن اعتلى من بعده الخليفة أبو بكر سدّة الحكم، جاء أُناس إلى فلاحي فاطمة عليها السلام وأخرجوهم من فدك، فأثار هذا التصرّف سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، فجاءت إلى أبي بكر تسأله عن وجه إخراج هؤلاء الفلاحين من أرضها، فأجابها الخليفة بقوله: لقد سمعت أباك صلى الله عليه وآله يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث»[2]. وهذه طعمة أطعمها الله تعالى لنبيّه، وباعتباري وليَّ الأمر بعد أبيك صلى الله عليه وآله، فإني أتصرّف بها كيف أُريد، وأنا الآن أُريد أن أُنفقها في مصالح المسلمين. فأخبرته أن هذه الأرض لها، فقال لها: ما بلغني أنها ملك لك. فقالت: «لقد أنحلنيها أبي». فقال لها: لا أقبل الدعوى إلّا بالشهود. فذكرت له أن يدها عليها السلام كانت على فدك ستّ سنوات تتصرّف به، وكانت تأخذ وارده وتبيعه وتتصدّق ببعضه، وكان النبي صلى الله عليه وآله يراها تفعل ذلك، وقد أقرّها والمسلمون كذلك. فأجابها بأن التصرّف أعمّ من الملكيّة، وربما كان

---

(١) تفسير القمي ٢: ١٥٥، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٨. وقد مرّ هذا المبحث مفصّلاً في ج٢ ص ١٧٧ ـ ١٩٢ من موسوعة محاضرات الوائلي.

(٢) انظر: المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، صحيح البخاري ٨: ٣، ٥، مسند أحمد ١: ٤٧، ٤٨، ٦: ١٤٥، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها.

رسول اللّهﷺ قد ملّكها إياه بصورة مؤقّتة لتأكل من واردها.

فأجابته بأنها لو كان خاضعاً للملكيّة العامّة لكانﷺ قد انتزعه منها، أو نصّ على أنه ملّكها المنفعة فقط لا الأصل. لكن ليس الأمر كـذلك، فهوﷺ أعطاها إياه بحضور الشهود على أنه نحلة لها. ثم إن تصرّفها فيه معناه أن يدها كانت عليه، واليد ناقل شرعي فالملكيّات العامّة تقرّ الآن بدليل اليد، فلو أن شخصاً سكن في بيت أو عاش فيه زماناً فإن يده على البيت هنا وتصرّفه فيه يدلّان على أن البيت ظـاهراً له، وهـذا التـصرّف حجّة على ملكيّته له ما لم يثبت العكس؛ ذلك أن اليد أمارة على الملكيّة.

فلمّا طالبها أبو بكر بالشهود جاءتهاعليها السلام بمن حضر الواقعة ليشهدوا لها، وهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام والحسن والحسينعليهما السلام وأُم أيمن (رضي الله تعالى عنها)[1].

والذي يحزّ في النفس هنا أن المقاييس لا تتّخذ منهجاً واحداً واضحاً؛ وإلّا فإنه هل يمكن أن تكون الزهراءعليها السلام كاذبة؟ مع أن هـؤلاء يـعاملون بدويّاً لا يعقل أي طرفيه أطول معاملة تقديس لمجردّ أنه صحب النبيﷺ بضعة أيّام[2]، وأصبح الحال أن من يتعرّض له يصبح كافراً، أمّا الزهراءعليها السلام

(١) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤.

(٢) وقد مرّ أنه حينما وقع نزاع بين الخليفة الثالث وأُم المؤمنين عائشة وحـفصة أيّـام بـوادر الثورة؛ حيث دخلتا عليه تطالبانه بميراث النبيﷺ. قال: ستعلم فاطمة اليوم أني ابن عم لها. ثم قال: والنبيﷺ يورّث؟ إذا كان يورّث فلمَ مُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورّث فأي حقّ تطالبان به؟ أولستِ أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعـرابـي يـتطهّر بـبوله، وشهدتم عند أبيك أن النبيﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبين به؟ فخرجت ورفعت قميص النبيﷺ وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبلَ وقد

ابنة المجد والرسالة، الطاهرة التي رضعت من ثدي الإيمان وسمعت الوحي الذي امتدحها بقوله مخاطباً الرسولﷺ: «**حسبك من نساء العالمين أربع... وفاطمة سيّدة نساء العالمين**»، والتي يقول فيها الرسول الأكرمﷺ: «**فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها**»[(١)]، و: «**روحي التي بين جنبي**»[(٢)]، والتي لقّبهاﷺ بـ«**أُم أبيها**»[(٣)] إلى آخره ممّا ورد فيها وفي فضلها من عشرات الروايات، فإنها تكذّب وتطالب بالشهود. ألا ينهض كلّ هذا دليلاً على صدقها؟ ليت تلك الفترة لم تكن؛ فقد تركت صدعاً كبيراً في تاريخنا. ومثل هذه التفسيرات إنما تكون في شيء فيما إذا لم يكن واضحاً، أمّا إذا كان واضحاً غاية الوضوح، فهو يبعث على القلق. وإلّا فإنه لا يوجد مؤمن باللّه ورسوله يرمي الزهراءعليها السلام بالكذب، أو أنها لا تقول الحقّ.

غير أن الخليفة أجابها بأن الحسن والحسينعليهما السلام ما زالا طفلين، والطفل لا تقبل منه شهادة. وهذا خلاف ما فعل النبيﷺ؛ لأنه قبل منهما البيعة.

وأما أُمّ أيمن فهي امرأة أعجميّة لا تفقه ما تقول[(٤)].

وأما الإمام عليعليه السلام فلم تقبل شهادته أيضاً؛ لأن له مصلحة كما ادّعوا.

فرجعت الزهراءعليها السلام غضبىٰ بعد تكذيبها في دعوى النحلة واليد.

أبلى عثمان سنته. الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٥٨، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥. أي أن أعرابياً يتطهّر ببوله تقبل شهادته وشهادة من هو مثل علي والحسنين وأم أيمن لا تقبل! وهذا بشهادة الخليفة عثمان بن عفّان.

(١) الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(٢) الأمالي (الصدوق): ١٧٥ / ١٧٨.

(٣) مقاتل الطالبيّين: ٢٩، المعجم الكبير ٢٢: ٣٩٧، أُسد الغابة ٥: ٥٢٥.

(٤) انظر: كتاب سليم بن قيس: ٣٩١ / ٢، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٢، ٤٣: ١٩٨.

وهكذا تكون الزهراءعليها السلام قد أكّدت على مسألة الإرث أي تأكيد؛ ولذا فإنها قالت: «وأنتم الآن تزعمون ألّا إرث لي ولا حظوة من أبي، أفخصّكم اللّه بآية أخرج أبي محمداً منها؟ أم تقولون: أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟».

وعقّبت بكلامها هذا على قوله تعالىٰ: «﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[1]. وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾[2]، وقال: ﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾[3]، وأنتم الآن تزعمون ألّا إرث لي ولا حظوة من أبي؟»[4]. وكلّ هذه أدلّة قائمة على صحّة دعواهاعليها السلام، لكن الذي حصل أنه قد فُسّر الميراث في هذه الآيات بالعلم والحكمة والنبوّة، ودعوى الميراث حدّدت بـ«نحن معاشر الأنبياء لا نورّث».

ولو قدّر أن علياًعليه السلام لا يجوز له أن يشهد؛ لأنه صاحب مصلحة فهنا نقول: إن من يدّعي عدم الميراث ألا يحقّ لنا أن نقول له: أنت صاحب مصلحة في الموضوع؛ لأنك مدعٍ، والمدعي يجب أن يقيم البينة. والزهراءعليها السلام هي مالكة وقد تصرفت بملكها أيام أبيهاصلى الله عليه وآله وليست هي مدعية؛ وعليه فلا يجب عليها أن تأتي بشهود بل من يجب عليه أن يأتي بهم هو المدعي عدم الملكيّة، وإلّا فإن اليد حجة عند الفقهاء[5].

---

(١) النمل: ١٦. (٢) مريم: ٥ ـ ٦.

(٣) الأحزاب: ٦.

(٤) الاحتجاج ١: ١٣٨، بحار الأنوار ٢٩: ٢٢٧، وستأتي الإشارة إلى مصدرها كاملةً.

(٥) انظر القواعد الفقهية ١: ١٣١.

وعلى هذا فإن من يأتي لشخص ويقول له: هذا الكتاب الذي بحوزتك ليس ملكك فإن من حق من بيده الكتاب أن يطالب المدعي بالبينة.

تخصيص القرآن بخبر الواحد

ثم إن هناك نقطة هامة أود أن أُشير إليها وهي أن مسألة تخصيص القرآن بخبر الواحد يعد أمراً غير مقبول على إطلاقه سيما عند أهل السنة الذين لا يخصّصون القرآن إلّا في موردنا هذا كما سنبيّنه. فعندما يقول القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[١]، ثم تأتي رواية فتقول: إن عقد الربا لا يجوز الوفاء به، فمعنى هذا أن هذه الرواية قد خصّصت عموم الآية أي أن المراد ليس كل العقود بل بعضها وهي العقود الشرعية، والربا عقد غير شرعي فلذا لا يجوز الوفاء به هذا عندنا. أمّا عند المذاهب الإسلاميّة الأُخرى فإنهم لا يجوزون تخصيص القرآن بخبر الواحد[٢] إلّا في هذه القضية كما أسلفنا، والحال أن القرآن فيه عموم كقوله تعالىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[٣]. فهذه حالة عامة تشمل النبي وغيره أمّا أن يخصص هذا العموم بحديث لم يثبت وهو ما ينسب إلى الرسول الأكرمﷺ من قوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث»، أي أنهم خارجون من العموم، فهذا يعد تهافتاً؛ لأننا نسأل في هذا المقام فنقول: إذا كنتم تعتمدون قاعدة هي عدم جواز تخصيص القرآن بخبر الواحد، ولا تجيزون ذلك[٤]، فلماذا إذن أجزتموه هنا وخصّصتموه بهذه الرواية؟

---

(١) المائدة: ١.

(٢) انظر: الإبهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ ـ ١٧٢، نهاية السؤل ٢: ٤٥٩ ـ ٤٦٠، البحر المحيط ٣: ٣٦٥.

(٣) النساء: ١٠.

(٤) انظر: الإبهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ ـ ١٧٢، نهاية السؤل ٢: ٤٥٩ ـ ٤٦٠، البحر

على أية حال فإن الإمامعليه السلام يذكر هذه الواقعة حيث يقول: «**بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم**»، فانظر إلى هذا التعبير، يقول الشاعر:

بـضعةٌ مـن مـحمدٍ خـالفت مـا	**قـال حـاشا مـولاتنا حـاشاها**
سـمعته يـقول ذاك وجـاءت	**تـطلبُ الإرثَ ضـلّة وسـفاها**
هـي كـانت للّـهِ أتـقى وكـانت	**أفـضلَ النـاسِ عـفّةً ونـزاهـا**
ولكـان الجـميلُ أن يُـقطِعاها	**فـدكاً مـا الجـميلُ أن يَـقطَعاها**
كـان إكـرامَ خـاتمِ الرسلِ الهـا	**دي البشيرِ النذير لو أكـرماها**[1]

ولو فرضنا أنه ليس هناك ميراث، لكن هذه ابنة الصادق الأمينصلى الله عليه وآله.. ابنة الذي حوّل الجزيرة العربية إلى جنة[2].. بنت رسول اللهصلى الله عليه وآله الذي وحد العرب بعد تفرّقهم وأعزّهم بعد ذلّهم، وأغناهم بعد فقرهم، والمرء يُحفظ في ولده، وهوصلى الله عليه وآله لم يترك إلّا هذه البنت، فألا ينبغي أن تكرم؟

على أية حال فلنترك دعوى الميراث ودعوى المحنة ولنأتِ إلى دعوى سهم ذوي القربي، فقد جاءت الزهراءعليها السلام في اليوم التالي تطالب بسهم ذوي القربى مستشهدة بقوله تعالىٰ: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾[3]،

المحيط ٣: ٣٦٥.

(١) الأبيات للسيّد الجذوعي. بيت الأحزان (القمي): ١٦٢.

(٢) قالت الزهراءعليها السلام: «وكنتم... تقتاتون القِدّ وتشربون الطَّرْق ﴿الماء تبول فيه الإبل وتبعر. لسان العرب ٨: ١٥١ ـ طرق ﴾. فأنقذكم الله بأبي محمدصلى الله عليه وآله منها». شرح الأخبار ٣: ٣٥.

(٣) الأنفال: ٤١.

فقالت عليها السلام: «إن اليتامي يتامانا، والمساكين مساكيننا، وابن السبيل منا، واسم اللّه ذكر للبركة، وسهم النبي صلى الله عليه وآله وسهم ذوي القربى كلّه يعود لنا، فأعطنا حقّنا من خمس الغنائم وما يحصل للمسلمين من مواردهم»[1].

فقال: إن مبلغ علمي أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يعطيكم هذا كلّه، وإنما كان يسدّ حاجتكم فقط، ونحن نعطيكم بهذا القدر، فمن لم يكن له طعام أطعمناه، ومن كان يحتاج اللباس كسوناه، ومن أراد التزويج زوّجناه، وما زاد على ذلك يعود إلى بيت المال. فأحسّت الزهراء أن المراد بكلّ ذلك أن يغلق الباب بوجهها. فرجعت الزهراء وهي غضبىٰ من القوم بعد أن أحسّت أن الباب أُغلق في وجهها.

ثم إن الزهراء لما اشتدّت بها العلّة قصدها الخليفتان الأوّل والثاني، فدخلا عليها بعد أن استأذنا من أمير المؤمنين عليه السلام وألحّ عليها، فقالت: «ليدخلا». فلما دخلا حوّلت وجهها إلى الحائط، فاستدار الخليفتان، فاستدارت هي، ثم استدارا فاستدارت، ثمّ قالت: «واللّه لا أُكلّمكما حتى تصدّقاني إن صدقت». قالا: بلى. قالت: «اللّه عليكما، هل سمعتما قول أبي فيّ: فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني؟». قالا: بلى. قالت: «اللهم اشهد عليهما أنهما آذياني». ثم حوّلت وجهها مرّة أُخرى، فجزع أبو بكر جزعاً شديداً، فوضع الخليفة الثاني يده بيده وقال: قم، ولا تجزع لقول امرأة. فأخرجه[2]، والانفعال والغضب باديان على وجهها الشريف.

---

(١) انظر الخطبة كاملة في شرح الأخبار ٣: ٣٤ ـ ٤٠، بحار الأنوار ٩٢: ٢٢٠ ـ ٢٣٥.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ٢٠ ـ وحول حديث «يؤذيها ما يؤذيني» انظر: مسند أحمد ٤: ٥، صحيح مسلم ٧: ١٤١، وغيرها كثير.

ولحقت عليها السلام بأبيها وهي ولهى، وقد ملئت ألماً ووجداً، وفي لحظاتها الأخيرة كانت توصي أمير المؤمنين عليه السلام بوصايا عدّة؛ منها ألّا يحضر جنازتها أحد، حيث إنها عليها السلام قالت له: «في صدري وصايا تختلج، وأُريد أن أُوصيك بها». قال عليه السلام: «بلىٰ، عزّ واللّه عليَّ فراقك يا بنت رسول اللّه». قالت: «يا أبا الحسن، إن أنا قضيت نحبي فغسّلني بثيابي ولا تكشف عني فإني طاهرة مطهّرة. يا علي، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أُختي أُمامة فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة، ولا تصِح في وجهيهما، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين؛ بالأمس فقدا جدّهما واليوم يفقدان أُمّهما». إلىٰ آخر وصيّتها (سلام اللّه عليها). ثم قالت: «فادفني ليلاً إذا نامت العيون وهدأت الأصوات»[1].

فكان أمير المؤمنين عليه السلام إلىٰ جانبها إلى أن فاضت روحها الطاهرة. فسجّاها وأسبل عليها الإزار والتفت إلىٰ أبي ذرّ قائلاً: «يا أبا ذر، أعنّي علىٰ حملها»[2].

وهذا طلب غريب، فالذي يظهر أن النكبة قد أخذت أثرها منه عليه السلام، فالذي اقتلع باب خيبر بيد واحدة يعجز الآن عن نقل فاطمة عليها السلام وهي برعم صغير في عمر الورود؟ لقد ماتت عليها السلام وعمرها ثماني عشرة سنة ولا يستطيع حملها؟ نعم، ذلك أن المصاب قد هدّه، فلم يمكنه أن يتحرّك. ثم أقبل ورفع طرف الفراش ووضعها على المغتسل، فلما أتم غسلها صاح: «يا حسن يا حسين يا زينب يا أُم كلثوم يا أسماء، هلمّوا لتودعوا فاطمة؛ فإن هذا

---

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.

(٢) انظر: معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٩٢، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٩.

الفراق، ولا لقاء قبل يوم القيامة».

ثم أمر بنقل الجنازة، فأخرجها المشيّعون وهم ثمانية: سلمان وأبو ذر وعمار والمقداد والعباس والفضل ابنه والحسن والحسين عليهما السلام، وحمل أمير المؤمنين عليه السلام طرفاً من الفراش، وحمل أبو ذر الطرف الآخر، واستقبل أمير المؤمنين عليه السلام قبر النبي صلى الله عليه وآله فقال: «السلام عليك يا رسول اللّه، عني وعن ابنتك النازلة بجوارك والمختار لها اللّه سرعة اللحاق بك»[1]. ثم أخّر إخراج الجنازة إلىٰ ما بعد منتصف الليل، فأخرجها مع المشيّعين فوضعها علىٰ حافة القبر:

شيعها الگبرها بليل حنىٰ عليها وبچه بهداي
يگلها يا وليف الروح عگبچ من يظل وياي
چنتي صحوة ايامي وعگبچ غيّمت دنياي
وشريچ الروح لو سافر ما ندري الوجه لا وين

وبعد أن أوصلها إلىٰ القبر التفت إلىٰ المشيّعين وقال لهم: «ارجعوا لا حاجة لي ببقائكم». ثم التفت إلىٰ أبي ذر وقال: «خذ بيد الحسنين إلىٰ البيت». ثم جلس هو علىٰ شفير القبر يخطّ الأرض بأنامله:

ما لي وقفت علىٰ القبورِ مسلماً قبرَ الحبيبِ فلم يردَّ جوابي
أحبيبُ مالك لا تردّ جوابَنا أنسيت بعدي خلّة الأحبابِ[2]

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٠٢.
(٢) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٤٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٧.

أسباب قيام الحسين عليه السلام بنهضته

وقد يسأل سائل فيقول: وهل تعرّضت أهداف الإسلام إلى شيء من التضييع، أو تعرّض لها بعض ليؤدّي بها إلى الانحراف حتى يحاول الحسين عليه السلام أن يصحّحها بثورته ونهضته؟

والجواب: أن هذا الأمر سيتّضح لنا من خلال هذه اللمحات التي سأعرض لها إن شاء الله تعالى؛ كي أُوضّح هذا المشكل الذي التبس أمره على هذا المتسائل. إن الإسلام تعرّض إلى الكثير من محاولات الطمس والتضييع وإلى سحق أهدافه، وهذا هو الذي اضطر الإمام الحسين عليه السلام إلى النهوض بثورته المباركة.

اللمحة الأولى: المخالفة الصريحة للشريعة

يقول النبي صلى الله عليه وآله عن الله عزّ وجلّ: «**إن الله يقول: ثلاثة أنا خصيمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أُعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفِّه أجره**»[1]. فهذه الأُمور الثلاثة تبدو أنها أهداف رئيسة في الإسلام، بحيث إن الله تعالى يتبرّأ ممن خالفه فيها. وهذا أمر مهم جداً؛ لأنه يعبّر عن إرادة الله جل وعلا في هذه المسألة. وسنستعرض هذه الأهداف لنرى فيما إذا كانت قد تعرضت للضياع أو لا.

أولاً: قوله صلى الله عليه وآله: «رجل أُعطي بي فغدر»

ومعنى هذا أن بعض الناس يتلبس بعنوان من العناوين الدينية ثم

---

(١) عوالي اللآلي ٣: ٢٥٣ / ٣، مسند أحمد ٢: ٣٥٨، صحيح البخاري ٣: ٤١.

يسخّر هذا العنوان الذي تلبس به لأغراضه، مع أن من يتلبّس بلباس الدين يجب عليه أن يكون صادقاً وفياً طاهراً فيكرم هذا العنوان ويحترمه. لكن الذي يلاحظ أن البعض ممن تلبس بهذا قد خالف سيرة الأنبياء والرسل عليهم السلام، واعتدى على أهداف الدين وجعل الدين وسيلة لإذلال غيره وخدمة الظالمين بدل أن يأخذه وسيلة لخلاف هذا. فتعامله هنا تعامل قذر وغير نظيف حيال الدين.

معنى الخلافة

والمفروض أن الإنسان خليفة الله تعالى في أرضه، وهذا يعني أن الخلافة امتداد للنبوة؛ لأن من يتربع على كرسي الخلافة فهو إنما يخلف النبي صلى الله عليه وآله في تطبيق أحكام الله تعالى، ويجسد المضامين عينها التي جسدها الرسول صلى الله عليه وآله وأمر باتباعها.

والخلافة عندنا أمر مقيد بمعنى أن الخليفة ليس له الحق في أن يشرع، بل إن مهمته هي أن يأخذ آيات الكتاب الحكيم أو السنة النبوية المطهرة ثم يستنبط منها الحكم الشرعي المناسب لكل موضوع وحادثة. وهذا يعني أنه لا يمكنه التدخل في البنية الاقتصادية للمجتمع الإسلامي؛ لأن أمر تحديدها والتصرف فيها منوط بالقرآن؛ فهو الذي يبين لنا حدودها وضوابطها.

فكل ما عند الخليفة وما له هو أن يطبق هذا المفهوم الإسلامي سواء كان على صعيد المجتمع أو على صعيد نظام الأُسرة، فلو جاء خليفة مثلاً وقال: أُريد أن أُبيح للرجل أن يتزوج بأكثر من أربع نساء فإنه يكون قد خرق الحكم الشرعي، ويجب حينئذٍ أن يخالفه المسلمون في ذلك مادام

القرآن قد حرم ذلك وحدد العدد بأربع. وبالنتيجة أنه لا يجوز لأحدٍ مهما كان أن يشرّع قبالة هذا النص وأن يغيّر العدد؛ لأن هذا الوضع هو خلاف الدستور الإسلامي.

فالخليفة إذن هو مطبق للأحكام التي جاء بها النبيﷺ، وعليه فلا يجوز له أن يخالف ما جاء به النبيﷺ؛ لأنه خليفته في هذا الأمر. ولنأخذ يزيد ابن معاوية كأُنموذج فنرى مدى التزامه بما قررنا آنفاً، إن الكثير من المؤرخين كانوا ومازالوا يعطون يزيد هذا مفهوم الخلافة الإسلاميّة، بل يعطونه أكثر من هذا بأن يرتبوا له حكماً مفاده أن الخارج عليه خارج على الله تعالى وعاصٍ له؛ لأن يزيد يمثل منصباً دينياً. والمفروض أن هذا المنصب يستمدّ شرعيّته من النصوص الدينيّة، فلا يزيغ عنها صاحبه يميناً أو شمالاً، فيطبّق الدين وأحكامه كما كان الرسولﷺ يطبّقها.

فإذا أخذ من يُدّعى له أنه الخليفة الشرعي حقّ غيره، وكان أخذه له بالله فقد غدر وأصبح مصداقاً للحديث الشريف.

وهذا الرجل حينما وصلت إليه الخلافة وعُبر عنه بأنه خليفة رسول اللهﷺ خالف كل ما جاء عن الله تعالى، ونحن إذ نقول هذا لا ننطلق فيه من منطلق عدائنا للأُمويين أبداً، بل إنما ننطلق فيه من حقائق تاريخية ثابتة لا يتطرق إليها الشكّ ولا يمكن أن توصف بالزيف. مع أن تأريخنا ليس فيه تقييم صحيح وواقعي لرجالاتنا، فنحن حينما نمر مثلاً بعمر بن عبد العزيز لا نذكره إلّا بالتقدير والإكبار لأن مواقفه معروفة، وكذلك حينما نمر بأبان بن سعيد فإننا نكبره ونجلّه، هذا مع كونهما أُمويين،

وكذلك الحال مع غيرهما كأُم حبيبة بنت أبي سفيان.

وهذا معناه أننا لا نعادي شخصاً ما؛ لمجرّد أنه ينتسب إلى البيت الأُموي أو العباسي بل إننا نعاديه بناءً على ضوابط معيّنة تحدّدها مواقفه وما يصدر منه من تصرفات إزاء الدين وحملته من أهل البيت عليهم السلام. وهذا إنما استقيناه من القرآن الكريم الذي وضع لنا مقاييس واضحة نقيّم بها الناس، وعلى ضوئها نمنح هذا تقديراً وذاك ازدراء[1].

ولنرجع إلى يزيد الذي حينما وصل إليه الأمر واستقل به فإنه لم يحترم هذا المنصب الذي شغله فأخذ بالله حق غيره، وقتل وظلم وفعل المنكرات[2]، مع أن وظيفة الخليفة هي أن يحكم بين الناس بالعدل

---

(١) وقد ورد في الأثر عن أهل الحق والحقيقة: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال.

(٢) كشرب الخمر جهاراً والتغني بذلك، وتربية الكلاب والفهود والقرود، واتخاذ المغنّين ومصاحبة النصارىٰ والاستهتار بحياة الناس ومقدّراتهم وغير ذلك من المنكرات التي سيمرّ المحاضر ببعضها.

فهو القائل مثلاً:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّمُ

خذوا بنصيب من نعيم ولّذة ... فكلٌ وإن طال المدى يتصرّمُ

جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١. والقائل:

اسقني شربة تروِّي فؤادي ... ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زياد

موضع العدل والأمانة مني ... ولتنفيذ مغرمي ومرادي

تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، النصائح الكافية: ٧٩.

ويروىٰ أن معاوية سمع شخصاً يغنّي عنده، فسأله عنه فقال: هذا سائب خاثر. فقال له: فاخثر له يا بنيّ من برّك وصلتك، فما رأيت في مجالسته بأساً. الأغاني ٨: ٣٢٤

ويرجع إلى الناس حقوقهم ويعالج مشاكل الأُمّة. ومن هذه المواقف ما يروى من أنه حينما كان وليّاً للعهد، ذهب إلى مشارف الروم يلهو، فسمع أن جيش أبيه قد أنهكته الحمّى والطاعون فلم يأبه له، وانشغل بالخمر والغناء مع ما كانت عليه أوضاع الجيش والمسلمين آنذاك من حرج وحاجة إلى الكثير من الاهتمام والرعاية.

وقد كان هذا سنة (٤٩) هجريّة؛ حيث إنه كان قد خرج إلى القسطنطينية التي يسميها هو في شعره الفرقدونة، وكانت جيوش المسلمين تقاتل في اسطنبول، وكان أن أصاب جيش المسلمين طاعون وحمّى فتكا به، فأرسل إليه أبوه ـ باعتباره ولي العهد ـ: أن توجهْ إلى الجيش لترفع من عزيمته ومعنويّاته. لكنه بقي مع جارية له في دير مَرَّان تغنّيه، حتى بعد أن وصل إليه خبر لجيش وما أصابه، فاندفع يشرب حتىٰ ثمل، ثم أنشأ يقول:

ما إن أُبالي بما لاقت جموعُهُمُ ... بالفَرقَدونة من حمًّى ومن شومِ

إذا اتّكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مَرَّان عندي أُمّ كلثومِ[1]

ثم بعد ذلك ألحّ عليه أبوه أن يلتحق بالجيش فالتحق.

فمثل هذا الرجل ما الذي يمكن أن تلمسه منه؟ وأي شعور بالمسؤولية يمكن أن يحمله وهو لا يبالي بما تلاقيه جموع المسلمين؟ لقد كان كل همه أن يشبع رغباته وأن يرضي نفسه ولذائذها في أحط شهواتها. فمثل هذا هل يمكن أن ينسحب عليه وصف ديني؟ بل هل يصح أصلاً وصفه بهذا الوصف؟ وهل من الإنصاف والمروءة أن نعطيه لقب خليفة ونضعه في

---

(١) معجم البلدان ٢: ٥٣٤، ٤: ١٨٨.

مصاف الخلفاء الراشدين؟ إن هذا ليس من الإنصاف ولا من المروءة في شيء، وليس هذا المقياس بالذي يمكن أن يصححه هذا اللقب.

وهو إلى جانب هذا كان يصبح عليه الصباح في أيام خلافته فيذهب إلى قرد كان عنده أسماه أبا قيس، فيلاعبه تاركاً أمور المسلمين دون أن ينظر فيها ويعالجها. فهو بدلاً من أن يفعل هذا يعد عدته ويروّض قروده وكلابه على الصيد ثم يركب ويُركب قرده على أتان ويسابق بها خيول المسلمين. فهو من الصباح إلى المساء يقضي وقته ما بين القرود والفهود مخلفاً وراءه مشاكل بلد بأكمله وأُمة بحالها. إن من يرتكب مثل هذه الأُمور لا بد أن تعافه مرتبة الخلافة ويعافه الإنسان المحترم الوقور الذي يربأ بنفسه أن تنجر إلى مثل هذا.

إن حقوق المسلمين كانت مضيّعةً يميناً وشمالاً، وهو لا يعلم ولا يدري ماذا حصل أو ماذا سيحصل في بلاد الإسلام، وأين هذا ممن كان يمارس لوناً من الرقابة على نفسه أو على أمراء المسلمين كما كان يفعل أمير المؤمنين عليه السلام وغيره؟ ولقد كان عمر بن الخطاب يقول: إذا فقدت شاة بالعراق فإن الله تعالى سائلي عنها.

أما أمير المؤمنين عليه السلام فيضرب لنا مثلاً سامياً في هذا المجال، فيقول لعثمان ابن حنيف: **«أأقنع من نفسي بأن يقال: أمير المؤمنين ولا أُشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات كالبهيمة المربوطة، همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عمّا يراد بها؟»**[1].

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

فهذه هي المسؤوليّة الحقيقيّة التي يجب أن يكون عليها الخليفة العادل، وهي مسؤوليّة الضمير ومسؤوليّة الدين. ثم إنه لا يخفى على أحد من هو الذي كان نديم يزيد، إنه الأخطل النصراني الشاعر الذي كان مولعاً بشرب الخمرة، وهو مع ذلك يسمى شاعر البلاط؛ لأنه كان يمدح الأُمويين، وكانت صلاحياته الممنوحة له واسعةً فله حق التصرف في كل شيء؛ ولذا كان يعبث عبثاً واضحاً ومنقطع النظير في مقدرات المسلمين. وبعبارة أُخرى كان إنساناً منحلّاً في غاية السقوط ومع ذلك كان يقود زمام الخليفة بيده يميناً وشمالاً.

هذا هو معنى قوله ﷺ: «**أُعطي بي فغدر**»، فهذا الخليفة بدل أن يكرم هذه الوظيفة غدر بمن أعطاه إياها مع أنه ينبغي عليه أن يقف حيث يوقفه الشرع ويتحرك حيث يحركه القرآن، لكنه كان بمعزلٍ عن هذا بأجمعه؛ ولذا فإن الآلوسي المفسر الشهير حينما يمر بيزيد بن معاوية يشبعه لعناً وينهال عليه به بشكل فظيع حتى بلغ به الأمر أن قال:

يزيد على لعنٍ عريض جنابه   فأغدو به من لعنه ألعن اللعنا

وينتهي الأمر إلى هذا اللون من الاختيار، وهو اختيار غير نظيف في تأريخ المسلمين، فأن يوضع شخص في مصاف خلفاء المسلمين ويأخذ بالله حق هذا ويعطيه غيره بغير حق لهو حقيق بأن يكون في أدنى طبقة من المجتمع. ذلك أنه يأخذ معالم الدين ويحرفها ويضعها في غير موضعها، ولم يكن بمستوى حسن ظن المجتمع به، بل إنه يمارس ما يجعله ضمن دائرة عكس ظنهم به، وبالتالي يصبح منبوذاً منهم. وينتهي به الأمر إلى هذا اللون من العبث بالمقدسات، وهي كثيرة منها وقعة الطف

ووقعة الحرة[١] وهدم الكعبة[٢] والتنكيل بأهل البيت عليهم السلام إلى آخره مما يعجز القلم عن تسطيره.

ثانياً: قوله صلى الله عليه وآله: «رجل باع حراً فأكل ثمنه»

فمن الطبيعي أن أي إنسان لا يولد عبداً، ولا يحق للمجتمع أن يحكم عليه بالعبودية؛ إذ لا توجد عبودية في نظر الإسلام بالولادة. والإسلام عندما جاء وضع قوانين للرق وشرع نظماً للحد من مسألة العبودية، وهو إنما جاء والرق موجود تتعامل به الشعوب والأُمم كافة، ولم يكن هو الذي أوجد الرق. ومنهاجه الذي وضعه لمعالجة هذه المسألة منهاج تدريجي، وإلّا فإن الإسلام لم يكن هو التشريع الوحيد الذي جوز هذا الأمر.

مصادر الرق

إن المصدر الأساس للرق هو الحروب التي كانت تخوضها الأُمم آنذاك، ولذا فإن كل من يتناسل من أبناء الأسرى يسمون عبيداً. وحينما يرجع الباحث إلى التأريخ الأوروپي فإنه سيجد أن العبيد هم الذين يديرون المنشآت الاقتصادية؛ من مصانع ومزارع ومطاحن. فنظام الإجارة لم يكن معروفاً آنذاك، وهذا النظام هو الذي يعبر عنه ماركس

---

(١) انظر: الأخبار الطوال: ٢٦٧، تاريخ الطبري ٨: ١٨٧.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤، ١٨٧ / ٣٨٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤.

بأنه نظام عبودية، والحال أنه عكس ذلك؛ إذ ليس فيه أي عبودية بل إنه عبارة عن وضع ثمن قبالة عمل ما. على أية حال فإن الذي كـان يـدير الحياة في المجتمعات والشعوب هو الرق؛ ولذا فإن الإسلام حاول علاجه تدريجياً؛ إذ أن من الصعب بمكان اجتثاث هذه الظاهرة من جذورها دفعة واحدة.

وما يمكن أن يذكر في المقام أن الإنسان لا يمكن أن يتحول من حر إلى عبد مهما كانت المسببات والظروف؛ لأن هذا خلاف التكـريم الذي نص عليه الله تعالى في كتابه الكريم: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**[1].

فكرامة الإنسان فوق كل شـيء وكـل اعـتبار، وقـد صـور الرسـول الأكرمﷺ هذا الأمر بأدق تصوير حينما صدَر الناس في حجة الوداع؛ إذ صعد المنبر وخطبهم قائلاً: «**يا أيها الناس، أي يـوم هـذا؟**». قـالوا: أعـظم الأيام. ثم قال: «**يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟**». قالوا: أعظم الشهور. قال: «**أيها الناس، أي بلد هذا؟**». قالوا: أعظم البلدان. ثم قال: «**وأي بيت هذا؟**». قالوا: أعظم البيوت. قال: «**إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من بيتكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا**»[2].

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠، صحيح ابن خزيمة ٤:٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢. وفي الجميع بتفاوت: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: يوم حرام. ثم قال: «يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟». قالوا: شهر حرام. قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن اللّه عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا

ولهذا تلاحظ أن مسألة البيعة كانت تأخذ بعداً خاصاً عند المسلمين، فقد كانوا يعتقدون بأنهم حينما يبايعون الخليفة فإنهم إنما يبايعونه على أساس أنه أخ في اللّه تعالى وأنه خليفة وأنهم مواطنون. وهل يمكن أن يقال: إنه قامت خلافة شرعية في التأريخ على أساس الرق والعبودية؟ والحال أن الذي حصل أيام يزيد عندما انتهت إليه الخلافة هو هذا. والذي حدث في واقعة الحرّة أنهم جلبوا لمسرف بن عقبة الناسَ حتىٰ يجدّدوا البيعة ليزيد، فقال لهم: تبايعون علىٰ أساس أنكم عبيد أقنانٌ ليزيد[1]. ومعلوم أن العبد القنّ لا يملك شيئاً إطلاقاً، فدمه وماله وكلّ ما يملك تحت تصرف سيّده، وكذلك يريد هؤلاء أن يكون الناس لهم. فكيف تلتقي هذه المبادئ مع القيم الإسلاميّة؟

وهذا التأريخ بصورة عامة ـ وليس تأريخ المسلمين فقط ـ حينما تستنطقه تجده لا يذكر أن هناك بيعة في الحقّ قامت على أساس أن يبايع الناس السلطانَ على أنهم عبيد له كما فعل ذلك يزيد بن معاوية. والمفروض أن عندنا مفاهيم مسبقة حددها لنا الإسلام حول هذا الموضوع نستقيها من سيرة الرسول الأكرمﷺ وصحابته البررة، وأبسط مثال على ذلك ما يحدثنا التأريخ عنه من أن الإمام علياًعليه السلام طلب يوماً من أحد غلمانه ماء، فلم يجبه، حتىٰ كرّر الطلب ثلاثاً. فقال له: **«لمَ لم تجبني؟»**. قال: أمنت عقوبتك. فقالعليه السلام: **«الحمد للّه الذي جعل عبدي يأمن**

في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه».

وقريب منه عن أبي عبد اللهعليه السلام. انظر: الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

عقوبتي، اذهب فأنت حرّ لوجه اللّه».

فهذا اللون من الخلق الذي نراه هو الذي رسمه لنا الإسلام وقد سار عليه صحابة الرسول الأكرمﷺ ومن تابعهم. وكمثال آخر على ذلك يحدثنا التأريخ أن أبا ذر الغفاريرضي الله عنه ـ وهو تلميذ الإسلام النجيب ـ قد لحقه في إحدى المعارك غلام وفرس وشاة، فكان يكلف الغلام بشراء الكلأ لهما، وجاء في أحد الأيام فوجد ذلك الغلام قد أرسل الفرس على كلأ الشاة، فسأله أبو ذررضي الله عنه قائلاً: لماذا فعلت ذلك؟ فقال: أردت أن أغيظك. فقال أبو ذررضي الله عنه: والله لأجمعن لك مع الغيظ أجراً، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

فنحن نعرف أن هذا هو تاريخ الإسلام، وهذه المثل هي التي حملها إلينا وقد أفرزتها لنا مدرسة النبي الأكرمﷺ. فالمسلم الحقيقي هو الذي يطلق عبداً ويعتقه لوجه الله تعالى لا أن يأتي إلى الحر فيستعبده ويطلب منه أن يبايعه على أنه قنّ له. وفعلاً لم يخرج مسرف بن عقبة من المدينة حتى أخذ البيعة من الناس ليزيد على هذا النحو.

حركة الزنج أثر طبيعي لهذه الحالة

ولو أن الباحث المنقب في التأريخ الإسلامي الذي صاغه الأُمويون وجلاوزتهم يطلع على هفوات هذا التأريخ فإنه سيجد نكبات سببتها هذه العقدة، ومن ذلك ما يحدثنا التأريخ عنه من مسألة حركة الزنج الذين ثاروا لأسباب هي غير تلك الأسباب التي يحدثنا عنها التاريخ، فالأسباب الحقيقية الكامنة وراء تلك الحركة هي أن الزنوج كانوا يشعرون بالنقص بسبب معاملة المجتمع والسلطة لهم، فأرادوا أن يستعيدوا آدميتهم من

الناس الذين سلبوهم إحساسهم هذا وعاملوهم كأنهم متاع حقير وليس كبشر خلقهم الله تعالى وهم مثلهم سواء.

فهؤلاء كانوا لا يعترفون بعواطف الرقيق ولا بمشاعرهم، بل لا يعيرونهم أي اهتمام لمجرد أن ألوانهم سود، كما يحدث اليوم مع الكثير من الشعوب السوداء حيث يمنعون من الدخول إلى مدارس البيض ومطاعمهم والاشتراك معهم في أعمالهم.

وهذا ليس من ديدن الإسلام ولا من خلُقه الذي ربى المسلمين عليه، نظر الرسول الأكرمﷺ إلى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقّة عليه وقال له: «يا جويبر لو تزوّجت امرأة فعففت بها فرجك وأعانتك على دنياك وآخرتك». فقال له جويبر: يا رسول الله بأبي أنت وأُمّي، من يرغب في؟ فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال، فأيّة امرأة ترغب في؟ فقال له رسول اللهﷺ: «يا جويبر، إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفاً، وشرّف بالإسلام من كان في الجاهليّة وضيعاً، وأعزّ بالإسلام من كان في الجاهليّة ذليلاً».

إلى أن قال له: «فالناس اليوم كلّهم أبيضهم وأسودهم، وقرشيّهم وعربيّهم وعجميّهم من آدم، وإن آدمعليه السلام خلقه الله من طين، وإن أحب الناس إلى الله عزّ وجل يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم. وما أعلم يا جويبر لأحد من المسلمين عليك اليوم فضلاً إلّا لمن كان أتقى لله منك وأطوع».

ثم قال له: «انطلق يا جويبر إلى زياد بن لبيد فإنه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم، فقل له: إني رسول رسول الله إليك، وهو يقول لك: زوج جويبراً من ابنتك الدلفاء».

قال: فانطلق جويبر برسالة رسول اللهﷺ فقال له زياد: أرسول الله

أرسلك إلي بهذا يا جويبر؟ فقال له: نعم، ما كنت لأكذب على رسول اللهﷺ. فقال له زياد: إنا لا نزوّج فتياتنا إلّا أكفاءنا من الأنصار، فانصرف يا جويبر حتى ألقى رسول اللهﷺ، فأُخبره بعذري. فانصرف جويبر ثم بعث زياد رسولاً فلحق به فقال له زياد: يا جويبر مرحبا بك، اطمئن حتى أعود إليك. ثم انطلق زياد إلى رسول اللهﷺ، فقال له: بأبي أنت وأُمّي إن جويبراً أتاني برسالتك، فرأيت لقاءك، ونحن لا نزوّج إلّا أكفاءنا من الأنصار. فقال له رسول اللهﷺ: «**يا زياد، جويبر مؤمن، والمؤمن كفءٌ للمؤمنة، والمسلم كفءٌ للمسلمة، فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه**».

فرجع زياد إلى منزله، ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول اللهﷺ، فقالت له: إنك إن عصيت رسول اللهﷺ كفرت. فزوّج جويبراً من ابنته[1].

فهوﷺ يبيّن لهم أن مفهوم التفريق بين الحرّ والعبد قد ألغاه الإسلام؛ لأنه لا يوجد إنسان ولد عبداً. فهذه الحالة فرضت على المجتمع فرضاً بسبب الظروف التي كان يعيشها ولما جاء الإسلام أراد أن يسلخه منها. جاء جماعة لرسول اللهﷺ فقالوا: يارسول اللّه، نزوّج بناتنا من غلماننا؟ قال: «بلى». فقالوا: سمعاً وطاعة.

وفي هذا الوقت نفسه يزوّج النبيﷺ عبداً مملوكاً من ابنة عمّته زينب. فالمسألة إذن لم يعالجها الإسلام على صعيد اللفظ، إنه بل عالجها على صعيد العمل، مبتدئاً بالنبيﷺ الذي قام بتطبيقها على نفسه، فهل يصحّ بعد أن أينعت ثمار هذا الزرع الذي زرعه الرسولﷺ، وبعد أن آتى

---

(١) بحار الأنوار ٢٢: ١١٨، أُسد الغابة ٢٠٢ / ١٩٦٥.

أُكله للإنسانيّة كلّها أن يأتي شخص منحرف ليرجع الناس وعجلة الإسلام إلى الوراء بدلاً من أن يكرمهم ويحترم آدميّتهم، ويطبّق أحكام الإسلام[1]؟

وهكذا انتهى الأمر إلى أن تؤخذ البيعة ليزيد من الناس على أنهم عبيد أقنان، والوحيد الذي لم يبايع هذه البيعة هو الإمام السجاد عليه السلام؛ فقد بايع على أنه أخو الخليفة فقط وقبلت بيعته على هذا الأساس، ثم جاء من بعده محمد ابن الحسن عليه السلام، فقالوا: لا يبايع إلّا كما بايع ابن عمه.

ثالثاً: قوله صلى الله عليه وآله: «ورجل استأجر أجيراً فبخسه حقه»

قد ذكرت أنه عندما جاء الإسلام فإنه ألغى نظام العبوديّة، وشرّع نظام الإجارة، فقال على لسان الرسول صلى الله عليه وآله: **«أعطِ الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه»**[2].

---

(١) جلس النبي صلى الله عليه وآله يوماً علىٰ منبره وهو واجم، فسأله أصحابه عمّا به، قال صلى الله عليه وآله: «رأيت بني أُمية ينزون علىٰ منبري نزو القردة؛ يردّون الناس عن الدين القهقرىٰ». جامع البيان: المجلّد ٩ ج ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٨: ٢١٠. فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُمية ألف شهر.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُمية.

وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المثور ٤: ٣٤٦.

(٢) الكافي ٥: ٢٨٩ / ٢، سنن ابن ماجة ٢: ٨١٣ / ٢٤٤٣.

العمالة في المنظار الأُموي

وإذا كان الأمر كذلك فلننظر إليه على ضوء تصرفات الأُمويّين وعمّالهم وأُمرائهم، فحينما جاؤوا إلى الحكم، صعد واليهم سعيد بن العاص ـ وكان أمير الكوفة آنذاك ـ وقال: أيها الناس السواد بستان لقريش ـ والسواد أرض العراق لكثرة المزارع فيه[1] ـ فالذي يريد أن يعمل عندنا فليعمل، والذي لا يريد ذلك فليتدبّر أمره من مكان آخر[2].

وهذا تحدٍّ صارخ لأحكام الشرع الحنيف، ذلك أن المسلمين سُلبوا ملكيّة أرضهم وسلبوا قوتهم، وامتدّت أيديهم إلىٰ رغيف صاحب الكدّ واقتطعته منه. فهذا حينما يقول لهم ذلك فهو إنما يتصوّر أن الدنيا ملك لهم ولذا فإنه قال: ومن أبى فليشرب من البحر.

ونظريتهم هذه معروفة، ففي زمن خلافة الوليد حدث أمر بينه وبين عبد الله بن مسعود ترجمان القرآن وأمين بيت المال آنذاك، ذلك أن الوليد بعث إلى عبد الله بن مسعود بحوالة قيمتها ستمئة ألف دينار لأحد ندمائه وهو أبو زبيد، وكان مسيحياً يعاقر الخمرة معه، فما كان من عبد الله إلّا أن حمل المفاتيح وجاء إلى الوليد وأعطاه إياها قائلاً له: إنما أنا خازن بيت مال المسلمين، أمّا إذا أردتني أن أُصبح خازناً عندك فأنا أُفضّل أن أستقيل ولا أُعطي أموال المسلمين إلى أمثال هذا.

وأُلفت نظرك هنا إلى أن عبد الله بن مسعود أراد أن يقول له: إنما أنت

---

(١) لسان العرب ١٢: ٢١ ـ دهم. ومنه قوله تعالىٰ ﴿مُدْهَامَّتَان﴾ أي مسودّتان لالتفاف أوراقهما.

(٢) تاريخ ابن خلدون ج٢، ق٢: ١٤٠.

شبح يمثل المسلمين ولذلك احترمناك، أمّا إذا أصبحت تمثل نفسك فلا قيمة لك عندنا. وتعرض إثر هذه الحادثة إلى الضرب المبرح حتى أحدثوا به الفتق وأهانوه وأهدروا كرامته. وهكذا انتهى الأمر إلى أن يصبح بيت المال ملكاً للنصارى وسواد العراق ملكاً للأمويين وندمائهم. فكان الأُمويون يظنّون أن الناس عبيد لهم وأن الدنيا ملك لهم وأن عرق الناس لا قيمة له يعبثون به كما يريدون أو يشاؤون، ولعل هذه الصورة الشعرية التي يقدمها أحد شعراء العصر الأُموي خير دليل يعكس لنا الحالة التي وصلت إليها الأُمور آنذاك:

فهبها أُمّة هلكت ضياعاً	يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ
معاويُ إننا بشرٌ فأسجِحْ	فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكلتم أرضَنا فجردتموها	فهل من قائمٍ أو من حصيدِ
ذروا جورَ الإمارةِ واستقيموا	وتأميراً على الناسِ العبيدِ
وأعطونا السويّة لا تزرْكم	جنودٌ مردفاتٌ بالجنودِ[1]

آلية المحافظة على الصلاة

تقول الآية الكريمة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾.

فما هو المقصود بالمحافظة هنا؟ هناك عدة آراء للمفسرين في هذا الخصوص، منها:

الأوّل: المحافظة على كل خواصها

فيقول المفسرون: إن المقصود بها هو المحافظة على كل خواصها،

---

(١) الأبيات لعقيبة الأسدي. تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ٤٦، خزانة الأدب ٢: ٢٢٥.

ومن أهم خواص الصلاة أن يوجِد المصلي لها الوعاء النظيف لكي تكون مقبولة وليست مجزئة. فهناك من يجلس في المحراب ويأتي بالصلاة وهو لا يعدو أن يكون عبارة عن وعاء عجيب غريب؛ فهو خليط من الكذب والحقد والنفاق والازدواجيّة وخبث السريرة وسوء الطويّة والرغبة في إلحاق الأذى بالناس والتسبّب بالضرر لهم. وحتماً مثل هذا الوعاء لا تقبل منه صلاة البتة، صحيح أنه حينما يؤدّيها فإنها تسقط عنه، وهو ما يعبّر عنه في علم الأُصول بأنه امتثل الأمر فسقط عنه، لكنه هل تقبل صلاته هذه؟ طبعاً لا؛ لأن مثل هذه المقاييس لا تقبل عند الله تعالى إطلاقاً. يروى أنه حينما جيء بزيد ابن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام إلى أخيه الإمام الرضا سأله الإمام عليه السلام: «**أحسبت أنك لن تحاسب لأنك ابن موسى؟**».

فهذا يعني أن الإنسان لا بد أن يأتي إلى الصلاة بوعاء نظيف ملؤه الإيمان والانقطاع إلى الله تعالى والوعي بأهداف الصلاة[1].

فهل يمكن أن يستوي مثل هذا مع من يمارس الكذب والدجل والدسيسة، وما أخلاقه إلّا مستنقعاً يحوي كلّ خلق ذميم. وهل يقبل اللّه عزّ وجلّ منه هذه الصلاة؟ والإمام أمير المؤمنين عليه السلام يريد أن يضرب لنا مثلاً من هذا النمط فكان يصرّح بأنه يخشى أن تردّ صلاته ويضرب بها وجهه. وقطعاً أن الإمام عليه السلام واثق من أن صلاته مقبولة لكنه يريد أن يضرب لنا درساً في تعليم الأخلاق والسلوك، ويريد أن يبين لنا أنه لا

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر ولا في عبادة ليس فيها تفكّر». الكافي ١: ٣٦ / ٣.

يكفي في الصلاة مجرّد الألفاظ أو التفوه ببضعة كلمات ثم ينتهي الأمر، بل يريد أن ينبهنا إلى أن الوعاء الذي تنطلق منه الصلاة يجب أن يكون وعاء طاهراً لا شائبة فيه.

الثاني: أن تكون عن قصد ووعي

فهذه الصلاة عندما يريد العبد أن يصليها فالواجب عليه أن يأتيها عن قصد ووعي: «**إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها أو ثلثها أو ربعها أو خمسها، فما يُرفع له إلّا ما أقبل عليه بقلبه، وإنما أمرنا بالنافلة ليتمّ لهم بها**»[1].

وهذا واضح، فكلّ من يريد أن يقرأ كتاباً أو قصة أو قصيدة شعر وكان باله مشغولاً عمّا بين يديه فسوف لن يشعر بمعانيه المودعة فيه ولن يكتشفها، ولن ينتبه إلى الهدف من كتابتها؛ وبالتالي لن يحس بطعمها أو بالجوانب الفنية فيها. فهو عبارة عن عيون تقرأ الألفاظ وذهن شارد عنها ولا يساير معانيها، أمّا إذا كان حاضر الذهن مع كل كلمة يقرؤها ويشعر بكل مفردة تقع عينه عليها فإنه سيكتشف ما فيها من معانٍ وما خلفها من صور فنية أو جوانب إبداعية، وبالتالي فهو يحسّ بحلاوة تلك القراءة.

والصلاة كذلك، فمنها ما يكون حال الإنسان معها كحال من يقرأ وهو شارد الذهن، فهو يقرأ ويتلفظ بمفرداتها دون أن يستوحي ما خلفها من مضامين وقصود وأهداف، مع أن كل لفظ فيها له مضمونه الخاص به وليس اللفظ إلّا وسيلة للتعبير عن ذلك المضمون وإيصاله إلى المتلقي. فعلى المصلي أن يفهم تلك المضامين، فحينما يقرأ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ**

(١) الكافي ٣: ٣٦٤ / ١، الفقيه ١: ٢٠٩ / ٦٣٢. وفي رواية أُخرى: «من صلى فأقبل على صلاته لم يُحدّث نفسه فيها أو لم يسهَ فيها أقبل الله عليه ما أقبل عليها، فربما رُفع نصفها أو ربعها أو ثلثها أو خمسها. وإنما أمرنا بالسنة ليكمل بها ما ذهب من المكتوبة». الكافي ٣: ٣٦٤ / ٢.

الْعَالَمِينَ﴾[١] فعليه أن يسأل: لماذا لم أقل: الشكر لله؟ وهل هناك فرق بين الحمد والشكر؟ نعم هناك فرق؛ فالشكر نقيض الكفران والحمد نقيض الذمّ. والحمد قد يكون من غير نعمة، والشكر يختصّ بالنعمة، والشكر مخصوص بما يكون مكافأة، والحمد أعمّ؛ لأنه يقع على الثناء وعلى التحميد، وعلى الشكر والجزاء[٢]. ويتضح من هذا أن الحالة الأُولى هي معنى فردي أمّا الحالة الثانية فهي معنى اجتماعي، أي أنه إذا وصل الإنسان الخير قال: الشكر للّه ، أمّا إذا لم يصله ووصل إلى المجتمع فإنه لايقول: الشكر لله. فهذا الشاعر يقول:

إذا متّ ظمآناً فلا نزل القطرُ[٣]

في حين أن شاعراً غيره يقول:

فلا نزلت علي ولا بأرضي ... سحائبُ ليس تنتظم البلادا

ولو أني حبيت الخلد فرداً ... لما أحببت بالخلد انفرادا

فهناك فرق بين الحالتين، ويجب على المصلي أن يساير معاني الألفاظ التي يقرؤها في صلاته لكي يحس بطعم الصلاة ومذاقها الروحيين، ويشعر أن الصلاة فيها ذوق وأن وراء ألفاظها معاني لها طعمها الخاص الذي يجب أن يُستجلىٰ ويوظف في عملية التربية.

الثالث: إيجاد الجوّ الطاهر لها

فالإنسان حينما يقصد المحراب ويتوجه إلى الله تعالى ويصلي فإنه لابد له أن يخلق لنفسه جواً طاهراً وأن يرتدي ثياباً نظيفة كي يستقبل الله

---

(١) الفاتحة: ٢. (٢) مجمع البيان ١: ٥٥، معاني القرآن ١: ٥٧.

(٣) ديوان أبي فراس: ١٥٧.

تعالى بهما. ومعنى الثوب النظيف هنا ليس غسله بالماء فقط وإنما يجب أن يكون نظيفاً من الحرام، فلا يكون قد اشتراه بمال مسروق أو مغصوب، بل إنه يجب ألّا يكون فيه خيط حرام، ولا يكون قد أخذه باعتداء على حقوق الآخرين. وكذلك الماء الذي يطهره به أو يتوضّأ به فإنه يجب أن يكون مأخوذاً بالطريق الحلال المشروع. فثوب الصلاة يجب أن يكون جائياً عن طريق حلال ومشروع.

وهذا يجري أيضاً على مكان الصلاة؛ حيث إنه يجب فيه ألّا يكون مغصوباً[1]. أذكر لك هذه الحادثة التي وقعت أيّام ثورة القرّاء على الحجّاج، وأُحبّ أن أُنوّه هنا إلى أن القرّاء حينما خرجوا على الحجّاج مع عبد الرحمن ابن الأشعث لم يخرجوا معه وهم يعتقدون أنه إمام حقّ، لكنهم لشدة ما رأوا من جور الحجّاج أصبحوا يعتقدون أنهم لو خرجوا ضدّه مع أي كان لكانوا خارجين إلى هدف مقدّس. وكان في طليعة ثورة القرّاء وحملة القرآن سعيد ابن جبير، فأرسل إليه الحجاج لمّا ذُكر له قائداً عنده يسمى المتلمّس بن أحوص في عشرين من أهل الشام، وبينما هم يطلبونه إذا هم براهب في صومعته، فسألوه عنه فقال: صفوه لي. فوصفوه فدلّهم عليه.

فانطلقوا فوجدوه ساجداً يناجي بأعلى صوته، فلمّا دنوا منه وسلموا عليه رفع رأسه فأتمّ بقيّة صلاته، ثم ردّ السلام عليهم، فقالوا: إنا رسل الحجّاج إليك، فأجبه. قال: ولا بدّ من الإجابة؟ قالوا: لا بدّ. فحمد الله

(١) ورد في الحديث القدسي: «يا موسى، عليك بالصلاة الصلاة؛ فإنها مني بمكان، ولها عندي عهد وثيق، وأُلحق بها ما هو منها زكاة القربان من طيّب المال والطعام؛ فاني لا أقبل إلّا الطيّب يراد به وجهي». الجواهر السنيّة في الأحاديث القدسيّة: ٣٤.

تعالى وأثنى عليه وقام معهم حتى انتهوا إلى دير الراهب، فقال لهم الراهب: يا معشر الفرسان أصبتم صاحبكم؟ قالوا: نعم. فقال: اصعدوا؛ فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير. ففعلوا وأبى سعيد أن يدخل، فقالوا: ما نراك إلّا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكني لا أدخل منزل مشرك أبداً. قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. قال: لا ضير، إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرساً تحرسني. فقالوا: فأنت من الأنبياء؟ قال: ما أنا من الأنبياء، ولكن عبد من عبيد الله تعالى مذنب.

فقال الراهب: فليعطني ما أثق به على طمأنينة. فعرضوا على سعيد أن يعطي الراهب ما يريد، قال، إني أُعطي العظيم الذي لا شريك له، لا أبرح مكاني حتى أُصبح إن شاء الله. فرضي الراهب بذلك، فقال لهم: اصعدوا وأوتروا القسيّ؛ لتنفّروا السباع عن هذا العبد الصالح؛ فإنه كره الدخول في الصومعة. فلما صعدوا وأوتروا القسي، إذا هم بلبوة قد أقبلت، فلمّا دنت من سعيد تحكّكت به وتمسّحت، ثم ربضت قريباً منه، وأقبل الأسد فصنع كذلك، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا، نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله، ففسّر له سعيد ذلك كلّه، فأسلم.

وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه ويقبلون يديه ورجليه، ويأخذون التراب الذي وطئه، ويقولون: يا سعيد، حلّفنا الحجاج بالطلاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نُشخصك إليه، فمُرنا بما شئت. فقال: امضوا لأمركم، فإني لائذ بخالقي ولا رادّ لقضائه.

فساروا حتى بلغوا واسطاً، فقال سعيد: قد تحرمت بكم وصحبتكم، ولست أشكّ أن أجلي قد حضر، فدعوني الليلة آخذ أُهبة الموت وأستعدّ لمنكر ونكير وأذكر عذاب القبر، فإذا أصبحتم فالميعاد بيننا المكان الذي

تريدون. فقال بعضهم: لا تريدون أثراً بعد عين. وقال آخرون: قد بلغتم أمنكم واستوجبتم جوائز الأمير، فلا تعجزوا عنه. وقالت جماعة ثالثة: يعطيكم ما أعطى الراهب، ويلكم أما لكم عبرة بالأسد؟ ! ونظروا إلى سعيد قد دمعت عيناه، وشعث رأسه، واغبرّ لونه، ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ يوم لقوه وصحبوه، فقالوا: يا خير أهل الأرض، كيف ابتلينا بك؟ اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر؛ فإنه القاضي الأكبر والعدل الذي لا يجور. قال: ما أعذرني لكم وأرضاني، لما سبق من علم الله تعالى فيّ.

فلما فرغوا من البكاء والمجاوبة، قال كفيله: أسألك بالله لما زوّدتنا من دعائك وكلامك. ففعل ذلك، فخلّوا سبيله، فغسل رأسه ومدرعته وكساءه، وهم محتفون الليل كلّه، فلمّا انشقّ عمود الصبح، جاءهم سعيد فقرع الباب، فنزلوا وذهبوا به إلى الحجّاج، فقال الحجاج: أتيتموني بسعيد بن جبير؟ قالوا: نعم، وعاينّا منه العجب. فصرف بوجهه عنهم، وقال: أدخلوه عليّ. فخرج المتلمّس فقال لسعيد: أستودعك اللّه ، وأقرأ عليك السلام.

فأُدخل عليه. فقال له الحجّاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير. قال: أنت شقي بن كسير. قال: بل أُمي كانت أعلم باسمي منك. قال: شقيت أنت وشقيت أُمّك. قال: الغيب يعلمه غيرك. قال: لأُبدلنّك بالدنيا ناراً تلظّى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً. قال: فما قولك في محمدﷺ؟ قال: نبي الرحمة، وإمام الهدى. قال: فما قولك في علي؛ في الجنة هو أم في النار؟ قال: لو دخلتها، فرأيت أهلها عرفت. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي. قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عنده.

قال: أبيت أن تصدقني. فقال: إني لم أُحبّ أن أُكذبك. قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: لم تستوِ القلوب.

قال: ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فجمعه بين يدي سعيد، فقال: إن كنت جمعته لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلّا ففزعة واحدة تذهل كلّ مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلّا ما طاب وزكا. ثم دعا الحجّاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى، فقال الحجاج: ما يبكيك؟ هو اللهو. فقال: بل هو الحزن، أما النفخ، فذكرني يوم نفخ الصور، وأما العود، فشجرة قطعت من غير حقّ، وأما الأوتار فأمعاء شاة يبعث بها معك يوم القيامة. فقال الحجاج: ويلك يا سعيد. قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأُدخل النار. قال: اختر أي قتلة تريد أن أقتلك. قال: اختر أنت لنفسك يا حجّاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلّا قتلتك قتلة في الآخرة. قال: فتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن اللّه ، وأما أنت فلا براءة لك ولاعذر. قال: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما خرج من الباب ضحك، فأُخبر الحجاج بذلك، فأمر بردّه، فقال: ما أضحكك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله تعالى وحلمه عنك. فأمر بالنطع فبسط، فقال: اقتلوه. فقال: ﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1]. قال: شدّوا به لغير القبلة. فقال: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾[2]. قال: كبوه لوجهه. قال: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾[3]. قال: اذبحوه. قال: إني أشهد وأُحاجّ أن لا إله إلّا

---

(١) الأنعام: ٧٩. (٢) البقرة: ١١٥.

(٣) طه: ٥٥.

الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة. ثم دعا سعيد الله تعالى وقال: اللهم لا تسلّطه على أحد يقتله بعدي. فذبح على النطع.

وفعلاً عاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة، لم يستقرّ فيها لحظة، وكان إذا نام رآه في المنام وهو يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو اللّه، فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير، مالي ولسعيد بن جبير؟ فلم ينشب إلّا قليلا حتى مات[1].

وموضع الشاهد من هذه القصة أن هذا الرجل يأبى أن يصعد إلى دير راهب لأنها في نظره دار غير نظيفة.

فأول ما يراد من الصلاة إذن هو المحافظة على النظافة في البدن والثياب والمكان، وكذلك المحافظة على التوجه إلى الله تعالى بالقلب، وأن تكون المحافظة عليها متناسبة مع أهميتها: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى**﴾.

ماهيّة القيام في الصلاة

ومن الطبيعي أن أهمية الصلاة تبقى قائمةً ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى**﴾. ثم قال تعالى: ﴿**وَقُومُوا لِلَّهِ**﴾وهنا يلوح في المقام أمر هو ضرورة بيان معنى قوله تعالىٰ: ﴿**قُومُوا لِلَّهِ**﴾، فالقيام لا بدّ أن يكون خالصاً لله تعالى، لا لاعتبار آخر؛ لأن المفروض أن الاعتبارات كلها تذهب

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٦٠، الطبقات الكبرى ٦: ٢٦٥، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٢٨، حلية الأولياء ٢: ٢٩٠ / ٤.

وتتلاشى، فلا يُدخل في صلاته هذه وفي مطلق عمله شيئاً من الريـاء؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يرائي فإن عليه أن يسأل نفسه: لأي شيء أرائي؟ ولأجل من؟ وماهو الشيء الذي يستحق أن أُذيب من أجله كياني؟ هل هي الأموال؟ وما هو دورها؟ لقد خرجت ذات مـرة لقـضاء حـاجة لي فرأيت جنازة تشيع، فأحببت أن أمشي مع المشيعين ثم جـلست عـلى قبره ومن غير أن أشعر به من حيث مركزه الاجتماعي، وشهد الله تعالى أنني لم أكن أعلم ما الذي كان عليه، لكن بعد ذلك علمت أنه مـليونير، فقلت: سبحان الله هذه هي عاقبة الملايين.

وهل إن الإنسان يرائي من أجل إنسان غيره؟ وهل سيبقى هذا الإنسان بعده أكثر من أيام قلائل ثم ينتقل معه إلى المصير نفسه الذي سوف ينتهي إليه هو؟ أوصى أحد الأعراب بأن تكتب هذه الأبيات على قبره:

يـاواقـفين ألم تكـونوا تـعلموا — أن الحِـمامَ بكـم عـلينا قـادمُ

لا تســتعزّوا بـالحياةِ فـإنكم — تبنون والمـوتُ المـفرّقُ هـادمُ

ساوى الردىٰ ما بيننا في حفرةٍ — حيث المخدّمُ واحدٌ والخـادمُ[1]

وهناك ربوات في وادي النجف يقول فيها أحد أُدبائنا: إنـها «نـضائد أكباد»:

وما الذكوات البيض في جانب الحمى — وقـــد خشــعت إلاّ نــضائد أكـبادِ

وقد ذكرت في إحدى الملحمات هذا الوادي:

تـــــحية أيــــها الوادي الحـــبيب إلى — ربـــى إليـــها النــجوم الزهــر تــنجذبُ

يـــلوح فــي لابــتيها مــن أبــي حســن — وجـــه ومــن قســمات مــنه تــختضبُ

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٥٩٩.

ثوت ملايين آمال بتربتها الـ ـسمراء فهي على أبعادها كتبُ
توحّدت طبقات في قرارتها وهوّم الخصم جنب الخصم واصطحبوا
حتّى تعابير كانت فوق أعينهم ماتت فما ابتعدوا منها وما اقتربوا(١)

نعم تجد العملاق إلى جانب القزم والغني إلى جانب الفقير والملك إلى جانب السوقة، وكلهم سواء، فهل يستحق هذا الإنسان أن يرائي من دون الله تعالى أحداً؟ الحق أنه لا أحد يستحقّ أن يُعبد أو يضحّى لأجله سوى الله عزّ وجلّ؛ ولذا فإنه تعالى قال: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾.

في معنىٰ: ﴿قَانِتِينَ﴾

وفي معنى ﴿قَانِتِينَ﴾ هنا عند المفسرين عدّة آراء، منها:

الأوّل: أنها بمعنى خاشعين

مرّ النبي ﷺ ذات مرّة برجل، فرآه يصلّي، وكان يحكّ رأسه وجسمه ويصلي، فقال: «ماضر هذا لو خشعت جوارحه؟». فعلى المصلّي أن يكون ذا وقار أثناء تأديته صلاته. والملاحظ أن بعض المصلين عندما يقف إلى الصلاة يقف وكأنه يريد أن يؤدي عادة اعتاد عليها، فتجده يتلفت ويتحرك بشكل يوحي إليك أنها ليست صلاة وإنما هي ضريبة مفروضة عليه يريد التخلص منها؛ فلا تلمس عنده أي نوع من الخشوع أو الخضوع أو الانقطاع إلى الله. ويحقّ للبعض أن يستغرب حينما يقيس هذا الجوّ الذي عليه مثل هذا المصلّي بما كان عليه الإمام السجاد عليه السلام من حال أثناء صلاته؛ ذلك أنه عليه السلام كان إذا جن عليه الليل وقف للصلاة لا يتحرّك منه شيء إلّا ما تحرّكه الريح(٢).

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٩٢. (٢) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٤.

الثاني: أنه بمعنى القنوت في الصلاة

والمقصود به الدعاء في الصلاة، والثعلبي حينما يأتي إلى تفسير هذه الآية يروي عن العطاردي قوله: صلّى بنا ابن عباس في مسجد البصرة صلاة الغداة، وقبل الركوع من الركعة الثانية رفع ابن عباس يديه وقنت وأخذ يدعو، فلما فرغ قال: هذه الصلاة الوسطى التي أُمرنا أن نقوم فيها قانتين[١]. ويروى عن أنس قوله: قنت النبيﷺ في صلاة الصبح بعد الركوعﷺ[٢].

ومسألة القنوت لا تكاد تجد له ذكراً عند المذاهب الإسلاميّة فهو عند الشيعة فقط، أمّا حكمه الشرعي فهو مستحب استحباباً مؤكداً مما يعني أن المصلي إذا نسيه فإن عليه استحباباً مؤكداً أن يقضيه. أمّا الدعاء فيه فيكفي منه مسماه. والإنسان في حقيقة حاله أمام اللّه تعالى لا يحتاج؛ لأن يدعو[٣]، يخاطب أُميّة بن أبي الصلت عبد الله بن جدعان التيمي بقوله:

أ أذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتَك الحياءُ
وعلمُك بالأُمور وأنت فرعٌ ... لك الحسبُ المهذّبُ والسناءُ
كريمٌ لا يغيّره صباحٌ ... عن الخُلُقِ الكريمِ ولا مساءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كفاه من تعرّضه الثناءُ[٤]

(١) عنه في مجمع البيان ٢: ١٢٨، وانظر الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢١١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ورد في الدعاء الشريف: «إلهي كفى علمك عن المقال، وكفى كرمك عن السؤال». بحار الأنوار ٩٢: ٢٥٢ / ٣٣ ـ دعاء الحرز اليماني.
(٤) مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ١٤١ / ٤٥٨، شرح نهج البلاغة ٦: ١٩٠.

وكذلك الباري جل وعلا فإنه لا يحتاج أن تسأله؛ لأنه يعرف حاجتك قبل أن تتعرض له بالدعاء، ويكفي أن تقول له فقط: يارحمن؛ لأنه رب العطاء والرحمة والكرم، فهو القائل: «إن دنا ـ العبد ـ مني شبراً دنوت منه ذراعاً، وإن دنا مني ذراعاً دنوت منه باعاً»[1]، والقائل: «مَنِ استطعمني فلم أُطعمه؟». فيكفي في الانقطاع إليه تعالى مجرد هذا المقدار.

ولو نظرنا إلى أدعية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لوجدناها تشتمل على الحمد والثناء على اللّه، وهكذا أدعية أهل البيت عليهم السلام فهي مفعمة بالحمد والثناء عليه تعالى، قال حماد بن حبيب الكوفي: خرجنا سنة حجّاجاً، فاستقبلتنا ريح سوداء مظلمة، فتقطّعت القافلة، فتهت في تلك البراري، فانتهيت إلى وادٍ قفر، وجنني الليل، فآويت إلى شجرة، فلمّا اختلط الظلام إذا أنا بشابّ عليه أطمار بيض، فقلت: هذا ولي من أولياء اللّه، متى ما أحسّ بحركتي خشيت نفاره. فأخفيت نفسي، فدنا إلى موضع، فتهيأ للصلاة وقد نبع له ماء، ثم وثب قائماً يقول: «يا من حاز كل شيء ملكوتاً، وقهر كل شيء جبروتاً، صلِّ على محمد وآل محمّد، وأولج قلبي فرح الإقبال إليك، وألحقني بميدان المطيعين لك».

ودخل في الصلاة، فتهيأت أيضاً للصلاة، ثم قمت خلفه، وإذا بمحراب قد مُثّل في ذلك الوقت قدّامه، وكان كلّما مرّ بآية فيها وعد ووعيد يردّدها بانتحاب وحنين، فلما تقشّع الظلام قام، فقال: «يا من قصده الضالّون فأصابوه مرشداً، وأمّه الخائفون فوجدوه معقلاً، ولجأ إليه العائدون فوجدوه موئلاً. متى راحة من نصب لغيرك بدنه؟ ومتى فرح من قصد سواك بهمّته؟ إلهي قد انقشع الظلام ولم أقضِ من خدمتك وطراً، ولا من حياض مناجاتك صدرَاً، صلِّ

---

(١) الدعاء (الطبراني): ٥٢٣، أمالي المرتضى ٢: ٦.

على محمد وآل محمّد، وافعل بي أولى الأمرين بك».

ثم مرّغ وجهه في التراب ونهض، فتعلّقت به، فقال: «لو صدق توكّلك ما كنت ضالاً، ولكن اتبعني واقفُ أثري». وأخذ بيدي، فخيّل إلي أن الأرض تميد من تحت قدمي. فلما انفجر عمود الصبح قال: «هذه مكّة». فقلت: من أنت بالذي ترجوه؟ فقال: «أمّا إذا أقسمت، فأنا علي بن الحسين»[1].

فهذا الوجه الذي كان يتمرّغ في التراب من خشية الله تعالى أعطاه الله تعالى كل هذه المنزلة والإشعاع الذي يخترق الدنيا:

تزوّد منه كلُّ عصرٍ كما اشتهى وما زال للدنيا بمزودِه ذخرُ[2]

فلا زال فكره إلى الآن يعيش في أذهان كل الأحرار.

الثالث: أنه بمعنى مداومين

ومعنى هذا أن الله تعالى يريد منا أن نداوم على طاعته وعبادته وأن نقوم له وأن نتواصل معه مشتغلين بذكره وبعبادته وبالصلاة له؛ فإنها خير زاد يقدمه الإنسان بين يدي ربه يوم القيامة. وهذا هو الذي دفع الحسين عليه السلام وهو في أشد لحظاته الحرجة وأوار الحرب مستعر إلى أن يؤدي الصلاة في وقتها وذلك حينما رفع أبو ثمامة رأسه وقال: سيدي لقد زالت الشمس. فقال له الحسين عليه السلام: «ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين، نعم هذا أوّل وقتها».

ثم قال عليه السلام: «سلوهم أن يكفّوا عنّا حتى نصلّي». فقال لهم الحصين بن تميم: إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر. لا تقبل؟ زعمت الصلاة من

(١) الخرائج والجرائح ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ / ٩، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤، بحار الأنوار ٤٦: ٤٠، ٨٤: ٢٣١.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٢٤.

آل رسول الله ﷺ لا تقبل، وتقبل منك يا حمار[1]؟

فوقف الحسين عليه السلام وصلى بأصحابه، ووقف هذا الرجل دونه يحميه بجسده إلى أن فرغ من صلاته وكان في جسد هذا الرجل اثنا عشر سهماً غير طعنات الرماح والنبال، وقد سقط على الأرض، حيث التفت إلى الحسين عليه السلام وقال له: أوفّيت يا أبا عبد الله؟ فقال الحسين عليه السلام: **«بلى، أقرئ جدي رسول اللّه عني السلام وقل له: لقد خلّفت حسيناً بالأثر»**.

معنى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

لكن ما يقول المفسرون في تفسير هذا المقطع من هذه الآية، وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؟ إن للمفسرين في هذا المقطع عدّة آراء منها:

الرأي الأول: أنه اذكروني بالرخاء أذكركم بالشدة

ويستدلّون على ذلك بما روي في كتب الصحاح من أن ثلاثة رهط ممن كان قبلنا انطلقوا، فبينما كانوا يتمشّون إذ أخذهم المطر فأووا إلى غار، فدخلوه ليبيتوا فيه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلّا أن تدعوا الله بصالح اعمالكم.

فقال رجل منهم: قد عملت حسنة مرة، اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي في طلب شيء يوماً، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً. فلبثت والقدح على يدي

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٢١، تاريخ الطبري ٤: ٣٣٤، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٤٢.

انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه أمر الصخرة. فانفرجت شيئاً يسيراً لا يستطيعون الخروج معه.

وقال الآخر: قد عملت حسنة مرّة، كان لي فضل فأصابت الناس شدّة، فجاءتنى امرأة تطلب مني معروفاً فقلت: والله ما هو دون نفسك. فأبت عليّ، فذهبت ثم رجعت فذكرتني باللّه، فأبيت عليها وقلت: لا والله ما هو دون نفسك. فأبت عليّ وذهبت، فذكرت ذلك لزوجها، فقال لها: أعطيه نفسك واغني عيالك. فرجعت إليّ، فناشدتني باللّه، فأبيت عليها وقلت: والله ما هو دون نفسك. فلما رأت ذلك أسلمت إليّ نفسها، فلما تكشّفتها وهممت بها، ارتعدت من تحتي، فقلت لها: ما شأنك قالت: أخاف الله رب العالمين. فقلت لها: خفتيه في الشدّة ولم أخفه في الرخاء؟ فتركتها وأعطيتها ما يحقّ على مما تكشّفتها. اللهم إن كنت تعلم أني قد صنعت ذلك لوجهك ففرّج عنا ما نحن فيه. فانصدع الجبل وانفرجت الصخرة حتى عرفوا وتبيّن لهم، غير أنهم لم يكونوا يستطيعون الخروج.

وقال الثالث: قد عملت حسنة مرّة، اللهم إنك تعلم أني استأجرت أُجَراء يعملون كل رجل منهم بأجر معلوم، فجاءني رجل ذات يوم نصف النهار، فاستأجرته بشرط أصحابه فعمل في بقيّة نهاره كما عمل الرجل منهم في نهاره كلّه، فرأيت علي في الذمام ألّا أُنقصه مما استأجرت به أصحابه؛ لما جهد في عمله، فقال رجل منهم: تعطي هذا مثل ما أعطيتني؟ فقلت: يا عبد اللّه، لم أبخسك شيئاً من شرطك، وإنما هو مالي أحكم به بما شئت. قال: فغضب وذهب وترك أجره، فوضعت حقّه في جانب البيت ما شاء

اللّه ، ثم مرّ بي بقر ، فاشتريت به فصيلة من البقر ، فبلغت ما شاء اللّه ، فمرّ بي بعد حين شيخ ضعيف لا أعرفه ، فقال : إن لي عليك حـقاً . فـذكّرنيه حتى عرفته ، فقلت : إيّاك أبغي ، هذا حقك . فعرضتها عليه جميعاً ، فقال : يا عبد اللّه ، لا تسخر بي ، إن لم تصدق علي فأعطني حقّي . فقلت : والله ما أسخر بك ، إنها لحقّك مالي منها شيء . فدفعتها إليه جميعاً . اللـهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك ففرّج عنا . فانصدع الجبل وانـفرجت الصـخرة فخرجوا يمشون[1] .

فالمهم أن كل واحد من هؤلاء يقول : قد ذكرت الله تعالى في هـذه اللحظة ، وهذا هو معنى ما ورد : «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك اللـه فـي الشدة**»[2] .

---

(١) صحيح البخاري ٣ : ٥١ ، ٩٦ ، صحيح مسلم ٨ : ٨٩.

(٢) الكافي ٢ : ٤٧٢ / ١ ، الدعوات : ٢١ / ٢١ ، مسند أحمد ١ : ٣٠٧.

وقد وردت عن أيمّة أهل البيت عليهم السلام روايات كثيرة في الحثّ على الدعاء في الشدة قـبل الرخاء ، منها :

عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «من تقدم في الدعاء استجيب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائكة : صوت معروف ولم يحجب عن السماء ، ومن لم يتقدم في الدعاء لم يستجَب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائكة : إن ذا الصوت لا نعرفه» .

وعنه عليه السلام أنه قال : «من تخوف من بلاء يصيبه فتقدم فيه بالدعاء لم يُره الله ذلك البلاء أبداً» .

وعنه عليه السلام أنه قال : «إن الدعاء في الرخاء يستخرج الحوائج في البلاء» .

وعنه عليه السلام أنه قال : «من سره أن يستجاب له في الشدة فليكثر الدعاء فى الرخاء» .

وعنه عليه السلام أنه قال : «كان جدي يقول : تقدّموا في الدعاء؛ فإن العبد إذا كان دعّاء فنزل به البلاء فدعا قيل : صوت معروف ، وإذا لم يكن دعّاء فنزل به بلاء فدعا قيل : أين كنت قبل اليوم؟» .

وعنه عليه السلام أنه قال : «كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول : الدعاء بعدما ينزل البلاء لا ينتفع به» . الكافي ٢ : ٤٧٢ / ١ ـ ٦.

الرأي الثاني: اذكروني فوق الأرض أذكركم تحت الأرض

وهذا الرأي مروي عن الجبّائي ومجموعة من المفسّرين. ومعنى ذلك أن الإنسان يجب أن يذكر الله تعالى في حياته كي يذكره الله تعالى بعد موته، فهو مازال في الحياة فإنه يملك أن يتكلم وأن يعمل، وبالتالي فإن عنده فرصة للذكر والعبادة فإذا مات ذهبت هذه الفرصة وغلق بابها. تقول الرواية: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قيل: يا أهل الجنة، فيشرفون وينظرون، وقيل: يا أهل النار، فيشرفون وينظرون، فيجاء بالموت كأنه كبش أملح فيقال لهم: تعرفون الموت؟ فيقولون: هو هذا، وكل قد عرفه. فيقدّم ويذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1]»[2].

فاللسان الذي يذكر الله تعالى به يعد لسانا نظيفاً طاهراً ذا مناعة عن المعصية، أما اللسان الذي لا يجري عليه غير الألفاظ النابية التي يأباها الشرع والخلق فإنه لا يعدو أن يكون في حالة ثرثرة؛ لأن الذكر الواقعي ينظف اللسان عن كل ما نهى الله تعالى عنه.

فكأن القرآن الكريم يخاطب الناس بقوله لهم: أنتم الآن في حال الحياة تملكون الفرصة والطاقة والقدرة وكل الإمكانات المتاحة لكم فاستغلوها في ذكري كي أذكركم بعد الموت في حساب القبر وفي الموقف.. اليوم الذي تبقى الروح فيه منتظرة رحمة خالقها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3].

---

(١) مريم: ٣٩.

(٢) بحار الأنوار ٨: ٣٤٤، مسند أحمد ٣: ٩، صحيح البخاري ٥: ٢٣٦.

(٣) القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

معنى ذكر الله الإنسان تحت التراب

إن معنى أن يذكر الله تعالى الإنسان تحت التراب هو إيصال الخيرات إلى روحه، أما موضوع الجسد حينها وهل أنه يشعر بالألم أم لا فهذا شيء آخر، وهو ليس مهماً ذلك أن الجسد غير معروض للصورة في هذه المسألة. وحتى لو قدر أنه انتهى وصار تراباً لكن تبقى المسألة عملية تذكير لنا بمآل هذا الجسد، فالقرآن يريد أن يذكرنا بأن أعظم مشاكلنا تأتي من هذا الجسد، فهو إن جاع فيجب أن نشبعه وإن عري فيجب أن نكسوه، ويجب أن نسكنه في قصر أنيق وأن نركبه في سيارة فخمة وأن نشبع كل غرائزه. وكل هذه الأمور هي في حقيقتها مناشئ للمشاكل، أي أن الجسد بالنتيجة هو السبب الوحيد لهذه المشاكل، لكن ما هو مصير هذا الجسد؟ إننا في النتيجة نرميه لقمة سائغة تحت الأرض للديدان تعبث به؛ حيث ينتهي به في نهاية المطاف إلى هذا المصير المؤلم:

ولقد قلت لنفسي وأنا بين المقابرْ　　هل رأيت الأمن والراحة إلّا في الحفائرْ

فأشارت وإذا للدود عبْث بالمحاجرْ

الرأي الثالث: أنه اذكروني بالطاعة أذكركم بالرحمة

إن عندنا نوعين من الذكر: ذكر باللسان وذكر بالعمل، ويجب على الإنسان أن يساوق ذكرُه اللساني ذكرَه العملي، فإن كان الحال خلاف ذلك لم يكن صاحبهما مؤمناً، ولذلك فإن بعض الناس تجده يذكر الله تعالى بلسانه أما عمله فهو عمل ذئب وربما أشد. ومعنى الذكر بالعمل أن يخلص الإنسان في عمله للّه، وأن تكون يده نظيفة ولا يضيّع شيئاً من وقته بأُمور تافهة تشغله عن ذكر اللّه، وخلاصة الأمر يجعل عمله كلّه خالصاً لوجه الله تعالى سواء كان هذا العمل زيارة مريض أو عطفاً على

ضعيف. فكل هذه الأُمور هي ذكر لله تعالى وهو من أعظم أنواع الذكر، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي»[1].

إشـكال

لكن يبقى أمر لا بدّ من توضيحه هو أن الإنسان لا يستطيع أن يشخّص الرحمة، أو أن يشخّص لوازمها؛ فربما يتساءل: أين هي الرحمة وهـناك أُناس يسعون بالشر، وهم مع ذلك يملكون الصحة والمال وكـل شـيء؟ وهذه الأُمور يكون منشؤها عندنا النظرة القاصرة التي لا تـدرك حـقيقة الأشياء وما وراء الأشياء من حقائق، فهي نظرة محدودة ويجب ألّا نقيس الأُمور بمقاييسنا الخاصة. فالله تبارك وتعالى عندما يعطي ويمنع أو يصحّ ويسقم أو يفقر ويغني فإنما يفعل كل ذلك لحكمة، فالعطاء لمصلحة تقوم بتنظيم المجتمع قد يجهلها الإنسان.

حقيقة الشكر

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾، الشكر هو مـقابلة النعمة والإنفاق منها، فهناك ممن أنـعم اللـه تـعالى عـليهم مـن يـبارزه بالمعصية صباحَ مساءَ، ويكفر به ويضع نعمه في غير مواضعها في حين أن البعض الآخر يفعل عكس ذلك فهو يشكر الله جل وعلا عـلى كـل نعمة، ويضع نعمه في مواضعها. هذا الأمر يجب أن يجري في الدنيا مع الإنسان أيضاً، فيشكر أخاه إذا أنعم عليه: «من لم يشكـر المـخلوق لم

(١) الكافي ٨: ١٣٨ / ٢ ،وقريب منه في المحاسن ١: ٣٩ / ٤٤، الكافي ٢: ٤٩٨ / ١٢.

يشكر الخالق»[١].

غير أن بعض البشر ممن لا تحكمه القواعد الخلقية أو الضوابط الدينية حينما يقدم له أخوه الإنسان خيراً أو ينعم عليه بـنعمة فـإنه يـقابل ذلك بالإساءة وإلحاق الأذى بـمن أحسـن إليـه، وكأن هـذه النـعمة أو هـذه المساعدة تزيده لوناً من الحقد على الآخرين وعلى المنعم نفسه. ومـثل هذا الشخص لا يعدو أن يكون جملة من العُقَد والازدواجية وأن يكـون عبارة عن قطعة من الشر؛ ولذلك فإن الحيوانات في بعض الحالات تفضل على الإنسان فيما إذا كان بهذه الصفة الآنفة، يروى أنه كان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديد المحبّة لهـم، فـخرج فـي بـعض متنزّهاته ومعه ندماؤه، فتخلف منهم واحد، فدخل على زوجته، فأكـلا وشربا، ثم اضطجعا، فوثب الكلب عليهما فقتلهما، فلما رجع الحارث إلى منزله وجدهما قتيلين، فعرف الأمر، فأنشأ يقول:

فـيا عـجباً لـلخلّ يـهتك حـرمتي ... ويـا عـجباً للكـلب كـيف يـصونُ

وما زال يرعى ذمّـتى ويـحوطني ... ويحفظ عرسي والخليل يخونُ[٢]

فلك أن تتصور أن الحيوانات يكون عندها أحياناً للنعمة وقع حسن، بخلاف بعض الناس الذين يُحدث عندهم الإحسان ردة فعل سلبية تجاه المحسن إليهم. إن الأخلاق والدين وقواعد الإنسانية تأمرنا أن نحسن إلى من يحسن إلينا، وأن نستثمر هذا المقلع الاحساني الذي يقبع داخل نفس الإنسان المحسن، ولا نضطره إلى أن يتعامل معنا بعد ذلك تعاملاً سـلبياً

(١) الروضة البهيّة شرح اللمعة الدمشقية ١٠: ٦، تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ٢٦٢.

(٢) بحار الأنوار ٢٦: ٥٨.

فيما لو قابلنا إحسانه بالإساءة. فسوء التربية هو الذي سينتهي بالإنسان حتماً إلى ألّا يشكر، مع أن الشكر هو من أبرز المظاهر السليمة في السلوك الإنساني تجاه كل إحسان تقصد به الإنسانية.

والقرآن الكريم حينما يقول: ﴿اشْكُرُوا لِي﴾ فليس معناه أن الله تعالى مفتقر إلى الشكر، وإن فسّر ذلك بهذا المعنى فهذا يدل على طبيعة فهمنا المخطوء لحقيقة الشكر، ومن هذا ما يتصوره البعض من أن الشكر هو قول الإنسان: الحمد للّه، حينما ينتهي من طعامه مثلاً، والواقع خلاف هذا؛ إذ أن الشكر هو تعبير عن إظهار النعمة؛ فإننا قد أُمرنا بأن نظهر آثار نعمة اللّه علينا[١].

يروى أن الرشيد كان عندما يخرج من قصره يخرج العبيد معه وهم يحملون بِدر الدنانير، فكان كلّما مرّ على شاعر جلس قربه واستمع إلى شعره ثم أعطاه بِدرة، وكذلك يفعل مع الأُدباء وغيرهم من أهل الفن. وقد مرّ ذات يوم بمنزل الأصمعي، فقال لجعفر: هيا بنا لنمضيَ إليه. فمضيا إليه خفية ومعهما خادم معه ألف دينار؛ ليدفع ذلك إليه، فدخلا داره فوجدا كساء جرداء، وبارية سملاء، وحصيراً مقطوعاً، وخباء قديمة، وأباريق من خزف، ودواة من زجاج، ودفاتر عليها التراب، وحيطاناً مملوءة من نسج العناكب، فوجم الرشيد، وسأله مسائل غثة لم تكن من غرضه، وإنما قطع بها خجله، وقال الرشيد لجعفر: ألا ترى إلى نفس هذا المهين، قد بررناه بأكثر من خمسين ألف دينار وهذه حاله، لم تظهر عليه آثار نعمتنا؟ والله لا دفعت إليه شيئاً. وخروج من عنده ولم يعطِه[٢].

---

(١) قال الله تعالىَ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى: ١١.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٤٧.

فلسان النعمة يجب أن يكون ناطقاً بالشكر، أي أن الله تعالى إذا أنعم على عبد بنعمة وجب على الإنسان أن يعتقد بجملة اُمور، منها أن هـذه النعمة من الله جل وعلا تفضلاً عليه؛ ذلك أن بعض الناس يظن أنه إنما رزق هذه الأموال لما يملك من علم وعبقرية فهو بعلمه وعبقريته جـمع هذه الأموال وكدسها. مع أن مسألة الرزق ليس لها علاقة بالعبقرية أبداً، إذ من الممكن أن تجد أحداً لا يعقل يمينه من شماله وهو يملك الأموال الطائلة وقد تجد عبقرياً يعوزه الرغيف.

ومن الاُمور التي يجب على الإنسان محل النعمة أن يعتقد بها هو أداء حق هذه النعمة بالشكر. والشكر ليس فقط في القلب أيضاً، بل يجب أن يصاحبه شكر اللسان، فلسان المرء يجب أن يلهج دائماً بذكر الله تعالى واليد كذلك يجب أن تساهم في عملية الشكر هذه بأن تمتد إلى المحتاج والجائع والقلب الكسير والمرأة البائسة يد العون وكـلّ مسـاعدة، أو إلى عائلة لتنقذها من أن تقع في أحضان الشيطان. وهـذا هـو المـعنى الذي يصوّره الشاعر، فيقول:

أفـــادتكمُ النـــعماء مـــنّي ثـــلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المحجّبا[1]

إذن فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ فإنما يريد من الشكر أن يأخذ عندنا أبعاداً واسعة متفرقة. ومن أبعاد الشكر الإنفاق، وقد وصل الأمر عند البعض أن يكون شكرهم إنفاق نفوسهم:

---

(١) البيت للإمام الشيباني الشافعي. تفسير القرآن العظيم ١: ٢٤، ٣: ٥٣٦، البداية والنـهاية ١: ١٣٥.

كم بين قوم إنما نفقاتُهم   مالٌ وقومٌ ينفقون نفوسا[(١)]

وأبرز مصاديق هذا الإنفاق هو شكر الإمام الحسين عليه السلام اللّهَ على عطائه تعالى له، وكان عاقبة ذلك الشكر ما نراه الآن من أمر الحسين عليه السلام الذي نظر إلى الأجيال نظرة بعيدة، وأدرك أنها سوف تحتضنه فكرة في الرؤوس وشعاراً على الأفواه وروحاً في الضمائر. إن كل هذه الأشياء كان يدركها الحسين عليه السلام. لكن ماذا قدم شكراً على هذه النعمة؟ لقد قدّم نفسه الشريفة المقدسة، وقدم الشباب من آل محمد صلى الله عليه وآله شكراً عليها.

فلسفة القصص

إن القرآن الكريم يريد أن يلخص لنا تلك التجارب ويخرج منها بنتيجة نستفيد منها في حياتنا، وهو ما يسمى بفلسفة القصص أو فلسفة التاريخ. فمثلاً قصة هابيل وقابيل وقصة إبراهيم عليه السلام وقصة نوح عليه السلام حينما صنع السفينة وأخذ قومه يستهزئون به، وقصة يوسف عليه السلام، وكذلك العشرات من القصص غيرها يريد الله تعالى منّا أن نأخذ منها العبرة والفائدة. ونحن بدورنا يجب ألّا نقرأ تلك القصص قراءة سطحية، وألّا تمر علينا ونحن نتسلى بقراءتها فقط، بل الواجب علينا أن نتواصل معها لاستنباط السنن المودعة فيها.

وهذا هو شأن الكثير من الناس مع القصص التي وردت في القرآن، بل ربما تعدى الأمر ذلك إلى مسألة هجر القرآن وعدم القراءة فيه، فيُقصر

(١) البيت لأبي تمّام. ديوان الحماسة ١: ١٨٩، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٦٣.

مقتنيه اقتناءه على البركة ولأجلها أما أن يقرأ به كل يوم ويـناجي اللـه تعالى عبره كل صباح فهذا غير وارد في عرف البعض. فالقرآن لم ينزله الله تعالى لأجل البركة فقط ولا أُنزل لأجل أن يفرغ محتواه الاجتماعي. إن هذه المحاولات التي ترمي إلى هذا الهدف هي مـحاولات مـدسوسة ولازالت قائمة حتى الآن؛ حيث إن الكثير من الناس يحاول أن يـصرف القرآن عن أهدافه وأن يفرغه من محتواه.

وتحضرني هنا قصة من القـصص ذات العـلاقة بـهذا الشأن، ذلك أن مروان آخر خلفاء بني أُمية حينما خرج بجيشه لقتال جيش العبّاسيّين، كان تعداد جيشه مئتي ألف مقاتل، وبعد أن تقابل الجيشان، أخذ يـفكّر بطريقة يتغلّب بها على جيوش العبّاسيّين، فـانقدحت فـي ذهـنه فكـرة استدعى على إثرها خازن أمواله وسأله عن مقدار ما مـعه مـن أمـوال، فأجابه بأنها كثيرة، فأمره أن يُخرجها فيضعها بين يدي العسكـر وسـط المعركة، ثم أمر مناديه أن ينادي بأنه قد خصّص لكلّ من يأتيه بـرأس جندي من جيش العدوّ مبلغ مئة درهم من المال، ولمن يأتيه برأس قائد منهم مبلغ ألف درهم. وهو بهذا يتصوّر أنه يشحذ همم الجنود المقاتلين، ويحرز النصر.

فلما أُلقيت الأموال إلى جنب الجند ورأوهـا مـالوا عـليها يـنتهبونها، فرآهم معسكر العباسيّين فتصوّروا أنهم انهزموا، فكرّوا عـليهم بسـيوفهم كرّة عنيفة فانهزموا وقتلوا منهم مقتلة كبيرة، فهرب مروان مع عائلته إلى قرية اسمها أبو صير قرب الفيوم في مصر، وهي منطقة أقـباط، فـدخل إحدى الكنائس هو وعائلته، لكن القائد العباسي عامر بن إسماعيل لحقه بعد أن نمّ عليه أحد غلمانه كما يقول المؤرخون، وكان أن أمر بهذا الغلام

فطرح فاستلّ لسانه ورمي به.

ولما انتهى عامر بن إسماعيل إلى بوصير، هرب مروان بين يديه في نفر يسير من أهله وأصحابه، ولم يكن قد تخلّف معه كثير منهم، فانتهوا في غبش الصبح إلى قنطرة هناك على نهر عميق، ليس للخيل عبور إلّا عليها، وعامر وراءهم حتى أدركهم، فلوى مروان دابته إليهم وحاربهم فقتل. وبعد مقتل مروان نُقف رأسه ونفض مخّه، وقطع لسانه وأُلقي مع لحم عنقه، فجاء كلب فأخذ اللسان.

ولما قعد عامر بن إسماعيل علىٰ فراش مروان، وطلب أن يؤتىٰ بابنته الكبرىٰ، جاءت مختنقة بعبرتها، ثم قالت له: إن دهراً أنزل مروان عن عرشه وأجلسك على فراشه، وتركك تنادم كبرى بناته لدهر أسدى إليك عظة وعبرة[1].

ولذا فإن القرآن الكريم يحاول أن يبين لنا أنه ليس لمجرد التبرك بل إن فيه أبعاداً يجب على الإنسان أن يستشفها بعيداً عن جعله حرزاً يعلق على الأعناق. فالأمر الذي لا بد من الإذعان به هو أن القصص لا تعدو أن تكون عظات وعبر؛ وما الدنيا إلّا مخزن هائل ومنجم من العظات التي يجب على الإنسان أن يقتلع منها كل حين ما يريد. فالقرآن الكريم في حقيقته هو مدرسة تتجلى فيها كل تجارب الآخرين، وكل العلوم التي كان بالإمكان التعرض إليها في ذلك الوقت. والقرآن الكريم هو معلم ومربٍّ ومهذب يجب أن نأخذ منه الاعتبار كما نأخذ منه الأحكام الشرعية والقواعد الأخلاقية وغيرها.

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٤٦، شرح نهج البلاغة ٧: ١٣٠، ١٦٠، ١٨: ٣٦٥.

وسائل المستشرقين للنيل من الإسلام

وهم يقومون بكل شيء مقابل هذا، فيشوهون التاريخ من أجل أن يشوهوا الدين الإسلامي، ويحرفوا المسلم عن دينه إلى الديانة المسيحية.

قضيّة الرق

وبعض الكتاب الآن يستغلون نقاط عدة في هذا المجال، ومن هذه النقاط قضية العبيد حيث كان هناك بعض التجار الذين يذهبون إلى أفريقيا ويقولون للناس: إن الإسلام يعتبركم مثل البهائم تباعون وتشرون، وكأنما نيرون الذي يتلذذ بحرق العبيد هو منا، أو كأن ملاعب روما التي كانت تسيل عليها دماء العبيد هي ملاعبنا، وكأننا لسنا الذين زوجنا العبد من بنت عبد المطلب[1]، ولا نحن الذين جعلنا العبد رئيس أركان جيش المسلمين كله، وهو أُسامة الذي كان مملوكاً.

فهؤلاء كانوا يحاولون تشويه صورة الإسلام بكل ما يستطيعون، فهم يأتون إلى كتب الفقه عندنا ويقولون: إن في هذه الكتب باباً مخصصاً لبيع وشراء العبيد. وهؤلاء يتناسون أن هذا الباب موجود فعلاً لكنه ليس من وضع الإسلام؛ فقانون الرقّ موجود قبل الإسلام، وحينما جاء الإسلام وجده كذلك، وكان العبيد يباعون ويشرون. فعالج هذه المشكلة بشكل تدريجي ولم يعالجها دفعة واحدة. فهؤلاء المستشرقون استغلوا هذه الظاهرة من أجل أن يثيروا الناس على المسلمين.

---

(١) أي زواج زيد بن حارثة ربيب رسول اللّه ﷺ من زينب بنت جحش.

قضيّة الشهادة

ومن القضايا التي أثاروها أيضاً قضية المرأة، حيث إن الإسلام اشترط شهادة امرأتين مقابل رجل واحد. فاستغلّوا هذا الأمر وقالوا: هذا دليل علىٰ أن الإسلام يعتبرها نصف الرجل. وهذه مغالطة؛ لأن من الفروق بين الرجل والمرأة، أن المرأة أكثر عاطفة من الرجل؛ وذلك لأن بناء الأُسرة يحتاج إلى جوّ عاطفي وهو مناط دور المرأة داخل الأُسرة.

إن خطورة الشهادة في بعض المواطن اقتضت مثل هذا الشرط، إذ أن المرأة في مواطن أُخرىٰ تقبل شهادتها لوحدها، ففي حالة الولادة، مثلاً يعتمد في شهادة أن هذا الولد هو ابن هذه المرأة أو العكس علىٰ شهادتها لوحدها.

قضيّة الميراث

أما عن موقف الإسلام من ميراث المرأة، كونه جعل لها النصف، فيجب النظر إليه من منطلق كلّي وليس من منطلق جزئي، فنظريّة الاقتصاد الإسلامي لم تكبّد المرأة أي أعباء ماليّة مثلما تكبّد الرجل من صرفيّات السكن وغيرها، ذلك أن دخل الرجل يصرفه ١٠٠٪ على المرأة وعلىٰ المنزل، وبغير هذا التمايز لا تكون في ذلك عدالة؛ إذ الرجل هو المسؤول عن احتياجات المرأة، ذلك أن للرجل الولاية العامة علىٰ المرأة وليس لها ذلك؛ لأن الإسلام خصّها بدور آخر داخل الأُسرة، والولاية العامّة تحتاج إلىٰ أعصاب أقوىٰ من أعصاب المرأة.

وعلىٰ ذلك فإن موقف الإسلام من المرأة ليس موقف تفضيل وإنما هو موقف تفصيل وتقسيم الواجبات والحقوق. هذا في حين أن قانون

الإسلام يضع قدم المرأة على رأس الرجل ويضع الجنة تحت أقدامها: **«الجنة تحت أقدام الأُمّهات»**[(١)].

وهذا تاريخنا يشهد على احترام الإسلام للمرأة، غير أن الأقلام المغرضة تحاول أن تستغل بعض الأُمور لتسيء بها إلى ديننا كالشهادة مثلاً. فهؤلاء يشكلون على مسألة جعل شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، وهذا أمر نظر فيه الإسلام إلى جوانب أُخرى لم ينظر هؤلاء من خلالها إلى هذه المسألة، وذلك يتعلق بأسباب عاطفية ودواعٍ تكوينية تتصف بها المرأة، وهو الذي جعل شهادتها بهذه المنزلة. وبالنتيجة فإن هذا لا يعني أن الإسلام ينتقص المرأة و إنما هي مسألة تصنيف ليس إلّا.

إن موقف القرآن الكريم من الأديان الأُخرى هو موقف إيجابي كامل فهو يمجد عيسى عليه السلام ويمجّد أُمّه البتول مريم عليها السلام، وهذا خلاف ما عليه اليهود حيث إنهم بهتوها ورموها بالزنا (تنزّهت عن ذلك). أما القرآن الكريم كما قلنا فقد كرمها ونزهها ومجدها، لكن ما نراه الآن هو أن المسيحيين يقفون مع اليهود ويبرّئونهم من دم عيسى عليه السلام ويحمّلون المسلمين أوزار الأولين والآخرين. وأبرز مثالٍ على هذا هو موقف الأُمم المتحدة المتفرج على مآسينا ومصائبنا دون أن تحرك ساكنا أو أن تفعل شيئاً حيال ما يجري على المسلمين في بلادهم، فهناك الكثير من القضايا المصيرية قد بقيت معلقة دون أن تجد لها حلاً عشرات السنين في حين أن القرآن جاء ليصدق ما بين يديه من كتب سابقة.

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، عن لب اللباب للقطب الراوندي، مسند الشهاب ١: ١٠٢/١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١/٤٥٤٣٩.

وعندما تقرأ تاريخ الأندلس تجد كيف كان المسيحيون يعاملون المسلمين، وكيف كانت النساء تتعرض للاغتصاب والأموال للنهب والشباب للذبح وكيف كانت الدماء تسيل فتلعن الإنسانية كلها. فكانت محاكم التفتيش أكبر جريمة ارتكبتها الإنسانية في ذلك الوقت. هذا في حين أن موقف المسلمين بقي ذلك الموقف الرائع، وكان قائد جيش المسلمين قبل أن ينزل إلى ساحة المعركة يوصي جنده قائلاً: لا تتعرضوا للرجال في الصوامع من أحبار ورهبان.

ولما جاء وفد نصارى نجران إلى النبيﷺ وقفوا بباب المسجد وقد حانت صلاتهم، فصلوا في مسجد رسول اللهﷺ وأراد المسلمون منعهم فقال رسول اللهﷺ: «دعوهم». فصلّوا إلى المشرق، فقالوا لرسول اللهﷺ: يا محمّد، لم تذكر صاحبنا؟ قال: «ومن صاحبكم؟». قالوا: عيسى بن مريم، تزعم أنه عبد الله؟ قال: «أجل، هو عبد الله». قالوا: فأرنا فيمن خلقه الله عبداً مثله، فهل رأيت مولوداً يولد من غير أب؟ ثمّ قال السيد والعاقب: فمن أبوه يا محمد؟ فصمتﷺ ولم يجبهما وأعرض عنهما، ونزل جبرائيلعليه السلام فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1].

فقال لهم ذلك، فقالا: أما إنه ليس كما تقول. فقال لهما رسول اللهﷺ: «أسلما». قالا: قد أسلمنا. قالﷺ: «إنكما لم تسلما، فأسلِما». قالا: بلى قد

---

(١) آل عمران: ٥٩ ـ ٦١.

أسلمنا قبلك. فقالﷺ: «كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير». ثمّ قال لهم: «فإن الله عزّ وجل يقول: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1]». فقالوا: نلاعنك.

فخرج رسول اللهﷺ إليهم وقد أخذ بيد عليعليه السلام ومعهما فاطمة والحسن والحسينعليهم السلام، فقال رسول اللهﷺ: «هؤلاء أبناؤنا ونساؤنا وأنفسنا». فهمّوا أن يلاعنوه، فسأل أحدهم: من هؤلاء؟ فأُخبر بهم، فقال لأصحابه: واللّه، إني أرىٰ أن مع محمد وجوهاً لو أقسم بهم علىٰ اللّه أن يزيل جبلاً من مكانه لفعل، فلا تباهلوهم فتهلكوا. واللّه لئن باهلتموهم لا يدور الحول عليكم ومن النصارىٰ عين تطرف. فامتنع النصارىٰ عن المباهلة وصالحوا النبيﷺ[2].

وموضع الشاهد هنا أنهم لما جاؤوا استقبلهم النبيﷺ وأدخلهم إلى المسجد ومنحهم كامل الحرية في الحديث والنقاش والاعتراض. ونحن نعرف أن المسيحية عاشت على امتداد تأريخها في ظل الإسلام وتنعمت بوجوده وهي تمارس شعائرها وعباداتها في منتهى الحرية، وكذلك اليهود حيث كانوا يعيشون في المدينة المنورة آمنين يمارسون طقوسهم ولم يخرجهم النبيﷺ منها حتى بدؤوا يعيثون فيها وحاولوا الإيقاع بين

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) انظر: روضة الواعظين: ١٦٤، شرح الأخبار ٢: ٣٣٩، التبيان ٢: ٤٨٤، شواهد التنزيل ١: ١٦٣ ـ ١٦٤ / ١٧٤، عيون الأثر (ابن سيد الناس) ١: ٢٩٠.

الأوس والخزرج[1] وما تلا ذلك من نقض صلحهم مع الرسول الأكرمﷺ ودسوا له الدسائس وخلقوا له ألف مؤامرة[2]، وإلّا فإنهم كـانوا يـعيشون

---

(١) كان شاس بن قيس يهوديّاً، وكان شديد الكفر والظغن علىٰ المسلمين، مرّ يوماً علىٰ نفر من الأوس والخزرج من أصحاب رسول اللهﷺ في مجلس من مجالسهم يتحدّثون مع بعضهم بحبّ ومودّة، فغاظه ما رأىٰ من إلفتهم ومودّتهم وصلاح ذات بينهم، فقال: «قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إن بقوا علىٰ هذا من قرار». ثم أمر شابّاً من اليهود كان معه أن يجلس معهم، ويذكّرهم بيوم (بعاث) [بعاث: موضع في نواحي المدينة، دارت به معركة كبيرة بين الأوس والخزرج. وسببها أن الخزرج لمّا سمعوا بأن اليهود قد عاهدوا الأوس علىٰ قتالهم، أعدّوا العدة واستنفروا القبائل معهم، وكذلك فعلت الأوس. انتهت المعركة بانتصار الأوس وقتل قائد الخزرج عمرو بن النعمان البياضي. أيام العرب: ٧٣ ـ ٨٥] وما قبله من أيّـام الحـروب الطاحنة بينهم، وأن ينشدهم من الشعر بعض ما قالوه في تلك الحروب، ففعل الشابّ ما أمره به، فتكلّم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتىٰ تواثبوا وكلّ يقول: إن شئتم عدنا إلىٰ ما كنا فيه.

وبلغ ذلك رسول اللهﷺ فخرج إليهم بمن معه، فصاح بهم: «الله الله يا معاشر المسلمين، أبدعوىٰ الجاهليّة وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع عنكم أمـر الجاهليّة، واستنقذكم من الكفر، وألّف بين قلوبكم؟».

فانتبهوا وعرفوا أنها نزغة من الشيطان، فبكوا وأقبلوا يعانق بعضهم البعض. الدرّ المنثور ٢ ص١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) ومن ذلك أن النبي الأعظمﷺ حينما خرج إلى غزاة تبوك استخلف على المـدينة أمـير المؤمنينعليه السلام؛ لأنهﷺ خاف علىٰ دار هجرته، وعاصمة دولته ممّن وترهم. وكان أكثر تخوّفه من المنافقين الذين تخلّفوا فيها عنهﷺ لمقاصدهم السيّئة. وفيها قال له الرسول الأكرمﷺ: «خلّفتك لما تركت ورائي، فارجع فإن المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك، فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي، أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا إنّه لا نبي بعدي؟». انظر: التفسير الكاشف ٤: ٤٣، فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣، ١٤، بعدة طرق، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، ١٢١، الجامع الصحيح (سنن التـرمذي) ٥: ٣٠٢/٣٨٠٨، ٣٠٤/٣٨١٣ ـ ٣٨١٤.

ملء إرادتهم.

فقوله تعالىٰ: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ بمعنى أن القرآن جاء دعماً لفكرة رسالة السماء العامة التي نزلت على عيسى وموسى عليهما السلام، ودعماً لكل رسالات السماء التي سبقتهما، في حين أننا نرى من أتباعهما عليهما السلام عكس ذلك؛ فهم يقفون موقفاً سلبياً من الإسلام ومناوئاً له. وهذا الموقف السلبي اتخذ أبعاداً عدة أخطرها ما كان منها على مستوى التشكيك بالعقيدة وتزوير التاريخ والقتال والحروب التي شنوها على مر التاريخ.

المبحث الخامس: الفهم المخطوء لظاهر القرآن

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فما الذي يعنيه ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؟ الحقيقة أن فهم ظاهر القرآن فهماً سطحياً يؤدي إلى استخدامه بشكل يسيء إلى القرآن أحياناً، فقد تجد أن بعض الناس يحاول أن يكتب حول معنى من المعاني ويريد أن يجد له سنداً يثبت به صحته فيلجأ إلى القرآن ليأخذ منه ما يحلو له من إثباتاتٍ وأدلّة بحجة أن في القرآن ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فيزج القرآن الكريم في متاهة المعنى الذي يريده. وهناك آراء مضحكة حينما يقرؤها الإنسان لا يملك لنفسه إلّا أن يستغرق في الضحك فيما فيها، فمثلاً حول قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[1] يكتب أحد المفسرين أربعين صفحة عن النملة وعن اسمها وصفاتها وجنسها. وهكذا غيره ممن يشرح أشياء غريبة ويلصقها بالقرآن.

---

(١) النمل: ١٨.

ومن أراد أن يطلع أكثر على هذه الأُمور فليرجع إلى تفسير الطنطاوي وليقرأها بنفسه، ومن هذا قوله: إن من الاستدلال على وجود الله تعالى الاستدلال بالركوع؛ لأن الراكع حينما يركع يرَ الأرض، وحينما يرفع رأسه منه يرَ السماء، ومعنى هذا أن المصلي سيفكر بأن وراء الأرض والسماء إلهاً وهو الله. وهذا في الحقيقة تفسير غريب ورأي أغرب؛ لأن الإنسان يستطيع أن يرى السماء والأرض في كل الأحوال وليس فقط في حالة الركوع انحناء وقياماً.

وهذه الآراء موجودة حتى عندنا نحن الشيعة فأنت تجد من يفسر لك ﴿كهيعص﴾[1] بأن الكاف كربلاء والهاء هلاك العترة والعين عطش الحسين عليه السلام وهكذا. وهذه الآراء موجودة عند بعض المفسّرين، وهي في حقيقتها بعيدة عن روح القرآن؛ لأن القرآن عطاء ضخم لا يأتي بمثل هذه المحاولات البسيطة التي لا تعدو أن تكون من تهيؤات امرأة تغزل بمغزلها. وهذا اللون من التفسير لا يُقبل بأي حال؛ لأنه لا يعدو أن يكون من شطحات الصوفية. وكمثال آخر تجد من يفسّر ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾[2] بقوله: ذل من الذل وذي يعني النفس ويشفَ من الشفاء، والعين في قوله تعالىٰ: ﴿يَشْفَعُ﴾ من الوعي، وهكذا. فيكون المعنى من ذلّ نفسه يشفَ من الأمراض النفسية، فافهموا وعوا[3].

وهذا كلام غريب لا يقبل بحال ولا يؤخذ تفسيراً للقرآن الكريم. كان الأصمعي في طريقه إلىٰ البصرة، وكان معه شخص يضمر له عدواة، فأراد أن ينتقم منه فقال له: أخبرني عن قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا

---

(١) مريم: ١.　　(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) مجمع البيان ١: ١٩.

أَنْفُسَكُمْ ﴾[١]، ما المراد بقوله: ﴿قُوا﴾؟ قال: هو فعل أمر من الوقاية. قال: فكيف يكون للمثنىٰ؟ قال: قيا. قال: فللمفرد؟ قال: قِ. قال فلجمع الإناث؟ قال: قين. قال فاجمعها في جملة. فقال الأصمعي: قِ، قيا، قوا، قين. فقال له الملّاحون: يابن اللخناء تقرأ القرآن بحروف الدجاج؟ ثمّ راحوا يضربونه حتىٰ أغرقوه في النهر. وفي الواقع هناك الكثير من هذه الأنماط الغريبة من التفاسير، مع أن المفروض بنا أن نجعل القرآن أسمى من هذه المستويات. صحيح أن القرآن فيه تفسير كل شيء لكن ليس بالشكل الذي يرسمه البعض الذين يحاولون أن يصوروا القرآن على أنه حاوٍ لكل شيء كما يملیه علیه ذوقه.

المبحث السادس: التخلّق بروح القرآن

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الهدى: من الهداية؛ لأن مسيرة الإنسانية كلها عثرات، فكل إنسان يتعثر في دربه وفي سلوكه وفي أخلاقه؛ فكان لابد أن يكون هناك من يأخذ بيد الإنسانية ويجنبها العثار ويدلها على مكارم الأخلاق والروح العالية. فالإنسان العادي بحكم طبيعته وتركيبته حينما يساء إليه فإن حقده سيدفعه إلى الانتقام ممن أساء إليه لكن القرآن يقول له: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢].

وهذا المضمون قد جسده الرسول الأكرم ﷺ عبر سيرته العطرة وحياته الشريفة. يقول أحد أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد معه حنيناً: إني والله لأسير إلى جنب رسول الله ﷺ على ناقة لي، وفي رجلي نعل لي غليظة، إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله ﷺ، ووقع حرف نعلي على ساق

(١) التحريم: ٦.
(٢) فصلت: ٣٤.

رسول اللهﷺ، فأوجعه، قال: فقرع قدمي في السوط، وقال: «أوجعتني؛ فأخّر عني». قال: فانصرفت، فلمّا كان من الغد إذا رسول اللهﷺ يلتمسني، فقلت: هذا والله لما كنت أصبت من رجل رسول اللهﷺ بالأمس، قال: فجئته وأنا أتوقّع أن يوبّخني، فقال لي: «إنك قد كنت أصبت رجلي أمسِ بنعلك فأوجعتني، فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأُعوّضك». قال: فأعطاني رسول اللهﷺ ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني(١).

والقارئ حينما يقرأ السيرة العطرة للرسول الأكرمﷺ يلمس فيها هذا الخلق السامي والشعور النبيل واضحين على كل حرف من حروفها، فالخلق النبوي العالي يجسد لنا بحق كل تعاليم القرآن.

فالقرآن الكريم يريد أن يأخذ بأيدينا إلى جادة مقابلة الإساءة بالإحسان، ويعلمنا أن في الحياة شيئاً من الأريحية وشيئاً من العفو، وأن فيها جانباً مهماً جداً هو جانب الخلق.

فـ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ تعني أن رحمة القرآن تعكس رحمة اللّه، يقول الرسول الأكرمﷺ: «إن لله مئة رحمة؛ أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»(٢).

وقد قرأت مرة مقولة لأعرابي أعجبتني كثيراً ذلك أنه حضرته الوفاة فراح أهله ينوحون عليه، فقال لهم: لماذا تبكون؟ قالوا: لأنك ستموت. قال: والذي يموت، أين يذهب؟ قالوا: إلى الله. فقال: من يذهب إلى الله

(١) مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ١٢٣ / ٤٠٨، تاريخ الطبري ٢: ٣٦٠، البداية والنهاية ٤: ٤٠٧.

(٢) الغارات ١: ٢٤٠، الطرائف: ٣٢٢، مسند أحمد ٣: ٥٦، صحيح مسلم ٨: ٩٦.

فلا خوف عليه، فلا تبكوا. أي أن هذا الموطن برأيه موطنُ فرح لا ترح؛ لأنه سيفد على كـريم. وسـينتقل إلى مـصدر الرحـمة والعـطاء والخـير والامتنان. يقول أحد الشعراء:

ربّ روحـي طـليقة فـي مـناجا تك والجسـم مـصْفَدٌ مكـبولُ
بَعُدَ الفرق بين روحي وجسمي جسـدي آثـمٌ وروحـي بـتولُ
وأنـا السـائل الملحّ ويـجلو وحشـة الذلّ أنك المسـؤولُ

فهو يخاطب الله تعالى ويناجيه بقوله: أنا لا أشعر بوحشة الذل حينما أسألك؛ لأنك أنت المسؤول وإن كنت سائلاً ملحّاً. وكذلك هذا الأعرابي يقول لهم: لا تبكوا علي، بل افرحوا لأني سأفـد عـلى اللـه. وألمّ بـهذا المعنى شاعر الطف عندما أخذ يخاطب أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

أبا حسنٍ يهنيك ما أصبحوا بـه وإن كـان لـلقتلى تـقام المآتـمُ
لأورثتهم مجداً وما كـان حـبوة ولكن نصباً فـي بـنيك المكـارمُ

أحكام التملك في البيت الحرام

ثم قال تعالىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، وهذا المقطع الشريف فيه معركة بين الفقهاء، فحينما نرجع إلى الفقه الإسلامي نجد أن فقهاء المذاهب الإسلامية كافّة ينقسمون علىٰ رأيين حوله:

الرأي الأوّل: أن المقصود مكة المكرمة كلّها

فهؤلاء يقولون: إن هذه الآية تتناول مكة بأكملها على أنها بلد حرام فهي حرام لجميع الناس سواء كانوا عاكفين أو بادين. فجميع الحرم هـو للناس سواء، ويرتبون على ذلك حكماً مؤداه أن جميع بيوت الحـرم لا

تملك ولا تباع ولا تشرى ولا تؤجر، ومن حقّ من يرد مكّة أن يدخل في أي بيت من بيوتها وليس لساكن البيت أن يمنعه، بل إن عليه أن يضيفه؛ لأن هذه الدار من ضمن الدور المشمولة في الآية. وعلى هذا الرأي بعض الفقهاء كعبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس وسفيان الثوري ومجاهد وجملة من علماء الإمامية.

ووفق هذا الرأي تكون ملكيّة هذه البيوت ملكية مسلوبة، فقوله تعالىٰ : ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ يحتم هذا المعنى، أما إذا كان هنالك ملكية فإن هذه الدور لم تصبح سواء أبداً، وهو خلاف تصريح القرآن الكريم، فالذي يملك والذي لا يملك ليسا سواء.

ففرض المسألة هنا على هذا الرأي هو أن تلغى الملكية والكراء. وسنبين لاحقاً إن شاء الله تعالىٰ، السر في ذهاب هؤلاء إلى هذا الرأي.

الرأي الثاني: أن المقصود به المسجد الحرام فقط وأدلّته

وعلى هذا الرأي فإنه ليس لابن مكة الحق في أن يحرم البادي من الصلاة بالمسجد أو الطواف فيه، بل كلهم سواء في هذه الناحية وليست هنالك أولوية لأحد على أحد البتة. ومعنى هذا أن الناس متساوون في إقامة الشعائر والعبادات، أما أرض مكة وبيوتها فإنها تملك وتباع وتشترى ويحق كرايتها.

ويستدلون على هذا بأُمور، منها:

الأوّل: قوله تعالىٰ: ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾

فاللّه تعالىٰ يقول: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[1]، وهو تعالىٰ

(١) الحجّ: ٤٠.

أضاف هنا الديار إلى المسلمين الذين أخرجتهم قريش، ولو لم يكونوا يملكونها لما صحّت هذه الإضافة.

الثاني: قولهﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟»

فالرسول الأكرمﷺ حينما دخل مكة عام الفتح قال له أصحابه: أين تنزل يارسول اللّه؟ فقالﷺ: «**وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟**»[1].

ذلك أن عقيلاً باع كل منازلهم، مما يدل على أنهم كانوا يملكونها، ولذا عبّر عنها بلسان الملكية.

الثالث: شراء عمر داراً للسجن فيها

إذ أن هؤلاء يستندون إلىٰ ما يروى من أن عمر بن الخطاب اشترى بها داراً بأربعة آلاف درهم، وجعلها سجناً[2].

وهذه الأدلّة صريحة في أن بيوت مكة تقع ضمن دائرة الملكية الفردية.

منشا الرأيين

وهذا الرأيان نشأا من اختلاف الآراء حول فتح مكّة ، وهل أنها فتحت عنوة أم أنها فتحت صلحاً، أي أن الرسول الأكرمﷺ استولى عليها وصالح أهلها على البقاء بها؛ والمؤرخون هنا قسمان: قسم يذهب إلى أنها فتحت عنوة بدليل أن الرسول الأكرمﷺ قتل بعض الناس حينما فتحها، وأمر بملاحقة البعض حتى لو كانوا متعلّقين في أهم الأمكنة. فهذا دليلهم على أنها فتحت عنوة.

---

(١) صحيح مسلم ٤: ١٠٨، فتح الباري ٣: ٣٦٠.

(٢) تلخيص الحبير ٨: ٢٣٢، السنن الكبرى (البيهقي) ٦:٣٤، عون المعبود ٨: ١٧٨.

وقسم يذهب إلى أنها فتحت صلحاً وبقيت على هذا. وهذا الرأي يذهب إليه الشافعي والحسن وجملة من الفقهاء من الإمامية[١] وغير الإمامية[٢]. ومعنى هذا أن ديار مكة تملك ويحق لمالكها أن يتصرف بها.

وهذا الرأي هو السائد الذي عليه العمل الآن، وعليه يكون المراد من الآية أن الناس سواء داخل الحرم؛ فلا يحق لأحد من داخل المسجد أن يمنع أحداً من خارجه من الصلاة فيه أو الطواف في أي وقت من الأوقات؛ لأن المفروض أن المساجد لله تعالى والناس عباد الله تعالى ومكّة حرمه وأُم البلدان، والأُم الروحية للمسلمين، والمهد الأول للدين الحنيف. فعلى ضوء هذه الامتيازات التي خصّت بها مكة المكرّمة كان لا بدّ من التسوية فيها بين المسلمين.

والمقصود من التسوية بينهم هو احترام آدميتهم وإسلامهم وعقائدهم، وألّا يتطفل البعض فيرقى المنابر في مكة ويوحي للناس بأنه يحمل راية «لا إله إلّا اللّه»، وهو في حقيقته لا يحمل في داخله إلّا الحقد والكراهية لأتباع راية «لا إله إلّا اللّه، محمد رسول الله». ونحن ببالغ الأسف مصيبتنا ـ كما يقول الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد عبده ـ هي أن الإسلام يؤخذ على أنه المذاهب الإسلامية عينها والمسلمون ينظرون إلى هذا المذهب أو ذاك على أنه دين اللّه تعالى مع أن هناك فرقاً بين الإسلام وبين المذاهب الإسلامية؛ لأن المذهب غير مقصود لذاته بل المفروض أنه طريق مؤدّية إلى الشرع. فالمذهب ليس غاية وإنما هو وسيلة وطريق تؤدّي إلى

---

(١) جامع المقاصد ٤: ٩٧.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذّب ٧: ١١٥، ٤٦٦، ٩: ٢٤٨، فتح الوهاب ٢: ٣٠٦ مغني المحتاج ٤: ٢٣٦.

الوحدة لا إلى تمزّق المسلمين؛ فتكون المذاهب روافد متعدّدة تؤدّي إلى غرض واحد هو الإسلام.

فالفقيه ليست له وظيفة غير نقل الحكم الشرعي بعد بيان دليله، ونحن يجب ألّا نعبد الفقهاء، وعليه فإذا كان رأي الفقيه يخالف الخطوط العامة للدين فعلينا ألّا نأخذ به. وبالمناسبة أذكر هنا موقفاً لأحد المسلمين مع أمير المؤمنين عليه السلام حيث إنه عليه السلام كان خارجاً من المسجد فرآه خارجه، فسأله عن سبب تخلّفه عن الجماعة، فقال له: أنا لا أُبايعك، ولا أخرج معك لقتال، ولا أجتمع معك في جمعة أو جماعة. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: **«وأنا لا أُكرهك، ولا أمنع عنك عطاءك ما دام المسلمون منك في أمان»**[1].

وهذا نابع من كون الهدف من طاعة الفرد للإمام هو حفظ النظام، فإذا كان المسلمون في أمان من شخص ما ولم يكن يشكل خطراً على مصالحهم أو مصالح دينهم فليس للإمام أن يعاقبه وإن لم يخرج معه. فتأمل هذه النفس الكبيرة التي اتصف بها عليه السلام، أو بالأحرى هذا الفهم المعمق لطبيعة الإدارة والحاكم والمحكوم. فالمسألة ليست شخصية أبداً.

على أية حال نحن لا نعبد شخصيات مطلقاً بل نعبد الله تعالى عن طريق المذهب الذي تعبّدنا الله تعالى به. فعبادة الله تعالى هي الغاية، والمذهب وسيلة يوصلنا إلى تلك الغاية. والله تعالى غداً يسائلنا عن اتّباعنا دينه لا عن اتّباعنا مذهباً من المذاهب. غاية ما في الأمر أن

---

(١) مرّ هذا ولم نعثر عليه، وذكرنا هناك أن قريباً منه ما في (الإصابة) في ترجمة سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب. انظر: الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤، وج١ ص٢٠٠ من موسوعة محاضرات الوائلي.

البعض يرى أن الطريق إلى دين الله تعالى يكون عبر هذا المذهب، والبعض الآخر يرى أنه يكون عن طريق مذهب غيره وهكذا، لكن المفروض أن الأمر لا يتعدى هذا ويصل إلى حدّ تأليه الشخصيات وجعل المذاهب ديناً. هنالك حادثة ذكرتها كثيراً، وهي ـ كما يرويها الخطيب البغدادي ـ أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حين توجّه إلى الشام، وبعد أن وصل إلى المدائن قال جرير بن سهم التميمي (شاعر الإمام عليه السلام وأحد أصحابه):

عفت الرياح على رسوم ديارهم فكأنما كانوا على ميعادِ
وإذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير إلى بلى ونفادِ

فقال له الإمام عليه السلام: «أفلا قلت: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[1]؟ أي أن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، إن هؤلاء كفروا النعم فحلت بهم النقم». ثم قال: «إياكم وكفر النعم ـ ثلاثاً ـ فتحلّ بكم النقم».

ثم نزل وقال: «هيّئوا لي ماء أصبّ عليّ». فهيؤوا له ماء، فدخل فإذا صور في الحائط، قال: «كأن هذه كانت كنيسة؟». قالوا: نعم كان يشرك بالله فيها كثيراً. فقال: «وكان يذكر فيها الله كثيراً»[2].

فهو عليه السلام يبين لهذا القائل: أنها أيضاً كانت يعبد الله تعالى فيها؛ فالمسلم يعبده تعالىٰ عن طريق المسجد، وذاك المسيحي يبحث عن الله تعالى ويعبده عن طريق الكنيسة. فهو عليه السلام يطلب منه أن يكون أُفقه واسعاً وأكبر مما هو عليه كي يستطيع أن يرى الأشياء على حقيقتها.

(١) الدخان: ٢٨.
(٢) تاريخ بغداد ٩: ٢١١ / ٤٧٩٠.

ويتساءل أحد الكتّاب فيقول: كيف لهذه الصحراء أن تخرج مثل هذا النتاج؟ يقصد به أمير المؤمنين عليه السلام حيث إنه يتمتع بأُفق غريب لا يقف عند حد.

على أية حال فإن المفروض بنا حينما نتبع مذهباً من المذاهب ألّا نجعل المذهب هدفاً لنا، و إنما ينبغي ألّا نعطيه أكثر من صفة الوسيلة التي توصلنا إلىٰ أحكام الإسلام وتشريعاته. وإذا كان الأمر كذلك فينبغي إذن أن نعبر الحواجز إلى اللباب، وألّا نقف دونه متمسّكين بالقشور التي تبعدنا عن الإسلام وحقائقه.

في معنى الإلحاد في الآية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ومعنى الإلحاد هنا هو الميل، يقال: ألحد أي مال وانحرف عن الصواب[1]. فما المقصود به هنا؟ هنالك عدة آراء للمفسرين في هذا المورد نذكر منها:

الرأي الأوّل: أنه الشرك

فالمشرك بطبيعة الحال يعرض نفسه إلى عذاب أليم نتيجة ما اقترفه في حق نفسه وحق ربه. والشرك نوعان: فتارة يشرك الإنسان بربه ثم يتحداه بشركه ويبارزه المعصية، وتارة يشرك بالله في قرارة نفسه لكنه ظاهراً مع المسلمين يظهر الإسلام ويتعبد معهم في مساجدهم ويقول: «لا إله إلّا اللّه، محمد رسول الله». ومثل هذا لا يضر المسلمين أمره مادام لم يستغلّ حالته تلك ضدّهم لصالح عدوهم كأن يتجسس عليهم له، أو يقوم بمحاولة

(١) العين ٣: ١٨٢ ـ لحد.

تفتيت الجبهة الداخلية بما يبث من دعايات وإشاعات. فإن لم يكن كذلك فلا شأن للمسلمين به بل يترك هو وربه، وكذلك يجب ألّا يبارز اللـه تعالى بالمعصية. إن البعض من هؤلاء يحاول أن يتحدى مشاعر أُمّة بأكملها في سبيل تحقيق رغباته أو رغبات أعداء الإسلام.

الرأي الثاني: أنه دخول مكة بدون إحرام

وهذا الرأي عليه جملة من الفقهاء والمفسرين، وكأن الآية ـ على ضوء هذا التفسير ـ ترد على من يقول: لماذا لا بدّ من دخول مكة بالإحرام؟ إن مثل هذا المتسائل ينكر هذه الشعيرة الواجب الاعتقاد بها؛ وهو بهذا يكون كافراً، أما إذا كان الامتناع عن الإحرام تهاوناً في أمره وليس إنكاراً لوجوده وحقيقته فصاحبه يعد عاصياً، والعاصي يعزر ويعاقب. فالبعض يحمل هذه الفكرة؛ ولذا فإن أصحاب هذا الرأي يؤكّدون على أن الآية واردة في مقام ذمّ من يدخل مكّة بدون إحرام.

الرأي الثالث: أنه طواف المشركين بمكة عراة

وهنا يمكن أن يكون في الآية إشارة لمعنى آخر وهو ذم من يطوف بمكة عارياً، فقد ورث بعض العرب هذه الصفة الذميمة من عادات الجاهلية وبقوا عليها، فكانوا يطوفون بالبيت عراة بحجة أنهم يتقرّبون إلى اللّه بهذا. فالعاري يطوف وليس على بدنه ثوب فيه شبهة؛ لأنهم كانوا يرون أن هذه الثياب التي يرتدونها إنما كانت عليهم حين ارتكابهم المعاصي، أي أنها ملوّثة بالذنوب، ولكي يتخلّصوا من هذه الحالة كان عليهم التجرّد منها، كيلا يواجهوا اللّه تعالى بثوب ارتكبت فيه المعصية[1].

(١) كانت ضباعة بنت عامر بن قرط تطوف بالبيت وهي عريانة، وتقول: من يعيرني تطوافاً؟

فهم يتصورون أن عملهم هذا صحيح، مع أن الحقيقة خلاف هذا؛ لأن الله عزّ وجلّ تعبدنا بالظاهر فقال لنا: إن هذا الثوب طاهر وهذا المكان طاهر فالبس هذا الثوب ولا تشكّ في طهارته. وهـذه المسألة تـنسحب على كثير من العبادات، ذلك أن البعض ممّن يريد أن يتوضأ مثلاً تجده يعاني من مسائل الشك فيظل يتساءل: هل وصل الماء إلى تمام البشرة؟ وهكذا تراه يعيد الغسل بعد الغسل. مع أنه يدرك أن الله تعالى أكبر مـن هذا؛ ولذا فإنه يجب علينا أن نسكب الماء كما أمرنا الله؛ ذلك أنه تعالى تعبّدنا بهذا الفرض الظاهر، فليس من مسؤوليّتنا أن ننظر فيما إذا كان الماء قد وصل إلى قرارة كلّ شعرة أم لا.

مخاطبة الوادي

أو أن يقول قائل: هل يجب أن أُخرج الضاد من مخرجها عندما أقول: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[1] أم لا؟

يروي المحدّثون أن رسول اللهﷺ كان في غزاة، فأشرفوا عـلى وادٍ، فجعل الناس يهلّلون ويكبّرون ويرفعون أصواتهم، فقالﷺ: **«أيها النـاس أربعوا على أنفسكم، أما إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، وإنما تدعون سميعاً قريباً معكم»**[2].

ثم تنشد:

اليوم يـبدو بـعضه أو كـلّه   ومـا بـدا مـنه فـلا أُحـلّه

فنزلت هذه الآية: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف: ٣١. انظر الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٨٩.

(١) الفاتحة: ٧.

(٢) بحار الأنوار ٩: ٣٤٣، مسند أحمد ٤: ٣٩٤، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٨، صـحيح البـخاري ٤:

فهو ﷺ يقول لهم: تجاوزوا هذه الشكليات واجعلوا الروح هي التي تتحكم بكم لا الشكليات مطلقاً وفي كل حال، مع أن الشكليات قد تكون مطلوبة نوعاً ما في بعض الأحيان لكن على ألّا تصل إلى درجة الهوس.

إذن البعض يقول: لماذا أدخل إلى مكة محرماً بملابس فيها شبهة حرام؟ فيكون جواب القرآن هو: اترك عنك هذه الوساوس، ودع عنك هذا الشك وتعبد الله تعالى بالظاهر، الله تعالى الذي أمرك أن تأكل من الحلال وأن تلبس هذا الثوب من حلال، وهذا يكفي.

الرأي الرابع: أنه الصيد داخل الحرم

فهذه المنطقة أراد لها الله عزّ وجلّ أن تكون آمنة، أي يأمن فيها كل حي، فحتى الشجر لا يجوز قطعه فيها. والغرض من هذا هو أن يعوّد الله تعالى المسلمين فيها على مشاعر إسلامية تقوم على احترام الدم داخل البلد الحرام؛ لأن هؤلاء كانوا يعيشون على الدم وفيه إلى أنوفهم، بل أكثر من هذا أن أحدهم إذا شرب الماء ولم تكن فيه رائحة الدم فإنه يراه شراباً ليس فيه بطولة. ودونك نصوصهم الشعرية التي تؤكد هذا المعنى:

وما يريدُ بنو الأقيالِ من رجلٍ ... بالنبلِ مشتملٍ بالجمرِ مكتحلِ

لا يشربُ الماءَ إلّا من قليبِ دمٍ ... ولا ينامُ له جارٌ على وجلِ

وهذا اللون من الاستهتار بالدم وعدم حفظه وعدم إعطائه أية حرمة عندهم؛ بحيث إن الأعراض كانت تهتك والدماء تسفك والأموال تنتهب، هذا اللون أراد الإسلام أن يغيره فوضع لهم هذه الشعيرة في مكّة ، وأمرهم باحترام الدم حتى إذا كان دم بعوضة.

١٦، ٧٥، ١٢٦، ٧: ١٦٢، ١٦٩، ٢١٣، ٨: ١٦٨.

إن هذه المحاولة هي ترويض للطباع الجانحة على احترام الدم، وغرس السلام داخل نفوسهم حتى يترعرع فيها وينبع منها. وليس في هذا الترويض أي سلب أو هدر لرجولتهم أبداً، فرجولتهم محفوظة لكن سفك الدم في غير مكانه لا يريده الإسلام بحال. وهذا هو الذي يعبّر عنه القرآن فيقول: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

علاقة النص القرآني مع البيئة التي ينزل فيها

مما يجدر ذكره والتنويه إليه أن قضية تفسير كتاب اللّه جلّ وعلا هي قضية مشكلة؛ ذلك أن إناطة تفسير بعض النصوص القرآنية بالإنسان يعدّ عملاً غير علمي وغير منهجي فيما إذا كان ممّن لا يملك إلماماً بوضع الجزيرة العربية قبل الإسلام. والسبب في ذلك أن الآيات الكريمة عادة تكون مرتبطة بالبيئة التي تنزل فيها، وبالخصوص منطقة شبه الجزيرة العربية التي كانت تميّزها خصوصيّاتها في مجال الميراث العقيدي والاجتماعي وغيرهما، إضافة إلىٰ أنها كانت مسكناً لليهود الذين كانوا يمسكون بالجانب العلمي وفق المستوىٰ السائد آنذاك باعتبارهم أهل كتاب وعندهم التوراة. وكانوا يعدّون ممّن اختصّوا بمعرفة التاريخ والحوادث التاريخية.

وبهذا كانوا يعدّون أهم مرجع في هذا المجال، بحيث إن أي أحد من سكان الجزيرة العربية كان إذا عرضت له مشكلة يلجأ إليهم مستفسراً منهم عن حلّها.

وهذا الأمر بقي حتىٰ نهاية القرن الأوّل من التاريخ الإسلامي تقريباً،

وكمثال علىٰ هذا كعب الأحبار الذي بقي متمسّكاً بهذا، وقد سأل أحدهم في مجلس عثمان: هل يجب علىٰ من دفع زكاة أمـواله فـي حـول أن يدفعها ثانياً في حول ثانٍ؟ فتسرّع كعب وقال: لا؟ وكان أبو ذر جالساً فرفع عصاه وضرب بها رأس كعب وقال له: يـابن اليـهودية، مـن الذي جرّأك علىٰ الفتيا في ديننا[1]؟

وموضع الشاهد هنا أن هؤلاء كانوا يأخذون بأزمّة الأُمور العلميّة حتّىٰ في عصر صدر الإسلام وما بعده.

القرآن يوضف معرفة اليهود لإثبات النبوّة

وقد وظف القرآن الكريم هذه الظاهرة، كيف؟ أمر العـرب بـالرجـوع إليهم كونهم ممّن يعتقدون بنزول القرآن من السماء، فأراد القرآن الكريم إلزام العرب عن هذا الطريق، فهو يقول لهم: إذا كان هؤلاء مرجعكم الذي ترجعون إليه فاسألوهم عن القرآن: كيف نزل؟ ومن أين نزل؟ وهل نزل من اللّه أم لا؟ لقد كان لهؤلاء بصمات واضحة علىٰ تـاريخنا وفـقهائنا، وهي بصمات مرّة؛ لأنهم نقلوا ما عندهم مـن سـلبيات وأفكـار مـنحلّة ورواسب مزيّفة محرّفة في أذهانهم وسكبوها في تاريخنا وعقائدنا وفي تفاسيرنا.

وهناك جملة من المراجع الإسلامية قد تأثّرت بالفكر الإسرائيلي تأثراً بالغاً وصل إلىٰ الحدّ الذي ينبغي معه علىٰ العلماء التحرك نحو غربلة هذا التراث وتسليط الأضواء عليه لتنقيته من هذه الشوائب والمظاهر. ودعني

---

(١) بحار الأنوار ٣١: ٢٧٢، نقلاً عن تاريخ الثقفي، الفتنة ووقعة الجمل: ٧٢، تـاريخ مـدينة دمشق ٦٦: ١٩٧ ـ ١٩٨، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٤١٧، ٤١٨، سير أعلام النبلاء ٢: ٦٨.

أضرب لك مثلاً من هذه الإسرائيليات التي غرست في فكرنا ومـؤلفاتنا عبر اليهود الذين أسلموا وانضووا تحت راية المذاهب الإسلامية، وكـان هؤلاء يتدخلون في موضوع العقائد والأحكام والتاريخ، ومـن هـذا مـا يرويه مسلم[1] والبخاري[2] في صحيحيهما من أن النبي الأكرمﷺ قـال: «**فقدت أُمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت، وإني لا أراها إلّا الفأر، إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت**». والأُمّة: الجماعة من الناس، قال تعالىٰ: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**﴾[3].

ثمّ يعقّب النووي علىٰ هذه الرواية فيقول: «معنى هذا أن لحوم الإبل وألبانها حرّمت على بني إسرائيل دون لحوم الغنم وألبانها؛ فدلّ بـامتناع الفأرة من لبن الإبل دون الغنم على أنها مسخ من بني إسرائيل»[4].

وأنا لا أدري فيما إذا كان هذا قد ساءل عقله: هل إن الفار مكلّف حتىٰ يحرم عليه شرب لبن الإبل؟ إن هذه الرواية وأمثالها من الروايات تدفعنا إلىٰ الدعوة إلىٰ تنظيف تراثنا وفكرنا من هذه الإسرائيليات، وهذا اللـون من الإسفاف.

اذى الفأر

ومثال آخر ما يروىٰ عن زيد بن أسلم أن النبي نوحاًﷺ لما سلك في السفينة من كل زوجين اثنين شكا له أصحابه الفأرة، فـقالوا: الفـويسقة

---

(١) صحيح مسلم ٨: ٢٢٦. (٢) صحيح البخاري ٤: ٩٨.

(٣) آل عمران: ١٠٤.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨: ١٢٤، فهل الممسوخ مطيع للّه؟ ولو كان مطيعاً للّه فكيف مسخه؟ فكيف يمتنع إذن عن لحوم الإبل وألبانها طاعةً للّه من عصى اللّه فمسخه فأراً؟ هـذا فضلاً عن مسألة التكليف التي أوردها المحاضر.

تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى الله تعالى إليه أن امسح جبهة الأسد فمسحها فخرج منه سنّوران ذكر وأُنثى، فأكلا الفار إلّا ما أراد الله أن يبقى منه، فاختبأت الفأرة منهما. ثم تأذّوا بأذى أهل السفينة، فشكا النبي نوحعليه السلام ذلك إلى اللّه، فأوحى الله إليه أن امسح ذنب الفيل، فمسحه فخرج منه خنزيران، فأكلا الفضلات[1].

البخاري والإمام الصادقعليه السلام

فهذا الذي لا تطاوعه نفسه أن يروي عن أمير المؤمنينعليه السلام أو أحدٍ من الأيمّة من ولده، بل ويأبىٰ ذلك، نراه يروي أمثال هذه الروايات التي يصفها بعض الأُدباء بقوله:

قضية أشبهُ بالمرزئهْ	هذا البخاريّ إمام الفئهْ
بالصادقِ الصديقِ ما احتجّ في	صحيحه واحتجّ بالمرجئهْ
ومثل عمرانَ بنِ حطانَ أو	مروان وابن المرأة المخطئهْ
مشكلةٌ ذاتُ عُوارٍ إلى	حيرةِ أربابِ النهى ملجئهْ
وحقِّ بيت يمّمته الورى	مغذّةً في السيرِ أو مبطئهْ
إن الإمامَ الصادقَ المجتبى	بفضلِهِ الآيُ أتت منبئهْ
أجلّ من في عصره رتبةً	لم يقترف في عمره سيّئهْ
قلامة من ظفرِ إبهامِه	تعدلُ من مثلِ البخاريْ مئةْ[2]

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٣١، وفي الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٧ عن ابن عباس.

(٢) النصائح الكافية: ١١٩. قال ابن أبي عقيل قبلها: «وإليك بعض ما ذكروا عنه، أي الإمام الصادقعليه السلام:

قال في (تهذيب التهذيب): «سئل يحيى بن سعيد القطان عن جعفر الصادق فقال: في نفسي منه شيء، ومجالد أحبّ إلي منه. وقيل لأبي بكر بن عيّاش: مالك لم تسمع من جعفر وقد

وإلّا فإن هذا الكتاب الذي يُنظر إليه علىٰ أنه أصحّ كتاب بعد كتاب اللّه تعالىٰ ـ بحيث إنه وصل بهم الأمر إلىٰ القول بأن من روىٰ عنه البخاري جاز القنطرة[1] وصل بهم سابقاً أنهم إذا نزل الطاعون في بلد فإنهم لا يقرؤون القرآن، بل يقرؤون (صحيح البخاري) حتىٰ يذهب عنهم البلاء والداء[2] ـ والذي يحظىٰ بهذه الأهمية والاعتبار نجده يروي مثل هذه

أدركته؟ قال: سألته عما يحدث به من الأحاديث: أشيء سمعته؟ قال: «لا، ولكنها رواية رويناها عن آبائنا». وقال ابن سعد: كان جعفر كثير الحديث ولا يحتجّ به، ويستضعف؛ سئل مرة: هل سمعت هذه الأحاديث عن أبيك؟ قال: «نعم». وسئل مرة، فقال: «إنما وجدتها في كتبه»...».

ثم قال ـ يعني ابن حجر ـ: «يحتمل أن يكون السؤالان وقعا عن أحاديث مختلفة، فذكر فيما سمعه أنه سمعه وفيما لم يسمعه أنه وجده. وهذا يدلّ على تثبّته...». تهذيب التهذيب ٢: ٨٨ ـ ٨٩ / ٥٦.

قلت: احتجّ الستّة في صحاحهم بجعفر الصادق إلّا البخاري، فكأنه اغترّ بما بلغه عن ابن سعد وابن عياش وابن القطان في حقّه، على أنه احتجّ بمن قدمنا ذكرهم، وهنا يتحيّر العاقل ولا ندري بماذا يُعتذر عن البخاري».

ثم نقل الأبيات الآنفة ثم قال: «إن ما أصاب أهل البيت النبوي وشيعتهم أساسه وأصله معاوية الطاغية، وما بثّه ونشره وأيّده بقوّة السيف من سبّ علي وأهل بيته، وانتقاصهم. ووبال ذلك كلّه عائد عليه في الآخرة .. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ آل عمران: ٣٠». انتهى كلام ابن أبي عقيل.

وليعلم أن البخاري في صحيحه ٢: ٤ / باب العيدين والتجمّل فيهما، يروي بسند فيه عبد الله بن أبي سرح الذي أمر الرسول الأكرم ﷺ بقتله مع جماعة ولو كانوا متعلّقين بأستار الكعبة، كما سيأتي ذلك في ذكر جملة من أحواله في محاضرة (النصرة والقرابة).

(١) انظر: إرشاد الساري ١: ٢١، هدي الساري: ٣٨١.

(٢) قواعد التحديث (القاسمي): ٢٤١.

الرواية.

في السنة الماضية[١] وقف أحد المحدّثين وقال: إنما لم يروِ البخاري عن الصادق لأنه لم يجد طريقاً صحيحاً إليه، مع أن الوشاء يقول: دخلت مسجد الكوفة فوجدت أربعة آلاف شيخ في حلقات درسهم كلّاً يقول: حدثني جعفر بن محمّد الصادق[٢]، فهل ليس من هؤلاء الأربعة آلاف شيخ ثقة ينقل عنه البخاري ويصحّح طريقه إلىٰ الإمام الصادق عليه السلام، لكن أن يخرج فأر من عطسة فيل يعتبر طريقها صحيحاً؟

والمأساة تكمن هنا، وهي ليست علىٰ مستوىٰ قضيتنا نحن كشيعة، بل علىٰ مستوىٰ الإسلام كلّه، وإلّا فإن المستشرق حينما يأتي ليدرس ديننا، ثمّ يسأل عن أهمّ كتاب عند المسلمين تؤخذ منه الأحكام فيرشد إلىٰ (صحيح البخاري)، فما هو الحال الذي سيكون عليه تصوّره وانطباعه عن هذا الدين؟ فهل هذه هي المضامين الصحيحة؟

شيخ البخاري: الرسول صلّىٰ إلىٰ قبيلة عنزة

أحد شيوخ البخاري وهو محمّد بن مثنىٰ العنزي يقول ـ كما ينقل عنه في ترجمته ـ : نحن قوم لنا منزلة وكرامة. فقالوا له: كيف؟ قال: إن رسول اللّه صلى الله عليه وآله قد صلّىٰ إلينا[٣].

لكن أتدري ما هي القصة؟ إن القصّة تكمن.

---

(١) تاريخ هذه المحاضرة هو الحادي عشر من صفر عام إحدى وعشرين وأربعمئة وألف هجريّة (على مهاجرها أفضل الصلاة وأتمّ التحيّة).

(٢) رجال النجاشي: ٤٠ / ٨٠، وفيه: تسعمئة شيخ.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢: ١٢٥، وادعىٰ أنه قالها مازحاً.

الصلاة بين المقابر

في أن رسول اللّهﷺ كان يخرج أحياناً إلىٰ المقابر يقرأ لهم الفاتحة وشيئاً من القرآن، وكانﷺ أحياناً يرغب في الصلاة هناك، وبما أن الصلاة بين القبور مكروهة، فلذا كانﷺ يضع عنزة ـ أي عصا[1] ـ بينه وبين القبر الذي يصلّي إليه كحاجز عرفي، ثمّ يصلّي[2]. فكان أن تصوّر هذا الشيخ أن الرواية حينما تقول: صلىٰ إلىٰ عنزة فإنما تقصد قبيلته.

وهذه فعلاً مأساة، وإلّا فأنت حينما ترجع إلىٰ تراثنا الإسلامي وتجده يأتي عن مثل هذا الطرق أو عبر هذه المضامين فإنك ستشعر بالأسىٰ والألم والمرارة، بل ويبعث علىٰ الألم، لأن من يمتنع عن الرواية عن أهل البيتعليهم السلام فإنما يمتنع عن الرواية عن عِدل الكتاب وآل بيت النبيﷺ الذين يعبّر عنهم أبو العلاء بقوله:

أحدُ الخمسةِ الذين هُمُ الأشـ ـباحُ في كلِّ منطقٍ والمعاني[3]

رجع

فعلماء بني إسرائيل الذي يحفظون الكثير من هذه الروايات قاموا بدسّها في تراثنا، وهؤلاء ورواياتهم حقائق ثابتة لا يمكن إنكارها أو نفي وجودها، لكن الأدهىٰ والأمرّ أنهم قلبوا الأمر ضد الشيعة فقاموا باختراع شخصية وهمية ادعوا أن اسمها عبد اللّه بن سبأ فاخترعوا له وبه ما اخترعوا، ثمّ نسبوا المذهب الشيعي له، وجعلوا كل العقائد الشيعية يهودية المنشأ والأصل لأن عندهم عبد اللّه بن سبأ. وهذا من أعجب العجب،

(١) العين ١: ٣٥٦ ـ عنز.

(٢) مسند أحمد ٤: ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، صحيح البخاري ١: ١٢٧، ٤: ١٧٥.

(٣) ديوان سقط الزند: ٩٤.

فمن في علمائه ورواته أكثر من عشرين يهودياً لا يعدّ فكره وعقائده يهودية أما نحن فمن فرية شخص واحد يهودي جعلت كل عقائد الشيعة يهودية.

وعلىٰ أي حال فإن القرآن يصف هؤلاء بأنهم علماء؛ لأن لهم أثارة من علم، فهم يتوفّرون علىٰ جنبة علمية نسبية استقوها من التوراة. وهذا إن دلّ علىٰ شئ فإنما يدلّ علىٰ أن الإسلام لا يبخس أحداً حقّه أبداً، ولذا وصفهم بما وصفهم من العلم.

نبل الإسلام مع أهل الكتاب

ثمّ إنه لم يكتف بذلك بل عطف عليهم وتعاطف معهم، ومن ذلك أن المسلمين كانوا يسألون الرسول الأكرمﷺ حول إعطاء أهل الكتاب من المحتاجين والمعوزين، فكان الرسولﷺ يأمر بأن يعطوا من الصدقات المستحبة فقط، أمّا والواجبة فلا يجوز إعطاؤهم منها. وهذا رأي أئمتنا وعلمائنا قاطبة، وهذا هو رأي القرآن الكريم: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[١]. وهذا موقف في غاية النبل والمروءة. وممّا يروى في هذا الصدد أن الشريفين المرتضى والرضي كانا يقودان حركة علمية في بغداد، وكانت تعد من أكبر الحركات العلمية المعروفة آنذاك. وكان من أمرهما:

رؤيا الشيخ المفيد

أن الشيخ المفيد رأى في منامه كأن فاطمة بنت رسول اللهﷺ دخلت عليه وهو في مسجده بالكرخ ومعها ولداها الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين، فسلّمتهما إليه وقالت له: علّمهما الفقه. فانتبه متعجّباً من ذلك،

(١) الممتحنة: ٨.

فلما تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا دخلت عليه المسجد فاطمة بنت الناصر وحولها جواريها وبين يـديها ابـناها مـحمد الرضي وعلي المرتضى وهما صغيران، فقام إليها وسلم عليها، فقالت له: أيها الشيخ، هذان ولداي قد أحضرتهما لتعلّمهما الفقه. فبكى أبو عبد الله وقال: هذا تأويل رؤياي، ثم قص عليها المنام، وتـولّى تـعليمهما الفـقه وأنعم الله عليهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا، وهو باقٍ ما بقي الدهر[١]، وكان هذا ببركة الزهراء عليها السلام.

المهم أن المرتضىٰ رحمه الله أصبح يقود بعد ذلك أكبر حركة علميّة وأضخم معهد علمي وديني آنذاك، وكان من أبناء هذه المدرسة وروّادها الأوائل الشيخ الطوسي رحمه الله، فكان يأخذ عطاءه اثني عشر ديناراً ذهباً، وكذلك من أبنائها القاضي ابن البرّاج وكان يتقاضىٰ راتباً شهرياً مقداره ثمانية دنانير ذهبية، وهكذا كل من فيها من الطلاب. وفوق هذا وضع لهم في المدرسة مخزناً يؤمّه الطلاب كلما احتاجوا لشيء من الأطعمة والوقـود وأدوات الكتابة وغيرها، وكان أمين المخزن يتولىٰ تلبية حاجاتهم وتوفيرها لهم. وكان هناك بعض اليهود المعوزين الذين انتحلوا صفة طـالب العـلم كـي يحصلوا علىٰ هذا العطاء الضخم ـ وفق حسابات تلك الفـترة ـ غـير أن الشريف المرتضىٰ رحمه الله لم يفرقهم عن الآخرين مع عـلمه بـحقيقة حـالهم، فأمضىٰ جرايتهم اليومية أو الشهرية واستمرّ معهم إلىٰ أن أسلم بعضهم.

فالواقع أن الإسلام أظهر تـعاطفاً واضـحاً مـعهم ولم يـنظر إلىٰ غـير الحربيين منهم نظرة تدلّ علىٰ احتقارهم أو ازدرائهم، بل علىٰ العكس كان ينظر إليهم نظرة رحمة وعطف وتودّد حتىٰ استطاع بهذا أن يكسب بعضهم

(١) الدرجات الرفيعة: ٤٥٩، لسان الميزان ٤: ٢٢٣، شرح نهج البلاغة ١: ٤١.

إلىٰ الإسلام، مع أن هذا كان علىٰ عكس موقفهم من ديننا حيث حاولوا جهدهم تضليل الناس عبر دسّ الكثير من عقائدهم الفاسدة في عقائدنا وكتبنا، وكان موقفهم سلبياً إزاء هذا؛ ولذلك تـجد أن المسـتشرقين قـد تأثروا بالأقلام الحاقدة علىٰ الطائفة الإمامية، وكتبوا عنها كـتابات غـير صحيحة. وهذا كما قلنا ناشئ عن تأثرهم ببعض الكتاب الحاقدين الذين كتبوا عنّا بدوافع من الحقد الأعمىٰ.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَـنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: أليس في هذا دليل علىٰ أن القرآن الكريم هو من اللّٰه؟ وفيه إشـارة إلىٰ أنـهم يجب أن يطمئنوا إلىٰ هذه الحقيقة؛ لأنهم لمّا كانوا يـرجـعون إليـهم فـي قضاياهم ومسائلهم، ويطمئنّون إليهم في إجاباتهم، فليرجعوا إليـهم فـي هذه المسألة أيضاً؛ فهم أعلم بحقيقة أن القـرآن هـو كـتاب اللّٰـه تـعالىٰ المنزّل؛ لأنهم قد شهدوا بهذا[1].

المبحث الثاني: لماذا لم ينزل القرآن علىٰ أعجمي؟

ثمّ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾، والمقصود بالأعجمي: غير العربي، سواء كان كردياً أو إيرانياً فارسياً أو تركياً أو غـير ذلك[2]. وإنما عبّر عنهم القرآن بـ﴿الأَعْجَمِينَ﴾ لأنهم لا يعربون كلامهم، أي ليس لهم القدرة علىٰ الإفصاح والإعراب عن معاني القرآن بلغتهم. وكلّ من لا يستطيع أن يعبّر عن مقاصده فهو أعجمي وإن كان عربياً[3].

---

(١) وهو ما صرّح به تعالى بقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ آل عمران: ٧١.

(٢) مجمع البيان ٧: ٣٥٤، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٣٨.

(٣) لسان العرب ١٢: ٣٨٦ ـ عجم.

تداعيات حكم النبي سليمان عليه السلام في قضية الزرع

وأحبّ أن أشير لك إلىٰ مسألة نصّ عليها القرآن الكـريم فـي بـعض قصصه التي ساقها لنا، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾[1]، والنفش هو أن تعيث الحيوانات في الزرع فساداً ليلاً[2]، فإن كان ليلاً أو نهاراً فهو همل[3].

والآية الكريمة تشير إلىٰ حادثة وقعت زمن نبي اللّه داود عليه السلام؛

حكم النبي داود

فقد جاء اثنان فادعىٰ أحدهما أن غنم الآخر قد عاثت في زرعه فساداً في الليل، وأتلفته، وكان كرماً، وقد بدت عناقيده، فحكم نبي اللّه داود عليه السلام بالغنم لصاحب الكرم، فقال النبي سليمان عليه السلام: «غير هذا يا نبي الله». قـال: «وماذا؟». قال: «يُدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدُفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفع كل واحد منهما إلى صاحبه ماله»[4].

فنزلت الآية الكريمة: ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ ...﴾[5].

رأي العلماء في حكم النبي سليمان عليه السلام

وهنا نطرح سؤالاً: هل كان هذا اجتهاداً أم لا؟ وهل نسخ هذا الحكم أم لا؟ وهل هو بداء أم لا؟ أنا لا أُريد أن أدخل في هذه المتاهة[6]، لكن

---

(١) الأنبياء: ٧٨. (٢) ترتيب إصلاح المنطق: ٣٨٥ ـ نفش.

(٣) تهذيب إصلاح المنطق: ٤١١ ـ همل.

(٤) التبيان ٧: ٢٦٧، مجمع البيان ٧: ١٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١١: ٣٠٧، تفسير القرآن العظيم ٣: ١٩٥. (٥) الأنبياء: ٧٩.

(٦) انظر: مجمع البيان ٧: ١٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١١: ٣٠٩.

سأعرض لك آراء المذاهب الإسلامية في حكم الضمان هنا:

أولاً: رأي الإمامية

إن علماء الطائفة الحقّة يرون أن صاحب الأغنام إذا كان قد أهمل غنمه فهو ضامن للزرع، وإلّا فلا ضمان عليه[١].

ثانياً: رأي الشافعية

أما الشوافع فيرون أن صاحب الغنم لا يضمن إن كانت الغنم قد عاثت في الزرع نهاراً؛ لأن من شأن الناس أنهم يكونون موجودين في أماكن عملهم وزراعتهم وقت النهار، وهم مسؤولون عن حمايتها حينها، وعليه فلو وقع ذلك لم يضمن صاحب الغنم. أما إذا وقع النفش (أي ليلاً) فإن صاحب الغنم يضمن إذا كان قد أهمل غنمه؛ لأن الناس يتركون زروعهم ومصالحهم ويأوون إلىٰ النوم، فعليه أن يحفظ حيواناته، وإلّا فلا ضمان عليه[٢].

ثالثاً: رأي الأحناف

وهنا موضع الشاهد؛ إذ أن أبا حنيفة يرىٰ أنه لا ضمان علىٰ صاحب الغنم إلّا إذا كان معها أحد[٣] لقول النبي: «**جرح العجماء جبار**»[٤]، والمقصود بالعجماء: الحيوان؛ حيث إنه أعجم لأنه لا يستطيع أن يعرب عمّا في نفسه، فكل حيوان أعجم[٥]. فالحيوان لا يستطيع أن يعبّر عن ألمه إذا تألّم، ولا يستطيع أن يعبّر عن جوعه إذا جاع وكذلك العطش وغيره من

(١) المقنعة: ٧٧٠. (٢) الإقناع ٢: ٢٠١، مغني المحتاج ٤: ٢٠٥.

(٣) قريب منه في الشرح الكبير ٥: ٤٤٦، وفيه حول الكلب العقور.

(٤) مسند أحمد ٢: ٤٧٥، سنن الدارمي ١: ٣٩٣.

(٥) لسان العرب ١٢: ٣٨٩ ـ عجم.

الإحساسات والمشاعر الأُخرىٰ.

الرفق بالحيوان

يروىٰ أن أحد الصلحاء كان إذا أصاب القوم عام جدب أو محْل فإنه كان يشتري العلف لدابّته قبل أن يشتري الطعام لنفسه، فلما سئل عن سبب ذلك أجاب بأنه يملك أن يعبّر عن شعوره بالجوع والألم أما الحيوان فلا يملك هذه القدرة علىٰ التعبير عن ذلك؛ ولذا فإن الواجب أن أرحمه حتىٰ يرحمني اللّه[1].

أسباب رفض نبوّة الأعجمي

إذن كل ما لا يعقل ولا يتمكّن أن يفصح عمّا في نفسه يسمى أعجمياً. والقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ ﴾، أي علىٰ ابن أية لغة غير العربية، فسوف لن يؤمنوا به. وذلك يعود لعدة أسباب منها:

السبب الأوّل: دافع الأنفة والكبرياء

فالبعض لا يؤمن بما يأتيه به الأعجمي لما يحمله من شعور في نفسه بأنه أفضل من بقية الأقوام؛ فهو يأنف من أن يتبع من هو أدنىٰ منه. وأُلفت نظرك إلىٰ أن هذا التفكير قد وقع به حتىٰ فقهاء المذاهب الأربعة حيث إنهم يرون أن الأعجمي ليس كفئاً للعربية في الزواج، وهذا الرأي كما قلت يذهب إليه جميع فقهاء المذاهب الأربعة باستثناء مالك وبعض الفقهاء الموالك[2]، وكذلك فقهاء الإماميّة فإنهم يرون أن المسلم كفء المسلم ولو كان أعجمياً.

---

(١) قال ﷺ: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء». الفقيه ٤: ٣٧٩ / ٨٠٦، مسند أبي يعلى ٨: ٤٧٥ / ٥٠٦٣.

(٢) انظر بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٢: ١٤.

والمسلم هو من يقول: «لا إله إلّا اللّه، محمّد رسول اللّه صلى الله عليه وآله»، ولم يخالف ضرورة من ضروات الإسلام، وقد قال صلى الله عليه وآله: «المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»[1]، ومع هذا فإن فقهاء المذاهب الأربعة عدا بعض الموالك كما ذكرنا يذهبون إلىٰ عدم تكافؤ الأعجمي والعربي. وهذا الرأي نستطيع أن نمنحه صفة الطابع القومي وأن ندرجه تحت غطاء أبعد من أن يكون ذا طابع إسلامي؛ لأنه يبتعد كل البعد من تعاليم الإسلام، وإلّا فأين ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]؟ إن هذا بعيد كل البعد عن تعاليم الإسلام وعن روح الإسلام وهو لا ينسجم مع نظرة الإسلام الواحدة إلىٰ كل الأقوام والأجناس. إن أي فكر من هذا القبيل يعدّ فكراً بعيداً تمام البعد من الإسلام.

والغريب أن المذاهب التي لا ترضىٰ للزوج أن يكون أعجمياً ترضىٰ للخليفة أن يكون غير عربي، مع أن الخلافة قيادة مجتمع في حين أن الزواج قيادة اُسرة. ومن يذهب إلىٰ هذا الرأي هو أبو حنيفة؛ حيث إنه يقول بجواز كون الخليفة غير عربي. وهو بهذا يخالف جميع المذاهب الإسلامية التي تستند إلىٰ قول الرسول صلى الله عليه وآله: «كلّهم من قريش»[3]، وهو حديث مروي في الصحاح. فأليس تناقضاً أن تقبل للأعجمي بأن يقود المجتمع، ثمّ لا تقبل له أن يقود اُسرة؟ وأليس هذا نوعاً من الترفّع والتكبّر

(١) دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

(٢) الحجرات: ١٣، وقال صلى الله عليه وآله: «أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلّا بالتقوى» مسند أحمد ٥: ٤١١.

(٣) مسند أحمد ٥: ٨٧ ـ ١٠٨، صحيح البخاري ٨: ١٢٧، صحيح مسلم ٦: ٣ ـ ٤.

الذي تأباه طبيعة دين الإسلام وروحه. ومما يمكن أن يستشهد به في هذا الصدد أن عبد اللّه بن عمر كان يقول: لقد أُوتي ابن أبـي طـالب ثـلاث خصال، لَأن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إلي من حـمر النـعم: زوّجـه رسول اللهﷺ ابنته وولدت له، وسدّ الأبواب إلّا بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم خيبر[١].

وإذا كان يرى هذا، فلنا أن نسأله: لماذا امتنعت عن بيعتهعليه السلام إذن[٢] مع ما ذكرت له من خصال ومناقب؟ ولقد ذكـرت فـي مـحاضرات سـابقة مواقف هذا الرجل تجاه أمير المؤمنينعليه السلام؛ إذ أن له مواقف[٣] معه تـجعل منا أصحاب حقّ في أن ننحو هذا المنحىٰ معه، ونتّخذ منه هذا الموقف. فالأمر لم يقتصر عند امتناعه عن البيعة فقط، بل إنه اتّخذ بعداً أكبر من هذا.

إننا لا نستطيع أن نقف موقفاً سلبياً من أي شخص ما لم يكـن أهـلاً لذلك الموقف، فلا نصدر الأحكام اعـتباطاً، ولا تـحكّماً، وليس عـندنا قوالب جاهزة مسبقة علىٰ ضوء تصوّراتنا وآرائنا ثمّ نصبّها علىٰ الناس. وإلّا فإن علي بن أبي طالب هو إمام المتقين[٤] الذي قام الإسلام كلّه علىٰ

(١) مسند أحمد ٢: ٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٥، وقال بعده: هذا حديث صحيح الإسـناد ولم يـخرجـاه، المـصنّف (ابـن أبـي شـيبة) ٧: ٣٦ / ٥٠٠، مسـند أبـي يـعلى ٩: ٤٥٣ / ٥٦٠١.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٩، ١٠، ١١.

(٣) بل مع كلّ أحرار الإسلام، ومنها موقفه يوم الحرّة، انظر صحيح مسلم ٦: ٢٠ ـ ٢٢.

(٤) وإليك جملة من الروايات التي نقلها جلال الدين السيوطي في الجامع الصغير ٢: ١٧٦ ـ ١٧٨ / ٥٥٨٦ ـ ٥٦٠١ عن رسول اللهﷺ:

«علي أخي في الدنيا والآخرة».

«علي أصلي، وجعفر فرعي».

ساعده وسيفه[١] هل يجوز لأحد أن يقف منه هذا الموقف الذي هو كلّه نصب وعداء؟ أين ولاية المؤمنين بعضهم للبعض الآخر[٢]؟

وهذا طبعاً من الآراء التي نشأت فيها الشعوبية وتبرعمت؛ فقد ولدت

«علي إمام البررة وقاتل الفجرة، منصور من نصره مخذول من خذله».

«علي باب حطة، من دخل منه كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً».

«علي عيبة علمي».

«علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

«علي مني وأنا من علي، ولا يؤدي عني إلّا أنا أو علي».

«علي مني بمنزلة رأسي من بدني» أي أنه صلى الله عليه وآله جعل نفسه الشريفة بمنزلة الجسد، وجعل أمير المؤمنين عليه السلام بمنزلة الرأس؛ لعظيم منزلته، وشرف دوره في رفع راية الإسلام الحنيف.

«علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلّا إنه لا نبي بعدي».

«علي بن أبي طالب مولى من كنت مولاه».

«علي يزهر في الجنة ككواكب الصبح لأهل الدنيا».

«علي يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب المنافقين».

«علي يقضي ديني».

(١) قال ابن أبي الحديد:

ولولا أبـو طـالبٍ وابـنُه	لما مثُل الدينُ شخصاً فقاما
فـهذا بـمكّة آوىٰ وحـامىٰ	وذاك بيثرب شام الحساما
تكـفّل عـبد مـناف بأمـر	وأودىٰ فكـان عـلي تـماما
فـلله ذا فـاتحاً للـهدىٰ	وللّـه ذا للـمعالي خـتاما

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤، وانظر ٦ الصراط المستقيم ١: ٣٣٤، الدرجات الرفيعة: ٦٠.

(٢) قال الله تعالىٰ: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة: ٧١، وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الحجرات: ١٠.

الشعوبية كردة فعل لهذا التوجّه، فراح الشعوبيون يؤكّدون علىٰ شتم العرب واحتقارهم، وراحوا يشوّهون حضارة العرب تشويهاً كاملاً، ثمّ عمدوا إلىٰ محاولة هدمها عبر كتاباتهم وأقلامهم، يقول أبو نؤاس:

عاج الشقي علىٰ ربع يسائلهم وعدت أسأل عن خمّارة البلدِ[1]

وعندما تقرأ هذه القصيدة تجد فيها الكثير من هذا النوع، وهناك الكثير من النصوص التي تصبّ في هذا المصبّ، بل وصل الأمر ببعضٍ أن رأيته يقول: إن اللّه عزّ وجلّ لم يبعث نبياً من العرب. وهذه عمليّة ردة فعل، يقول النبيﷺ: «**من شتم أباه، فهو بعيد عن رحمة اللّـه**». فقيل له: يا رسول اللّه، أويشتم الرجل أباه؟ فقالﷺ: «**نعم، يشتم أبا الرجل فيشتم ذلك الرجل أباه**»[2].

وهذا من ذلك النوع عينه، فهؤلاء أوجدوا الفعل وردّة الفعل، فلينتظروا ما وراء ردّة الفعل؛ ففي الوقت الذي كان العرب يعدّون غيرهم غير أكفاء لهم فيه كان عليهم أن يتوقعوا أن الآخرين أيضاً سينتقصونهم ويعدّونهم غير أكفاء. ولهذا تبرعمت حركة الشعوبية وترعرعت، ثمّ اتسعت بعد ذلك ووصلت إلىٰ حدود بعيدة ومجالات كبيرة، فلبست ثوباً آخر، حتىٰ وصل الأمر أنهم كلما كرهوا أحداً وأبغضوه رموه بالشعوبية. وقد فاجأني أحد الأساتذة مرّة، باتّهامه دِعبلاً بالشعوبية، وراح يصفه بقبيح الوصف، فقلت

---

(١) ديوان أبي نؤاس: ١٨٨، ومنها.

لا يرقئُ الله عينيْ من بكى حجَراً ولا شفى وجدَ من يـصْبو إلى وَتَـدِ
قالوا ذكرْت ديار الحـيّ مـن أسَـدٍ لا دَرّ درّكَ قـلْ لي مَـن بَـنُو أسَـدِ
ومَن تـميمٌ ومـنْ قـيسٌ وإخـوتُهُمْ ليس الأعاريبُ عندَ الله مـن أحَـدِ

(٢) مسند أحمد ٢: ٢١٤.

له: كيف عرفت أنه شعوبي؟ فقال: أليس هو القائل للمأمون:

إنـــي مـــن القـــومِ الذيـــن ســـيوفُهم قـــتلت أخـــاك وشـــرّفتك بـــمقعدِ
شـــادوا بـــذكرك بـعدَ طـولِ خـمولِه واستنقذوك من الحضيض الأوهـدِ[١]

فكيف يجترئ ويحمل علىٰ الخليفة العباسي؟

ولنا أن نسأل: ما هي علاقة هجائه المأمون بالشعوبية هنا؟ لكن الظاهر أن الكراسي تقدّس الرجال عند هؤلاء، وأن من يصل إلى كرسي الحكم فلا يجوز القدْح به أبداً؛ ولذا فإنهم يأخذون أحكامهم من عبد الملك بن مروان.

ومن هؤلاء مثلاً الدميري حيث يقول في كتابه (حياة الحيوان): «وكانت خلافته ـ أي الإمام الحسن عليه السلام ـ خمسة أشهر وستة أيام، وهي تكملة ما ذكره رسول اللّه صلى الله عليه وآله من أمر الخلافة، ثمّ يكون ملكاً عضوضاً ثمّ يكون جبروتاً وفساداً في الأرض، وكان كما قال صلى الله عليه وآله. لكنه يرجع بعدها مباشرة فيقول: «خلافة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان (رضي اللّه تعالىٰ عنه)»»[٢]. وكأنه نسي قوله: إن خلافة الإمام الحسن عليه السلام هي تكملة الخلافة الراشدة التي ذكرها الرسول صلى الله عليه وآله ثمّ يكون بعدها فساد وإفساد! ويريد بالخلافة التي ذكرها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله هو قوله صلى الله عليه وآله: «**الخلافة بعدي ثلاثون عاماً، ثمّ تكون ملكاً عضوضاً**»[٣].

السبب الثاني: الامتناع بدافع العناد

وكان هذا النوع من التفكير موجوداً، فكان هؤلاء يأتون إلىٰ

(١) ديوان دعبل: ٦٤. (٢) حياة الحيوان ١: ٨٤.

(٣) مسند أحمد ٥: ٢٢١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ٢٠١، فتح الباري ٨: ٦١.

الرسول ﷺ ويقولون له: ألم يجد اللّه غيرك ليبعثه لنا[1]؟

السبب الثالث: عدم قدرة الأعجمي على إعراب اللغة

وهذا هو موضع الشاهد هنا؛ ذلك أن النبي الأعجمي لا يستطيع أن يعرب عن خواصّ اللغة كي يوصل المعنىٰ والأحكام خلالها. وهذا موجود فعلاً وسيتضح مما سأذكره من أمثلة علىٰ ذلك.

نماذج من خواص اللغة

ففي اللغة العربية نماذج كثيرة علىٰ هذا أذكر منها:

النموذج الأوّل: مفهوم العدد

فنحن حينما نقرأ القرآن الكريم ثم نصطدم ببعض تعبيراته فإننا نفهمها، لكن حينما يأتي أحد من حضارة غير عربية ويقرأ الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ﴾[2] فإنه سيقول: حينما يستغفر لهم خمساً وسبعين مرّة فهل اللّه سيغفر لهم؟ وهذا طبعاً أمر ناشئ من عدم فهم خواص اللغة. وهذا ما يعبّر عنه علماء الأُصول بمفهوم العدد[3]. وهذا

(١) قال تعالىٰ: ﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الزخرف: ٣١.

وكذلك قال أهل الطائف لرسول اللّه ﷺ عند ذهابه إليهم: أما وجد اللّه نبياً غيرك يبعثه؟ انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ـ ٣٧، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

(٢) التوبة: ٨٠.

(٣) قال الشيخ محمد رضا المظفّر: «لا شكّ في أن تحديد الموضوع بعدد خاصّ لا يدل على انتفاء الحكم فيما عداه، فإذا قيل: صم ثلاثة أيام من كل شهر، فإنه لا يدلّ على عدم استحباب صوم غير الثلاثة الأيام. فلا يعارض الدليل على استحباب صوم أيام أُخر.

نعم لو كان الحكم للوجوب، وكان التحديد بالعدد من جهة الزيادة لبيان الحدّ الأعلى فلا شبهة في دلالته على عدم وجوب الزيادة، كدليل صوم ثلاثين يوماً من شهر رمضان. ولكن هذه

الأمر أشبه ما يكون.

الزواج بالام

بما حصل لمعاوية فقد صعد أحد ولاته المنبر وقال: لعن اللّه المجوس؛ فقد بلغني أنهم يتزوّجون أمهاتهم، واللّه لو أُعطيت عشرة آلاف درهم لما تزوّجت أُمّي. ولما بلغ الخبر معاوية قال: يبدو أن هذا لو أُعطي أحد عشر ألف دينار لكان قد فعلها وتزوّج من أُمّه ثمّ عزله[1].

فإذا كان ابن اللغة والحضارة يغفل عن بعض خصائصها فكيف بمن لم يكن كذلك؟

النموذج الثاني: أُسلوب التوكيد

ومن ذلك ما نقرؤه في الكتاب المجيد من قوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[2]، فقد يقول قائل: لماذا استخدم لفظة ﴿فَوْقِهِمْ﴾؟ وهل يكون السقف إلّا من فوق؟ فما وجه ذكر ذلك إذن؟

إن مثل هذا التساؤل ينمّ عن عدم معرفة بخلفية اللغة العربية وخواصّها، ذلك أن هذه اللفظة قد اعتاد العرب علىٰ استعمالها في المكاره. وهذا فيه لون من ألوان التوكيد لهذا المعنىٰ.

وهكذا توجد هناك الكثير من خواص اللغة لا يعرفها إلّا ابن اللغة المتضلّع فيها وفي خلفياتها البلاغية ووجوه استعمالاتها، فهذا التراث لا يفهمه إلّا أهله. ولذا فإن القرآن الكريم يصرّح بأنه لو أُنزل علىٰ أحد غير

الدلالة من جهة خصوصية المورد لا من جهة أصل التحديد بالعدد حتى يكون لنفس العدد مفهوم. فالحقّ أن التحديد بالعدد لا مفهوم له». أُصول الفقه ١: ١١٩.

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦٦، وهو دال علىٰ جهل معاوية بأحوال اللغة العربية.

(٢) النحل: ٢٦.

هؤلاء لما أدّىٰ رسالته بالشكل الصحيح المطلوب منه تأديتها به؛ لأن اللفظ يشترك مع المعنىٰ في أداء الصورة الشاخصة والفكرة المرادة التي يُريدها الإسلام.

علىٰ أي حال فإن مسألة بعثة النبي من غير العرب لاقت وتلاقي عقبات كثيرة كان أهمها عقبة الأنفة والتكبّر، ولذلك فإن اللّه تعالىٰ اختار رسوله الكريم بما يمتلك من خصائص ومزايا وقابلية علىٰ تذويب هذه العقبات بما وهبه من خلق عالٍ. وإلّا فإن غير الرسول ﷺ لم يكن يستطيع أن يفعل ما فعله هو، ولم يمكن للشريعة الإسلامية أن تأخذ هذه المكانة العالية. لكن الرسول ﷺ تحلىٰ بمزايا ذوبت كلّ هذه العقبات التي وقفت بطريقه فكان يأتي إلىٰ معاطن الإبل ليدعو الأعراب إلىٰ الإسلام. ويخاطبه أحدهم بغلظة البداوة ذات مرّة بعد أن وزع الغنائم وكان قد أمسكه ﷺ من ردائه وسحبه حتىٰ أثر الرداء في عنق النبيّ ﷺ واحمرت رقبته وقال له: اعدل يا محمّد، فليس المال لك ولا لأبيك. فقال النبي ﷺ: **«فوالذي نفسي بيده لو كان لي جبلان من ذهب وفضّة لفرّقتهما عليكم ثم لا تجدونني بخيلاً»**[1]. ومع أن أُسلوب الأعراب لا يرتقي عن هذا المنطق الفظ فإننا نجد أن النبي ﷺ لم يكن يأنف عن الجلوس إليهم

---

(١) لم نعثر على حديث الرسول ﷺ هذا ضمن هذه الحادثة، بل إن في هذه الحادثة قال الرسول ﷺ: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل». بحار الأنوار ٣٣: ٣٣٩، مسند أحمد ٣: ٣٥٥، سنن ابن ماجة ١: ٦١.

أما ما أورده المحاضر رحمه الله من حديث له ﷺ فقد أورده المتّقي الهندي في حادثة أُخرى. انظر كنز العمال ١٠: ٥٤٩ / ٣٠٢٢٩، وفيه: «فوالذي نفسي بيده لو كان معي مثل شجر وطائر نعم حمر لقسمته بينكم ثم لا تجدونني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً».

ودعوتهم فيهدي هذا ويُرشد هذا ويطوف علىٰ بيوتهم ويحمل ذلك الخلق الكبير وتلك الرحمة التي لا حدود لها؛ لأنهﷺ يعلم حجم العقبات التي تعترض طريقه وطريق دعوته فتمنعها من الوصول إلىٰ قلوبهم.

وإلّا فإن مجتمعاً نشأ علىٰ الجاهلية وشبّ وشاب عليها يصعب التعامل معه وتذليل شَموسه، فهو مجتمع قاسٍ وصلت به قسوته إلىٰ درجة أن أحد الصحابة كان يقول: كلما تذكرت حادثة وقعت لي ازددت تألّماً. فقيل له: وما تلك الحادثة؟ فأخبر أنه ما ولدت له بنت قط إلّا وأدها، ثم أقبل على رسول اللهﷺ يحدّثه فقال له: كنت أخاف سوء الأُحدوثة والفضيحة في البنات، فما ولدت لي بنت قطّ إلّا وأدتها، وما رحمت منهمنّ موءودة قط إلّا بنية لي ولدتها أُمها وأنا في سفر، فدفعتها إلى أخوالها، فكانت فيهم، وقدمت فسألت عن الحمل فأخبرتني المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً.

ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت فزارت أُمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها، وجعلت في قرونها شيئاً من خلوق، ونظمت عليها ودعاً، وألبستها قلادة جزع، وجعلت في عنقها مخنقة بلح، فقلت: من هذه الصبية، فقد أعجبني جمالها وكيسها؟ فبكت ثم قالت: هذه ابنتك كنت خبّرتك أني ولدت ولداً ميتاً، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ. فأمسكت عنها حتى انشغلت عنها، ثم أخرجتها يوماً فحفرت لها حفيرة، فجعلتها فيها، وهي تقول: يا أبت ما تصنع بي؟ وجعلت أقذف عليها التراب وهي تقول :يا أبت أمغطّيَّ أنت بالتراب؟ أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني؟ وجعلت أقذف عليها التراب ذلك حتى واريتها وانقطع صوتها، فما رحمت أحداً ممن واريته

غيرها. فدمعت عينا النبيﷺ ثم قال: «إن هذه لقسوة، وإن من لا يَرحم لا يُرحم»[١].

وشيجة الروح

إن الهدف الأساسي والهيكل العام لهذه الآية الكريمة ـ كما يشير إليه الجوّ العام لها ـ ينصبّان علىٰ محور هامّ جداً في حياة كل مجتمع وجماعة، وهو أن وشيجة الروح أقوىٰ من وشيجة الجسد[٢].

فالحياة بما فيها من علاقات تعتمد علىٰ وشائج عدّة تختلف بحسبها. وهذه الوشائج بعضها أمتن من بعض وأشدّ حسب رؤية من تربطهم تلك الوشائج. فالإنسان مثلاً يرتبط بأُسرته بوشيجة الدم باعتباره جزءاً منها باللحم والدم، ولكنه يرتبط برسول اللّهﷺ أو بالمعصوم أو بالدين والمسلمين بوشائج روحية. والوشيجة الروحية عادة تكون أقوىٰ من وشيجة الدم ومن النسب المادي، والمؤمن عادة يضحّي بوشائج الدم في سبيل وشيجة الروح[٣].

---

(١) الأغاني ١٤: ٧٠ ـ ٧١، والصحابي هو قيس بن عاصم.

(٢) قال رسول اللّهﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١».

وقال أبو فراس الحمدانيﷺ:

كانت مودّةُ سلمانٍ له رحماً ... ولم يكنْ بين نوحٍ وابنِه رحِمُ

ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥.

(٣) قد مرّ ـ وهو دليل علىٰ هذا ـ طلبُ عبد اللّه بن عبد اللّه بن أُبي من الرسولﷺ أن يقتل

أباه لأنه هدّد بإخراج الرسول ﷺ من المدينة. انظر: مجمع البيان ١٠: ٣٧٣ ـ ٣٧٥، جامع البيان: المجلّد ١٤ ج ٢٨: ١٤٢ ـ ١٤٨. وقد مرّ في ج ٥ ص ٣٧١ من موسوعة محاضرات الوائلي. في حين أن الخليفة الثالث حينما هدر النبيّ ﷺ يوم الفتح دم عبد اللّه بن أبي سرح أخيه من الرضاعة ـ وكان قد ارتدّ ـ ولجأ إليه، غيّبه عنده حتى هدأ الناس واطمأنّوا، فجاء به إلى النبيّ ﷺ، وطلب منه أن يؤمّنه، فأعرض عنه النبيّ ﷺ، فأخذ عثمان يقول: آمنته يا رسول اللّه ﷺ؟ والنبيّ ﷺ يعرض عنه ولا يجيبه، ثمّ قال: «نعم».

ثمّ قال النبيّ ﷺ لأصحابه: «أعرضت عنه مراراً؛ ليقوم أحدكُم فيضرب عنقه». وكان عباد ابن بشر قد نذر إن رآه أن يقتله، فقال له النبيّ ﷺ: «انتظرتك أن تفي بنذرك». فقال: يا رسول اللّه خفتك، فهلا أشرت إليّ بعينك؟ فقال ﷺ: «إنه لا ينبغي لنبيّ أن تكون له خائنة الأعين». انظر: السنن الكبرىٰ (النسائي) ٧: ١٠٦، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٥٣٦ / ١٥، فتح الباري ٦: ١١٢، ١١: ٨.

وكان يقول لقريش: إني أُصرّف محمداً كيف شئت، فكان يملي علي (عزيز حكيم)، فأقول: أو (عليم حكيم)، فيقول: نعم كلاهما صواب. وكلّ ما أقول، يقول: اكتب، فهكذا نزلت». جامع البيان: المجلّد ٥ ج ٧: ٣٥٤، الصارم المسلول (ابن تيمية) ٢: ٢٢٣ ـ ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٧، الثقات ٣: ٢١٤، الاستيعاب ٣: ٩١٨، تخريج الدلالات السمعيّة ١: ١٧٩، السيرة الحلبيّة ٣: ٣٦ ـ، ٤٢٢.

أو كما فعل مع مروان حيث ردّه إلى المدينة بعد أن طرده رسول اللّه ﷺ مع أبيه إلى الطائف؛ لأنّ أباه الحكم أسلم يوم الفتح كرهاً ونفاقاً، وكان يستهزئ بالنبيّ ﷺ إذا غاب، ويتجسّس للمشركين أخباره، ويحكيه في مشيته، وقد قيل: إنّ النبيّ ﷺ كان إذا مشىٰ يتكفّأ والتفت يوماً فرآه يمشي خلفه ويحكيه، فقال ﷺ: «كذلك فلتكن». فكان الحكم مختلجاً يرتعش من يومئذ. أُسد الغابة ١: ٥٨٨، الإصابة ٢: ٩٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٨٩، النزاع والتخاصم (المقريزي): ٣٩. وفيهما قال بولس سلامة:

إيه عثمان كيف جئت بوغدٍ ... تستجير الأُنوفُ من أدرانه
حكم كان خصمَ أحمد حتىٰ ... ضجّ منه العَداء في عدوانه

والقرآن الكريم يلفت أنظارنا ويوجّه انتباهنا إلىٰ أن الديـن يسـتهدف بناءنا وتربيتنا، فهو بهذا اللحاظ حتماً يعدّ أهم من وشائجنا الدموية. مع أن في مجتمعاتنا علاقات لا يحدّدها إلّا الإنجاب، فكم من أب لا تربطه بابنه أي علاقة سوىٰ أنه أنجبه، فليس هناك بينهما أي تناغم روحي، فلا الابن ينسجم مع أبيه ولا الأب ينسجم مع ابنه. فنادراً ما نجد أُسرة فيها اندماج كامل، والسرّ في ذلك هو ضعف التربية الروحية.

ثمّ إن القرآن الكريم يحاول أن يقضي علىٰ كل الوشائج التي تؤدي إلىٰ حصول حالات من العصبية المقيتة بين الناس، ويخضعها إلىٰ الوشـيجة الدينية؛ لأن الوشيجة الدينية وشيجة عالمية تربط الإنسان بأخـيه عـبر علائق إنسانية تجعله يحبّ أخاه ويضحّي من أجله. وبعبارة أُخرىٰ، يريد أن ينتقل بالإنسان ويرتقي به من تأثير غرائزه إلىٰ ما هو أعلىٰ من ذلك، أي إلىٰ كائن حضاري يرتبط مع أبناء نوعه برباط الدين والإنسانية وينبذ القتل والقتال.

فالغرائز تهبط بالإنسان إلىٰ أدنىٰ مستوياته، وتجعله مخلوقاً متوحّشاً يحكمه قانون الغاب، فيظل يتقلّب بين القتل والسلب والنهب واغتصاب

لم يسـعه حـلم الرسـول وطـه ... مـنبع الحـلم دافـق مـن جـنانه
جـاء عـثمان بـابن صِـلٍّ طـريد ... وحـباه الدفـيء مـن أحـضانه
واصـطفاه الوليُّ صـهراً حـبيباً ... فأظـلّ الهـنا بـه أم أبـانه
هـزل الدهـر أن مـروان صـهر ... وكـنوز الإسـلام رهـن بـنانه

وهو الذي قال فيه النبيّ ﷺ: «هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون».

المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٧٩ ثمّ قال الحاكم بعده: صحيح الإسناد، السيرة الحلبيّة ١: ٥٠٩.

وانظر رائق الضمير ١: ١٢٠ ـ ١٢١.

حقوق الآخرين وأعراضهم، وسلب كراماتهم وهدر حرياتهم. وملخّص القول أن الإنسان إذا لعبت به غرائزه أصبح وحشاً ضارياً لا توقفه أخلاق ولا يحدّ من غلوائه دين. وهاهو العالم الذي نراه اليوم حيث يأكل فيه القوي الضعيف، ويصادر فيه المستكبر حق المستضعف، ولا تجد لليافطات التي ترفعها هيئة الأُمم المتحدة أو المؤسسات الإنسانية الأُخرىٰ أي صدىٰ أو أثر، بل تجد أن هذه المؤسسات عينها مغيبة فضلاً عن اليافطات التي ترفعها والشعارات التي تنادي بها، وأشدّ من ذلك أنك تجد أن أصحاب القوىٰ والنفوذ وأصحاب القرار النافذ هم المتنفذون فيها والمتحكمون بقراراتها الصادرة والمسيطرون علىٰ مقدّراتها:

النواميس قضت أن لا يعيش الضعفاء
إن من كان ضعيفاً أكلته الأقوياء

ولذا فإن القرآن الكريم والدين يريدان أن يربيانا علىٰ حب الآخرين وأن يربيا فينا الشعور بالآخرين والإحساس بمعاناتهم وبأن الوشائج الروحية أقوىٰ من كل الوشائج الأُخرىٰ مهما تعدّدت وتنوّعت واختلفت متعلقاتها.

المبحث الثاني: في ولاية الرسول ﷺ على المؤمنين

تقول الآية الكريمة: ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وفي هذا المقطع عدّة مضامين سنشير إلىٰ بعض منها:

المضمون الأوّل: قراءة أُبي لهذه الآية

يروي القرطبي في تفسيره أن عمر مرّ بابن عباس وهو يقرأ: (النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وهو أب لهم). وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال: احككها يا غلام. قال: أقرأنيها أُبي وإنها في

مصحفه. فأرسل إلى أُبي بن كعب فجاءه، قال: فرفع صوته عليه، فقال أُبي: كان يشغلني القرآن إذ كان يشغلك الصفق في الأسواق. فسكت عمر[1].

وهذه الصورة التي نقلتها لك هي عينها التي يرويها القرطبي بنصّها وحذافيرها.

المضمون الثاني: موقفنا من القراءة والرواية

أما موقفنا من الرواية فهو سلبي جداً؛ ذلك أننا لا نأخذ إلّا بما هو متداول بين الناس من المصاحف اليوم. وهو موقف واضح قد رسمه لنا أيّمتنا عليهم السلام[2]. ومع أن هذه الرواية موجودة عند فرق المسلمين[3] لكننا لا نعتدّ بها؛ لأن هذا الباب خطر جداً علىٰ اعتقادات المسلمين، وإذا فتح علىٰ مصراعيه فسوف لن تبقىٰ هناك ثقة بالقرآن الذي هو ما بين الدفتين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٥، ولم يصرّح باسم ابن عبّاس، وهو مصرّح به في تفسير القرآن (الصنعاني) ٣:١١٢.

(٢) عن قيس بن عبادة قال: قرأت على علي ـ يريد: أمير المؤمنين عليه السلام ـ ﴿وطلح منضود﴾ الواقعة: ٢٩. فقال علي: «ما بال الطلح؟ أما تقرأ: وطلع؟». فقيل له: يا أمير المؤمنين، أنحكّها من المصحف؟ فقال: «لا يهاج القرآن اليوم».

انظر: التبيان ٩: ٤٩٥، جامع البيان، المجلد: ١٣، ج٢٧: ٢٣٤، كنز العمّال ٢: ٥١٩ / ٤٦٤٨.

(٣) انظر إضافة إلىٰ الهامش قبل السابق: جامع البيان، المجلّد: ٧، ج١٢: ١١١، المجلّد: ٢١، ج٢١: ١٤٧، معاني القرآن ٣: ٣٦٨، أحكام القرآن ٣: ٣٢٧، المستدرك على الصحيحين ٢: ٤١٥ الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٥٩، ١٤: ١٢٣، تفسير القرآن العظيم ٢: ٤٦٩، ٤٧٧، تفسير الثعالبي ٤: ٣٣٧، كنز العمال ٢: ٥٩٦ /، زاد المسير ٦: ١٨٢، الدر المنثور ٣: ٣٤٢، ٥: ١٨٣، فتح القدير ٢: ٥١٦، ٤: ٢٦٢، ٢٦٣.

كما قلنا. سأل الإمام الرضاعليه السلام أحدُ أصحابه فقال له: يابن رسول اللّـه، كيف نقرأ التوحيد؟ قالعليه السلام: «**كما يقرؤها الناس**»[١]. والقـرآن «**هـو مـا بـين الدفتين**»[٢].

أُمّهات المؤمنين

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿**وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ**﴾. والمقصود أن نسـاءهصلى الله عليه وآله يحرمن علىٰ المؤمنين بعد وفاته؛ فلا يجوز لأحد التزوّج منهنّ بحال من الأحوال؛ وذلك تكريماً لفراش النبيصلى الله عليه وآله. فهن أمهاتهم من هذه الناحية. وتروىٰ في المقام رواية كان الخليفة الثاني يتشنّج إزاءها، يقول عبد الله بن عباس: دخلت على عمر بن الخطّاب، فتنفّس تنفّساً شديداً، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما أخرج هذا منك إلّا همّ. فقال: نعم، فويل لهذا الأمر لا أدري من له بعدي. ثم نظر إليّ فقال: لعلّك ترى أن صاحبك لها؟ يـعني علياًعليه السلام. فقلت: يا أمير المؤمنين، وما يمنعه؟ أليس بمكان ذاك؛ في قرابته من رسول اللهصلى الله عليه وآله، وسوابقه في الإسلام ومناقبه في الخـير؟ فـقال: إنـه لكذلك، ولكن فيه بطالة وفكاهة. قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من طلحة بن عبيد الله؟ قال: الأكتع؟ ما كان الله ليعطيها إياه، ما زلت أعرف فيه بأواً مذ أُصيبت يده، مع هَناة كانت له على عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله. قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من الزبير؟ قال: وعقة لقس؟ قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من عبد الرحمن بن عوف؟ قال: نعم المرء ذكرت،

---

(١) الكافي ١: ٩١ / ٤، التوحيد: ٩٥ / ١٤.

(٢) انظر نهج البلاغة / الكلام: ١٢٥، وانظر تصحيح اعتقادات الصدوق: ٨٤.

وهو ضعيف، ولا يقوم بهذا الأمر إلّا القوي في غير عنف واللّيّن في غير ضعف، والجواد في غير سرف. فقلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من سعد؟ قال: صاحب فرس وقوس.

قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من عثمان؟ قال: أوّه، ووضع يده على رأسه وقال: والله لئن وليها ليحملنّ بني أبي معيط على رقاب الناس، فكأني أنظر إلى العرب قد سارت إليه حتى تضرب عنقه. والله لئن فعل ليفعلُن، واللّه لئن فعل ليفعلُن ذاك به. ثم أقبل علي فقال: أما إن أحراهم إن وليها أن يحملهم على كتاب الله وسنة نبيّهم صاحبك، يعني عليّاً عليه السلام[1].

والهَناة هي الذنب، والذنب الذي أشار إليه عمر بن الخطاب هو أنه لمّا نزل قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[2] أمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نساءه ألّا يكلّمن الناس إلّا من وراء حجاب، فقال طلحة هذا: أيحجبنا محمد عن بنات عمّنا ويتزوّج نساءنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده. وفي رواية: لنتزوجن فلانة من بعده. فكان ذلك يؤذي النبي صلى الله عليه وآله، فأُنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ

---

(١) تاريخ المدينة ٣: ٨٨٢، أنساب الأشراف ٥: ١٦، منتخب كنز العمّال ٥: ١٨٩، وليس فيها: مع هَناة كانت له على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٢) الأحزاب: ٥٩.

وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً ﴾[١] **تعنّـفه**[٢].

ونحن نقول: إذا كان الأمر كذلك فلماذا رشّح طلحة للخلافة إذن[٣]؟

علىٰ أية حال فزوجة النبي صلى الله عليه وآله لا يجوز لأحد أن يتزوّج منها أبداً، وإن كان الأمر كذلك فهل يصحّ أن ترمىٰ زوجة النبي صلى الله عليه وآله بالانحراف من بعده؟ معاذ اللّه ذلك؛ لأن ذلك إساءة للنبي صلى الله عليه وآله قبل أن يكون إساءة لزوجته، واللّه تعالىٰ كرم الأنبياء وطهّر أعراضهم من الدنس، وهو تعالىٰ لم يبتلِ نبياً من أنبيائه بذلك أبداً؛ لأنه نقص وعيب بحق النبي عليه السلام. ثم إن الأنبياء عليهم السلام مثال الكمال، وهم القدوة في الدنيا، ولهم مكانة كبرىٰ في نفوس الناس. ولذا فإنه لا يصحّ مطلقاً أن يرمىٰ عرض النبي عليه السلام أبداً بمثل هذا، وفاعله مرتكب لأكبر الكبائر والأوزار. إن هذا هو مذهبنا الذي نقول به، لكن حينما تقرأ بعض الكتب تجد فيها فتاوىٰ تأمر بقتل بعض المسلمين والانتقام منهم بذريعة أنهم يسيئون إلىٰ أم المؤمنين عائشة ويسبّونها. فمن هؤلاء الذين أساؤوا إليها؟ هل هم الذين يدينونها لأنها خرجت تقاتل إمامها[٤]؟ وهل إن الإدانة هي سبّ وشتم؟

فالمسلم لا يفعل ولا يقول ما يسيء إلىٰ الرسول صلى الله عليه وآله، وهؤلاء الذين

---

(١) الأحزاب: ٥٣.

(٢) الدرّ المنثور ٥: ٢١٤، فتح القدير ٤: ٢٩٩.

(٣) في مجلس الستة الذين رشحهم ليتولّىٰ أحدهم الأمر من بعده.

(٤) أم أُولئك الذين ينسبون إليها ما لا يجوز بحقّها مطلقاً، من قبيل أنها كانت تأمر بنات أخواتها وبنات إخوانها فيرضعن من أحبّت من الكبار أن يراها ويدخل عليها. انظر المجموع شرح المهذّب ١٨: ٢١٢.

سطروا هذه الأكاذيب ضدنا في كتبهم لهم موقف عسير أمـام اللّـه يـوم القيامة؛ لأنهم ادعوا شيئاً لا أساس له ولا وجود، شيئاً نتحدّاهم جميعهم أن يثبتوه.

إذن أزواج النبيّ صلى الله عليه وآله أُمهات المؤمنين من جهة أن المسلم لا يـجوز له أن يتزوّج واحدة من أزواجه صلى الله عليه وآله بعد وفاته. أما ما توسّع فيه البعض في هذا المجال فأطلق علىٰ أُخت زوجة النبي صلى الله عليه وآله خالة المؤمنين وعلى أخيها خال المؤمنين[1]، فهذا ما لا يقبل به أحد، ولا يقرّه عاقل. وحتى الإمام الشافعي[2] كان لا يرىٰ هذا الرأي أيضاً، فيرفض هذه الألقـاب لإخـوان زوجات النبي صلى الله عليه وآله أو أخواتهنّ.

يروىٰ أن إحدىٰ النساء دخلت علىٰ عائشة فقالت لها: السلام عليك يا أُمّاه. فقالت لها: أنا لست لك بأُم لكن، إنما أنا أُم رجالكن[3]. وهذا لكي يصون اللّه عزّ وجلّ نبيّه صلى الله عليه وآله عن وصمة لا تليق به.

هل يصح الزواج من زوجة الإمام؟

وقد توسّع أحد علمائنا في هذا الأمر، فبحث مسألة جواز الزواج من زوجة الإمام عليه السلام بعده. وهذا الأمر مبتنٍ علىٰ قاعدة أن الإمـام عليه السلام له مـا للنبي صلى الله عليه وآله من خواص باستثناء مسألة النبوّة والوحي. وقد خلص من بحثه

---

(١) انظر: مسند ابن راهويه ٤: ٢٩، دفع شبه التشبيه: ٢٤١، الجـامع لأحكـام القـرآن ١٤: ١٢٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٤٧٧، سير أعلام النبلاء ٢: ٢٢٢، مسند ابن راهويه ٤: ٢٩، السيرة النبوية (ابن كثير): ٢٧٣، نظم درر السمطين: ٩٧، وغيرها كثير.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٤٧٦.

(٣) السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٧: ٧٠، الطبقات الكبرىٰ ٨: ٦٤، ٦٧، ١٧٩، ٢٠٠، زاد المسير ٦: ١٨٢، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٣.

هذا إلىٰ أن زوجة الإمامعليه السلام لا يجوز الزواج بها بعد وفاته، واستدلّ بما روىٰ من أن اُمامة بنت أبي العاص زوجة أمير المؤمنينعليه السلام قد تقدم لخطبتها جماعة بعد استشهادهعليه السلام، فأبت وروت بذلك رواية. وأنا لا اُريد أن اُناقش هذا الرأي هنا وإنما ذكرته لأجل التنبيه له.

إذن فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ فيه تنبيه للمؤمنين إلىٰ حقيقة أن بيت النبيصلى الله عليه وآله قد ربّىٰ المؤمنين روحياً وعقيدياً وهو يربيهم عاطفياً؛ لأن أزواجه اُمهاتهم؛ فلا يسعهم الزواج منهن؛ فلهن حكم الاُمومة من هذه الناحية، ناحية الاحترام. فالمسلم كما يجب عليه أن يحترم حضن اُمّه فكذلك يجب عليه أن يحترم حضن زوجة النبيصلى الله عليه وآله. فبيوت الأنبياءعليهم السلام يجب أن تحترم، وهو ما تؤكد عليه الآية الكريمة: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ * رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ﴾[(١)]، و﴿أَذِنَ﴾ بمعنىٰ أمر[(٢)].

فبيوت النبيصلى الله عليه وآله بيوت مؤهّلة للاحترام، واللّه أمرنا باحترامها لذلك.

المبحث السادس: مبدأ التوازن في توزيع الثروة

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ﴾. وهذا المقطع يعالج مشكلة اقتصادية، فالإسلام حينما جاء لم يكن هناك توازن بين المسلمين في عملية توزيع الثروة؛ فقد كانت هناك طبقة كبيرة من المسلمين جائعة وفقيرة، بل لا تملك شيئاً من متاع الدنيا. وهؤلاء هم علىٰ الأغلب من المهاجرين، فقد كان

---

(١) النور: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) العين ٨: ٢٠٠ ـ أذن، زاد المسير: ٣٦٤، تفسير القرآن العظيم ٣: ٣٠٣، تفسير الثعالبي ٤: ١٨٩.

أصحاب الرسول ﷺ في مكّة من الفقراء؛ ولذلك فإن جبابرة قريش حينما جاؤوا إلىٰ النبي ﷺ ليسمعوا منه القرآن قالوا له: إنما يمنعنا من سماع القرآن هؤلاء الأعبد ـ يعنون فقراء المؤمنين – فلو طردتهم جلسنا إليك. فقال ﷺ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. فقالوا: إذن فأقمهم عنا إذا جئنا. فقال ﷺ: «نعم».

وكان هذا منه ﷺ طمعاً في إيمانهم، فأنزل الله عليه هذه الآية: ﴿وَلاَ تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾[2] تردّ عليهم[3].

الثالوث المقدّس

فهؤلاء كان معظمهم فقراء؛ فلذا أراد اللّه أن يضع وشيجة بينهم وبين الأغنياء من أبناء دينهم، وهذه الوشيجة هي وشيجة الإسلام، حيث أمرهم بمحالفة المهاجرين. فكانت هذه الأُمور الثلاثة: الإسلام، والهجرة، والتحالف والإخاء من مسببات الميراث أوّل الإسلام؛ فقد كان الأمر أن الأنصاري يرث ويورّث المهاجر كما يرث الأخ أخاه. وهكذا كان الإسلام أهم وشيجة قام بموجبها حكم التوارث هذا. أما التحالف فقد كان إضافة إلىٰ أثره هذا يلزم أحدهما بالدفاع عن الآخر إذا تعرّض للاعتداء.

وهذه الأُمور كما قلنا كانت من مسبّبات الميراث مبدئياً، لكن حينما تمكّنت وشائج الإسلام بينهم، وأصبحت الثروة ميسورة والحال أحسن

---

(١) الشعراء: ١١٤. (٢) الأنعام: ٥٢.

(٣) جوامع الجامع ١: ٥٧٣، تفسير القرآن العظيم ٣: ٣٥٣.

من ذي قبل نزلت هذه الآية تنسخ هذا المعنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿**وَأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ**﴾. وفقهاؤنا يستدلّون بهذه الآية علىٰ الميراث عامّة، فمثلاً لو أن رجلاً مات وخلف بنتاً واحدة فإنها ترث الثروة كلها؛ نصفها بالفرض ونصفها بالرد[1]؛ لأنها ابنة مباشرة، وهي أقرب الناس إليه بلا واسطة، أما عند المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ فإن البنت ترث النصف فقط والنصف الثاني يعطىٰ للعصبة[2]، وهذا ما تحدث بسببه مشاكل كثيرة.

وإننا إنما حكمنا لها بذلك استناداً إلىٰ الآية الشريفة، وأخذاً بحالتها التي هي أمسّ إلىٰ الرعاية والحاجة بناءً علىٰ ذلك، وخصوصاً في مجتمعاتنا التي تتصف بطابع عجيب وغريب حيال هذه المسألة، فهي لا تحصل علىٰ عناية ورعاية واهتمام منه؛ ولذا فإن الإسلام ينظر إليها من هذه الناحية ويعطيها ذلك الحق كنوع من التعويض لها. فإعطاء ذلك الحق الخاص بها إلىٰ مجموعة من الرجال لهم القابلية والقدرة علىٰ مصارعة الحياة وأخذ ما يريدون منها ليس بعدل أبداً.

فالآية الكريمة تبين أن أُولي الأرحام أولىٰ من المهاجرين أو الأنصار في وراثة أقربائهم؛ لأن أُولئك يتوارثون أيضاً فيما بينهم حسب الضوابط الشرعية المبنية علىٰ أولوية أبناء كل طبقة من الطبقات الثلاث حسب مرتبتهم ومرتبتها.

---

(١) الخلاف ٤: ٦ / المسألة: ٢، الوسيلة إلىٰ نيل الفضيلة: ٣٨٦. وكذا الحال مع الأخت الواحدة فيما لو لم يكن وارث من الطبقة الأُولىٰ. انظر الوسيلة: ٣٨٨.

(٢) انظر: بدائع الصنايع ٧: ٣٢٨، أحكام القرآن ٢: ١٠٧، المبسوط (السرخسي) ٣٠: ٩٧، ٩٨، تحفة الفقهاء ٣: ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

وأُحب أن أُلفت النظر هنا إلىٰ نقطة هامة هي أن لفظة الميراث إذا أُطلقت فإنما تنصرف إلىٰ الأُمور الماديّة إلّا أن تضاف، كأن يقال: ورث أخلاق أبيه أو علم أبيه أو عادات قومه، وهكذا، أما إذا أطلق اللفظ وقيل: ورث أباه، فإن الذهن ينصرف مباشرة إلىٰ الأُمور المادية. ولذلك فإن القرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾[1] فهو يعني أنه ورث منه كل ما عنده من أُمور مادية وغيرها. وهذا من جملة استدلالات الزهراء عليها السلام ضد القوم علىٰ أنها ترث أباها رسول اللّه صلى الله عليه وآله[2].

فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿وَأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ﴾ فهي إنما تؤسّس نظرية الميراث في الإسلام، ونظرية الميراث عند المشرّع الإسلامي تقوم علىٰ هذا الأساس وهو أن البنت أو الولد حينما يخرجهما أبواهما إلىٰ الوجود فإنهما يعطيانه كل خواصّها الجسدية، ولذا فإن من العدل أن يمنحانه كل ثروتهما؛ لأنه ليس من العدل أن يورّثا أبناءهم مشاكلهم الجسدية ولا يورثاهم أموالهم. فنظرية الميراث عندنا تقوم علىٰ أساس التوازن هذا، وعلىٰ أساس هذه المعادلة.

أما ما تذهب إليه النظم الحديثة والمعاصرة من أن مسألة الميراث إنما تقوم علىٰ أساس إعطاء فرصة للبعض وحرمان البعض الآخر من هذه الفرصة فهذا ما لا يمكن أن يقرّه عاقل. فالماركسيون مثلاً يُشكلون فيقولون: ما معنىٰ أن يموت أحد ويخلّف لابنه ملايين الدولارات، وآخر يموت ولا يخلف لابنه شيئاً؟ لكن هذا لا يصمد أمام الواقع، وإلّا فماذا

---

(١) النمل: ١٦.

(٢) مرّ هذا المطلب في أكثر من موضع في موسوعة محاضرات الوائلي.

يمكن أن يكون الجواب علىٰ هذا التساؤل: لماذا يـرث البـعض وجـهاً جميلاً من أبيه ولا يرثه آخر من أبيه؟ بل إنه ربما كان الوارثان أخوين لكن أحدهما يولد جميلاً وضيئاً والآخر يولد قبيحاً، فلماذا ورث هـذه المولود الجمال، وورث هذا المولود القبح؟ أو أن هذا يولد عملاقاً حسب قانون الوراثة والآخر يولد قزماً صغيراً ضعيف البنية؟ فماذا تسمي هذا؟ ولماذا تسمي تلك الوراثة فرصة؟ إن قانون الوراثة عـادل ويـقوم عـلىٰ أُسس عقلية سليمة؛ فإن كل أُسرة منفصلة عن الأُخـرىٰ ولا يـمكن أن نحمل حالة هذه الأُسرة علىٰ حالة تلك الأُسرة.

صحوة الضمير وتنازع الغرائز

إذا ماسقىٰ اللّه البلاد فلا سـقى
مــعاهد كـوفان بـنوء المـوازم
أتت كـتْبهم فـي طـيّهن كـتائب
ومــا رقــمت إلّا بســمّ الأراقـم

المباحث العامة للموضوع

مقدمة تاريخية

عندما انتهىٰ الأمر بين الإمام الحسين عليه السلام وبين الأُمويين إلىٰ ما انـتهىٰ إليه من مرحلة المواجهة العسكرية، استنفر الأُمويون قواهـم وجـيوشهم لهذا الأمر، وكان أن توجّه عبيد اللّه بن زياد إلىٰ تجريد جيش لمحاصرة الحسين عليه السلام ومنعه من التحرّك؛ لما كان عليه أمره من بوادر تشير فيه إلىٰ قيامه بنهضة عسكرية. وقد توجّهت ثلة من جيش عبيد اللّه لمـحاصرة

الإمام الحسينعليه السلام وعرقلة سيره، في محاولة لمنع وصوله إلىٰ الكوفة.

ملك الري

وأوّل من نُدب لهذه المهمة هو عمر بن سعد؛ حيث استدعاه عبيد اللّه ليلاً وقد هيّأ له كتيبة قوامها أربعة آلاف جندي، ووعده فيما لو نجحت حملته فإنه سيوليه الري.

وفعلاً كتب له صكاً بملك الري ودفعه إليه. لكنه حينما فوجئ بخروج الإمامعليه السلام من مكّة وقصده العراق استدعىٰ الجيش وأمر ابن سعد بأن يرجع، فلما عاد إليه خاطبه ابن زياد بقوله: لابد من توجيه الحملة لقتال الحسين. فقال ابن سعد: أمهلني ليلة أفكر فيها وأتدبّر فيها أمري. فقال له: لك ذلك.

فلما رجع ابن سعد جمع وجوه قومه وطلب منهم إبداء الرأي والمشورة، فعارضوه في هذا الأمر ونهوه بشدّة، وكان أشدّ الناهين له ابن أُخته حمزة بن المغيرة بن شعبة حيث قال له: إياك والإقدام علىٰ هذا الأمر؛ فإنه خسارة لك في دينك ودنياك. فلما أصبح الصباح دخل عمر علىٰ عبيد اللّه فابتدره هذا قائلاً: علام قرّ رأيك؟ قال: أنا متردد في شأن هذه الحملة. فقال له: إذن هاتِ الصكّ الذي معك، فهناك من يقود الحملة غيرك، ونحن لا نجبرك علىٰ هذا الأمر. فقال له عمر حينها: إذا كان الأمر كذلك، فأنا موافق[1].

المبحث الأوّل: تداعيات القصة

إن هذا المقطع من السيرة سنخرج منه بثلاثة استنتاجات إن شاء اللّه، سيتمحور حولها بحث هذه الليلة:

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٩ ـ ٣١٠، تاريخ مدينة دمشق ٤٥: ٥٠ ـ ٥١.

الاستنتاج الأوّل: قرابة ابن سعد من الحسين عليه السلام

فعمر بن سعد هذا هو عمر بن سعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص مالك ابن أُهيب بن قصي، أي أنه يلتقي مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله بجدهما الرابع؛ فهو ابن عم الحسين عليه السلام.

الاستنتاج الثاني: أن عداء ابن سعد للحسين عداء غير نزيه

ثمّ إن عمر بن سعد هذا كان علىٰ خطّ أبيه ـ مع فارق واحد هو شرف النفس كما سيأتي ـ ذلك أن أباه سعداً كان من المنحرفين عن أمير المؤمنين عليه السلام والممتنعين عن بيعته، لكنه كان مع ذلك يتوفّر علىٰ الكثير من مقوّمات الشرف، ويحتفظ بنفس شريفة؛ ومما يدل علىٰ ذلك.

قدر ومنزلة أمير المؤمنين

أنه حينما دخل معاوية إلى المدينة وأخذ ينتقص من أمير المؤمنين عليه السلام وجاء سعد بن أبي وقّاص قال له معاوية: ما يمنعك أن تسبّ ابن أبي طالب؟ قال: لا أسبّه ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله، لأَن تكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النعم. قال له معاوية: ماهن يا أبا إسحاق؟ قال: لا أسبّه ما ذكرت حين نزل عليه الوحي فأخذ عليّاً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: «ربّ إن هؤلاء أهل بيتي». ولا أسبّه ما ذكرت حين خلّفه في غزوة تبوك، غزاها رسول اللّه صلى الله عليه وآله فقال له علي: «خلفتني مع الصبيان والنساء؟». قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا إنه لا نبوّة بعدي؟». ولا أسبّه ما ذكرت يوم خيبر حين قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «لأُعطين هذه الراية رجلاً يحبّ اللّه ورسوله ويفتح اللّه على يديه». فتطاولنا لرسول اللّه صلى الله عليه وآله، فقال: «أين علي؟». قالوا: هو أرمد. فقال: «ادعوه». فدعوه فبصق صلى الله عليه وآله في وجهه ثم أعطاه الراية، ففتح اللّه عليه. قال:

فلا واللّه، ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة[١].

ثمّ قال له ابن سعد: واللّه إني أحق منك بالخلافة. فقال له معاوية: يأبىٰ عليك ذلك بنو عذرة. وهي كلمة سب نابية.

فالمهم إن سعداً هذا علىٰ الرغم من مخالفته لأمير المؤمنين عليه السلام وامتناعه عن نصرته، إلّا إنه كان صحابياً يعرف لأمير المؤمنين عليه السلام قدرهُ ومنزلته ومكانته. إن من الأعداء من يكون شريفاً في عداوته ومنهم من يكون وضيعاً فيها، وسعد من النوع الأوّل، لكن ابنه عمر كان من النوع الثاني؛ فقد اتصّف عداؤه للإمام الحسين عليه السلام بالكثير من الخسة والدناءة والوضاعة.

الاستنتاج الثالث: أن عامل القرابة لا دخل له في النصرة والعداوة

فكون ابن سعد ابن عمّ الإمام عليه السلام لا يؤثّر من قريب أو بعيد في المسألة؛ لأن النفس التي تضعف أمام المال تبيع حتىٰ دينها[٢]. فالمسألة أن الإنسان لا يصنعه اللحم والدم، وإنما تصنعه المبادئ والفكر والخلق. والإنسان

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٨، قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة، وقد اتفقا جميعاً على إخراج حديث المؤاخاة وحديث الراية.

وفي كتاب السنة لعمرو بن أبي عاصم عن سفيان بن عيينة أنه قال: ذكر علي (رضي الله عنه) عند معاوية وعنده سعد بن أبي وقاص، فقال له سعد: أيذكر علي عندك؟ إن له لمناقب أربعاً لَأَن يكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النعم. قوله صلى الله عليه وآله: «لأُعطين الراية»، وقوله صلى الله عليه وآله: «بمنزلة هارون من موسى»، وقوله صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه»، ونسي سفيان الرابعة. كتاب السنة: ٥٩٦ / ١٣٨٦.

(٢) قد أكد المحاضر في محاضرته السابقة (النصرة والقرابة) علىٰ هذا الأمر، وذلك في خصوص علاقة العباس بأخيه الإمام الحسين عليهما السلام حيث إنه أكد تأكيداً بالغاً علىٰ أن العباس لم ينصر الحسين لأنه قريبه بل لأنه إمامه أي أن القرابة لا دخل لها في نصرته إياه بعد أن أيقن إنه إمامه وواجب الطاعة عليه ومفترضها.

ليس إنساناً بدمه ولحمه، ولا هو عبقري أو عظيم بهما، وإنما هو يكون كذلك بما يملك من نفس عظيمة وخلق نبيل وتربية عالية وآداب رفيعة. فهذه المقوّمات هي التي تصنع الإنسان.

والإنسان الحقيقي هو ابن الحضارة لا ابن النسب، وهذا ما يؤكده علماء الاجتماع وعلماء النفس عندما يتعرّضون لمقام المفاضلة بين الغريزة والتربية. وقد أُخضع هذا الأمر لعدّة أسئلة منها: ما الذي يصوغ الإنسان في المجتمع؟ وما الذي يحدّد سلوكه وأخلاقه؟ هل هي الغرائز والدم واللحم، أي العوامل والخصائص البيولوجية، أم أن الذي يحدّد ذلك عنده الحضارة؟ وما هو دور وجوه المحيط ـ الأبوين، والتربية، والمدرسة ـ في ذلك؟ ويستنتج من هذه التساؤلات علىٰ ضوء الدراسات الاجتماعية والنفسية أن وجوه المحيط والحضارة أُمور تتضافر علىٰ صياغة شخصية الإنسان وتحديد سلوكه في المجتمع؛ حيث إنها أُمور تغلغل في نفسه الأخلاق والآداب والمعلومات المنبثقة عن البيئة الاجتماعية أو الثقافية والفكرية له، وغيرها. فهذه الأشياء هي التي تخلق الإنسان، وهو ابنها وليس ابن اللحم والدم.

فعمر بن سعد ابن عم الحسين عليه السلام ولكنه ناصبه العداء، كما أن من إخوة الحسين عليه السلام من لم يخرج معه، في حين أن بعض من خرجوا معه لا تربطهم به عليه السلام أي علاقة نسبية من قريب ولا من بعيد، فوهبُ مثلاً رجل كان نصرانياً، لكنه كان ذا مروءة وتربية عالية، كما أنه أدرك سموّ أهداف نهضة الإمام الحسين عليه السلام وغايتها، ونبل مقاصد ثورته، فتجلّىٰ له الحقّ عند استماعه إليه؛ فالتحق بهذه النهضة الشريفة المباركة.

وهذا هو ما نريد أن نؤكده؛ إننا لا نقول بعامل القرابة والدم واللحم

وإنما نؤكّد علىٰ عامل التربية والمشاعر، فهذا هو الأساس الذي يصوغ للإنسان دينه.

وعمر هذا علىٰ الرغم من أنه ابن عم الإمام عليه السلام، وعلىٰ الرغم من التحذيرات التي وجهت إليه كما أسلفنا إلّا إنه ألحّ إلحاحاً شديداً علىٰ متابعة مهمة قتال الإمام عليه السلام وقتله؛ لأن النظرة إلىٰ الحياة تختلف من إنسان لآخر، وهي كذلك مختلفة عند هؤلاء الذين قتلوا الحسين عليه السلام وعند الإمام الحسين عليه السلام نفسه؛ فهؤلاء لا ينظرون إلىٰ الحياة إلّا علىٰ أنها أموال وسلطان وقصر وكرسي يجلس عليه الإنسان ولو لأمد قصير، فهي لا تعدو هذا التصوّر عندهم، أمّا عند الحسين عليه السلام فهي سمو نفس ونبل وأخلاق وكرامة وموقف. وباختلاف وجهة النظر تختلف المقاصد والأهداف.

ومثل هذا في نظر الإمام الحسين عليه السلام يعد مسكيناً ينبغي ألّا يحقد عليه، وهذا الروح هو روح الأنبياء عليهم السلام ألم يقل إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[1]؛ فهو عليه السلام لم يسب ولم يشتم؛ لأنه يعرف أن هذا جاهل، والجاهل مريض، والمريض لا يُشتم ولا يُعتدىٰ عليه. لكن هذا المريض بما يملك من نظرة ضيقة قاصرة يتصوّر أن الأمر يجب أن ينتهي إلىٰ هذا الكرسي الذي يتأرجح من تحته، أما في الطرف المقابل فالأنبياء والأوصياء عليهم السلام الذين حملوا راية الفكر والعدل والزهد في الدنيا بأجمعها.

زهد علي عليه السلام

وفي هذا الطرف أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان ذات مرّة في طريقه إلىٰ

---

(١) إبراهيم: ٣٦.

البصرة كما يروي ابن عباس فيقول: نزل عليه السلام الربذة، فلقيه بها آخر الحاجّ، فاجتمعوا ليسمعوا من كلامه وهو في خبائه، فأتيته فوجدته يخصف نعلاً، فقلت له: نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوجُ منّا إلى ما تصنع.

فلم يكلّمني حتى فرغ من نعله، ثمّ ضمّها إلى صاحبتها ثم قال لي: «قوّمها». فقلت: ليس لها قيمة. قال: «على ذاك». قلت: كسر درهم. فقال عليه السلام: «والله لهما أحبّ إلي من أمركم هذا إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً»[1]. وهذا بطبيعة الحال ناشئ عن اختلاف وجهات النظر بين الإمام علي عليه السلام وبين أعدائه طلّاب الدنيا والساعين وراء الكرسي، ومن هؤلاء ابن سعد حيث يقول:

دعاني عبيدُ الله من دون قومه ... إلى خطّةٍ فيها خرجت لحَيني

فو اللهِ لا أدري وإني لواقفٌ ... على خطرٍ لا أرتضيه ومينِ

أأترك ملكَ الريّ والريّ منيتي ... أمَ ارجعُ مأثوماً بقتلِ حسينِ

وفي قتلِه النارُ التي ليس دونَها ... حجابٌ وملكُ الريّ قرّة عينِ[2]

فهذان هما الهدفان الوحيدان في الحياة: هدف هو عبارة عن رغبة مؤقتة سرعان ما تموت وتتلاشىٰ ثمّ يعقبها الندم والخسران وتأنيب الضمير ولعنة الأجيال، وهدف ناصع يستهدف خير الإنسانية، وهو هدف خالد بخلود صاحبه الذي يحمل الوجه الناصع ويثبت للأجيال أنه المثل الأعلىٰ ويريهم أن الحياة لا قيمة لها في حقيقتها ودوافعها.

المبحث الثاني: ﴿يَخْرُجُ الحَيَّ مِن المَيِّتِ﴾

ثمّ إن حمزة بن المغيرة (ابن اخت عمر بن سعد والذي نصحه بعدم القبول بعرض عبيد اللّه بن زياد حول قتل الإمام الحسين عليه السلام) هو ابن

---

(١) الإرشاد ١: ٢٤٧، الجمل: ١١٣. (٢) كشف الغمة ٢: ٢٥٩.

المغيرة بن شعبة الذي يخجل التاريخ حينما يستعرض أوّليات حياته وسيرته. إن جوّ المغيرة قد تناولته كتب التاريخ وفصلته تماماً، ومن جملة أوّلياته هذه أنه أحرج الخليفة الثاني حينما أنقص واحداً من الشهود الأربعة فدرأ عنه الحدّ[1]. وله مواقف كثيرة واضحة الانحراف، ومنها مساهمته في قتل الخليفة الثاني، بل إن هناك تخطيطاً واضحاً ـ كما هو الحال مع اغتيال عثمان وأمير المؤمنين عليه السلام ـ كان يدبّر له المغيرة. ولو لاحظنا من اشترك في العملية هذه لاتضحت لنا خيوطها، إن الذين اشتركوا في عملية الاغتيال هذه هم ثلاثة:

الأوّل: جفينة المسيحي، وكان ضئراً لسعد بن مالك ـ أي أنهما ارتضعا من ثدي واحد ـ وقد دخل إلىٰ المدينة بتخطيط من سعد نفسه مع أن النبي صلى الله عليه وآله كان يمنع اليهود والنصارىٰ إذا بلغوا الحلم أن يدخلوا المدينة المنوّرة. لقد أدخله سعد إلىٰ المدينة بحجّة تعليم المسلمين العلوم الحديثة والكتابة، وذلك بعد فتح الحيرة وكان قد بقي فيها فترة قرّب ضئره هذا، وأتىٰ به معه إلىٰ المدينة بعنوان أنه مدرس.

الثاني: كعب الأحبار، هذا اليهودي الذي تجد بصماته واضحة المعالم في كتب التاريخ والتفسير في محاولة لتشويه وتحريف التراث الإسلامي. وإلىٰ هذا الوقت هناك الكثير ممن يكتب أو يفسّر فيقول: قال كعب الأحبار. والحال أن هذا الرجل أُجريت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، لكن تظهر في سيرته ألف علامة استفهام، فهذا الرجل جاء إلىٰ الخليفة الثاني

---

(١) المسترشد في الإمامة: ٢٢٣، الاحتجاج ١: ٤١٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ٥٦ / ٣، ٢٠: ٢٣، كنز العمّال ٥: ٤٥٢ / ١٣٥٨٩، ٧: ٢٢ / ١٧٧٧٦، الإصابة ٣: ٣٠٤، شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

قبل مقتله بأربعة أيام وقال له: أوصِ وصيتك واعهد عهدك؛ فإني أجد في التوراة أنك ستقتل بعد ثلاثة أيام. فقال: أو تجد اسمي في التوراة؟ قال: بلىٰ. ثمّ جاء في اليوم الثاني وقال له: لقد بقي من عمرك يومان، فخذ حذرك فإنك ستقتل، وكذلك عاوده في اليوم التالي[١].

إن هذا الرجل الذي حمل حقد اليهود قد أقبل يلعب دوره في ضرب استقرار المسلمين، وفعلاً فإن الخليفة الثاني كان له موقف شديد معه حيث رفع الدرة ذات مرّة وضربه علىٰ رأسه وقال له: قد أكثرت الكذب. ثمّ طرده[٢].

وهكذا حمل الحقد من هذه المعاملة، وكذلك فإنه ترك لنا تراثاً مشؤوماً؛ حيث إنه غرس الفكر اليهودي في التفسير والتاريخ؛ ولذا فإن الباحث يجد فيهما الكثير من الأفكار السخيفة البالية والتعليلات والآراء العجيبة[٣]. وهكذا فإن بصمات هذا اليهودي كانت واضحة وهي لا تزال تعبث بتراثنا. ومن هذا ما يروىٰ من أن النبي موسى عليه السلام جاءه عزرائيل عليه السلام ليقبض روحه، فقال له عليه السلام: «ماذا تريد؟». قال: «أُريد أن أقبض روحك». فضربه النبي موسى عليه السلام بعينه ففقأها له، وردّه إلى ربّه وهو أعور[٤].

وأنا لا يهمّني هنا قول من يقول: إن هذه الروايات قد تمّت غربلتها،

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ٢٦٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٤: ٤٠٨.

(٢) لم نعثر عليه عن كعب وإنما عن أبي هريرة، انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧، ونقل الشوكاني وغيره عن ابن عباس في تفسير الجبت والطاغوت قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. انظر: تاريخ المدينة ٢: ٤٥٢، زاد المسير ٢: ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٢٥، فتح القدير ١: ٤٧٩.

(٣) كما مرّ من أمر خلق السنور والخنزير في سفينة النبي نوح عليه السلام، انظر محاضرة (دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا).

(٤) صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

وروعي اختيارها؛ حيث إنه كان اختياراً دقيقاً، ووفقاً للضوابط العلمية؛ فهي بالنتيجة منتقاة بعناية في كتب الصحاح، لكن يهمني جداً ألّا نلوّث عقليّة هذا الجيل، فهذه القضية تتّصل بعقليّة الإسلام والمسلمين وعقيدتهم، فكيف يعقل أحد أن اللّه يبعث ملكاً لقبض روح إنسان فيعجز عن ذلك؟

وهناك الكثير من أمثال هذه الإسرائيليات التي تلوح عليها بصمات كعب الأحبار واضحة، ومثله وهب بن منبّه وغيرهما من اليهود الذين لعبوا دوراً مشوّشاً جداً في تاريخ المسلمين وحياتهم. وهؤلاء كانوا ولا يزالون سرّ مصائبنا وبلائنا؛ وكذلك هم اليهود علىٰ امتداد تاريخهم معنا.

الثالث: أبو لؤلؤة، وقد أدخله المغيرة للمدينة بحجّة أنه ذو مهارات ويستطيع أن يعلمها الناسَ وينقل إليهم خبرته[1]. يروي الطبري[2] وابن الأثير[3] أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة طعن عمر: مررت على أبي لؤلؤة عشيّ أمسِ ومعه جفينة والهرمزان، وهم نجيّ، فلمّا رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فانظروا بأي شيء قتل؟ وقد تخلل أهل المسجد وخرج في طلبه رجل من بني تميم فرجع إليهم التميمي وقد كان أمسك بأبي لؤلؤة عند منصرفه من عمر، حتى أخذه فقتله وجاء بالخنجر الذي وصفه عبد الرحمن.

وللعلايلي رأي في المغيرة له مسحة من القبول، يقول: لمّا شاهد هؤلاء أن الخليفة الثاني في أيامه الأخيرة بدأ ينعطف نحو الهاشميين، وأخذ يقول: «لا أبقاني اللّه لمعضلة ليس لها أبو الحسن» و«عقمت الناس

(١) المصنّف (الصنعاني) ٥: ٤٧٤ / ٩٧٧٥.

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٣٠٣.

(٣) أُسد الغابة ٣: ٣٤٢.

عن أن يلدن مثل ابن أبي طالب»، وكانت بوادر الانعطاف هذه واضحة، فتخوّف الأُمويّون من الأمر، وأدركوا خطورة هذا الموقف عليهم، فحرّكوا المغيرة لفعل شيء ما[١]. وهذا الرأي ليس للعلايلي وحده بل يشاركه فيه آخرون غيره.

دور المغيرة في قتل الخليفة الثاني

والشي المهم الذي أُريد أن أُنبّه إليه هو أن المغيرة كان من ضمن من لعبوا دوراً في قتل الخليفة الثاني. وأنا لا أرغب أن أُلوّث المنبر بسيرة هذا الرجل، لكن أذكر لك هذه الحادثة التي يرويها المسعودي في (مروج الذهب) في ترجمته حيث يقول: حينما هرب المغيرة من طاعون الكوفة ثمّ عاد إليها طعن (أصابه الطاعون) فمات، فلما دفنوه بالثوية بين النجف والكوفة وقف رجل علىٰ قبره وأخذ ينشد:

أمن رسم دار للمغيرة تعرف ... عليها زواني الإنس والجن تعزفُ

فإن كنت قد لاقيت هامان بعدنا ... وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصفُ[٢]

ومن مثل هذا الجوّ هل تأمل أن يخرج مثل حمزة بن المغيرة؟ وأُريد أن أقول: إننا في هذا الجانب عندما نريد أن نتحدّث عن شخص ما فإننا نقول: إن هذا ابن بيت، ومن أب طيب ومن أُسرة كريمة، لكن هذا ربما كان عاملاً مساعداً علىٰ خلق الشخصية الطيبة والإنسان الشريف، وليس هو العلة الحقيقية؛ فقد تجد من ينشأ في بيت من النوع الذي ذكرنا آنفاً، لكنه يخرج علىٰ غير طريقة أهله، ومن هذا النوع أُم المؤمنين بنت أبي سفيان، فهي ابنة من شقّت بطن حمزة‌ﷺ وأكلت كبده وراحت تلوك به، وقطعت أُذنه، وكذلك أبوها أبو سفيان صاحب المواقف المعروفة، الذي

(١) سموّ المعنىٰ في سمو الذات: ٣١.

(٢) مروج الذهب ٣: ٣٤ ـ ٣٥.

كان يضع الرمح علىٰ خد حمزة‌ﷺ ويتكئ عليه حتىٰ يخرج من الجانب الآخر. وكان لا تحدث معركة إلّا وله فيها دور، وكان يحمل اللواء ضد النبيﷺ في كل معركة تخوضها ضده قريش.

ولما أحست قريش بإرهاصات فتح مكّة وبوادر تحرّك الرسولﷺ إليها أراد أبو سفيان أن يتلافىٰ هذا الأمر ويأخذ الأمان لنفسه ولقومه، فذهب إلىٰ بيت ابنته أُم حبيبة وجلس علىٰ جلد كبش كان رسول اللّهﷺ يجلس عليه، فأقبلت إليه أُم حبيبة وسحبت الجلد من تحته وقالت له: هذا لرسول اللّهﷺ، وأنت مشرك نجس. فقال لها أبوها: لقد أصابك بعدي شر. قالت: كلّا، ما أصابني إلّا خير[1].

فالتربية لها دورها، لكن لا أُريد القول: إن التربية وحدها هي العامل المؤثر في خلق شخصية الإنسان، بل إن لها دوراً مؤثراً جزئياً، وتتدخّل معها عدة عوامل منها عناية اللّه تعالىٰ ورعايته. فالعامل المؤثر بالدرجة الأُولىٰ هو إرادة السماء.

وهذا هو ما يفسّر كلام حمزة بن المغيرة بن شعبة حين جمعهم خاله عمر ابن سعد لأخذ مشورتهم حول مسيره لحرب الإمام الحسينعليه‌السلام؛ حيث قال له: إنك إذا خرجت إلىٰ قتال الحسينعليه‌السلام فستخسر الدنيا والآخرة. لكن ابن سعد هذا لم يأخذ بالنصح، وأنا لا أُريد أن أقول: غلبت عليه شقوته، لأن اللّه تعالىٰ لا يجبر العبد علىٰ الفعل، وإنما يقوم العبد بأفعاله كلّها باختياره.

النتيجة

نستنتج من هذا ونستفيد منه أن مشاورة عمر بن سعد وخروجه لقتال

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٧٧، الطبقات الكبرىٰ ٨: ١٠٠، دفع شبه التشبيه: ٥٢.

الحسين عليه السلام تؤكّد أن الإنسان تمرّ به لحظات من صحوة الضمير، فالإنسان مهما تصورنا أنه منحرف غاية الانحراف فإنه تمرّ به لحظات يقع فيها فريسة للصراع بين ضميره وغريزته[1]. والإنسان حينما لايكون عنده

---

(١) ومن ذلك ما يروى عن عمرو بن العاص حينما كلَّم معاوية قوماً من أهل الشام للطلب بدم عثمان، وأشار عليه أخوه عتبة بأن يستعين بعمرو بن العاص وقال له: إنه قد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرك أشَدُّ اعتزالاً، إلّا أن يثمّن له دينه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا.

فكتب إليه معاوية بذلك، فلمّا قدم الكتاب علىٰ عمرو استشار ابنيه عبداللّه ومحمّداً، فقال له عبد اللّه: قرَّ في منزلك، فلست مجعولاً خليفة، ولا تزيد علىٰ أن تكون حاشية لمعاوية علىٰ دنياً قليلة، أوشكتما أن تهلكا فتُساوَيا في عقابها. وقال محمّد: أرىٰ أنك شيخ قريش وصاحب أمرها، وإن تصرَّم هذا الأمر وأنت عنه غافل، تصاغر أمرك؛ فالحق بجماعة أهل الشام، وكن يداً من أيديهم طالباً بدم عثمان، فإنه سيقوم بذلك بنو اُميَّة.

فقال عمرو: أمّا أنت ياعبداللّه فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأمّا أنت يا محمَّد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، وأنا ناظر. فلمّا جنَّه الليل رفع صوته قائلاً:

تطاوَلَ ليلي بالهمومِ الطوارقِ ... وخوفِ الَّتي تجلو وجوهَ العواتقِ
وإن ابنَ هندٍ سائلي أن أزورَهُ ... وتلكَ الَّتي فيها بناتُ البوائقِ
أتاه جرير من عليٍّ بخطّة ... أمرَّت عليهِ العيشَ ذاتَ مضائقِ
فإن نالَ منِّي ما يؤمِّلُ ردُّه ... وإن لم ينلْهُ ذلَّ ذُلَّ المطابقِ
فواللّهِ ما أدري وما كنتُ هكذا ... أكونُ ومهما قادني فهو سائقي
وقد قالَ عبدُ اللّه قولاً تعلَّقت ... بهِ النفسُ إن لم تقتطعْني عوائقي
وخالَفَهُ فيه أخوه محمَّد ... وإني لصُلبُ العودِ عندَ الحقائقِ

فقال عبداللّه: رحل الشيخ. ودعا عمرو غلامه وردان، وكان داهية مارداً، فقال: ارحل يا وردان. ثمّ قال: احطط يا وردان. ثمّ قال: ارحل يا وردان. ثمّ قال: احطط يا وردان. كرّرها ثلاثاً، فقال وردان: خلطت أبا عبداللّه، أما إنك إن شئت أنبأتُك بما في قلبك. قال: هات ويحك. قال: اعتركت الدنيا والآخرة علىٰ قلبك، فقلت: عليٌّ معه الآخرة في غير دنياً، وفي الآخرة عوض من الدنيا، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض من الآخرة. وأنت واقف بينهما.

استعداد للخير فإن التكليف يكون باطلاً! والآن إذا أردنا القول: إن الإنسان وصل إلىٰ مرحلة فقدان الاختيار، فهذا يعني الجبر، وهو يؤدّي إلىٰ إلغاء الإرادة عند الإنسان وعدم استعمالها في أفعاله، وإن كان الأمر كذلك فحينها يمكن القول: إن اللّه تعالىٰ لا يعاقب بحق ولا يجازي بحق (تنزّه تعالىٰ عن ذلك)؛ لأنه سيعاقب علىٰ أشياء خارجة عن الإرادة. فهو تعالىٰ إذا لم يسلّح الإنسان باستعداد خلقي فإنه سيحتج عليه بأن سيقول له: يارب، أنت لم تسلّحني باستعداد خلقي؛ لأنك جعلتني ريشة في مهب الريح، فتغلّبت عليّ تيارات فكرية وتلاعبت بي الأهواء وانتصرت عليّ عواصف تجرّني إلىٰ الفعل وتجبرني عليه.

من هما اللذان يضلّان الإنسان؟

وهذا غير صحيح؛ فهؤلاء ينادون: ﴿**رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاّنا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الأَسْفَلِينَ**﴾[1].

الأوّل: إبليس

قال: قاتلك اللّه ما أخطأت ما في قلبي، فما ترىٰ يا وردان؟ قال: أرىٰ أن تقيم في بيتك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك. فقال: الآن لما شهدت العرب مسيري إلىٰ معاوية، ارحل يا وردان. فارتحل وهو يقول:

يا قاتلَ اللّهُ وَرْداناً وفطْنَتَهُ ... أبدىٰ لعمرُك ما في النفسِ وردانُ
لما تعرَّضتِ الدنيا عرَضْتُ لها ... بحرصِ نفسي وفي الأطباع أذهانُ
نفسٌ تعفُّ وأُخرىٰ الحرصُ يغلِبُها ... والمرءُ يأكلُ تبناً وهو عريانُ
أمّا عليٌّ فدِينٌ ليسَ يشركُهُ ... دنياً وذاكَ لَهُ دنياً وسلطانُ
فاخترتُ من طمعِي دنياً علىٰ بصرٍ ... وما مَعيْ بالّذي أختارُ برهانُ

شرح نهج البلاغة ٢: ٦١، وقعة صفّين: ٣٢ ـ ٣٥.

(١) فصّلت: ٢٩.

والذي أضلّ من الجن هو إبليس؛ حيث أمره اللّه عزّ وجلّ أن يسجد لآدمعليه السلام فأبىٰ، وقال: هذا مخلوق من طين وأنا مخلوق من نـار، والنـار عنصر أشرف من الطين؛ فالنار جميلة بالحسّ والبصر، والنـار مـعبودة، والنار من دنيا القوىٰ، وهذا المعنىٰ هو الذي أخذه بشار بن برد حيث قال:

إبـلِيسُ خـيْرٌ مـن أَبِـيكُمْ آدَم فـتَنَبَّهُوا يَـا مَـعْشَرَ الفُـجَّارِ

إِبْـلِيسُ مـن نَـارٍ وآدَمُ طِـينَةٌ والأَرْضُ لاتَسْمو سموّ النـارِ[1]

فإبليس أقدم باختيار علىٰ عصيان اللّه تعالىٰ فسنّ هذا العصيان.

الثاني: قابيل

والذي من الإنس هو قابيل؛ حيث إنه قتل هابيل ففتح بذلك باب سفك الدم، فأول دم أُريق علىٰ وجه الأرض كان بفعله، فهو الذي فـتح عـهد الجريمة وأصّلها. وقابيل طبعاً لم يعش فـي مـجتمع بـالمعنىٰ والشكـل المعروفين الآن للمجتمع حتىٰ يمكن أن يقال: إن عنده أوضاعاً اجتماعية أجبرته علىٰ القتل، وكذلك لم تكن غريزته تـدفعه إلىٰ القـتل، ولو كـان كذلك لكان حيواناً وليس إنساناً. إذن ما الذي دفعه إلىٰ ذلك؟ الذي دفعه إلىٰ ذلك هو سوء اختياره، حيث إنه قتل أخاه بدافع الحسد، إذ أن هابيل قرّب قرباناً فتقبله اللّه وقرّب قابيل قرباناً فلم يتقبّله، أخوه حظي بزوجة جميلة وهو لم يحظَ بمثلها، أخوه تبعاً لذلك حظي بـعطف أبـيه آدمعليه السلام ورعايته وقلبه؛ لخلقه النبيلة وحسن معاملته، وهو ربما لم يحظَ بـذلك لسوء خلقه أو وجد بعض البرودة من أبيه تجاهه، وهذه نقطة مهمة فـي عامل التربية.

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر.

(١) ديوان بشّار: ٥٣٩.

لا شهادة على جور

يروىٰ أن النعمان بن بشير قال: سألت أُمّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، فوهبها لي، فقالت له: لا أرضى بها حتى تُشهد النبيﷺ عليها. فأخذ بيدي وأنا غلام حتى أتى بي النبيﷺ، فقال له: يا رسول اللّه، إن أُمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. فقال له النبيﷺ «**ألك ولد سواه؟**». قال: نعم. قال: «**لا تشهدني على جور**». وفي رواية: «**ألك بنون سواه؟**». قال: نعم. فقال لهﷺ: «**فكلّهم أعطيت مثل هذا؟**». قال: لا. فقال له: «**فلا أشهد على جور**»[1]، لأن هذه الهبة سوف تخلق مشكلة بين الإخوة.

وأنا هنا لا أستطيع أن أنسب إلىٰ نبيّنا آدمعليه السلام أنه يفرّق بالمعاملة، لكن قابيل ألجأ أباهعليه السلام إلىٰ ذلك بسوء اختياره وإرادته، فقتل أخاه وقد وجده نائماً، حيث إنه أخذ قطعة حجر وضربه بها علىٰ رأسه فقتله. وبعد أن فعل فعلته احتار ما الذي يفعله، فهذه أوّل عملية قتل في المنطقة التي عاش بها آدمعليه السلام؛ إذ أن الفترة الزمنية التي تفصلنا عن آدمعليه السلام لا تزيد عن أربعة عشر ألف سنة، وبهذا فهي تكون أوّل عملية قتل، وإن كان هذا لا يلتقي مع النظرية العلمية التي تقول: إن أعمال الحفريات اكتشفت أُناساً كانوا موجودين قبل عشرة ملايين سنة أو أكثر[2]. وهذه النظريات في الوقت الحاضر كلها نظريات قابلة للمناقشة؛ فهي ليست حقائق ثابتة.

المهم أن قابيل حمل هابيل علىٰ كتفه وراح يجول به مدّة إلىٰ أن أرسل

---

(١) جامع المقاصد ٩: ١٧١، مسند أحمد ٤: ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١، صحيح مسلم ٥: ٦٦.

(٢) أي أنه بناء علىٰ هذه النظرية لابد أن تكون حالات من القتل قد وقعت في تلك المجتمعات؛ وعليه فقتل قابيل هابيل ليس الجريمة الأُولىٰ في الأرض وفقها.

اللّه له غرابين قتل أحدهما الآخر ثمّ احتفر له برجله ودفنه وأهال التراب عليه، فقال قابيل: لقد أرحتني، ثمّ فعل بأخيه ما فعل الغراب بصاحبه.

وموضع الشاهد هنا أن هذين اللذين ذكرهما القرآن بقوله: ﴿**اللذَيْنِ أَضَلاّنا**﴾ إنما ضلّا وأضلّا بسوء اختيارهما هما، وليس ذلك واقعاً علىٰ القدر، فالأقدار لا يمكن أن نحمّلها ذلك، بل إن مردّهُ سوء اختيار الإنسان. وسوء الاختيار هو الذي حمل عمر بن سعد علىٰ اختيار قتال الحسين عليه السلام، ومع أنه كان عنده بقايا من ضمير إلّا إن سوء الاختيار تغلّب عليه؛ ولذا ارتضىٰ أن يقاتل الإمام الحسين عليه السلام، كان يمضي ليله يستشهد بالأبيات الآنفة:

دعاني عبيدُ الله من دون قومه	**إلى خطّةٍ فيها خرجت لحَيني**
فو اللهِ لا أدري وإني لواقفٌ	**على خطرٍ لا أرتضيه ومينِ**
أأترك ملكَ الريّ والريّ منيتي	**أمَ ارجعُ مأثوماً بقتلِ حسينِ**
وفي قتلِه النارُ التي ليس دونَها	**حجابٌ وملكُ الريّ قرّة عينِ**

فضميره يقول له: لا تقدم علىٰ فعل ذلك؛ لأن في هذا الخسارة والهلاك في الدنيا والآخرة، وهو وإن كان فيه ربح قليل، لكنّ فيه ظلماً وتعدياً وعقوقاً وقطع رحم، وغريزته تدفعه لقبول ذلك ويقول له صوتها: اقبل بهذا؛ ففيه البرد المحلّىٰ بالذهب، والسرير المزركش والخضوع لك، والأموال. والحياة علىٰ امتداد مسيرتها فيها هذان الأمران المتوازيان: بريق الذهب، والمعاناة؛ ولذلك فإن القاعدة الأساسية هي أن الفضائل وليدة المعاناة، والانحدار وليد الغرائز. والإنسان غالباً ما تسيطر عليه غرائزه، وقليل من الناس من يسحق الدنيا بقدميه ويتوجّه إلىٰ طلب رضوان اللّه تعالىٰ، وينظر إلىٰ ما هو أبعد: ﴿**وَما عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى**﴾[1]،

(١) القصص: ٦٠، الشورىٰ: ٣٦.

﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ﴾[1].

وفعلاً مات هذا القليل بموت عمر بن سعد، وعاش الحسين عليه السلام وما يزال، إننا نعيش الحسين عليه السلام الآن فكرة وعقيدة، فهو عليه السلام حي ومثل أعلىٰ وضّاء يشعّ بالخلق النبيل والبطولة والرجولة والطهارة، أما ابن سعد فغلب عليه شقاؤه بسوء اختياره، فخرج يقود جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف جندي بعد نزول الحسين عليه السلام، ووصل به الحال أنه بعد أن سقط الإمام الحسين عليه السلام نادىٰ جيشه قائلاً: ويحكم، ماذا تنتظرون؟ أريحوه. فنزلوا إليه واحتزّوا رأسه الشريف.

صفة الصبر ومعناها

تقول الآية الكريمة: ﴿الصّابِرِينَ﴾، والصبر هو كيفية وهيئة نفسية، وهو من أفعال القلب لا من أفعال الجسد، بل إنه من أعلى وأشرف أفعال القلب.

أبعاد الصبر وأقسامه

ثمّ إن الصبر له أبعاد وأقسام، ويقع علىٰ عدّة معانٍ، منها:

الأوّل: الصبر عن المعصية

إن الكثير من الناس يتعرضون للإغراء والوقوع في المعصية علىٰ مدىٰ حياتهم، وبعض هذه الإغراءات عادة تكون مما يثلم المروءة، وبعضها ممّا يثلم الدين، وبعضها ممّا يثلم الكرامة. وهذه الأُمور بأجمعها قليلاً ما تصمد أمامها النفوس؛ إذ لا يصمد أمام الإغراء إلّا من له نفس كبيرة،

---

(١) النساء: ٧٧.

ومن يملك ديناً وخلقاً واستقامة. ومن جملة ما يصدق عليه أنه صبْر أمام الإغراء هو الصبْر عند الخصومة؛ إذ أن هذا الأمر ممّا يبيّن حقائق الناس ومعادنهم؛ فالنبيل يصبر علىٰ خصمه عندما تكون له خصومة معه ولا يشمت به مع أن غيره يلتذ بالشماتة بعدوّه وينعته بأقبح النعوت. أما النبيل ذو النفس الكبيرة فكما قلنا يأبىٰ ذلك أشد الإباء، ومن ذلك ما يروىٰ أن ابن ميّادة دخل علىٰ جعفر بن أبي سليمان ـ من أعمام المنصور ـ فمدحه بأبيات، فأمر له بمئتي ناقة فأخذ يد جعفر فقبّلها وقال: واللّه ما قبَّلت يد قرشي غيرك إلّا يد هشام ابن عبد الملك. فقال له جعفر: تلك يد ما قبّلتَها للّه. فقال ابن ميّادة: ويدك واللّه ما قبّلتها للّه. فقال له جعفر: واللّه لا ضرّك الصدق عندي، ادفعوا له مئة ناقة أُخرىٰ[1].

فهذا ذو نفس كبيرة صمدت أمام القوّة والمال بما اتّصفت به من علوّ ورفعة.

ومن ذلك أيضاً ما يروىٰ من كلمة لعبد الملك بن مروان في حقّ مصعب ابن الزبير ـ مع أنه عدوّه، وكان في حرب معه ـ فقد قيل له: ما تقول في مصعب، فقد شرب الشراب؟ فقال: مصعب يشرب الشراب؟ والله لو علم مصعب أن الماء يُنقص من مروءته ما روي منه[2].

ومن الجميل أن تجد في الحياة من يتصف بالأخلاق الحسنة والنفس العالية المتينة التي لا تنهار في درب العداوة والبغضاء. والأرض فيها القليل من هذه النماذج، لكنها في المقابل مليئة بالنماذج الوسخة القذرة.

---

(١) المستطرف في كلّ فنّ مستظرف ٢: ١٥.

(٢) تاريخ بغداد ١٣: ١٠٧، تاريخ مدينة دمشق ٨٥: ٢٢٧، ٢٢٨.

وهذه قاعدة عامّة؛ فالمألوف عند الناس والمعروف بينهم أن العُملة الجيدة نادرة وصعب الحصول عليها، أما العملة الرديئة فهي مبذولة وطاغية وسط المجتمع وسائدة فيه، وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾[1]، فاللّه تعالىٰ دائماً يعبّر عنهم بأُسلوب القلّة.

وعلىٰ أية حال فإن الصبر عن مغريات الحياة ولذائذها يعدّ من أشد حالات الصبر؛ لأن الحياة مليئة بالإغراءات، بل الحياة عينها هي الإغراء؛ فأينما يذهب الإنسان يلقَ أمامه إغراءً ولذّة تدعوه إلىٰ المعصية، فإذا استطاع السيطرة علىٰ أعصابه وتمكن من قيادة رغباته وغرائزه وتحكّم بشهواته وكبحها وعاش عفيف النفس شريف الأخلاق متعالياً عن دعوات الإغراء فقد بلغ مرتبة التكامل النفسي.

الثاني: الصبر علىٰ الطاعة

إن الكثير من الطاعات بل أغلبها ينطوي علىٰ مشقة وجهد وتعب، لكنها عادة تمرّن الإنسان علىٰ مواجهة الحياة وملاقاتها والتكيّف مع متطلباتها. فالإنسان حينما يصلي أو يصوم أو يحجّ أو يخرج ماعليه من حقوق في أمواله للّه ولعباده الذين افترضها لهم، فإنه إنما يستثمر منظومة الطاقات المودعة عنده والكامنة في دواخله؛ فالصلاة مثلاً هي استثمار منابع الخير في أعماق الإنسان، والصوم هو عبارة عن استثمار الطاقة التي تواجَه بها الشدائد، وإلّا فإن الدين ليس له أي مصلحة في أن يكلّفك بإنفاق أموالك ويكلفك بالصلاة والصوم دون وجود سبب أو مبرّر في غاية المعقولية يبرّر هذا التكليف.

---

(١) سبأ: ١٣.

إذن فالإنسان حينما يؤمر بالإنفاق فإنه في الحقيقة يؤمر باستثمار منابع الخير داخله كما سيمرّ علينا. وكذلك الأمر بالصلاة والصوم؛ حيث إن الهدف منهما تربية الإنسان وتقويمه وإعداده إعداداً خالصاً كي يواجه كل متطلبات الحياة بقوة وصبر؛ لأن الحياة لا يمكن أن يعيش فيها الإنسان الرخو أو الضعيف؛ إذ أنها تنبذه وتسحقه. والحقيقة أن ناموس تنازع البقاء قضىٰ أن يعيش الأقوىٰ.

فالدين إذن يستهدف تربية الإنسان من خلال ترسيخ الخلائق الكريمة والصفات الحسنة القويمة في أعماقه؛ لكي يعدّه لمواجهة الحياة، فيستقبلها بطاقات كبيرة ومقدرة عظيمة.

الثالث: الصبر عند المصيبة

وهو عبارة عن استثمار طاقة الصمود عند الإنسان أمام التحديات. فكما أن في الدنيا إغراءات فكذلك فيها تحديات تتمثل بالمصائب والرزايا التي تقع علىٰ الإنسان الذي يعدّ صابراً حينها فيما لو صمد أمامها بثبات أعصاب وقوة شكيمة. إن الحياة عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من المصائب والنوائب سيّما مع الإنسان المؤمن[1]، فهو نادراً ما يمر عليه يوم دون أن تقع له مصيبة. وهذا ليس تشاؤماً ولا هو دعوة إلىٰ التشاؤم، كما أني لست متشائماً، لكن هذه هي سنة الحياة وحصيلة تجاربها. وعليه فإن علىٰ الإنسان الصمود أمام هذه الرزايا وألّا تهزّه المصائب فتغيّر مواقفه وعقائده؛ لأنه إن فعل ذلك فمعناه أنه قد انهار أمامها وتمزّقت شخصيته ووجوده. وحينئذٍ لن تكون هناك فائدة من وجوده ولن يحقق الغرض

(١) سئل أبو جعفر عليه السلام: يكون المؤمن مبتلى؟ قال: «نعم، ولكن يعلو ولا يعلى». المحاسن ١: ١١٣ / ١٠٧، كشف الخفاء ٢: ٢٩٥ / ٢٦٩٦.

والهدف الذي خلقه اللّه من أجله وأراده له وهو استخلاف الأرض الذي لا يكون إلّا عبر بناء شخصيته بناءً متيناً محكماً يتغلّب بواسطته علىٰ مشاكل الحياة وشظفها.

إن حالة الصمود أمام هذه المشاكل هي فضيلة ينبغي استثمار طاقة الاستعداد عند الإنسان لها، وعدم تركها أو التخلّي عنها، وبالتالي مواجهة تحديات الحياة. وهناك الكثير من المواقف البطولية عند البعض في عالمنا؛ مما يثير الإعجاب، ويبعث علىٰ الشعور بتقديس الفضائل والنبل؛ لأن هذا الإنسان قد صمد فيها أمام تحديات الزمن. أُدخل رجل أعمىٰ علىٰ الوليد بن عبد الملك بن مروان ـ وكان عبسياً قادماً مع وفد من عبس ـ فقال له الوليد: متىٰ ذهب بصرك؟ فقال له: لو تعفيني من الإجابة علىٰ هذا، كان خيراً. فقال الوليد: ولِمَ؟ فقال: لأنك في مجلس أُنسك ولا أُحب أن أُعكّر عليك صفو مجلسك أو أُوذيك بكلامي وأخلق لك جوّاً من الكآبة والأسىٰ. فقال له الوليد بن عبد الملك: إنك إنما زدتي شوقاً لسماعها. فقال: إذن سأحكي لك حكايتي: خرجت مع رفقة مسافرين ومعي مالي وعيالي، ولا أعلم عبسيّاً يزيد ماله على مالي، فعرّسنا في بطن وادٍ، فطرقنا سيل، فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبعير، فشرد البعير وأنا أعلم أنه وسيلتي الوحيدة للنجاة، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير، فسمعت صيحة الصغير، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلى البعير فضرب وجهي برجليه فذهبت عيناي، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل. فقال الوليد: اذهبوا إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه.

ثم قال له: فكيف أنت الآن؟ فقال: كما ترى، والله لا أزداد لله إلّا شكراً؛ لأني لا أستطيع أن أُغيّر من الواقع شيئاً[١].

المبحث الثاني: منشأ الصبر والصدق فيه

فالصبر إذن هو خير وسيلة للإنسان علىٰ اجتياز محنه ونوائبه؛ ولذا فإن القرآن الكريم يقول: ﴿الصّابِرِينَ وَالصّادِقِينَ﴾، أي الصادقين في صبرهم. وهذا هو المقصود بالصدق هنا وليس هو الصدق في اللفظ أو الإخبار، وإنما هو الصدق في الصبر، وهو ما يقابل التكلّف فيه. فكأنما هناك نوعان من الصبر بلحاظ منشئه: صبر يتكلّفه الإنسان، وصبر لا يتكلّفه.

الصبر الذي يتكلّفه الإنسان

وهذا النوع لا يتّصف به الإنسان لأن من شأنه أنه صبور أو أنه يتحمل المكاره، بل لأنه يحاول أن يتجلّد ويظهر نفسه علىٰ أنه كذلك، ورحم اللّه الشريف الرضي حيث يقول:

هيهات لا تتكلفنَّ ليَ الهوىٰ فضح التطبّعُ شيمةَ المطبوعِ[٢]

فالإنسان أحياناً يتكلّف الصبر ليظهر عليه الجَلَد، لكنَّ أحشاءه عبارة عن كتلة ملتهبة من النار؛ وهذا بسبب عدم وصوله إلىٰ مرحلة التسليم للّه، ومنزلة الرضا بقضائه وقدره تسليماً ورضاً مطلقين لا تشوبهما شائبة، ولم يدرك في أعماقه أن اللّه تعالىٰ لا يصنع بعبده إلّا الخير. وهذه العقيدة صعب منالها وهي غير موجودة إلّا عند القلائل من الناس. يروىٰ أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي ـ وهو من الشعراء المعروفين بالصلابة ـ وقف علىٰ ثلاثة من أولاده قد فقدهم في إحدى المعارك، فقال قصيدته:

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ٢: ١٩٣.

(٢) ديوان الشريف الرضي: ٦٥٢.

أمــن المــنون وريـبـه نـتوجّع والدهر ليس بمعتبٍ من يـجزعُ
أودىٰ بــنيّ فأعـقبوني حسـرة عــند الرقــاد وعـبرة لا تـقطع
سبقوا هواي وأعنقوا لهـواهُـمُ وتـخرّموا ولكـل جـنب مـصرعُ
فــالعين بــعدهُمُ كأن جـفونها كحلت بشوكٍ فهي عـورا تـدمعُ
وتــجلّدي للشــامتين أُريــهُمُ أني لريب الدهـر لا أتـضعضعُ

إلىٰ هنا وهو في غاية الصلابة، لكنه ينهار فجأة فيقول:

وإذا المنيّةُ أنشبت أظفارها ألفيت كـلّ تـميمةٍ لا تـنفعُ

ثم سقط متهالكاً على التراب لا يقوىٰ على القيام، ثـم عـمد إلى النـياق وذبح فصائلها أمام أعينها، وذبح كلّ حيوان عنده في الحظيرة[١]، ليخلق مشهداً من الألم، ويتسنّىٰ له أن يوجد من يتألّم معه في ذلك المشهد. فهذا قد تجلّد فترة ثمّ انهار ولم يستطع أن يواصل مشوار الصبر ورحلة التجلّد والصمود أمام المصيبة.

فالقرآن الكريم يشير إلىٰ تجلّد الصادقين في صبرهم، الذين يـتحصنون بقناعتهم ضد التحديات، قناعتهم في أن ما صنعه اللّه هو عين الحكمة، وأن ما جرىٰ ويجري هو عين الحكمة. وهؤلاء هم الذي مدحهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «نحن صبرنا، وشيعتنا أصبر منّا؛ لأنا صبرنا بعلم وصبروا على ما لا يعلمون»[٢]

وفعلاً فهذا هو التسليم المطلق للّه تعالىٰ حيث ينقطع فـيه الإنسـان إليـه انقطاعاً كاملاً.

(١) الكنىٰ والألقاب ١: ٧٦. (٢) تفسير القمي ١: ٣٦٥.

أقسام الانفاق

ثمّ إن الإنفاق تارة يكون بالأموال وتارة يكون بالمعنويات كالإنفاق بالجاه والعلم وغيرها. وسنتناولها بإيجاز فيما سيأتي إن شاء اللّه.

القسم الأوّل: الإنفاق بالأموال وأنواعه

إن الإنفاق بالأموال يمكن أن يتصوّر علىٰ وجهين، أو نوعين:

النوع الأوّل: الإنفاق الواجب

ويكون مختصاً بالأقارب وحدهم[١]. أي أن علىٰ الإنسان أن ينفق علىٰ من يعوله كالأبوين العاجزين اللذين لم يتمكنا من العمل، وكالزوجة والأولاد.

النوع الثاني: الإنفاق المستحبّ

ويكون للأقارب وللأباعد، أي أن على الإنسان من باب صلة الرحم لا الوجوب أن يعين المحتاج من أقربائه وأبناء عشيرته[٢].

القسم الثاني: الإنفاق بالأمور المعنوية وأنواعه

ويندرج تحت هذه القسم عدة عناوين نذكر منها:

النوع الأوّل: الإنفاق بالجاه

والإنفاق بالجاه مساعدة الإخوان باستعمال الجاه عند السلطان. فإن من

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ البقرة: ٢١٥.

وورد في الحديث: «الأقربون أولىٰ بالمعروف». المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٢٨٨، العهود المحمدية: ٥٣٠.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير وأصلك الذي إليه تصير». نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

يملك جاهاً عند الحاكم أو السلطان ويستطيع أن يقضي به حوائج إخوانه فعليه أن يتدخل ويستعمل جاهه لإعانة ذلك المحتاج أو المظلوم، فاللّه سائله يوم القيامة عن جاهه لماذا لم يستعمله في خدمة إخوانه وقضاء حوائجهم.

النوع الثاني: الإنفاق بالعلم

وكذلك فإن اللّه تعالىٰ يحاسب العالم يوم القيامة فيما إذا لم ينفق علمه علىٰ مستحقّيه؛ لأنه تعالىٰ لم يعطِ الإنسان هذا العلم حتىٰ يكنزه في صدره ويمنعه من الناس الذين يغرقون في الضلالة والجهالة[١]. فالواجب علىٰ العالم ألّا يبخل بعلمه علىٰ المحتاج إليه. وكذلك يجب عليه ألّا يسخره في خدمة الجبابرة والظالمين، بعث المنصور خلف أحد العلماء، فأبى أن يأتيه، وقال لرسوله: ليس لي عنده حاجة، فإن كان له عندي حاجة فليأتني هو. فلما عاد جلوازه بجوابه إليه انتفض المنصور غاضباً، ثم جاءه مع مجموعة من جلاوزته، فقال له العالم: إن من إكرام الله إكرام صاحب العلم، فكيف تريد مني أن أتسكّع على بابك؟ فاحترم المنصور رأيه وقال له: تواضعنا لعلمك فاستفدنا منه، وتواضع لنا علم غيرك فلم نستفد منه.

فهو يقول له: كيف تريد مني أن أتسكّع علىٰ بابك؟ إن العلم إذا تسكّع علىٰ أبواب الظلمة فقد قدسيته[٢]. فالمفروض أن هناك ضريبة علىٰ العلم

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «زكاة العلم نشره». غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٢٤.

وقال عليه السلام: «ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا». نهج البلاغة / الحكمة: ٤٧٨.

وقال الباقر عليه السلام: «زكاة العلم أن تعلّمه عباد الله». الكافي ١: ٤١ / ٣.

(٢) في المأثور: «إذا رأيتم العلماء علىٰ أبواب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيتم

يدفعها صاحبه، وهي ضريبة معنوية يقدّمها حامل العلم للطبقات التي تحتاج إلىٰ علمه وإرشاده وتوجيهه. وسيرة أيّمتنا الكرام البررة غنية بهذا المعنىٰ.

في الأشياء التي تلج في الأرض

من بعد هذه المقدمة نعود إلى الآية الكريمة التي بُدئت بقوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾، لنشرح مفرداتها؛ فالولوج هو الدخول، فما هي الأشياء التي يمكن أن يُتصوّر أنها تدخل في الأرض؟ هناك عدة أشياء تذكر في هذا الباب هي:

الشيء الأول: الماء

فعلى الماء يتوقّف نمو الإنسان وحياته ورفاهيته وزراعته، يقول تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[1].

وقد جعل اللّه تعالى في هذا السائل كلّ مقوّمات حياة الإنسان ومعيشته على الأرض، ولهذا السبب سلب ملكيّته، فليس لأحد أن يملك الماء إلّا في حالات خاصّة، كأن يضعه في إناء في بيته أو في مكان عمله أو غير ذلك، أما ماء البحار والأنهار والبحيرات والينابيع فلا يُملَك، ويُعبَّر عنه في الاصطلاح الفقهي أنه من المشتركات؛ لأن حياة الإنسان تتوقّف عليه.

وإذا كنا لا نشعر بقيمة الماء عندنا فلأنه متوفّر بكثرة، فخمسة أسباع

الملوك على أبواب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء». الكنى والألقاب ١: ٢٧٢.

(١) الزمر: ٢١.

الأرض ماء. ومن الطبيعي أن وفرة السلعة تؤدي إلى رخص قيمتها، وإلّا فلا شيء يمكن أن يكون أغلى من الماء عند ندرته.

فالله تعالى يقول: نحن نسلك هذا السائل الذي تتوقّف عليه حياتكم في الأرض، ونجعله يلج فيها ويخرج منها لتوفير النعم لكم. فهو يريد أن يقرّرنا بنعمه، فلو أراد أن يحرم الإنسان من هذه النعمة فإن الحياة سوف تنتهي. وهو تعالىٰ لا يريد أن يمنّ على العباد بهذا التذكير، وإنما يريد أن يربّيهم ويؤدّبهم، ويجعلهم في شكر دائم لنعمه.

الشيء الثاني: البذرة

فهذه البذرة عندما تُلقى في التراب فإن اللّه تعالى يعطي زارعها عليها أرباحاً مضاعفة، ولكنه فرض عليه مقابل ذلك نسبة بسيطة من هذه الأرباح، وهي الزكاة. فهذه الحبّة لا يمكن أن تعطي هذه النسبة من الربح لولا أن اللّه تعالى يسّر لها أن تكون كذلك، فلماذا لا يعطي الإنسان الزكاة في مقابل هذا؟ وليت الإنسان وقف عند هذا الحدّ في منع الزكاة، فلقد تعدّى ذلك إلى سلب لقمة الفقير من فمه ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾[١]. فهذا الإنسان يُخرِجُ نفسه من دائرة المسؤولية فيقول: ما أنا والفقير، إن اللّه هو الذي أوجده وهو يتولّى معيشته.

نعم، إن اللّه أوجده وهيَّأ له الرزق، ولكنّ أخاه الإنسان لا يسمح لرزقه أن يصل إليه، ويتّبع في ذلك شتّى الطرق والوسائل، فإما أنه لا يسمح له بفرص العمل المتكافئة، أو أنه يعتدي عليه، أو يجعله ضمن نظام يسلبه،

---

(١) يس: ٤٧.

فيحول بينه وبين الوصول إلى الرغيف. وبالتالي فإن هذا الإنسان يتعرّض إلى عقاب اللّه تعالى. يقول أمير المـؤمنين عليه السلام: «والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي ولنعيم يفنى ولذّة لا تبقى؟ نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين»[1].

ولكن الإنسان يحرم الإنسان حرماناً لا حدود له بمختلف الوسائل وشتّى العلل، فيحرم هذا لأنه يختلف معه في رأي، ويحرم ذاك لأنـه مـن قـوم أعداء له، فيخلق المبررات لينتزع اللقمة من فم الجائع، ثم بعد ذلك كله ينتظر أن يرحمه اللّه. وهذا لا يكون أبداً؛ لأن اللّه تعالى يقول: «إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي»[2].

فهذه الحبّة إذن يضعها الإنسان في التراب لتعطي هذا الربح الضخم، وفي مقابل ذلك افترضت الشريعة عليه نسبة من الحقّ يُدفع للهيئة الاجتماعية، فصار الإنسان يلتوي في دفع هذا الحـقّ ويـخلق المـبررات مـن أجـل الامتناع عن أدائه.

الشيء الثالث: الإنسان

فمن الأشياء التي تلج في الأرض أيضاً الإنسان؛ حيث إنه سيدفن فيها بعد خروج روحه إلى بارئها.

شبهة الآكل والمأكول

وهناك نقطة تثار في هذا المجال وهي أن الإنسان عندما يُلقى في التراب، ويتحلّل إلى عناصره الأوّليّة، ويمتصّه النبات، ثم تتوزّع ذرّاته علىٰ آكليه،

(١) نهج البلاغة / الكلام ٢٢٤.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٨، كنز العمال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.

فلا يكاد يُعرف منه شيء، فكيف يجمع الله تعالى بعد ذلك هذه الأشتات ويبعثها؟ فيقول تعالىٰ في معرض الإجابة علىٰ هذا التساؤل: إن اللّه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ من ذرّات هذا الإنسان، ويقول: ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1]، فكلّ ذرّة من ذرّات هذا الإنسان تحت علمه تعالى وقدرته.

وإذا تصورنا أن ذلك مشكل بالنسبة لنا فهو غير مشكل عند اللّه : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[2]. ولكن المؤلم في الموضوع هو الحقيقة المرّة من كون الإنسان سينتهي إلى التراب، فليس من شيء يهزّ مشاعر الإنسان ويأخذ منه ذلك المأخذ الذي يثقل كاهله كوقوفه على قبر عزيز له قد دسّه في التراب، ثم يعود إليه بعد يومين فيجده أشلاء مقطّعة، ورائحة منتنة، بل غريبة في نتنها، فيتساءل: هل هذه هي نتيجة الإنسان؟ يقول أبو نؤاس:

يا بني النقص والغِيَرْ وبني الضعف والخوَرْ
وبني البُعدِ بالطبا عِ على القربِ بالصورْ
أين من كان قبلكم من ذوي البأسِ والخطرْ
سبقونا إلى الرَّحيـ ـلِ وإنا لَبالأثرْ
مَن مضى عبرةٌ لنا وغداً نحن معتبَرْ
فكأني بكم غداً في ثيابٍ من المدرْ
قد نُقلتم من القصو رِ إلى ظلمةِ الحفرْ[3]

يقول أحد الأُدباء: لو سُئلت الدنيا أن تصف نفسها لَما وصفتها بأروع مما

(١) سبأ: ٣. (٢) الأنبياء: ١٠٤.
(٣) ديوان أبي نؤاس: ٣٤٧.

وصفها به أبو نؤاس حيث قال:

وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هـالكٍ وذو نسبٍ فيالهـالكين عـريقِ
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّـفت له عن عدوٍّ في ثياب صـديقِ[1]

وهذا هو واقع الدنيا. لكن هل من المعقول أن اللّه تعالى يضع هذا الإنسان في التراب لتكون نهايته هكذا؟ هذا الإنسان المليء بالطاقات..المخلوق في أحسن تقويم، هل من المعقول أن تكون نهايته عند هـذا الحـد مـن مسيرته؟

وهـــامةٌ هـــي مـــيدانٌ لمـعرفةٍ أضـحى بـها للـبلى والدودِ مـيدانُ
لا السامرون ولا الوادي ومن عـمروا كأنـما الأرضُ مـا كـانت ولا كـانوا
بـدءُ النـهاية فـي يـوم البـداية للـ ـأعمارِ فـالحلّ بـالترحـالِ إيـذانُ
أنـحن فـي هـذه الدنـيا حـقائقُ أم ضربٌ من الوهمِ عـاشت فـيه أذهـانُ

فالآية الكريمة إذن تبيّن لنا أن اللّه سوف يجمع ذرّات الإنسـان ويـعيده وتهوّن هذا الأمر، فما نتصوره عظيماً عندنا في ذلك فهو عند اللّه هيّن.

المبحث الثاني: تقديم مايلج في الأرض على ما ينزل من السماء

وهنا يتساءل المفسّرون عن سبب ذكر الآية لما يـلج فـي الأرض قـبل ذكرها لما ينزل من السماء، ثم يجيبون عن ذلك بأن الحـبة تُـبذر فـي التراب أولاً ثم ينزل عليها المطر. أمـا بـاقي المـعادلات البـالغة الدقـة، والفعاليات الأُخرى التي تجري داخل التربة فيتكفل بها اللّه تعالىٰ ، وأما الإنسان فينتهي دوره ومهمته عند بذر الحبّة في الأرض. وهذه المعادلات هي المسؤولة عن هذا التنوّع المذهل في أصناف الخضروات والفـواكـه والثمار، ولولا هذه المعادلات لكان عندنا صنف واحد من النبات.

---

(١) ديوان أبي نؤاس: ٤٦٥.

رجـع

فاللّه تعالى يقول للإنسان: لا تحرم أخاك الإنسان من قوته لمـجرّد أنـه يختلف معك في الرأي، ولذلك فإن فقهاءنا عندما يتناولون قوله تعالىٰ : ﴿لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[١] يـخلصون إلى القـول: إن هـؤلاء الكفار يجب ألّا يُحرموا من الصدقات وأعمال البـر، وكـان جـملة مـن الصحابة في المدينة المنوّرة يوزّعون أعمال البرّ والصدقات والمساعدات على جيرانهم من فقراء اليهود.

فالإسلام ليس فيه تشنّج إزاء الأديان الأُخرى بل إنه عـلىٰ العكس مـن تلك الأديان التي يعتبر تاريخها مروعاً معنا، وإلى الآن يُذبح المسـلمون في أكثر من ساحة ذبحَ الكباش على أيدي هؤلاء، لا لسبب سوى أنهم يحملون اسم الإسلام الخالي أحياناً من مضمون الإسلام. ارجع مثلاً إلى التوراة تجدها تأمر اليـهود بـالقتل والحـرق والنـهب[٢] وقـتل الأطـفال واغتصاب النساء: «اذبحوهن ودعوا الأبكار للَذّاتكم فقط».

أما نحن فليس في تاريخنا وديننا من الناحية النظرية مثل هذا؛ فالإنسان عندنا أخو الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى ...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣]. وهذه هي المادّة القانونيّة الدوليّة، فالإسلام بهذا يعدّ مـن أول منابع القانون الدولي.

المبحث الثالث: في الأشياء التي تخرج من الأرض

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، فما هي هذه الأشياء

(١) الممتحنة: ٨. (٢) انظر العهد القديم، سفر ناحوم /الآية: ٩.
(٣) الحجرات: ١٣.

التي يمكن أن يُتصوّر أنها تخرج من الأرض؟ هناك عدّة أشياء منها:

الشيء الأول: النبات

فالله تعالى يقول: إن هذا النبات قد هيَّأناه لسعادة الإنسان؛ ففي قطعة الأرض الصغيرة التي تخضع لعوامل متشابهة من الجوّ والماء والظروف الموحّدة يحصل الإنسان على أنواع مختلفة من النباتات، وهذا من الأدلّة الجليّة على عظمة وقدرة الخالق. فهو تعالى يلفت نظرنا إلى هذه النبتة الخارجة من الأرض، ويدلّنا على ما أعانها من معادلات أخرجتها إلى الوجود.

الشيء الثاني: المعادن والأحجار

ومما يخرج من الأرض أيضاً أنواع المعادن والأحجار الكريمة. وقد فرض الله تعالى فيها ضريبة للمجتمع أيضاً؛ لأن الإنسان لم يبذل فيها جهداً، فالأرض تعمل والإنسان نائم، كما يقول المذهب التجاري الاقتصادي.

الشيء الثالث: القوارض

ومما يخرج من الأرض أنواع كثيرة من الحيوانات التي نتصوّر نحن أنها مؤذية، ولكن العلم تنبّه أخيراً إلى أن التوازن البيئي الذي يجب أن يبقى محفوظاً منوطٌ بها، فلو قام الإنسان بقتل القوارض مثلاً فإنه سيضرّ بالتوازن البيئي. وهذا التوازن مطلوب حتى في الإنسان، فهناك من الناس من هم أشبه بالقوأرض ، فيسلط اللّه عليهم القوارض من الظلمة والسفّاكين. وكثيراً ما نشكو من كون صنف من الناس قد سُلّط عليهم ظالم، ولكن هؤلاء ربما كانوا ظالمين لأنفسهم أيضاً، فهناك ألوان من الظلم قد لا نشعر بها.

مظاهر ظلم الإنسان أخاه الإنسان

ولو تأملنا الآن في الحضارات التي نعتبرها حضارات متقدّمة، كالحضارة الأوروبية مثلاً، لوجدنا أنها تعامل الملوَّنين معاملة خاصّة تختلف عن غيرهم، فما هو ذنب هؤلاء الذين خرجوا من بطون اُمّهاتهم هكذا؟ بل إنهم وصلوا في بعض الميادين إلى أكثر من هذا، فخلعوا الألقاب على طبقة خاصّة وسموها «الحيوان الأشقر»، أما الباقون ففي نظرهم أنهم خلقوا مستهلِكين، وهم أشبه بالحيوانات التى خلقت للركوب.

فهل تعلم مثلاً أن غاندي هذا الرجل القمّة، يعدّ من طبقة المنبوذين التي تُسمى «طبقة الأنجاس»؟ فالحضارة الهندية ـ وهي من الحضارات المهمّة ـ تعتبر أن قسماً من الناس مخلوقون من رأس الإله وهم الفلاسفة والمفكّرون، وقسماً منهم مخلوقون من صدره، وقسماً منهم مخلوقون من بطنه، وقسماً منهم مخلوقون من رجليه، وقسماً منهم منبوذون أنجاس، وغاندي هذا هو من هؤلاء المنبوذين. فانظر إلى هذا الرجل القمّة الذي أنقذ بلده كيف يُعدّ من المنبوذين، وتأمل ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

ومن ظلم الإنسان للإنسان ظلم الرجل للمرأة، ففي بعض الحضارات إلى الآن تُحرم المرأة من أبسط الحقوق المشروعة. أما هذه الحضارات التي تدّعي أنها أعطت المرأة حقوقها ومكانتها، فهي في واقعها حوّلت المرأة إلى كيان ضائع، وإلى سلعة تباع وتشترى. ولو نظرنا بعين الحق لوجدنا أنه ليس هناك من يعطيها مكانة مثل الإسلام؛ لأنه راعى فطرتها، فأعطاها الأحكام التي تناسبها، ولم يظلمها في شيء.

فمما يخرج من الأرض إذن المعادن والنباتات والحيوانات، وإن رأيت أن

الحيوانات يأكل بعضها البعض الآخر فهذا لإحداث التوازن الضروري لاستمرار البيئة.

في الأشياء التي تنزل من السماء

ثم انتقلت الآية الكريمة إلى مقطع آخر فقالت: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنْ السَّمَاءِ﴾، وهناك جملة أشياء نزلت من السماء منها:

الشيء الأول: القرآن الكريم

إن أقدس ما نزل من السماء هو القرآن الكريم، وهو الذي يستأثر باهتمام الإنسان المسلم. وقد كتب اللّه تعالى القرآن في اللوح المحفوظ، ثم بدأ يُنزّل علينا آياته آية بعد آية، وسورة بعد سورة، بمقدار الحاجة، إلى أن اكتمل نزوله في ثلاثة وعشرين عاماً، وطلب منا أن نتدبّر هذه الآيات ونوظّفها لحاجة البشر؛ لأن اللّه تعالى أنزل القرآن هدىً ورحمة للعالمين، ولم ينزّله ليتلاعب به المتلاعبون.

من مظاهر ظلم الإنسان لكتاب الله تعالى

لقد رأيت تعليقاً لأحد العلماء من بعض البلدان الإسلامية - ولا أُحب أن أذكر اسمه هنا - على أبيات عمرو بن العاص التي بعثها إلى معاوية، والتي يقول فيها:

وإن كان بينكما نسبةٌ   فأين الحسامُ من المنجلِ
وأين الثريّا وأين الثرى   وأين معاوية من علي[1]

(١) لطائف أخبار الدول: ٤١ (الطبعة القديمة)، شرح نهج البلاغة ١٠: ٥٧، قال: رأيتها بخط أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي.

فيقول في تعليقه: رحم اللّه عمرو بن العاص، أدرك خطأ اجتهاده فعدَّله. فيا للمهزلة! ويا لمصيبة هذا الاجتهاد الذي أصبح يُعطى كيفما يشاء له هؤلاء الوعّاظ ولمن يشاؤون! إن اللّه تعالى وضع لنا أُموراً حدّية، وأراد صلاح الأرض، فكيف يمكن أن ننعت الفساد بنعت الصلاح؟ فإننا بدلاً من أن نقول: إن عمرو بن العاص كان طامعاً في شيء، فلما أُخذ منه هذا الشيء ثار على من أخذه منه، ننعته بالاجتهاد والصلاح!

وكذلك الحال حينما يمر الباحث ببعض كتب تفسير القرآن الكريم فإنه سيدرك حينها مدى الظلم الذي لحق بهذا الكتاب الكريم، وقد ورد في الحديث أن من جملة من يشكو إلى اللّه يوم القيامة القرآن المهجور[1]. ونحن قد هجرنا القرآن بعدم وضعه في مساره الصحيح، فعندما نفسّره بعيداً عما أُريد له فإننا نكون قد هجرناه، وعندما نرى أن معنى الآية لا يخدمنا ولا يسوغ لنا فنجرّها إلى ما يخدمنا فإننا نكون قد هجرناه. فالله تعالى عندما أنزل القرآن من السماء أراد له أن يأخذ مساره الصحيح في المجتمع وبين الناس.

الشيء الثاني: المطر

ومما ينزل من السماء أيضاً المطر، واللّه تعالى يوجّه كلّ قطرة من المطر إلى مظانّ النفع والضرّ، ويرسله ضمن موازين دقيقة؛ للري والشرب والزراعة.

الشيء الثالث: الرزق

ومما ينزل من السماء تقدير الرزق. وهذه النظرية تستحقّ الوقوف عندها

---

(١) قال الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاثة تشكو إلى الله العزيز الجليل: مسجد خراب لا يصلّي فيه أهله، وعالم بين جهّال، ومصحف معلّق قد وقع عليه الغبار لايُقرأ فيه». عدة الداعي: ٢٧٢.

قليلاً، يقول تعالىٰ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]، ونحن نعرف أن رزقنا في الأرض لا في السماء، وكلّ ما نمارسه من أعمال الزراعة والتجارة والصيد وغيرها مما نحصل به على رزقنا ونأكل منه هو في الأرض، فما دخل السماء بهذا الموضوع؟

إن علاقة السماء بموضوع الرزق تتمحور حول فكرة أن المصادر الأساسية للرزق تأتي من السماء لتلتقي بالأرض، فتشترك الأرض والسماء في إيجاد ما نحتاجه. وإلّا فما قيمة الأرض كلّها لولا شعاع الشمس؟ وما قيمة النبات لولا شعاع الشمس؟ إن النبات مثلاً يحتاج إلى الكلوروفيل، والكلوروفيل يحتاج إلى أشعّة الشمس للبناء الضوئي، وأشعّة الشمس تأتينا من السماء. وفي الوقت نفسه تطهّر الشمس الأرض من بعض الكائنات المضرّة، وتعطي الطاقة للتربة، والمطر ينزل من السماء بقدر معلوم.

فالرزق إذن ينزل من السماء لكلّ نسمة تخلق في الأرض، ولا علاقة لتنظيماتنا المحلية فيما يتعلّق بالكثافة السكّانية وغيرها بما تخطّطه السماء؛ لأن السماء خطّطت لكفاية الناس، ولا يمكن أن يخلق اللّه تعالى كائناً ما لم يهيّئ له طعامه. يروى أن النبي إبراهيم عليه السلام رأى حوتاً ضخماً، فأراد أن يطعمه، فجمع له أقوات البلد كلّها، ووضعها على الساحل، فأتى ذلك الحوت ومعه مجموعة من الحيتان فالتهمت ما جمعه عليه السلام، وبقيت تموج باحثة عن المزيد من القوت، فرفع نبي الله إبراهيم عليه السلام رأسه إلى السماء وقال: «**سبحان مطعم هذه الكائنات**».

إن اللّه تعالى خلق لكلّ ما في البرّ والبحر قوته، أما ما يُطرح من سبب

(١) الذاريات: ٢٢.

للمشاكل الاقتصاديّة في العالم وهو أنه كثرة الناس وقلة الواردات، فهو غير صحيح؛ لأن اللّه تعالى خلق كل شيء بقدر، وما في الأرض من موارد تكفي أهلها وزيادة، لكن الذي يحصل هو أن الناس يسطو بعضهم على بعض. رأى أمير المؤمنين عليه السلام يوماً امرأة توقد تحت قدر ليس فيها طعام تريد بذلك أن تشغل أبناءها الجائعين، فجاء بالطعام وأخذ يوقد تحت القدر بنفسه، فكانت النار تلفح وجهه، فراح يقول: «**ويح ابن أبي طالب، ماذا يقول غداً إذا لفحت النار الكبرى وجهه؟**».

فالناس كلهم راعٍ وكلهم مسؤول عن رعيته، وإذا استرعى اللّه عبداً رعية حمَّله مسؤولية تلك الرعية[1]، أمّا إذا مدّ يده وأكل قوت من يرعاه فهل يمكن أن نتصور أن اللّه سيرحمه؟

لقد كان في تاريخنا نماذج مشرِّفة في هذا الباب؛ فقد كان عدي بن حاتم الطائي يخرج من بيته يحمل خبزاً بيده وقد فتَّه، فيقال له: إلى أين؟ فيقول: لجيراني من قُرى النمل. فيعطي النمل طعامه ويرجع، ولا يتركها جياعاً وكان يقول: هؤلاء جيراني[2].

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته؛ فالإمام راعٍ وهو المسؤول عن رعيّته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيّتها، والخادم في مال سيّده راع وهو مسؤول عن رعيّته، والرجل في مال أبيه راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته، وكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته». عوالي اللآلي ١: ١٢٩ / ٣، مسند أحمد ٢: ٥، ٥٤، ١١١، ١٢١، صحيح البخاري ١: ٢١٥، ٢: ٧٩، وغيرها.

(٢) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.

الطلاق وأقسامه وآثاره

إن موضوع الطلاق وإن كان الكثير من الناس يستهين به، لكنه في نظر الشارع المقدّس من الأُمور الخطرة جدّاً؛ فهو عامل كبير في هدم المجتمعات، يرویٰ عن النبي ﷺ أنه قال: «**أوصاني جبرئيل عليه السلام بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلّا من فاحشة مبيّنة**»[1].

ورباط المرأة في جوّ الأُسرة هو الذي يسيطر علىٰ الحياة، فالمرأة صانعة الأطفال ومربّيتهم، وهي التي تحوّل جو البيت إلىٰ جحيم أو إلىٰ نعيم؛ فهي تتحكّم بالأُسرة وتربية الأطفال، وإسعاد الزوج وإضفاء لمسات رائعة من الحبّ والحنان علىٰ البيت، وما إلى ذلك. فهي ليست طرفاً في تبادل اللذّة بينها وبين الزوج فقط، وإنما هي طرف مساهم في بناء المجتمع، وعاطفة وكرامة وأُسرة. بلغ النبي ﷺ يوماً أن أبا أيوب أراد أن يطلّق زوجته أُم أيوب، فقال ﷺ له: «**يا أبا أيوب، إن طلاق أُم أيّوب لَحَوب**»[2]. والحَوب: الخطأ والإثم[3].

فالطلاق وإن كان مباحاً لكنّه يشرّع عند الضرورة، وهي فيما إذا تعذّرت العشرة مع الزوجة، وإلّا فإنه لا يشرع لمجرّد أن الرجل مثلاً تعرّضت كرامته للخدش قليلاً، أو أنه سمع من زوجته كلمة نابية. فهنا يتزاحم المهمّ والأهمّ؛ فصحيح أن الرجل يريد الحفاظ علىٰ كرامته، لكن ينبغي

---

(١) الكافي ٥: ٥١٢ / ٦، الفقيه ٣: ٤٤٠ / ٤٥٢٥.

(٢) الكافي ٦: ٥٥ / ٥، المعجم الكبير ١٢: ١٥١.

(٣) العين ٣: ٣١٠ ـ حوب، النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ٤٣٨ ـ حوب، لسان العرب ١: ٣٣٨ ـ حوب.

كذلك أن يحافظ علىٰ كرامتها هي، فيخلق جوّاً من التفاهم؛ ليحصل بينهما الاحترام المتبادل، فإن الاحترام المتبادل إن حصل فلن يحدث في البيت شيء من الاختلال. وما نراه من الاختلال داخل الكثير من الأُسر سببه فقدان الاحترام المتبادل خصوصاً في أجوائنا التي تصوّر المرأة على أنها كيان منحطّ عن كيان الرجل، حتى إن العرب مثلاً كانوا يخرجونها من البيت في حال حدوث الدورة الشهريّة عندها، يقول أحد شعرائهم:

إذا المرئيّ شَبَّ لهُ بَناتٌ عَصَبْنَ برأسِهِ إبَةً وَعَاراً[1]

فالمرأة عندما تشعر بلون من الاحتقار يحدث عندها شيء من رد الفعل، فتحاول ردّ اعتبارها وإثبات ذاتها، فيتحوّل سلوكها إلىٰ سلوك مضطرب، وكثيراً ما يحصل هذا في مجتمعاتنا. مرّ رسول الله ﷺ برجل فقال: «**ما فعلت امرأتك؟**». قال: طلقتها يا رسول الله. قال ﷺ: «**من غير سوء؟**». قال: من غير سوء. ثم تزوّج ثانية، فمرّ به النبي ﷺ فقال: «**تزوجت؟**». قال: نعم. ثم قال ﷺ له بعد ذلك: «**ما فعلت امرأتك؟**». قال: طلقتها. قال ﷺ: «**من غير سوء؟**». قال: من غير سوء. ثم تزوج ثالثة، فمرّ به النبي ﷺ فقال له: «**تزوّجت؟**». فقال: نعم. ثم قال ﷺ له بعد ذلك: «**ما فعلت امرأتك؟**». قال: طلقتها. فقال ﷺ: «**من غير سوء؟**». قال: من غير سوء. فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزّ وجلّ يبغض كلّ ذوّاق من الرجال، وكلّ ذوّاقة من النساء**»[2].

---

(١) العين ٨: ٤٢٠ ـ أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ ـ وأب، والمرئي في الأصل: امرئي، نسبة إلىٰ امرئ القيس، ثمّ قالوا مرئي، فكأنهم جعلوها منسوبة إلىٰ (مرء) مطلقاً. والإبة: الخزي.

(٢) الكافي ٦: ٥٤ / ١، عوالي اللآلي ٣: ٣٧٢. ٦. وقال ﷺ: «لا تطلّقوا النساء إلّا من ريبة؛ فإن الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات». عوالي اللآلي ٢: ١٣٩ / ٣٨٩، المعجم الأوسط ٨: ٢٤، الجامع الصغير ١: ٢٧٩ / ١٨٢٠.

إن اللّه مكّننا من أن نستبيح من المرأة ما أحلّ لنا، وأن نرىٰ منها وترىٰ منّا ما لا يراه أحد، فيفترض أن يكون التكريم والعواطف متبادلة بينهما. أما الطلاق فهو أمر يؤثر علىٰ النفوس والمشاعر، وإذا وقع فإنه ستكون له عواقب سوداء؛ ولذلك تجد أن الروايات تشدّد علىٰ ترك الطلاق تشديداً كبيراً، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**تزوّجوا ولا تطلّقوا؛ فإن الطلاق يهتزّ له العرش**»[1]. فالطلاق أمر في غاية الصعوبة، وقد شدّد الإسلام علىٰ عدمه، وجعل له مقدمات مشدّدة للابتعاد عنه من قبيل إرسال حكم من أهله وحكم من أهلها[2]، خصوصاً فيما إذا كانت هناك علاقة وثيقة وميثاق غليظ بينهما، وهو الطفل الذي إذا وقع الطلاق حُكم عليه بالانحراف والتحوّل إلىٰ مشروع جريمة.

وهناك معالجات كثيرة وضعها الإسلام للإصلاح بدلاً عن الطلاق، كالمفارقة بالمضجع، والإعراض، والتأديب الخفيف[3]، فإن لم تنفع هذه الوسائل كلها، وأصبح الطلاق أمراً ضروريّاً، فعند ذاك يصبح ممّا لا بدّ منه. فهو أشبه بالعمليّة الجراحيّة التي يلجأ إليها الإنسان عند الضرورة القصوىٰ.

ذيول الطلاق والمشاكل المترتّبة عليه

وهذه الآية الكريمة جاءت لمعالجة أحد ذيول الطلاق، فقالت: ﴿**أَسْكِنُوهُنَّ**

(١) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ ـ ٩ / ٢٧٨٨٠.

(٢) قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ النساء: ٣٥.

(٣) قال تعالىٰ: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾ النساء: ٣٤.

﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾، فالسكن من الحاجات الأساسية للإنسان، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش ويتحرّك بحرية إلّا إذا كان له سكن. وقد ضمن اللّه تعالىٰ هذه الحاجة في الجنة إشعاراً لنا بأنه من الحاجات الضرورية، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾[١]؛ ولذلك فإنه تعالىٰ يقول لموسىٰ عليه السلام: ﴿أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾[٢]. فالمسكن يحفظ للإنسان خصوصياته وممتلكاته، ويكفّ عنه نظر المتطفّلين.

وإنما سُمي السكن بذلك؛ لأنه يوفّر للإنسان الطُمأنينة وسكون النفس؛ ولذا نجد أن الإسلام قد وضع أحكاماً كثيرة للسكن، كعدم الدخول إلى دار إلّا بإذن صاحبها[٣]، وغير ذلك من أحكام الجوار.

المطلّقة وموضوع السكن في الفقه الإسلامي

ولما كان السكن بهذه الأهمية، فإن موضوع المرأة المطلّقة يحظىٰ بمساحة كبيرة في الفقه الإسلامي، فالمرأة عندما تطلّق تخرج من بيت الزوج، ولا بدّ لها حينئذٍ من سكن تأوي إليه.

---

(١) طه: ١١٨ - ١١٩، والاستشهاد هنا باللازم؛ فهذا الذي ذكرته الآيتان الكريمتان لا يكون إلّا مع وجود السكن، وإلّا فإن الإنسان لا يهنأ بذلك كله ما لم يكن له سكن يؤويه، وكذلك فإن الله تعالى لا يمكن أن يوفّر للإنسان ذلك قبل توفير السكن.

(٢) يونس: ٨٧.

(٣) قال الله تعالىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ النور: ٢٧ - ٢٨.

أقسام المطلّقات

وهذا الموضوع يحدّده نوع الطلاق الواقع على المرأة؛ إذ أن لكل نوع من أنواع الطلاق أحكاماً مترتّبة عليه، يحدّدها المشرّع الإسلامي المقدّس:

القسم الأول: المطلّقة الرجعية

وهي المطلّقة التي منحها الشارع المقدّس حق السكن والنفقة ما دامت في العدّة.

القسم الثاني: المطلّقة البائنة

وهي المطلّقة التي تبين من زوجها فلا يجوز له الزواج منها ثانية. ويختلف فقهاء المسلمين في أمرها على عدّة آراء، وحسب وضعها حال الطلاق من كونها حاملاً مثلاً أم لا:

أولاً: المرأة غير الحامل

وللفقهاء فيها إزاء نفقتها وسكناها ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أن لها حقّ السكن والنفقة

وهذا أيضاً رأي جماعة من الفقهاء والصحابة، ومنهم عمر بن الخطاب، وعبد اللّه بن مسعود وجماعة[1].

الرأي الثاني: أنها لا تستحقّ السكن والنفقة

وهذا الرأي يتبنّاه معظم الفقهاء تقريباً[2]، ويستدلّون بحادثة وقعت لفاطمة بنت قيس المخزومي، وكانت قد دخلت على النبيﷺ فأخبرته

---

(١) الأُم ٧: ١٦٧، وانظر المجموع شرح المهذّب ١٨: ١٦٦.

(٢) انظر: الخلاف ٥: ٦٩ /المسألة: ٢٢، شرائع الإسلام ٣: ٦٠٦: واشترط في الصفحة نفسها أيضاً ذلك بألّا تكون حاملاً.

أنها مطلّقة بائنة، وقد منع عنها أهل زوجها النفقة والسكن. فأسكنها النبيﷺ عند ابن أُم مكتوم الأعمىٰ، وبقيت حتىٰ انتهت عدّتها فزوَّجها من أُسامة بن زيد[1]، وكان من الموالي وهي من الأشراف، وغرضهﷺ من ذلك كسر نطاق العصبية[2].

الرأي الثالث: أنها تستحقّ السكن دون النفقة

وهناك رأي ثالث يفصِّل في المسألة؛ فيعطي المطلقة حقّ السكنىٰ دون حقّ الكسوة والنفقة[3]. وهو رأي مبتنٍ على كون السكن أمراً ضرورياً أكثر من النفقة، وأهمّ منها؛ فالنفقة يمكن تجاوزها أما السكنىٰ فلا.

ثانياً: المرأة الحامل

هذا في المرأة غير الحامل، أما في الحامل فتصبح المسؤولية مزدوجة؛ حيث إن الأمر سيتعلّق حينئذٍ بالمرأة والجنين، فلابدّ لها من السكنىٰ والنفقة معاً؛ لأن الأمر يكون حينها رعاية لها ولجنينها الذي هو نواة الإنسان، والذي يعيد الثقة بالإنسانية كلها. وكان النبي ﷺ إذا أُتي بطفل حديث الولادة يقول: «**هذا حديث عهد بربّه**». فالطفل يمثّل براءة الإنسانية، وهو صفحة بيضاء طاهرة. يقول تعالىٰ: ﴿**الْـمَالُ وَالْـبَنُونَ زِينَةُ الْـحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[4].

---

(١) نصب الراية ٣: ٥٦٧.

(٢) فإسكان الرسولﷺ لها دليلُ عدم وجوبه علىٰ الزوج.

(٣) مواهب الجليل ٥: ٢٧٠، المحلّى ١٠: ٢٨٥، وحكم به في البحر الرائق ٤: ٢٥٨ على النصراني إذا طلّق النصرانيّة، وكذلك حكم به ابن عابدين في (تنوير الأبصار) فيما نصّ عليها، وأيده الشارح، انظر الدر المختار شرح تنوير الأبصار ٣: ٤٩٦.

(٤) الكهف: ٤٦.

فهذا الطفل الذي سيقع ضحيّة الطلاق لا يعلم إلّا اللّه تعالى ماذا سيكون شأنه في المستقبل إذا كبر؛ فهل سيكون صالحاً، أم أنه ستتلاقفه مافيات المخدّرات والانحراف؟ اللّه تعالى أعلم. فهناك مسؤولية كبيرة تقع علىٰ عاتق الآباء والمدرسة في حفظ الجيل الجديد من الأبناء.

وهكذا فإن المرأة إن كانت ذات حَمل، فإن القرآن الكريم يضع أمامنا الحلّ لمشكلتها، فيقول: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾؛ لأنها إذا وضعت الحمل انتهت عدّتها، والصبي بعد الولادة ينفق عليه من ماله إن كان له مال، وإلّا فينفق عليه من مال أبيه الموسر.

والآية الكريمة لم تترك المسألة دون تفصيل، فهي تقول: ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾، أي بحسب حالكم؛ فإن كان الأب موسراً، فعليه أن يوفّر لها ما يناسب يساره[١]، وإلّا فـ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[٢]. دخل يوماً عقيل بن ربيعة علىٰ معاوية فقال له: أُريد أن تعينني علىٰ بناء داري باثني عشر ألف جذع. فقال معاوية: وأين دارك؟ قال: في البصرة. قال: ما سعتها؟ قال: مئة وعشرون ألف ذراع في مئة وعشرين ألف ذراع. فقال له معاوية: هل بنيت دارك في البصرة، أم بنيت البصرة في دارك؟[٣]

ومعاوية هذا الذي يُشكل علىٰ عقيل بن ربيعة في هذه الدار بنىٰ داراً تدعىٰ الخضراء كلّفت بيت المال حمل ثمانية عشر بعيراً من الذهب والفضة[٤].

---

(١) المدوّنة الكبرى ٣: ١١٩. (٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٢٤٦، وفيه: أكثر من فرسخين في فرسخين. والفرسخ: ثلاثة أميال، العين ٤: ٣٣٢ـ فرسخ، أو هو مقدار خمس وعشرين غلوة سهم، العين ٤: ٤٤٦ ـ غلو.

(٤) قال ابن عساكر: لمّا استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية

ولكن لم تستطع هذه الدار بما حشد لها من وسائل الترفيه والعظمة أن تحقّق له لحظة من لحظات الخلود والعظمة. أما الكوخ الذي سكن فيه علي عليه السلام ـ وكان إذا قام ضرب سقف الكوخ برأسه ـ فقد حقق له عليه السلام خلوداً لا يضاهيه خلود، يقول أحد الأدباء:

إنَّ كوخاً أضلاعُه من جَريد النـ ـخلِ والسَّقفُ والفراشُ حصيرُ
سَجدَ النَّجمُ عند رَملَتِهِ السَّمـ ـراءِ واستَوهَبَت عُلَاه العصورُ
مُنذُ ألفٍ ونصف مَرَّت ولِلآ نَ وأَطيافُه الشَّذَىٰ والنُّورُ
عامرٌ بالأنغامِ مِن نَغَمِ القُر آنِ يَتلُوهُ رَاهِبٌ مَسحورُ
وَسَيبقَىٰ بُكُلِّ حَبَّةِ رَملٍ مِن بَقَايَا أَبِي تُراب عبيرُ

نعم كان ذلك الكوخ الذي يضم علياً عليه السلام قناة متّصلة باللّه آناء الليل وأطراف النهار، فإذا جن عليه الليل رمق السماء بطرفه وقال: «يا من قَصدَه الضَّالون فأصابوه مُرشِداً، وأَمَّ إليه الخَائِفُون فرأَوْه مَوئِلاً، وَلَجأ إليه العَائِذُون فَرأَوه مَعقِلاً، مَتىٰ يَستَريحُ مَن نَصَب لِغَيرك نَفسَه. أَولِجْ قَلبي بِميدانِ المُطِيعين لَك، وَضَمِّنهُ فَرحَ الإقبالِ عَليك»[1].

هذا الصوت الذي في كل نبرة من نبراته خشوع ضارع بين يدي ربّه قد

شري الخضراء بدمشق، فابتاعها منه بأربعين ألف دينار وأربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهن؛ فاختار من فلسطين عمواس ؛ومن الأردن قصر خالد، ومن دمشق أندر، ومن حمص دير زكي.

وقال: بنى معاوية الخضراء بدمشق وهي دار الإمارة بالطوب، فلما فرغ منها قدم عليه رسول ملك الروم، فنظر إليها فقال له معاوية: كيف ترى هذا البنيان؟ قال: أمّا أعلاه فللعصافير، وأمّا أسفله فللفأر. قال: فنقضها معاوية وبناها بالحجارة. تاريخ مدينة دمشق ٢: ٣٥٩.

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤.

خلّده الله تعالى مع الدهر. فالبيت مهما كان واسعاً وضخماً إذا لم تُعمر جنباته بما يرضي اللّه فلا معنىٰ له.

وهذا المعنىٰ في سعة الدار قد يتعدّىٰ حاله من الدنيا إلىٰ الآخرة، فمن العجيب أن بعض الروايات تقول: «يعطىٰ المؤمن يوم القيامة مئة وسبعين ألف دار في كل دار مئة وسبعين ألف قصر، في كل قصر مئة وسبعين ألف غرفة»[1] إلى آخره. وكل هذا لا معنىٰ له، فالنبيﷺ يقول: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[2]. فالعبرة برضوان اللّه في الجنة لا في نوع وحجم البيوت والقصور، وعلىٰ الإنسان أن يضع أمامه صورة واحدة فقط من الجنة هي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[3]، أما هذه التفاصيل التي يرويها «أبو فلان» فلا داعي للخوض فيها.

---

(١) مصباح المتهجّد: ٢٥٣، ميزان الاعتدال ٣: ٥٦٦ / ٧٦٠٥، وقد وهّنه، الدرّ المنثور ٣: ٢٥٧.

(٢) مسند أحمد ٣: ٤٣٣ ـ ٤٣٤، صحيح البخاري ٤: ٨٧، ٧: ١٧٠.

(٣) فصلت: ٣١، وقال تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الزخرف: ٧١.

الدعاء إلى الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في سبب نزول الآية الكريمة

إن سبب نزول هذه الآية يلقي الضوء علىٰ مضمونها؛ لأن سبب النزول غالباً يحدّد الهدف الذي من أجله تنزل كلّ آية، فكأن الأمر أنه حينما بعث النبي ﷺ التفّ حوله في البداية أبناء الطبقة الفقيرة، وهؤلاء كانوا يؤلّفون مجموعة كبيرة في مكّة، فكان النبي ﷺ إذا جاء للمسجد ليقرأ القرآن الكريم للمؤمنين أو ليشرح لهم معانيه، فإنهم يلتفّون حوله. وقد مرّ به في يوم من الأيام بعض جبابرة قريش ـ وهؤلاء لم يأتوا طوعاً، وإنما جاءت بهم العظمة المودعة في القرآن؛ حيث إنهم قد وصل إليهم أن القرآن يسحر لبلاغته ومنطقه ـ فأرادوا أن يسمعوا هذا القرآن الذي غزاهم في بيوتهم وأخذ يهددهم ويهدد عقائدهم.

وفي هذا ردّ على بعض من يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف. فنقول لهم: إن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وإنما انتشر بالدرجة الأُولىٰ بما يحمل من مبادئ ومضامين، فأقبل الناس عليه؛ حيث إنه يحمل مضامين العدل والشفقة واحترام الإنسان، هذه المضامين التي تحوّل حياة الإنسان إلى

---

(١) الأنعام: ٥٢.

نعيم.

وقد كان مجتمع قريش مجتمعاً قائماً على الابتزاز والغطرسة، ولم يكن للإنسان فيه كرامة، وكان يعتدي على كرامة المرأة. وباختصار إنـه كـان مجتمعاً تعيث به النواقص وتعبث.

فذهب هؤلاء إلى النبيﷺ؛ ليـعرفوا مـاهو القـرآن، وكـان حـوله هـذه المجموعة من الفقراء، منهم خباب بن الأرتّ وبـلال الحـبشي وأبـو ذرّ الغفاري، فقالوا له: يامحمد نحن نريد أن نستمع إلى قرآنك، ولكن الذي يمنعنا هو أننا لا نملك استعداداً لأن نجلس مع هؤلاء؛ لأنهم لم يأتوا عن مبدأ ولم يأتوا لسماع القرآن، وإنما سمعوا بقوّتك فأرادوا أن يحصلوا على طعام ولباس، فوضعهم مزرٍ؛ حيث إن رائحتهم كريهة ومـلابسهم عـاديّة وليسوا من بيوت معروفة، فلا يناسبنا أن نجلس معهم. فاطردهم حـتىٰ نستطيع أن نجلس معك ونستمع إلى قرآنك[1].

فقال بعض أصحاب النبيﷺ له: يارسول اللّه اطرد هؤلاء مؤقّتاً؛ لينصت هؤلاء إلينا؛ فهم ذوو سلطة ونفوذ، ونحن نحتاج إليهم. فنزلت هذه الآية تأمره بألّا يطرد هؤلاء، وأن يبلّغهم بأن من يريد أن يأتي فليأتِ.

المبحث الثاني: بعض أهداف ومضامين سبب النزول

وهذا السبب يلقي الضوء على مضمون هذه الآية الكريمة في عدّة أهداف سنتناول بعضها على شكل نقاط إن شاء الله تعالى.

الهدف الأول: أن كرامة الإنسان فوق كل شيء

فالذي يتبيّن لنا هنا أن هذا السبب يعتبِر كرامة الإنسان أهم من كلّ شيء،

(١) تفسير جوامع الجامع ١: ٥٧٣، تفسير القرآن العظيم ٣: ٣٥٣.

وفوق كل شيء، وأن منزلة الإنسان لا تتحدّد بثيابه ولا برصيده المالي ولا بأُسرته التي ينتمي إليها، بل الذي يحدّد منزلته هو ما يملك من مواهب ذاتية. فهذه الأحوال لم تخرج معه من بطن أُمّه، وسوف لن يأخذها معه إلى مرقده الأخير، فله بطن تحمله وهي بطن الأُم، ثم له بطن يدفن فيها هي بطن الأرض. ورحم اللّه الشريف الرضي حيث يقول:

ولقد مررت ببرزخٍ فسألته ... أين الأُلىٰ ضمّتهُمُ أرجاؤهُ

مثلُ المطيّ بواركاً أجداثُه ... تسفي على جنباتِها بوغاؤهُ

أكلتهُمُ الأرضُ التي ولدتهُمُ ... أكل الظليمِ حلت له أُكلاؤهُ[1]

فالأرض التي تلد الإنسان ستضمّه، والشيء الذاتي الذي يولد معه ويكون ذا قيمة وأهمّية هو المزايا. ثم إن هناك مزايا للجسد ومزايا للروح، فمزايا الجسد تتلاشىٰ، حيث إن التراب والرمال ستعبث بها بعد ذلك، ولا يبقىٰ مع الإنسان سوى الأخلاق والعلم والفكر، وكل هذه المزايا لها علاقة بالروح. فالآية الكريمة تنبّه المسلمين إلى أن الأهداف مهما كانت ضخمة، والمكاسب مهما كانت كبيرة فالواجب ألّا يُطرد هؤلاء من أجل أن يجلس عتبة أو أبو جهل وغيرهما. فهؤلاء وهؤلاء علىٰ حدّ سواء؛ فيجب الاحتفاظ بكرامة الإنسان.

فهذا أول هدف للآية، وهو: لا تفتح ثغرة فتترك جرحاً في نفوس هؤلاء؛ حيث إنك ستزرع الشعور بالنقص عندهم بهذا التصرّف، وهذا ما لا تقرّه المبادئ الإسلاميّة.

الهدف الثاني: أن الداعي للإسلام هو الاتجاه إلى اللّه

---

(١) ديوان الشريف الرضي ١: ١١٠.

فقوله تعالىٰ : ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ يكشف عن أن الداعي للإسلام هو دافع شريف ونبيل، وهو دافع الاتّجاه إلى اللّه تعالى؛ حيث إنهم يدعون ربهم ليكلّلهم بالرحمة والرضوان، أمّا الحاجة الأُخرىٰ التي أرادها هؤلاء فإنها ستتلاشى، في حين أن الحاجة إلى اللّه تعالى ستخلّدهم بدعائهم ربَّهم. فكلّ الوسائل تتلاشىٰ إلاّ الوسيلة إلى اللّه. وهاهو الشاعر الجاهلي يذكر معنى هو من أروع المفاهيم، وذلك حينما يقول:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللّهَ باطلُ(١)

فالواجب أن يُتوجّه إلى اللّه تعالىٰ ، والآية تخبرنا عن أن هؤلاء قد وهبوا نفوسهم إلى اللّه تعالىٰ ، وأن اللّه سيهبهم الخلود. وهذا ما حصل فعلاً، فالصحابة في الصدر الأول كانوا مشاعل مضيئة في تاريخ الإسلام؛ حيث استطاع أربعة فقراء أو خمسة أن يقهروا جبابرة قريش، وقد صنعوا التاريخ والحضارة، فقد استطاع رجل عظيم كالرسولﷺ أن يخلق مجتمعاً صالحاً في قلب الجزيرة العربية يحمل مشعلاً من الفكر والمعرفة والخلق. والعلم بدون خلق لايساوي شيئاً وإنما يتحوّل إلى أداة ابتزاز كما هو حاصل عند بعض الشعوب. ثم إن الخلق يلعب دوره بكل شفافية في توجيه العلم لخدمة الانسانية، والإسلام أول ماعني بالخلق، ولذا نجد تعبير النبيﷺ : «**إنما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»(٢). والآن نجد أن العلم تحتكره بعض الطبقات التي تعتبر نفسها قمّة في العالم، لكن هل إن هؤلاء

---

(١) صدر بيت للبيد بن ربيعة، وتمامه: وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ. انظر: الجامع لأحكام القرآن ١ : ٣٤١، ٤: ٣١٥، ٨ : ٣٣٦، مغني اللبيب ١ : ١٣٣ / ٢٠٥، ١٩٦ / ٣٢١.

(٢) بحار الأنوار ١٦: ٢١٠، المستدرك على الصحيحين ٢: ٦١٤.

يسخرون هذا العلم لخدمة الشعوب المسحوقة الفقيرة؟ بالطبع أن الحال على العكس من هذا، فالذي يحصل هو استغلال هذه الشعوب، فهم يبنون قصورهم وأبراجهم من رغيف هذه الشعوب المقهورة.

فهل هذا هو الذي يسمو بالإنسانية؟ كلا إنّ الذي يسمو بالإنسانية هو الخلق العالي الكريم الذي يجبر صاحب العلم على أن يضع علمه لخدمة المجتمع، فالإنسان ثمرة الوجود. والآية الكريمة تقول: إن هؤلاء يدعون ربهم، وليس عندهم أي هدف من الأهداف الرخيصة.

الهدف الثالث: أن الإسلام هو الظاهر

وكذلك نفهم من هذا المقطع أن الآية الكريمة تقول للرسولﷺ: اسأل هؤلاء الذين يريدون أن يبعدوا الفقراء عن مجلسك، هل دخلوا في قلوبهم؟ إن أي أحد حينما يتشهّد بالشهادتين، فليس من حقّ أي كان أن يقول له: أنت غير مسلم؛ ذلك أن الذي يحدّد هوية المسلم هو الشهادتان: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلى يوم يلقون ربهم فيحاسبهم**»[1]. وفقهاء المسلمين يقولون: إذا أنكر شخص ضرورة من ضرورات الدين ولم يعرف أنها ضرورة فإنه هنا لا يُعتبر كافراً؛ لأنهم اشترطوا العلم بالضرورة أولاً، فالجاهل لا يحمل على أنه غير مسلم.

فينبغي إذن أن نملك الدليل كي نقوم بتحديد هوية الإنسان، ومن ثم نحكم عليه. وهذا هو مراد الآية الكريمة، فهي تبين لهﷺ عدة أُمور منها:

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ٤٠٢، عيون أخبار الرضاعليه السلام ١: ٧٠/ ٢٨٠، مسند أحمد ١: ١١، ١٩، ٣٥، ٤٨، وغيرها.

أولاً: أن هؤلاء الفقراء يريدون وجه اللّه فعلاً.

ثانياً: من أين جاء العلم لهؤلاء الجبابرة بأن فقراء المسلمين جاؤوا للإسلام لا لرغبة عندهم فيه، وأنهم يقصدون غير اللّه تعالى؟ وما هو دليلهم؟

إيمان أبي طالب عليه السلام أمر لا يقبل النقاش

وهكذا فإن البعض يحلو له أن يتّهم من يشهد بشهادتي الإسلام بأنه مات كافراً مع أنه كان يقول:

واللّه لن يصلوا إليك بجمعهم حتىٰ أُوَسَّدَ في التُّراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك مخافة وابشر وقرّ بذاك منك عيونا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البريّة دينا[1]

ويقول:

ألم تعلموا إنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خُطَّ في أول الكتب[2]

ونسمعه يقول:

كذبتم وبيتِ اللّه نخلي محمداً ولما نطاعنْ دونه ونناضلِ[3]

(١) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٦، السيرة الحلبيّة ١: ٤٦٢، البداية والنهاية ٣: ٤٢.
ورحم الله ابن أبي الحديد حيث يقول:
ولولا أبو طالبٍ وابنُهُ لما مُثِّل الدّين شخصاً فقاما
فذاك بمكّة آوىٰ وحامىٰ وهذا بيثرب جسّ الحماما
فلله ذا فاتحاً للهدىٰ وللّه ذا للمعالي ختاماً
شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤.

(٢) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٨، السيرة النبويّة ١: ٢٣٥، البداية والنهاية ٣: ١٠٧، ١٠٨، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٦٧.

(٣) من قصيدته عليه السلام التي يقول في مطلعها:

ونسمعه يقول:

نبيّ أتاه الوحيُ من عندِ ربّهِ ومن قال لا، يقرعْ بها سنَّ نادمِ[(١)]

فهذه شهادات بالإسلام من قبل أبي طالبعليه السلام ذكرها التاريخ، لكن الدوافع تجعل البعض يقولون عنه بأنه مات كافراً، في حين أننا نجد غيره يقول: تلاقفوها يابني أُمية تلاقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك[(٢)]. ومع هذا فإنهم يقولون عنه: إنه مسلم، بل ومن خيرة المسلمين[(٣)].

إننا عندما نريد أن نوجّه أبناءنا بالعلم فيجب أن يكون التوجيه منسجماً مع المقاييس ومع الواقع، فليس عندنا عبادة أشخاص، وإنما نحن مع الدليل. فيجب أن يكون المقياس واحداً وعلىٰ علم به، لا على جهل

وأبيضُ يستسقى الغمامُ بوجهِهِ ثمالُ اليتامى عصمة للأراملِ

انظر: سيرة ابن إسحاق ٢: ١٤١، أخبار مكّة ٢: ٣٧٥، السيرة النبويّة ٢: ١١١، ٢١٧، ٣: ٢٩٢، ٥: ٤٧، تاريخ الطبري ٢: ٥٧٧، الكامل (ابن عدي) ٣: ٤٠٩، أعلام النبوّة ١: ١٧٢، دلائل النبوّة ١٨٥، الفائق في غريب الحديث ١: ١٠٥، الاستيعاب ٢: ٤٦٨، الاكتفاء (الكلاعي) ١: ٢٢٠، ٢٦٧، ٢: ٥٦، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٥٧، تاريخ مدينة دمشق ٨٣: ٢٥٨، البداية والنهاية ٦: ٢٠٦، فتح الباري ٧: ١٤٨،باختلاف في رواية البيت.

(١) شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٣، مناقب أهل البيت (الشيرواني): ٥٨. ولهعليه السلام من قصيدة:

واللهِ لن يصلوا إليك بجمعِهم حتى أُوسّدَ في الترابِ دفينا

تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

(٣) وقد ذكرنا جملة من أحواله في محاضرة (أصحاب النار وأصحاب الجنة) من الجزء الخامس.

وعصبيّة.

في أن الحساب لله وحده

ثم قالت: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، وهذا المقطع خطاب للنبي الأكرمﷺ، وفيه للمفسّرين معنيان:

المعنىٰ الأول: أنك لست مسؤولاً عن رزقهم

وهذا الرأي يميل إليه بعض المفسّرين، فالآية الكريمة هنا تبين للنبي الأكرمﷺ أنه ليس مسؤولاً عن رزقهم، بل إنهم هم المسؤولون عن رزقهم. وكذلك هم ليسوا مسؤولين عن رزقك.

ومثل هذا الكلام لانرتضيه؛ لأن النبيﷺ يمثل شخص رئيس الدولة ديناً ودنيا، وهذا ما يحصل بالفعل، فعندنا قانون يسمى قانون التكافل الاجتماعي الذي ينيط برئيس الدولة مسؤولية تهيئة الحاجات للمجتمع الإسلامي وماينهض به قدر استعداده وضمن موارده المتاحة. ولذلك فإن النبيﷺ كان بكل وسيلة يهيّئ الطعام لأُمّته، بل إنه أحياناً لايذوق الرغيف وإنما يوزّعه على المسلمين. في يوم من الأيام أمسكه بدوي من ردائه وسحبه، فأثّر الرداء برقبتهﷺ حيث إنه كان فظّاً غليظاً، ثم قال له: اعدل يا محمّد، فليس المال لك ولا لأبيك. فوضع عمر يده على سيفه وقال: يارسول اللّه، دعني أضرب عنقه؛ إنه غير مؤدّب. فقال النبيﷺ: «على رسلك». ثم التفت إلى البدوي وقال له: «بلىٰ إذا لم أعدل فمن الذي يعدل، واللّه لو كان لي جبلان من ذهب وفضة لفرّقتهما عليكم ولاترونني

بخيلاً»(١).

وبالفعل أعطاه جميع مادخل إليه، ثم سأله: «هل عدلت الآن؟». قال: أما الآن فنعم(٢). وقامﷺ ينفض يديه.

تقول إحدى زوجاتهﷺ: يمر علينا أحياناً أربعون يوماً لا نأكل فيها إلّا الأسودين (أي التمر والماء).

نعم هكذا كان الرسولﷺ، وهذا هو قانون التكافل في محيط الدولة وفي محيط المجتمع وفي محيط الأُسرة، وهي قوانين ثلاثة يحرص الإسلام على تنفيذها. ولذا فالذي ينبغي على المسلمين أن يهيئوا للرسولﷺ مايمضي إراداته بما هو أعم من الجانب المادّي أو المعنوي.

فهذا المعنىٰ (أن الرسول الأكرمﷺ ليس مسؤولاً عن أُمّته) غير مقبول، وقد رأينا العقبات التي وضعت في طريق النبيﷺ؛ حيث أراد أن يطوّع أمثال هؤلاء للعمل بعد أن كانوا يعدون الزراعة والتجارة أمراً معيباً وإن كان الأمر قد تطور بعد ذلك، وقنّنوا رحلتي الشتاء والصيف. ومعلوم أن النبيﷺ قد اشتغل بها بأموال خديجة عليها السلام، حيث خرج مع عمّه أبي طالب رضي الله عنه للتجارة.

ثم رامﷺ أن يرقىٰ بهم إلى ما هو أبعد من ذلك، فطوّعهم للعمل تطويعاً رائعاً وقال: «من سقىٰ طلحة أو شجرة فكأنما أحيا نفساً، ومن أحياها فكأنما

(١) لم نعثر على حديث الرسولﷺ هذا ضمن هذه الحادثة، وقد مرّ بيانه في محاضرة (دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا) من موسوعة محاضرات الوائلي، وأنظر: بحار الأنوار ٣٣: ٣٣٩، مسند أحمد ٣: ٣٥٥، سنن ابن ماجة ١: ٦١، كنز العمال ١٠: ٥٤٩ / ٣٠٢٢٩.

(٢) لم نعثر عليه بنصه، وقريب منه ما في مسند أحمد ٢: ٢١٩.

أحيا الناس جميعاً»[١]. والطلح: نوع من الشجر البرّي[٢]. وهذا أكبر دليل يصوّر حرص الاسلام على العناية بالأرض والاهتمام بالزراعة وحث الإنسان عليه. وكذلك ألحّ الإسلام على الإنسان ليدفعه إلى قطاع الصناعة، وأن يأكل من كدّ يده، قالﷺ: «من بات كالاًّ من طلب الحلال بات مغفوراً له»[٣]، أي أن يتعب الإنسان ويعرق ويأكل من نتاج ذلك التعب والعرق لا أن يأكل عن طريق الغشّ والرِّشا والربا وبقيّة الوسائل غير الشريفة وغير المشروعة التي حرّمها الإسلام.

المعنى الثاني: ألّا يحاسبهم على ما في ضمائرهم

أي أن المقصود أن النبيﷺ لم يدخل لقلوب هؤلاء، فالواجب ألّا يحاسبهم على ما في ضمائرهم؛ ولذلك فإن عندنا أن فعل المسلم محمول على الصحة، فلا يحقّ لأحد أن يقول لشخص ما: أنت تصلّي لتخدع الناس[٤]، فما دليل هذا على أنه يخدع الناس؟ فالآية تقول للنبي الأعظمﷺ: إنك غير مسؤول عن ضمائرهم، ولذلك فإن اللّه تعالى لا يحاسب على النيات إلّا النيةَ التي تكون في ملاك العمل ـ أي في العبادات مثلاً ـ فعندما نتوجّه الى الصلاة فعلينا أن نقول: لوجه اللّه، وكذلك حينما

---

(١) تفسير العياشي ٢:٨٦/ ٤٤، وسائل الشيعة ١٧: ٤٢/ ٢١٩٣٤، باختلاف عنهما.

(٢) ترتيب إصلاح المنطق: ٢٤٢ ـ الطلح.

(٣) الأمالي: ٣٦٤/ ٤٥٣، سير أعلام النبلاء ١٤: ٥٠٠، كنز العمّال ٤: ٧/ ٩٢١٥. وفي الحديث الشريف: «ما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده». سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

(٤) كما مر علينا من وقوف مروان بن الحكم يوماً على أُسامة بن زيد ـ وكان يصلّي ـ وقوله له: قد عرفنا أنك إنما وقفت تصلّي هنا ليعرف مكانك. أمالي المرتضى ١: ١٩٦، دستور معالم الحكم: ١١٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٩.

نتوضّأ بنية الدخول للصلاة. وإلّا فما في دواخل النفس لا يحاسبنا اللّه عليه. إذن فللإنسان الظاهر.

مسألة التقيّة

وهنا تبرز مشكلة أُحب أن أُشير إليها، عقد مؤتمر صحفي في الكويت، فسألني أحد الإخوة السلفيّة وقال: أنتم تقولون بالتقية، وأنت لم تأتِ اليوم إلاّ بدافع التقيّة. فقلت له: لا، وإنما أردت خدمة الإسلام، وأنا مدعوّ وأُريد أن أُؤدّي خدمة للإسلام. ثم إنه ليس نحن فقط من يأخذ بالتقية؛ فالإمام مالك يأخذ بها، والإمام أحمد بن حنبل يأخذ بها، وكذلك غيرهما من المذاهب الأُخرى، وهناك مصادر عديدة تثبت ذلك. ثم ماهي التقية؟ إن الإنسان إذا كان بين كفرة ويخشىٰ على نفسه منهم فيمكن أن يخلّص ذمّته بكلمة يحقن بها دمه، دخل رجل على الحسن البصري قال: أنت الذي قلت عن الإمام علي: لو أنه بقي في المدينة يأكل من حشفها لكان خيراً له مما دخل فيه من سفك دماء المسلمين؟ قال: يابن أخي كلمة حقنت بها دمي، فلا تحملها علىٰ الواقع[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٩٥. دخل رجل علىٰ إبراهيم بن سلمة بن هرمة وسأله عن أبيات كان قد قالها في مدح الإمام علي وولده عليهم السلام: من قائل هذه الأبيات:

ومَهمَا أُلامُ عَلىٰ حُبِّهِم ... فإنِّي أُحِبُّ بَني فَاطِمَهْ
بَنِي البِنتِ مَن جَاءَ بالبَيِّنَا ... ت والهَدْي والسُّنَنِ القَائِمهْ
فلست أُبالي بحبي لهم ... سواهم من النعم السائمهْ

قال: قالها من عضّ ببظر أُمّه. فلما خرج الرجل سأل إبراهيمَ أحدُ ثقاته: أولست أنت قائلها؟ فقال: نعم. قال: فلم أنكرتهما؟ قال: ويحك، أيهما أهون، أن أُنكر ثلاثة أبيات من الشعر أم أُشنق علىٰ باب بيتي؟ تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٦، جواهر المطالب ٢: ٣١١. فهذا اتّقى وأنكر الحق؛

ويقول الرسول الأكرمﷺ: «إنا لنكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم». كما يرويه البخاري[١]، وكذلك هذه الآية: ﴿لا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[٢].

ويمكن مراجعة كتب التفسير[٣] لكل المذاهب الإسلامية حول هذه الآية: ﴿إلّا مَن أُكرِهَ وقلبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان﴾[٤] التي نزلت في عمار، فكل المذاهب الإسلامية تقول بالتقية، وكل المسلمين يعملون بها، ولكن لأن محبي أهل البيت عليهم السلام تعرّضوا إلى البلاء أكثر من غيرهم، وعرف أنهم ينقذون أنفسهم ويحقنون دماءهم أحياناً بكلمة، فقد ذاع أمرهم بأنهم يستخدمون التقية. فليس من حق أي مسلم أن يحاسب مسلماً غيره ويرميه بغير الإسلام مادام يحمل الهوية الإسلامية، وهي الشهادتان. الإمام الأشعري (إمام المذاهب السنية بأجمعها في عقائدهم) يذهب إلى أن تكفير أهل القبلة أمر عظيم فظيع عند اللّه: «أنا لا أُكفّر أحداً من أهل القبلة؛ فالآية الكريمة تقول: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾»[٥].

لخوفه على نفسه الشنق. (١) صحيح البخاري ٧: ١٠٢.

(٢) آل عمران: ٢٨.

(٣) انظر مثلاً: الكشّاف ١: ٣٤٦، الجامع لأحكام القرآن ٤: ٥٧، تفسير القرآن العظيم ١: ٣٦٥، التفسير الكبير ٤: ١٤ ـ ١٥. (٤) النحل: ١٠٦.

(٥) السنن الكبرى ١٠: ٢٠٧، سير أعلام النبلاء ١٥: ٨٨، وتمامه: لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا اختلاف العبارات. ثم قال الذهبي: وبنحو هذا أدين.

وقال البيهقي: «قال الشيخ رحمه الله ـ الظاهر أنه أحمد بن القاص الطبري شيخ الشافعية في طبرستان وصاحب كتاب (أدب القاضي) الذي سيأتي ذكره ـ: فمن ذهب إلى هذا زعم أن هذا أيضا مذهب الشافعي رحمه الله، ألا تراه قال في كتاب (أدب القاضي): لم نعلم أحداً من سلف هذه

المبحث الخامس: في أن الناس سواسية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾.

الدقّة في انتفاء اللفظ القرآني

إن اللفظ يلعب دوراً كبيراً وهامّاً في إبراز المعنىٰ الموضوع له، فالقرآن تارة يستخدم لفظاً غاية في الرقة، وأحياناً أُخرى يستخدم لفظ غاية في الخشونة؛ وذلك حسب ما يقتضيه المقام؛ فلكليهما دور. فقوله تعالىٰ:

الأُمّة يقتدى به، ولا من التابعين بعدهم ردّ شهادة أحد بتأويل وإن خطّأه وضلّله. ثم ساق الكلام إلى أن قال: والذي روينا عن الشافعي وغيره من الأيمّة من تكفير هؤلاء المبتدعة فإنما أرادوا به كفراً دون كفر، وهو كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤. قال ابن عبّاس: إنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس بكفر ينقل عن ملّة، ولكن كفر دون كفر».

وقال المناوي في شرح حديث «كفوا عن أهل لا إله إلّا الله»: «وهم من نطق بها ـ أي مع نطقه بالشهادة الثانية ـ وإن لم يعلم ما في قلبه. «لا تكفروهم بذنب» ارتكبوه وإن كان من أكبر الكبائر كالقتل والزنا والسرقة. «فمن أكفر أهل لا إله إلا الله» أي حكم بكفرهم، «فهو إلى الكفر أقرب» منه إلى الإيمان. فمخالف الحقّ من أهل القبلة ليس بكافر ما لم يخالف ما هو من ضرورات الدين كحدوث العالم وحشر الأجساد فإنه حينئذ ليس من أهل «لا إله إلّا الله» فنكفّره.

وقال علي (كرّم الله وجهه): «أعلم الناس بالله أشدّهم حباً وتعظيماً لأهل لا إله إلّا الله».

وقال ابن عربي: إياك ومعاداة أهل «لا إله إلّا الله»؛ فإن لهم من الله الولاية العامّة؛ فهم أولياء الله ولو جاؤوا بقراب الأرض خطايا، لا يشركون بالله لقيهم الله بمثلها مغفرة. ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته، ومن لم يطلعك الله على عداوته لله فلا تتّخذه عدوّاً، فإذا تحقّقت أنه عدوّ الله ـ وليس إلا المشرك ـ فتبرأ منه كما فعل إبراهيم بأبيه. ولا تعادِ عباد الله بالإنكار، ولا بما ظهر على اللسان، بل اكره فعله لا عينه، والعدو لله إنما يُكره عينُه؛ ففرقٌ بين من يُكره عينُه وهو عدو اللّه، ومن يُكره فعله وهو المؤمن العاصي». فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ١٥ / ٦٢٦٨،

﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ فيه معنىٰ الخشونة، أي أنه ليس من خلق الإسلام أن تطرد أحداً ليجلس آخر مكانه كي يستمع القرآن الكريم، فما الفرق بينهما وكلاهما مسلم وعلىٰ حدّ سواء؟ ولدني وإياك آدم. يقول الإمام علي عليه السلام في جملة من أبيات له:

الناس من جهة التمثيل أكفاءُ	أبوهُمُ آدم والأُمّ حواءُ
فإن يكن لهُمُ في أصلهم شرفٌ	يفاخرون به فالطين والماءُ
لافضل إلاّ لأهل العلم إنهُمُ	علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلّاءُ
فقم بعلم ولا تبغِ به بدلاً	الناسُ موتىٰ وأهلُ العلم أحياء[١]

ويقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «كلّكم لآدم وآدم من تراب»[٢]. والقرآن الكريم يخاطبنا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣].

فالآية الكريمة إذن تقول للرسول صلى الله عليه وآله: اسأل هؤلاء: هل هم أفضل من غيرهم حتىٰ يُطرد الآخرون من أجلهم؟ إن الإنسانية سواء، وإن هؤلاء سوف لن يطردوا، فالذين نستلهم من عطائهم وفضلهم هم هؤلاء، فأبو ذرّ رضي الله عنه أعطانا من عطاء الإسلام، وكذلك بلال الذي كان يحمل نداء الإسلام عند وقت كلّ فريضة صلاة، وكان يمثّل الصلابة في الإيمان، وقد تحمّل ألوان العذاب، فقد كانوا يضربونه حتىٰ ترتفع السياط بلحمه[٤]، وقد أصبح رمزاً لنا.

---

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام : ١٥.

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) تاريخ الطبري ٢: ١٥٣، أُسد الغابة ١: ٢٠٧، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٣٨.

حقّ الجار

ثم ينطلق إلى الحقّ الثاني وهو حقّ الجوار، فيقول: «**الجار ثلاثة: جار له عليك حقّ، وجار له عليك حقّان، وجار له عليك ثلاثة حقوق. فأمّا الذي له حقّ فجارك الكافر**». وهذا الحقّ هو حقّ الجوار، ويرتّب الشارع المقدّس على هذا الجوار أثراً، هو أن هذا الكافر إنسان، وله حقّ الإنسانيّة أولاً، ثم إنه ارتبط بك بالجوار ثانياً، فله حقّ الجوار، والجوار عهد.

أقسام العهود

ويقسم فقهاء القانون والشريعة العهود إلى قسمين: العهد الفعلي، والعهد اللفظي. أما العهد اللفظي فهو ما كان فيه اللفظ صريحاً، كأن أقول لك: أُعاهدك على أن تحميني وأحميك. فنعقد بيننا معاهدة. أما العهد الفعلي ـ وهو الذي يعبر عنه «جان جاك روسو» بالعقد الاجتماعي ـ فهو كما بين الجار وجاره، فلا يحتاج هذا إلى العهد اللفظي، وإنما يترتّب حقّ الحماية والرعاية تلقائيّاً على كلّ من الجارين.

وكانت العرب والأُمم الأُخرى أيضاً تعتزّ بالجوار كثيراً، لكن الدرجة من الاعتزاز بالجار كانت عند العرب لا نظير لها؛ فقد كان الجار أشبه عندهم بالأخ، فيمكن له أن يمدّ يده إلى طعامه. وهذا المعنى كان معروفاً عندهم، فإن طرق أحدهم طارق في الليل جاء جاره يحمل قدره من فوق ناره إلى ضيفه. قال مسكين الدارمي:

ناري ونارُ الجارِ واحدةٌ ... وإليه قبلي تنزل القدرُ

ما ضرَّ جاراً لي يجاورني ... ألّا يكونَ لبابِه سترُ

أعـمى إذا مـا جـارتي بـرزت حتى يواري جارتي الخـدرُ[١]

ثم يقول الإمام: «**وأما الذي له حقّان فجارك المسلم، فمن حقّ جارك عليك ألّا تؤذيه بقَتار قدرك حتى تقتدح له منها**»، أي إذا شمّ جارك رائحة الطعام فعليك أن تغترف له منه، وترسل اليه ليأكل كما تأكل، ولا تؤذيه بهذه الرائحة. وهذا لون من التكافل في محيط الإسلام.

كان سعيد بن محمد مجاوراً للإمام الصادقعليه السلام فعرض داره للبيع بعد أن مسَّته الحاجة، فجاءه من يشتريها، فطلب منه مئة وخمسين ألفاً، فاستغرب المشتري؛ لأن قيمتها لا تتجاوز الخمسين، وسأله: لماذا؟ قال: الخمسين ثمن الدار، والمئة ثمن جوار الإمام الصادق؛ فهو إن غبتُ سأل عني، وإن سكتُّ ابتدأني، وإن أكل تفقّدني قبل أن يأكل. فلما وصل الخبر إلى الإمامعليه السلام ابتسم ثم أرسل إليه المبلغ كلّه، وقال له: دعك في دارك، بارك اللّه لك فيها[٢].

ثم يقولعليه السلام: «**وأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فهو الرحم المسلم**»؛ فإن له حقّالإسلام وحقّ الجوار وحقّ الرحم. ثم يشرع الإمامعليه السلام في شرح هذه الحقوق وتبيينها.

ثم ينطلقعليه السلام إلى ذكر حقّ المسلم على المسلم، وذلك بأن يستر عورته، ويُشبع جوعته، ويفرّج كربته، ويحفظ غيبته، إلى أن يصل إلى الوقوف

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٨: ٥٩، زاد المسير ١: ٣٢، شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣، ١٧: ١٠، السيرة النبوية (ابن كثير) ١: ١١١.

(٢) سبق أن نوّهنا إلى أننا لم نعثر عليها عن الصادقعليه السلام، وفي شرح نهج البلاغة ١٧: ١٩ عن سعيد بن العاص، وفي الكنى والألقاب ٢: ٣١٦، تاريخ بغداد ٤: ٣٣، تهذيب الكمال ٢٦: ٥٤٨، سير أعلام النبلاء ٧: ٣٨٧ / ١٤١ عن أبي حمزة السكري.

على قبره. يقول الحرّ العاملي في (الوسائل): «يَعتبر أيمّة أهل البيت عليهم السلام أن من حق المسلم على المسلم يشهده إذا مات»(١). لذا تروي عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: **«اقرؤوا على موتاكم سورة ياسين، إنها المؤمّنة له»(٢) ...»**.

هذه نماذج من الموارد التي عالجتها (رسالة الحقوق)، وإني أُشجع كلّ مسلم على أن يقتني نسخة منها، بل أرغب في ذلك له؛ ليرى بنفسه أبعاد فكر الإمام عليه السلام، وهي حصيلة تربيته الإسلامية. ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى دراسة هذه الأخلاق العالية.

وقد يقول قائل: إن الكثير من الحكماء يضعون النظريات، ولكن ما مقدار تطبيقها؟ وهل كانت هذه النظريات مطبّقة عند الإمام زين العابدين عليه السلام؟

إن الجواب على ذلك لا يحتاج إلى بحث، فقد كان كلّ ذلك مجسّداً في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام. ومن المؤكد أن هذه الشريحة لديها نظريات غريبة في بابها، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«مؤدب الناس ومعلمهم بسيرته أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم بلسانه»(٣)**؛ فهناك من يدعو الناس للخير والصلاح وهو ليس صالحاً، ومنهم من يؤدّب الناس بسلوكه وسيرته، وكان أهل البيت عليهم السلام هكذا.

إن الإمام السجّاد عليه السلام كان يجسّد ما يقوله في رسالته، فسيرته مع والديه مثلاً كانت مثالاً لذلك. وكان عليه السلام قد عاصر أباه فقط، أما أُمّه فقد توفّيت في

---

(١) وسائل الشيعة ١٢: ٨٧ / ١٥٧١٢، ومثله في ١٢: ٢٠٦ / ١٦٠٩٧.

(٢) نيل الأوطار ٤: ١٤٢، البحر الرائق ٣: ١٠٥، كشف القناع ٢: ٩٥، سبل السلام ٢: ١١٩، تحفة الأحوذي ٣: ٢٧٦.

(٣) لم نعثر عليه بنصّه، وفي نهج البلاغة / الحكمة: ٧٣ ما نصّه: «ومعلم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم».

نفاسها به. يقول الزمخشري في (ربيع الأبرار): «إن بنات يزدجرد ثلاث: تزوّج محمد بن أبي بكر واحدة، وتزوّج عبد اللّه بن عمر الثانية، وتزوج الحسين الثالثة. فولدت شاه زنان الإمام زين العابدين، وتوفّيت في نفاسها به. فدفع الإمام الحسين ابنه إلى جارية من فضليات جواريه، فأشرفت على تربية الإمام ورعايته وحضانته. وكان الإمام عليه السلام يدعوها: أُمي، وهي التي زوّجها بعد أن كبر». ويبدو أنها عندما احتضنته كانت صبية، فلما كبر الإمام كانت قد بلغت الثلاثين تقريباً. فأرسل إليها بعض النساء ليعرفن منها رغبتها في الزواج.

وكان الإمام عليه السلام يجلس معها على مائدة الطعام، ويؤاكلها، فلا يمدّ يده إلى أن تمدّ يدها. فقيل له: لم تفعل ذلك؟ قال: **«إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها»**[1].

فأي لون من البرّ هذا؟ إنه تصرّف فيه روح الإسلام الذي يحاول أهل البيت عليهم السلام أن يربّونا عليه، ويعطونا به درساً أخلاقيّاً في رعاية الأبوين. أما موقفه مع أبيه الحسين عليه السلام، فقد كان الأُنموذج المثالي أيضاً.

المبحث الثالث: شذرات من رعايته عليه السلام حقوقَ جاره

وأما في جواره فيروي جميع المؤرّخين أن الطعام كان يخرج كلّ ليلة من بيته، وكانت القدور تُملأ بما يعدّه الطباخون، فإن حان وقت الغروب جلس الإمام عليه السلام أمام القدور وراح يقول: **«ابعثوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، واعطوا آل فلان»**[2]. فإذا فرغ من ذلك وضع بين يديه بعضاً من الخبز

---

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

(٢) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، الفقيه ٢: ١٣٥ / ١٩٥٥، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

والملح والحشائش الصحراوية وأكل منها الشيء القليل.

تصدقه عليه السلام بالعنب

وكان عليه السلام يعجبه العنب، فاشتهاه يوماً وكان صائماً، فلمّا أفطر كان أوّل ما جيء له بالعنب، أتته أُم ولد له بعنقود فوضعته بين يديه، فجاء سائل فقال: يا آل محمّد، أعطوني ممّا أعطاكم اللّه. فقال لجاريته: «احمليه إليه». فدفعته إليه، ثمّ دسّت إلى السائل فاشترته منه وأتت به فوضعته بين يديه عليه السلام، فجاء سائل آخر فأعطاه، ففعلت أُم الولد مثل ذلك، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، حيث أرسلت الجارية في الثالثة إلى السائل، فاشترته منه؛ لأن الوقت ليل، ولا أحد يبيع العنب، ثم أتت به إلى الإمام عليه السلام، فتناول منه حبات[1].

وكان هذا تجسيداً عملياً للوسام الذي أعطاه القرآن الكريم لجدّه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله تعالىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾[2].

ملاقاته عليه السلام الزهريَّ

ولا يكتفي الإمام عليه السلام بذلك، بل كان يخرج في الليل يحمل الطعام إلى جيرانه، يقول الزهري: كنت في إحدى الليالي أتمشّى في المدينة وقد انتصف الليل، فنظرت إلى زين العابدين يحمل على ظهره دقيقاً وحطباً وهو يمشي، فقلت: سيدي ما هذا؟ فقال: «أُريد سفراً أُعدّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز». فقلت: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى، فقلت: فأحمله عنك؛ فإني أرفعك عن حمله. فقال: «لكني لا أرفع نفسي عمّا ينجيني في

(١) بحار الأنوار ٦٤: ٧٢/ ٥٥.
(٢) الدهر: ٨ ـ ٩.

سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه. سألتك بالله لمّا مضيت في حاجتك وتركتني». فانصرفت عنه، وبعد أيام رأيته فقلت له: يابن رسول اللّه، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً؟ فقال: «يا زهري ليس ما ظننت، ولكنه الموت، وله كنت استعدّ». فقلت: ما هذا الذي كنت تحمله؟ قال: «هذا شيء من الطعام كنت أحمله للبيوت الجائعة»[1].

لقد كانت العشرات من بيوت المدينة المنوّرة ـ وبيوت كلّ مدينة يحلّها الإمام عليه السلام ـ يصلها طعامها ولا تدري من أين يأتيها، ولم تعلم بذلك حتى مات الإمام عليه السلام، فعلموا حينها أنه هو الذي كان يوصل إليهم هذا الطعام[2].

لقد كان عليه السلام يطوف على البيوت ليوصل الأطعمة والماء إلى أهلها؛ سواء كانت بيوت أعدائه أو بيوت أحبّائه. وقد كانت سيرة أهل البيت عليهم السلام كلّها هكذا. فقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يبعث بالطعام إلى بيت عمار بالقدر الذي يبعثه إلى بيت عبد اللّه بن الكواء الذي يتقرّب إلى اللّه بشتمه[3].

بسطه عليه السلام حمايته على إسماعيل الأموي

وكذلك كان فعله مع إسماعيل بن هشام المخزومي عامل عبد الملك على المدينة، فقد كان إسماعيل هذا يسيء لأهل البيت عليهم السلام وخصوصاً للإمام السجاد عليه السلام، وقد بقي عاملاً إلى زمن الوليد الذي عزله، وأوقفه تحت الشمس عارياً، فأخذ الناس يطالبونه بالأموال، فجمع الإمام كلّ أصحابه

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٣. (٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٣) كما فعل عليه السلام مع سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي الذي اعتزل القتال معه هو وقوم فكان عليه السلام يرسل إليهم الأعطية ويقول: «لا نمنعكم حقّكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

وأهل بيته وقال لهم: «**لا تتعرّضوا لهذا الرجل بسوء أبداً**». فقال أحد أولاد الإمام عليه السلام: يا أبه، نحن ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمام عليه السلام: «**كِله إلى اللّه**». وطلب منهم أنهم إذا مرّ به أحد منهم فلا يبدِ على وجهه أي امتعاض. ثمّ إن الإمام عليه السلام مرّ من قربه فهمس في أُذنه قائلاً: «**انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا**». وأرسل له الإمام كلّ ما يحتاج إليه، فكان يقول بعد ذلك: ﴿**اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[1]، وكان أن ترك النصب له عليه السلام[2].

وقد يصل به الأمر أحياناً إلى أن يحمل الماء على ظهره بعد أن يمتحه من البئر. وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام: لماذا كان على ظهر أبيك مجل[3]؟ قال عليه السلام: «**إنه كان يستقي لضعفة جيرانه بالليل**»[4]؛ ذلك أنه لم يكن في المدينة المنوّرة أنهار، بل كان فيها آبار بعيدة القعر، فلذا كان الإمام عليه السلام يستقي لهؤلاء الضعفة من كبار السنّ وغيرهم من جيرانه، فيمتح الماء بالدلو ويحمله على ظهره ثم يذهب به إلى بيوتهم.

حمايته عليه السلام عائلة مروان في واقعة الحرّة

وينطلق عليه السلام إلى أبعد من ذلك في رعاية جيرانه كما سأذكر لك هذا عبر ما فعله مع عائلة مروان. وقبل هذا أودّ أن أُشير إلىٰ قضية في التشريع الإسلامي أدّت إلىٰ ظهور ما يسمى بقاعدة «لا ضرر ولا ضرار»، وهي من أضخم القواعد الإسلاميّة، ويستند إليها فقهاء القانون وفقهاء الشريعة في

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

(٣) المجل: أثر العمل في الكفّ حينما يعالج بها الإنسان الشيء حتىٰ يغلظ جلدها من المشقة. لسان العرب ١١: ٦١٦ ـ مجل.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.

حلّ كثير من القضايا. وفي عصرنا هذا يقولون عن هذه القاعدة: إنها تستعمل عند التعسّف باستعمال الحقّ، مثل أن يكون عند أحد قطعة أرض يريد بناءها، فعليه أن يراعي جاره بألّا يحجب عنه الشمس أو الهواء، فلا يتعسّف عليه باستعمال حقّه باعتبار أنه يملك هذه القطعة من تخوم الأرض إلى عنان السماء.

كان سمرة بن جندب ـ وهو من الصحابة، ثمّ أصبح بعد ذلك مدير شرطة زياد، وعاش إلى أيام الحسين عليه السلام، وكان يدفع الناس إلى قتاله عليه السلام ويشجعهم على ذلك ـ يملك نخلة في بيت جار له من الأنصار، فكان يدخل على جاره فجأة متى شاء، وهو جالس مع أهله فيطّلع على أهله بذريعة الوصول إلىٰ نخلته. فشكاه الأنصاري إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فاستدعاه وقال: له: «**هبها له ولك كذا وكذا**». أمراً رغّبه فيه، فأبى فقال صلى الله عليه وآله: «**أنت مضارّ**». ثم قال صلى الله عليه وآله للأنصاري: «**اذهب فاقلع نخلته**»[1].

هذا لون من الجوار الذي رأته المدينة، في حين أن الإمام السجّاد عليه السلام يؤوي عائلة مروان ويبعث ابنه عبد اللّه لحماية زوجته، ويقول له: «**إنه جارنا**». وذلك لما حدثت واقعة الحرة في المدينة، وأراد الثوّار أن يقضوا على عوائل بني أُميّة بالكامل، فجاء مروان يهرول إلى عبد اللّه بن عمر يطلب منه إيواء عائلته، فقال له: ليس عندي مكان، ولا أُدخل أحداً إلى بيتي. فراحوا يتسكّعون على البيوت، حتى جاؤوا بأجمعهم إلى دار زين العابدين عليه السلام، فاستقبلهم وأدخلهم داره، وبقوا حتى نهاية الثورة في بيت

---

(١) النصائح الكافية: ٧٦، وانظر: سنن أبي داود ٢: ١٧٣ / ٣٦٣٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ١٥٧، المحلّى ٩: ٢٩ /المسألة: ١٥٤٠، نيل الأوطار ٦: ٦٧، وفي بعضها أنه كان إذا وقعت تمرة منها وأكلها صغار الأنصاري مدّ يده إلىٰ فيه واستخرجها منه ولم يسمح له بأكلها.

الإمام عليه السلام ينفق عليهم ويحميهم[١].

والأكثر من ذلك أن عائشة بنت الخليفة الثالث زوجة مروان أرادت أن تخرج من المدينة هرباً من الثورة، فأرسل عليه السلام معها ابنه عبد اللّه حتى أوصلها إلى الطائف، وظلّ مرابطاً على باب بيتها ثلاثة أشهر لحراستها[٢].

ومن هو مروان؟ إنه من كان يتقرّب إلى اللّه بشتم أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يقول للحسين: أنصحك ببيعة يزيد فإنه خير لك في دينك ودنياك[٣]. وكان يضرب ثنايا الإمام الحسين عليه السلام ويرتجز:

يا حبّذا بردك باليدينِ ولونك الأحمر بالخدّينِ

شفيت نفسي من بني الحسينِ[٤]

فهل رأيت في التاريخ نموذجاً مثل هذاالعفو؟ إنه مصداق لقول الفرزدق:

مشتقّة من رسول اللّه نبعته طابت عناصره والخيم والشيَمُ

ما قال لا قطّ إلّا في تشهّده لولا التشهّد كانت لاؤه نعمُ[٥]

الاستعداد العلمي والأخلاقي لحمل الرسالة

الزبور هو مجموعة الكتب السماوية؛ لأن الزبْر هو عبارة عن الكتابة، وكل الكتب السماوية مكتوبة. فالمقصود بالزبور إذن هو رسالات السماء التي حملها الأنبياء عليهم السلام، والذكر يقصد به اللوح المحفوظ، وعلى هذا

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٣) اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦.

(٤) شرح الأخبار ٣: ١٦١، مثير الأحزان: ٧٥، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ٣٣٩.

(٥) الاختصاص: ١٩٤، تاريخ بغداد ٩: ٢١٠.

يكون معنى الآية الكريمة: أنا قد قضينا بأن الأرض يرثها عبادنا الصالحون، وأنها ستكون لهم وحدهم دون غيرهم.

إن كتب السماء تحمل الحقائق دون شكّ، لكن التوصّل إلى معرفة هذه الحقائق يحتاج إلى تبحّر واستعداد علمي؛ كي يتمكّن الإنسان من إدراك كنهها. وبتعبير آخر: إن الآيات الكريمة هي عبارة عن فيض من العطاء على مستويات عدّة من العلم والمعرفة والإخبار عن المغيّبات، لكن يجب أن تكون في أيدٍ أمينة، وهم أهل العلم والمعرفة الذين يختصّهم الله تعالىٰ، وهم المعبّر عنهم بالراسخين في العلم[1]. فالذي يريد أن يتناول آية من آيات الكتاب دون أن يكون له حظّ من العلم فإنه سيخلط الأُمور ببعضها، أو أنها هي ستختلط عليه. وهذا أيضاً يشمل من عنده علم لكنه لا يمتلك أي خلفية دينية؛ فإنه سيخلط الأُمور أيضاً وسيصرف الآيات عن معانيها إلى معانٍ أُخرى تمليها عليه نفسه.

جاءني أحدهم يسأل فقال: إن أحد المتحاملين على أمير المؤمنين عليه السلام يعترض على ما ينسب له عليه السلام حول قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[2]، وأشياء أُخرى ثابتة في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام، كقلع باب خيبر، فيقول: إن هذه الأُمور كلّها تنسب كذباً إلى أمير المؤمنين عليه السلام. ومثل هذا لا يستبعد منه أن يقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام شخصيّة وهمية وليس لها وجود، ونحن لا نلوم هذا؛ فالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول لأمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق**»[3]. ورحم الله صفي الدين الحلي؛ حيث يقول:

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ آل عمران: ٧.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١:

بحبِّ علـيٍّ تسرُّ النفوسُ وتزكو القلوبُ وتحلو الثمارْ
فإمّا رأيتَ له مبغضاً ففي أصلِهِ نسبٌ مستعارْ

على أية حال إن هذا الأمر لا يضير أمير المؤمنين عليه السلام بشيء، ولا ينقص من قدره ومكانته.

المقصود من الأرض

وعلى ضوء هذا التقريب لنرَ هذه الآية من أي الاقسام هي، إن الناظر إلى هذه الآية بعد التأمّل والتدقيق سيجد أنها من النوع الثاني من القسم الثاني. وسأُوضح هذا المعنى إن شاء الله تعالى خلال استعراضي لبعض النقاط الرئيسة التي يتضمّنها البحث. فللمفسّرين ثلاثة آراء حول المراد من الأرض في الآية:

الرأي الأوّل: أنها الجنة

إن بعض المفسرين يذهبون إلى أن المراد بالأرض هنا هي الجنّة؛ بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[1].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية إن لسان الآية فيه عموم، فالأرض لو كانت هي هذه الأرض التي نحن عليها لرأينا أن هناك تناقضاً بين الآية والواقع؛ لأن الصالحين لم يرثوا من هذه الأرض شيئاً، فهي كلّها لغير الصالحين. والواقع يقول هذا ولا يمكن لأحد أن ينكره، فالأرض كلها الآن بأيدي الكفرة، فسيبيريا وحدها بحجم البلاد العربيّة وهي بأيدي الكفرة، وقطعة

(١) الزمر: ٧٤.

من بلادهم. إذن الأراضي اليوم قد ورثها غير الصالحين، وقد لا يحصل فيها صالح على قطعة أرض يعيش عليها، وهؤلاء غالباً هم حملة الرسالات، والدعاة إلى الإيمان؛ ولذا فانهم كانوا ولا زالوا مطاردين لا يجدون مكاناً يستقرّون فيه. وقد سئل أحدهم: أين أنت حين طلبك الحجاج؟ فقال: بحيث يقول الشاعر:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى　　وصوّت إنسانٌ فكدت أطيرُ[1]

وهذا البيت يصوّر حال الصلحاء ـ الذين هم غالباً ما يكون شأنهم هكذا ـ أفضل تصوير. ولأضرب لك مثلاً واحداً يشهد بصحّة هذا، فسعيد بن جبير رضي الله عنه كان قد طارده الحجاج مطاردة مروعة بعد فشل ثورة القرّاء، وضيّق عليه الخناق حتى لم يكن يجد موطئ قدم يلوذ به ويلجأ إليه، وبث العيون في كل النواحي تترصّده وأرسل الطلب خلفه يتعقّبونه، حتى وصل به الأمر أن نزل قرب دير. وكانت الشرطة تجدّ في طلبه حتى وصلت إلى الدير الذي نزل قربه، فرأوا راهباً في صومعته، فسألوه عنه فدلّهم عليه.

فانطلقوا فوجدوه ساجداً يناجي ربّه، فدنوا منه وسلموا عليه، فأتمّ بقيّة صلاته، ثم ردّ السلام عليهم، فقالوا له: إنا رسل الحجّاج إليك، فأجبه. فقام معهم حتى انتهوا إلى دير الراهب، فقال لهم الراهب: يا معشر الفرسان، اصعدوا؛ فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير. فلما همّوا

---

(١) الكنى والألقاب ٣: ٢٤٥، وفيه أن إبراهيم النخعي تمثّل به حين سئل: أين كنت حين طلبك الحجاج؟ غريب الحديث (الحربي) ٣: ٩٤٩، معجم البلدان ٢: ٤٨٣، وفيه أنه للأُحيمر السعدي، وكان قد أتى العراق فقطع الطريق، فطلبه أمير البصرة سليمان بن علي وأهدر دمه، فهرب وذكر حنينه إلى وطنه، فأنشد قصيدة منها هذا البيت.

بالصعود أبى سعيد أن يدخل معهم، فقالوا: ما نراك إلّا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكني لا أدخل منزل مشرك أبداً. قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. قال: لاضير، إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرساً تحرسني. فقالوا: فأنت من الأنبياء؟ قال: ما أنا من الأنبياء، ولكن عبد من عبيد الله تعالى مذنب.

ثم أعطاهم موثقاً ألّا يبرح مكانه حتى يُصبح، فرضوا بذلك، ولما صعدوا إذا هم بلبوة قد أقبلت، فلمّا دنت من سعيد تمسّحت به، ثم ربضت قريباً منه، وأقبل الأسد فصنع كذلك، فأمرّ سعيد يديه على رأسيهما، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا، نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله، ففسّر له سعيد ذلك كلّه، فأسلم.

ثم جاء به القوم إلى الحجّاج، فقال لهم: أتيتموني بسعيد بن جبير؟ قالوا: نعم، وعاينّا منه العجب. فصرف بوجهه عنهم، وقال: أدخلوه عليّ. فخرج المتلمّس[1] فقال لسعيد: أستودعك اللّه ، وأقرأ عليك السلام.

فأُدخل عليه. فقال له الحجّاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير. قال: أنت شقي بن كسير. قال: بل أُمي كانت أعلم باسمي منك. قال: شقيت أنت وشقيت أُمّك. قال: الغيب يعلمه غيرك، فلم تنعتني وإيّاها بالشقاء؟ فقال له: لأُبدلنّك بالدنيا ناراً تلظّى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً. ثم سأله: ما قولك في محمد صلى الله عليه وآله؟ قال: نبي الرحمة، وإمام الهدى. قال: فما قولك في علي؛ في الجنة هو أم في النار؟ قال: لو دخلتها، فرأيت أهلها عرفت. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال:

(١) كان قائد الحملة المكلّفة بالبحث عن سعيد رضي الله عنه .

فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي. قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عنده. قال: أبيت أن تصدقني. فقال: إني لم أُحبّ أن أُكذبك. قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: لم تستوِ القلوب. فقال: ويلك يا سعيد. قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأُدخل النار. قال: اختر أي قتلة تريد أن أقتلك. قال: اختر أنت لنفسك يا حجّاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلّا قتلتك قتلة في الآخرة. قال: فتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن اللّه، وأما أنت فلا براءة لك ولاعذر.

ثم أمر الحجّاج بالنطع وقال: اذهبوا به فاقتلوه. فقال: ﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1]. قال: شدّوا به لغير القبلة. فقال: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾[2]. قال: كبوه لوجهه. قال: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾[3]. قال: اذبحوه. قال: إني أشهد وأُحاجّ أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة. ثم دعا سعيد الله تعالى وقال: اللهم لا تسلّطه على أحد يقتله بعدي. فذبح على النطع.

وهكذا كان؛ إذ مات بعده بخمس عشرة ليلة لم يستقرّ فيها لحظة، فقد كان إذا نام رآه في المنام وهو يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو اللّه، فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير، مالي ولسعيد بن جبير؟[4]. ولذا يقول له أحد الأُدباء:

---

(١) الأنعام: ٧٩. (٢) البقرة: ١١٥.

(٣) طه: ٥٥.

(٤) تاريخ الطبري ٥: ٢٦٠، الطبقات الكبرى ٦: ٢٦٥، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٢٨، حلية الأولياء ٢: ٢٩٠ / ٤.

بـــــعضَ التـــفكّرِ يـــا فـــتى فأخـــو الحـــصافة مـــا انســبرْ
هـــل أنت فـــي أمـــن مـــن الـ أحـــــداثِ تـــعصفُ والغِـــيرْ
أو مـــــا رأيت ســـــجونَ وا ســـــطَ كـــالهشيمِ المـــحتضرْ
ومـــــقاصرَ الحـــجّاجِ تـــضـ ـــحكُ فـــي مـــدارِكِـها العــبرْ
كُـــتب الخـــلودُ بـــها لمـــجـ ـــــزورٍ وليس لمـــن جـــزرْ
أضـــحى بـــها ابـــنُ جـبير يُـتـ ـــلى مـــثلَ فـــاتحةِ الســـورْ

فانظر عاقبة المتّقين وعاقبة المفسدين؛ فأين الحجاج الآن؟ وأين ضخامة بنائه؟ الحجّاج لم يكن إلّا تراباً على ظهر الأرض وعاراً في بطون الكتب ولعنة في أذهان الناس و على ألسنتهم، وهذه هي عاقبة الظالمين.

فهذه الأرض لم تكن دائماً إرثاً للصالحين، بل قد لا يملك الصالحون فيها موطئ قدم، وقد ضاقت على سعيد وأمثاله من المؤمنين؛ وهذا يدلّ بشكل واضح على أن الأرض التي وعد الله تعالى بها المؤمنين هي الجنّة.

كما أن هؤلاء يقولون: إن القرآن الكريم لا يمكن أن يحمل على الظاهر دائماً؛ لأن هذا الظاهر يصطدم بالواقع أحياناً؛ فكان لابدّ من تخصيصه بالواقع، وهو ما يعبّر عنه بأنه عموم مخصّص بالواقع. فالقرآن الكريم لا يمكن أن يكون فيه كذب حاشا للّه ، وعليه فلابدّ من تأويل هذه الآية بأنها الجنة؛ حتى لا يقع التكاذب.

بيـان

قد بيّنت أكثر من مرّة أننا عندما نرجع إلى الروايات فينبغي أن نأخذ منها على الإجمال ما ورد على لسان المعصومين عليهم السلام ، وبالطريق الصحيح السالم من المؤاخذة. والغرض من هذا البيان هو أنني أُريد أن أُبيّن حقيقة

ناصعة هي أن القطعة الصغيرة التي يعيش عليها المؤمن تعادل الدنيا بما فيها من نعيم وملذّات، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «اللهم إن كنت حبست عنّا النصر عاجلاً، فاجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً في مستقرّ رحمتك، واجمع بيننا وبينهم تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلّك»[1].

الرأي الثاني: أنها أرض القدس

وهذا ما يميل إليه بعض المفسّرين الذين يذهبون إلى أن المراد بالأرض في الآية الكريمة أرض القدس، أي أرض القبلة الأُولى؛ فبيت المقدس كان قبلة المسلمين أوّل الأمر حينما شرعت الصلاة.

علّة جعل بيت المقدس قبلة

والظاهر أن المراد من تشريع القبلة إلى بيت المقدس هو أن الله تعالى يريد أن يثبت للعرب في ذلك الوقت أن التوجّه بالعبادة هو ليس استمراراً لتوجّههم إلى الكعبة ـ ذلك أنهم كانوا يتوجّهون إليها في عباداتهم ـ لأن الله تعالى ليس في جهة، بل إن التوجّه إلى أي جهة يأمر بها هو توجّه إليه تعالىٰ، وليس بالضرورة أن يكون ذلك إلى الكعبة. ولذلك توجّه المسلمون أوّل الأمر إلى بيت المقدس مدّة طويلة؛ لأنه أرض مقدّسة، وهي الأرض التي بارك الله تعالى فيها[2]، وهي مصلّى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأنبياء عليهم السلام كلهم. كما أنه هو المكان العزيز علينا بكلّ ما فيه من آثار، والذي تربطنا به رابطة العقيدة والروح والوجود والكرامة والدم.

---

(١) قريب منه في الإرشاد ٢: ١٠٨، مثير الأحزان ٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ الإسراء: ١.

ولا شك أن بيت المقدس من الأماكن العزيزة على نفس كلّ مسلم يتوجّه يومياً إلى الله عزّ وجلّ؛ فهو يذكر أن هذه المنطقة كانت في يوم من الأيام قبلة أسلافه الأُولى. كما أنها ترتبط بمشاعرنا من ناحية تاريخية.. ترتبط بمشاعرنا من ناحية الإسراء والمعراج. وهي الآن تشكّل وصمة عار علينا جميعاً لما تتعرّض له من تدنيس على أيدي حفنة من اليهود الذين اغتصبوها من أيدي كلّ هذه الأُمم الإسلاميّة. وبناء على هذا الوعد الذي تقرّره هذه الآية الكريمة يقول أحد الأُدباء:

بصماتُ المسيحِ فوق ثراهُ وشذا من عبيرِه فوّاحُ
وبه من محمدٍ قسماتٌ يجتلي حسنَها السنا اللمّاحُ
سيعود السلامُ يا بلدَ القد سِ وشيكاً ويطردُ السفّاحُ
وستزهو ملاعبٌ بالصبايا وتننثُّ الهوى وجوهٌ صباحُ
ليس حلماً يا أرضَ قدسٍ ولكن كفُّ قومي بدا بها مفتاحُ[1]

فرية عبد الله بن سبأ

وللحقيقة أقول: إننا قد ابتلينا باليهود وبأذنابهم، وإلّا فإنه لم يكافح أحدٌ اليهودَ على مرّ التاريخ كما كافحناهم نحن الشيعة، ونحن الآن نرفع شرف مكافحة اليهود، ففي الجنوب اللبناني الشيعي ترتفع الأصوات وتلعلع الأسلحة وهي تبارز اليهود[2]. فلتخرس جميع الأصوات التي ترمينا بأننا يهود، فاليهود غيرنا وليس نحن. وعندما نسأل هذا المفتري علينا فريتَه هذه عن سبب إطلاقها ضدّنا، وعن دليله عليها، فإنه يتذرّع بشخصيّة

(١) ديوان المحاضر ١: ٧٢.

(٢) وكذلك يوم القدس العالمي الذي أُعلن في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك من كل عام.

مفتعلة اسمها عبد الله بن سبأ. ونحن نقول لهذا المفتري: إذا كنت ترمينا بعبد الله بن سبأ واحد، فأنت عندك مئة عبد الله بن سبأ، ومع ذلك نجدك تنزّه نفسك عن وصمة اليهوديّة وتدّعي أنك لست يهودياً. مع أن هذه الشخصية هي شخصيّة وهمية لا وجود لها، وهذا ما يقول به حتى كتّابكم[١].

ولو تنزّلنا وفرضنا أنه شخصيّة حقيقيّة، فهل يعني هذا أن تصبح الأُمة كلّها يهوديّة؟ هذه كتبنا وهذا تاريخنا ابتداء من أمير المؤمنين‌عليه‌السلام وإلى الآن يشهد بذلك؛ ونحن نسأل: على يدي من قتل مرحب؟ فإن كان هناك من يقول: إنه لم يقتله علي بن أبي طالب‌عليه‌السلام فإن هذا لا مجال للحديث معه؛ لأنه مكابر وعار على الدنيا، وعار على الذوق الإنساني وعلى التاريخ.

وهل علي بن أبي طالب‌عليه‌السلام محسوب على جهة أو منسوب إلى فئة من المسلمين دون غيرها؟ إنه عطاء للمسلمين كافّة، وهو سيف مشهور دون كلمة الله تعالى .

إذن فسيوفنا قد قارعت اليهود وكذلك سواعدنا قُطعت من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وطرد الفكر اليهودي وهي تحاربهم، أما أقلامنا فهي من أول الأقلام التي قارعت اليهود عبر التاريخ، ودونك تفاسيرنا تشهد بذلك، فهي خالية من الإسرائيليّات التي تزخر بها تفاسير غيرنا مثل خبر الجسّاسة[٢]. والذي له صلة بهذا التاريخ يعرف هذا المعنى. إننا قاتلنا

(١) لمزيد من الاطّلاع يراجع كتاب (عبد الله بن سبأ) للباحث السيد مرتضى العسكري.

(٢) انظر: مسند أحمد ٦: ٣٧٣، ٣٧٤، ٤١٢، ٤١٧، ٤١٨، صحيح مسلم ٨: ٢٠٤، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٥٥ / ٤٠٧٤.

اليهود وما زلنا نقاتلهم؛ فكراً وقلماً وسيفاً وساعداً.

إذن المقصود بالأرض التي سيرثها الصالحون ـ الأرض الموعودة ـ هي أرض بيت المقدس..أرض القبلة الأُولى والمقدسات..البلدة التي ابتليت باليهود؛ حيث دنّستها أقدامهم. ونحن لا ننكر أن هذه التربة الطاهرة قد ارتوت من دماء المجاهدين، فهي كانت ولازالت تشكّل بؤرة صراع بين الحقّ والباطل، لكن لا يمكن أن يرفع العار عن جباه المسلمين حتى يستردّوا هذه الأرض الطاهرة ويسترجعوها من أيدي اليهود الغزاة الكفرة. والقرآن الكريم يعطينا هذا الوعد ويذكّرنا أن هذه التربة.. تربة بيت المقدس ستكون مرتع الصالحين من عباده.

الرأي الثالث: أنها هذه الأرض المعروفة

فالمقصود بالأرض التي سيرثها الصالحون وفق هذا الرأي هي كل هذه الأرض التي نعيش عليها. لكن لنا أن نتساءل: كيف يرثها الصالحون؟ وما معنى هذه الوراثة؟ هل معناها أن هناك من يملك الأرض ولا يعلم ما الذي أودعه الله تعالى فيها ولا كيف يستثمرها، وأن الذي يعرف كيف يستثمرها هو الذي سيرثها؟

أقسام العوامل البيئيّة

ولكي أُقرّب لك هذا المعنى أقول: إن علماء البيولوجيا يقسمون عوامل البيئة إلى قسمين هما:

الأوّل: العوامل الجامدة (Physical factors)

وهي عوامل البيئة الجامدة وإنما سميت عوامل جامدة؛ لأن المقصود بها خواصّ الأرض التي تشكّل النصف الأكبر من عوامل البيئة، وهي الحرارة والهواء والجاذبيّة وخواصّ التربة ومكوّنات الأرض وتضاريسها.

الثاني: العوامل الحيّة(Living factors)[١]

والمقصود بها الأحياء التي تعمر الأرض، وهي التي يعبّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾[٢]، فيأتي الفلّاح ليبذر البذرة ويذهب وهو لا يعلم ما الذي يحصل بعد ذلك من عوامل تخدم هذه البذرة حيث إنها تخدمها المليارات من البكتريا الموجودة في جوف الأرض، وهي تهيئ لها الأسمدة والاملاح. ثم إن مكونات التربة المغذية للنبات تستخرج وتحضر معمليّاً حيث يحقن بها النبات ومنها الأوكسينات والفايتمينات وغيرها، وكل هذا دلّتنا عليه الكشوفات العلميّة التي اضطلع بها أهلها.

كما أن هناك أشياء أُخرى بعضها قد يكون غريباً كاستخراج الماء من الأرض، وهم أشخاص موهوبون، وأولهم «بازل فالنتيني» الذي عاش في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي، حيث كان يحمل عصا يستدلّ بها على وجود الماء تحت الأرض. ثم جاءت من بعده الكشوفات العلميّة الحديثة التي تتعرّف على مواقع المياه الجوفية.

فهؤلاء هم الذين يستفيدون من الأرض وليس نحن الذين لا نستطيع أن نستخرج المعادن منها، ولا أن نستثمرها، ولا نعرف نوع الزراعة التي تصلح لها. إذن فالذي يعرف هذه الأشياء هو المالك الحقيقي للأرض، وليس نحن. فقوله تعالىٰ: ﴿**أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾تعبيره واضح في أن وارث الأمر هو الذي يملك الاستعداد لاستثمارها.

وهذا الرأي نقله أحد الكتّاب في كتابه (بدع التفاسير)، وحمل على صاحبه حملة شديدة، واتّهمه بأنه يدعو الاستعمار إلى احتلال أراضينا،

---

(١) Living agent.

(٢) المدّثر: ٣١.

ووصفها بأنها دعوة مقنعة للاستعمار. لكن إذا كان الأمر كذلك فـلماذا لا تسبق الاستعمار وتستخرج خيرات الأرض وما فيها من معادن وغيرها؟ ولماذا لا تستثمر البيئة بكل ما فيها وقد سخّرها الله تعالى لك؟ إننا نتمنّى أن نجد من أبنائنا هذا الحرص، وأن نجد فيهم من يستثمر خيراتـنا ولا يدع الأجنبي يدخل بلادنا ليستثمرها هو. لكن هذا لايمنعنا من الاعتراف بالواقع المرّ الذي نعيشه، والذي يجب أن نتأقلم مع آثار الاعتراف به، إننا لا نستطيع بما نملك من إمكانات أن نستثمر هذه الخيرات التي منحنا الله تعالى إياها، فيجب أن نشمّر عن السواعـد وأن نـتوجّه إلى اسـتثمارها والاستفادة منها. وإلّا فإن من غير الصحيح أن يتفضّل الله تعالى علينا بكلّ هذه النعم ولا نتوجّه إلى الاستفادة منها، فبلادنا مـليئة بـالكنوز ونـحن غافلون عن استثمارها. فهل إننا لا نعرف كـيف يـتم ذلك، أم أن القسـم الأكبر منا لاهون عنها بالصراعات المحتدمة فيما بينهم. وتكفير بـعضهم البعض. فالواجب أن نتوّجه إلى الجانب المهم مـن المسألة الذي يـرتبط بوجودنا مباشرة، وأن نشغله بما يسده ويصبّ في مصلحتنا .

فهذه الحملة ليست في محلّها أبداً، فالأرض فعلاً هي التي يجب أن يرثها الصالحون الذين يعرفون كـيف يسـتثمرونها وكـيف يـوجّهون الطـاقات المخزونة فيها، والكنوز المودعة بها في خدمة الإنسان والبلد. ولا شك أن هؤلاء الصالحين هم الذين سيرثون الأرض ومن عليها، وسيأخذونها منا شئنا أم أبَينا، ولن يبقى لنا سوى الاسم، أي أنها ستكون حـينها أرضـنا بالاسم فقط، لكن الغير هو من يستثمرها ويأخذ من عطائها ما لا نقوى نحن على حصره ومعرفته والإفادة منه.

وهذا في الواقـع شـيء مـؤلم، والمسـلمون بأجـمعهم مـدعوّون إلى أن

يتصرّفوا بما منحهم الله عزّ وجلّ من ثروات وخيرات تصرّفاً لائقاً يتناسب مع ضمان هذه الثروات، وأن يتعلّموا كيف يستغلّونها، وكيف يفجّرون خيرات الأرض ويستنبطونها ويصنعونها ويوجّهونها لما فيه خيرهم وخير دينهم وخدمته. وليُعلم بأن الأُمم الأُخرى تحسدنا على ما عندنا من ثروات حسداً عظيماً، فكيف يمكننا أن نتّقي هذا الحسد؟ إن من الممكن أن نتّقيه بالجدّ وبذل الوسع والطاقة في تحصيل المعارف والعلوم، والله تعالى قد دفعنا إلى العلم وتعلّمه، ولم يخصّ ذلك بعلم من العلوم[1].

العلم ليس للأديان والأبدان فقط!

وقد رأيت بعض الكتّاب الإسلاميّين الذين يتناولون هذا الجانب يقولون: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، والمقصود بهما العقيدة والطب، لكن لنا أن نسأل: هل إن الاجتماع والفيزياء والكيمياء والنفس والفضاء ليست علوماً؟ يقول الرسول الأكرم ﷺ: «**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك اللّه به طريقاً إلىٰ الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به. وإنّه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتىٰ الحوت في البحر، وفضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر النجوم ليلة البدر، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء**»[2]. وهذا لا ينافي أي علم من العلوم التي تخدم الإنسانية، فكل واحد منها بحدّ ذاته يعدّ علماً محبوباً إلى الله. إذن ماهو الداعي إلى حصر العلوم بهذين الجانبين فقط؟

ومن هذا نعلم بأننا مدعوّون إلى الاستفادة من طاقاتنا الذهنيّة والبدنيّة؛

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ الرحمن: ٣٣.

(٢) الجامع الصحيح (سنن الترمذيّ) ٥: ٤٨-٤٩ / ٢٦٨٢.

كيلا نسمح لها أن تذهب إلى أيدي غيرنا، وهو ما يحصل الآن. وما يجري في بعض البلاد الإسلاميّة الغنيّة شيء يؤسف له؛ حيث تجد أحدهم لا ينزل إلى عمل من الأعمال البدنيّة المرهقة في حين أننا نرى هذا الذي كان يعيش في جنة من الجنان يأتي بهذا الحرّ الشديد الذي ربما يصل إلى ٥٠ ٪، وينزل إلى بئر عمقها سبعون متراً ثم بعد ذلك يخرج ملطّخاً بالزيوت والأوساخ من أجل أن يعمل وأن يستثمر طاقاته وقدراته وطاقات الأرض وقدراتها، وهو إلى ذلك يملك قلباً من أروع ما يكون، في حين أننا نأنف من هذا العمل، ونحاذر أن تتّسخ ثيابنا أو أن يصيبها الغبار. كان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج من المسجد ثم يمرّ بميثم رضي الله عنه ويشتري منه شيئاً من التمر، ثم يحمله بيده الشريفة، فيتلقّاه شرطة الخميس ويطلبون منه حمل هذا التمر، فيقول: «ربّ العيال أحقّ بحمله»[1].

فانظر إلى هذه العصامية الرائعة التي تمثّل لنا أروع درس عملي في أن نتولّى زمام أُمورنا بأنفسنا، وأن نباشر حاجاتنا دون الاتّكال على غيرنا. أما المتبطّرون كما يروى[2]، فينادي أحدهم ـ وهو المأمون ـ غلامه ويأمره بأن يصبّ الماء على يده ليتوضّأ، فنهاه الإمام الرضا عليه السلام وقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[3].

إذن فالأرض إنما يرثها من حمل العلم والفكر والمعرفة. وهذا هو الذي يحصل على أرض الواقع؛ فالأرض الآن مليئة بالخيرات ولم يستثمرها

---

(١) الغارات ١ : ٨٩، مناقب آل أبي طالب ١ : ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢ : ٤٨٩، البداية والنهاية ٨ : ٦، كنز العمّال ١٣ : ١٨٠ / ٣٦٥٣٧.

(٢) الإرشاد: ٣١٥، وسائل الشيعة ١: ٤٧٨ / ١٢٦٩.

(٣) الكهف: ١١٠.

ويوصلها إلى ما هي عليه الآن غير العلماء.

الرأي الرابع: أنها دولة المهدي عليه السلام

إن أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن المراد بالأرض التي يرثها العباد الصالحون هي الأرض التي تكون في زمان دولة الإمام المهدي عليه السلام؛ حيث إنه عليه السلام سيملؤها عدلاً وقسطاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً. فالأرض مرت على امتداد تاريخها الطويل بأزمان سيطرت فيها الانحرافات والظلم والفساد، فالذي ينبغي أن يكون إذن هو أن يسيطر عليها زمان العدل والقسط. وهذا هو لسان الحديث النبوي الشريف الذي يفسّر لنا هذه الآية، تروي كتب الصحاح أن النبي صلى الله عليه وآله قال: **«لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج من أهلي من يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»**[1].

وهذا ما عليه المذاهب الإسلامية كافّة. روى الثعلبي في تفسيره أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: **«نحن ولد عبد المطلب سادة الجنة؛ أنا وحمزة وجعفر وعلي والحسن والحسين والمهدي»**[2]. فبأي معنىً وبأي صفة يكونون سادة الجنة؟ طبعاً بما يستحقّون به ذلك كنتيجة طبيعيّة لما قدّموه من عطاء

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٧، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣ / ٢٣٣٨، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

وقد روي في كثير من الكتب من غير لفظ: «لطوّل الله ذلك اليوم»، انظر: سنن ابن ماجة ٢: ٩٢٩ / ٢٧٧٩، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ ـ ٣١٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٩، صحيح ابن حبّان ١٣: ٢٨٣ ـ ٢٨٣، المعجم الكبير ١٠: ١٣٣، المعجم الأوسط ٢: ٩٩، وغيرها.

(٢) عنه في بحار الأنوار ١٥: ١٠٣، وانظر: سنن ابن ماجة ٢: ١٣٨٦ / ٧٠٨٧، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢١١، ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

للإنسانية. فإمامنا الذي ننتظره يستحقّ أن يكون من سادات الجنة، يقول الحديث الذي يرويه أبو داود وينتهي إسناده إلى أبي هريرة: «كيف بكم إذا نزل عيسى بن مريم وإمامكم منكم يصلّي به»[1].

يقول عيسى بن صبيح: دخل العسكري عليه السلام الحبس علينا وكنت به عارفاً، فقال لي: «لك خمس وستّون سنة وشهر ويومان؟». وكان معي كتاب دعاء عليه تاريخ مولدي، فنظرت فيه فكان كما قال، ثم قال: «هل رزقت من ولد؟». قلت: لا. قال: «اللهم ارزقه ولداً يكون له عضداً؛ فنعم العضد الولد». ثم تمثّل:

«من كان ذا ولدٍ يدركْ ظلامتَه ... إن الذليلَ الذي ليس له ولدُ»

فقلت له: ألك ولد؟ قال: «إي واللّه، سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، فأما الآن فلا». ثم تمثل وقال:

«لعلك يوماً أن تراني كأنما ... بَنيّ حواليّ الأُسودُ اللوابدُ

فإن تميماً قبل أن تلدَ الحصى ... أقام زماناً وهو في الناسِ واحدُ»[2]

وفعلاً رزقه الله إمام العصر الموعود المنتظر عليه السلام الذي تتوق إليه أبصار المؤمنين.

---

(١) لم نعثر عليه عند أبي داود، وقريب منه ما في سننه ٢: ٣١٩ / ٤٣٢٤، وهو مروي في الإصابة ٤: ٦٣٧. وقد نقل في فتح الباري ٦: ٣٥٨، عن الشافعي، وفي عون المعبود ١١: ٣٠٧أن الأخبار متواترة في نزول النبي عيسى بن مريم عليه السلام وصلاته خلف الإمام المهدي عليه السلام، بل في (عون المعبود) أنه عليه السلام ينزل بجسده العنصري.

(٢) الخرائج والجرائح: ٣١٩، كشف الغمّة ٣: ٣٠٧.

التشكيك بقضية المهدي عليه السلام

إن من يظنّ أننا نعيش في حالة من الوهم أو الخيال لاعتقادنا بمسألة المهدي المنتظر عليه السلام، أو أننا نعيش حالة تعويض[١] كما هو دأب الكثير من الكتّاب فإنما يخادع نفسه؛ لأن قضية المهدي عليه السلام ثابتة بالسنة المتواترة عند الفرق الإسلامية كافّة. إن هؤلاء الكتّاب يطرحون هذه الفكرة، وهي أن الشيعة قد مرّوا بتاريخ تعرّضوا فيه إلى إبادة وسجن، مما أدّى بهم إلى أن يكونوا تحت سيطرة حلم من أحلام اليقظة، أي أنهم راحوا يعوّضون الواقع المرّ بالأحلام فيتصوّرون أن هؤلاء الظلمة ستدول دولتهم؛ لخروج من ينتقم منهم ويأخذ بحقّهم لهم. وهذا ما يسمى بعمليّة التعويض.

والواقع أن الأمر خلاف ذلك؛ إذ أن جميع المذاهب الإسلاميّة يقولون بأن من لم يؤمن بالمهدي فهو كافر، بمعنى أنه ينكر ضرورة من ضرورات الدين. وكلّ الكتاب الذين هم على علم بمعرفة علوم الشريعة حينما يتناولون موضوع الإمام المهدي عليه السلام فإنهم يتعاملون معه على أنه حقيقة ثابتة لا سبيل إلى نكرانها، وكل ما في الأمر أنهم يقولون بأنه غير موجود الآن، وأنه سيولد بعد ذلك في آخر الزمان.

أما بناء على نظريتنا ـ من أن الأرض لا تخلو من حجة[٢]، وأنه ليس من الضروري أن نلتقيه أو نراه ـ فإنه عليه السلام مولود حي غائب. والاعتراض بكونه

---

(١) أو ما يسمى بإيجاد المعادل الموضوعي.

(٢) الأُصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢/٤٥، ٢٣٤/١٩٣، ٢٣٦/٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨/١، ٤٨٩/٤، ٥٠٥ ـ ٥٠٦/٤، ٩ ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧/١٧، ٥٠٩/٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥/باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠/باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

غائباً وبالتالي يكون وجوده كعدمه من جهة عدم إمكان الالتقاء به لا ينهض حجة ومبرراً لنقض فكرة الإمام المهدي عليه السلام؛ فنحن في هذا الزمان نعيش في بلد ونرجع إلى علماء يعيشون في بلد آخر، وتفصلنا عنهم مسافات بعيدة، ومع ذلك فإننا ننتفع بعلمهم وآرائهم ونظرياتهم. فغيبة الإمام عليه السلام هي غيبة عن الأبصار وليست غيبة عن الوجود. وهنا الفرق واضح؛ إذ أنه ربّما حضر مجالس العلماء وطرح رأيه وفكره في مسألة ما مع أفكار وآراء العلماء، وبالتالي فإننا نستفيد منه ومن وجوده.

وهذا ما تنصّ عليه الآيات الكريمة التي تأخذ بأعناقنا وتخبرنا بأنه موجود يعيش بين ظهرانينا ويشكل مصدر أمان لأهل الأرض: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ**﴾[1].

وإذا كانت هذه هي العلّة بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله، فالإمام عليه السلام هو امتداد للنبي ومتمّم لخطّه، وقد جعله الله أماناً لأهل الأرض، يقول الحديث الشريف: «**النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتىٰ أهل السماء مايكرهون، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي أتىٰ أهل الأرض مايكرهون**»[2].

فهذه النصوص ونظائرها تأخذ بأعناقنا للاعتراف بوجود الإمام عليه السلام، وأنه حقيقة قائمة وواقعة، وهو يعيش بيننا؛ وبالتالي فإننا لا نجترّ الأحلام ولا الخيالات، ولا نقوم بعمليّة تعويض، بل الأمر على العكس من ذلك؛ فهذه

---

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٣، ٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤ وغيرها

الكتب ملأى بالنصوص التي تؤكّد هذه الحقيقة. ولا يكاد أحدنا يجد كتاباً لا يتناول فكرة الإمام المهدي عليه السلام ويشرحها ويثبتها.

وهذا ما عليه المسلمون كافّة، ومن لا يعرف هذه الحقيقة أو ينكرها فهو لا يعرف كيف ينظر إلى التاريخ، بل ليس هذا عمله.

دليليّة التواتر على وجود الإمام المهدي عليه السلام

إننا الآن ندين بالإسلام ونؤمن برسالة نبيّنا صلى الله عليه وآله عن طريق التواتر، ومعنى التواتر هو وجود جماعة في كل زمان يؤمن جانبهم من التواطؤ على الكذب، فيخبرون بشيء، ويكون إخبارهم هذا المتواتر حجّة ودليلاً على صدق القضيّة[1]. ومثال ذلك أنك تعيش هنا فيأتيك شخص يحدّثك عن مدينة اسمها «ديترويت»، ثم يأتيك ثانٍ فيحدّثك عنها بمثل ما حدّثك عنها الأوّل، ثم يأتي ثالث فيحدّثك عنها أيضاً بمثل ما حدّثك به سابقاه، فإنك حينئذٍ تصدّق بوجودها وإن كنت لم ترَها؛ لوجود التواتر هنا. فالتواتر إذن هو ما يكون من طبقة عن طبقة يتعذّر تواطؤهم على الكذب. إذن فنحن إنما أخذنا علوم الإسلام بالتواتر، وكذلك أخذنا رواية الإمام المهدي عليه السلام بالتواتر أيضاً. وبالنتيجة فالإمام المهدي عليه السلام هو الذي يرث الأرض ليملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وليرفع فيها كلمة الله عز وجل، ولينشر بيننا القرآن الكريم غضاً طريّاً أي من غير تلاعب بمفاهيمه ولا عبث وتحريف بتفسيره؛ لأنه عليه السلام هو المنبع الذي يشرح علوم القرآن.

ونحن نقول له: سيدي يا صاحب العصر، إن أعناقنا إليك ممتدّة، وأبصارنا

---

(١) انظر اصطلاحات الأُصول: ١٤٢.

إليك شاخصة، يقول أحد الأُدباء:

شـخصنا إليك بأبـصارِنا شخوص الغريقِ لمرّ السفنْ

فالواقع نحن غرقى في بحر مظلم، وننتظر فيه من يخلصنا فنتوجّه إليه، لكن متى يأذن الله تعالى له؟ هذا ما لم تحدّده الروايات، نعم إنها تعطينا علائم على ظهوره لكن نحن توّاقون إلى رؤياه، ومنتظرون طلعته الرشيدة وغرّته الحميدة. وهذا الانتظار لا يعني تعطيل حكم من أحكام اللّه، وأرجو ألّا يختلط الأمر عليكم، فنحن الآن نقول بأن الجهاد واجب سواء وجد الإمام بيننا أو لم يوجد، رأيناه أو لم نرَه، وأعمالنا في الدنيا كلّها نحن مكلّفون بها. ففكرة الإمام عليه السلام وغيبته لا تعيقاننا عن أداء واجبنا وعباداتنا، ولا تحولاننا إلى مجتمع مشلول أبداً.

وغاية ما في الأمر أننا نرنو الإمام عليه السلام ونتوق إليه؛ لأننا نريد منه أن يقيم العدل وأن يضع الأشياء في مواضعها، غير أن أمر خروجه لا يكون حتى يأذن الله. يقول أحدهم: رأيت في عالم الرؤيا شخصين، فسألت عنهما فقيل لي: هذا الإمام المهدي عليه السلام وهذا الذي إلى جانبه هو السيد حيدر الحلي. يقول: فسمعت الإمام عليه السلام يخاطب السيّد الحلي بقوله: يا سيد حيدر، كفاك عتباً؛ فلقد قصمت ظهري إذ تلحّ علي بالعتاب:

مـاذا يـهيجك إن صـبر ت لوقـعةِ الطفّ الفظيعهْ
أتـرى تـجيء فـجيعةٌ بأمـضَّ مـن تـلك الفـجيعهْ
حيث الحسينُ عـلى الثـرى خيل العدى طحنت ضلوعَهْ
قـتلته آلُ أمـيةٍ ظـامٍ إلى جـنبِ الشـريعهْ
ورضـيعُه بـدمِ الوريـ ـدِ مخضّبٌ فاطلب رضـيعهْ
يـا غـيرةَ اللـه اهـتفي بـحميّةِ الديـنِ المـنيعهْ

وظُبا انتقامِك جردي لطلا ذوي البغي التليعهْ
ودعي جنودَ اللهِ تمـ ـلأ هذه الأرض الوسيعهْ[١]

فالإمام عليه السلام يقول له: أنت تلح عليّ بهذا الأمر، وإلحاحك يؤلمني، غير أني لا أملك من أمري شيئاً، فأنا أنتظر فيه أمر الله تعالى. ولذا فإن السيد رحمه الله يخاطبه كلّ يوم بقوله:

فيما اعتذارُك للنهوضِ وفيكُمُ للضيمِ وَسمٌ فوق كلِّ جبينِ
أَيمينُكم فقدَت قوائمَ بيضِها أَم خيلُكم أضحت بغيرِ مُتونِ[٢]

يقول المؤرّخون: إذا خرج الإمام المهدي عليه السلام يأتي أولاً إلى ضريح أبي عبد الله عليه السلام، فيقف عليه قليلاً ثم يجلس ويمدّ يديه، فيستخرج عبد الله الرضيع، ثم يعرضه على أصحابه، فيقول لهم: «ما ذنب هذا الطفل الرضيع، يقتل وهو على يدي أبيه؟».

كيفيّة نشوء اللغة وتطوّرها

إن منشأ اللغة أمر لا زال مثار نقاش بين العلماء، فهل إن اللغة توقيفيّة أم أنها تنشأ من المجتمع؟ أي هل أن اللّه عزوجل ألهم آدم عليه السلام اللغة حينما أنزله أوّل مرّة إلىٰ الأرض: ﴿عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[٣] بأن قال تعالىٰ له: قل لأهلك: هذه نخلة، وهذه أرض وهذه سماء إلىٰ آخره، أم إنها ليست توقيفيّة، وإنّما هي قابلة لأن تتبرعم وتنمو؟ إن كلّ واحد منا لابدّ أنه لاحظ أن لطفله أول نطقه لغة خاصّة به؛ فهو يسمي كلّ شيء باسم

(١) رياض المدح والرثاء: ٣٢. (٢) ديوان السيد حيدر الحلّي: ١١١.
(٣) البقرة: ٣١.

خاصّ، فيسمي الخبز باسم خاصّ، ويسمي لعبته كذلك، أي أنه يخترع الألفاظ للمعاني حسب قدرته. ثم بعد أن يكبر ويكبر معه رأسماله من اللغة بالتدريج نجده يطلق عليها أسماء أُخرىٰ جديدة، وهكذا. وعليه فالنظرية التي تقول: إن اللغة نشأت وتطوّرت في كلّ منطقة على حِدة، كالطفل في تدرّجه هي نظرية صحيحة.

إذن ليس الأمر أن اللغة أمر توقيفي بمعنىٰ أن اللّه عزوجل نزّل اللغة من السماء بل إنها نشأت على الأرض، فآدم عليه السلام بدأ يتفاهم أول أمره مع أهله مبدئياً بلغة الإشارة، ثمّ بعد ذلك تطوّرت.

على أية حال إن بحثنا الآن ليس بحثاً لغوياً، لكن أردت أن أُشير إلى الموضوع إشارة كمقدمة وتوطئة؛ إذ أن اللغة ليست أمراً توقيفيّاً بل إنها نشأت محلّياً.

المبحث الثالث: أداء العبادات والمعاملات بغير العربيّة

لقد كثر الأخذ والردّ بين فقهاء المسلمين ووقع نزاع كبير بينهم حول جواز وقوع عباداتنا ومعاملاتنا بلغة غير اللغة العربية؛ كالزواج والطلاق والبيع والإجارة وغير ذلك. أمّا علماء الإمامية فأجمعوا على عدم جواز الإتيان بالعبادات بغير العربية إلّا الشيخ الصدوق فإنه ذهب إلى جواز إيقاع القنوت باللغة الفارسيّة[1]، أما المعاملات فأجمعوا عليها كذلك إلّا مع التعذّر من العربية؛ فحينئذٍ يجوز إجراؤها بغيرها من اللغات. والشيعة يكونون بهذا قد خدموا اللغة العربية أكبر خدمة، ومع هذا يأتي التاريخ القذر ليصف الشيعة بالشعوبيّة وأنهم يكرهون العرب، مع أن ابن خلدون

(١) عنه في مختلف الشيعة ٢: ١٨١.

نفسه يحمل حملات شنيعة على العرب ويصفهم بأقبح الأوصاف، ومع ذلك لا أحد يحرك ساكناً او يتصدىٰ له ويردّ عليه، أمّا مع الشيعة فالأمر مختلف.

وقد وقعت معي مثل هذه القصة وهو أنني كنت جالساً ذات مرة في دار العلوم في القاهرة، ففاجأني أحد الأساتذة ممن تخرّج معنا من الدار على ماأظن باتّهامه دِعبلاً بالشعوبية، وراح يصفه بقبيح الوصف، فقلت له: كيف عرفت أنه شعوبي؟ فقال: أليس هو القائل للمأمون:

إنـي مـن القـومِ الذيـن سيوفُهم ... قـتلت أخـاك وشـرّفتك بـمقعدِ

رفـعوا مـحلَّك بـعدَ طـولِ خـمولِه ... واستنقذوك من الحضيض الأوهدِ[1]

فكيف يحمل علىٰ الخليفة العباسي؟ فمادام يفعل ذلك فهو شعوبي. فقلت له: واللّه أنا أُهنّئ الأُمّة الإسلاميّة بوجود عبقريّات فيها مثل عبقريتك، إنها عبقرية عظيمة، واستدلال ضخم. انظر كيف يصف رجلاً حرّاً وقف في وجه ظالم وذكّره بموقفه منه، فما هي علاقته بالشعوبية؟ ماهذا أيا دكتور حجاب؟ إنه واللّه لشيء غريب أن يصدر هذا من مثل هؤلاء. وأنا أتألّم غاية الألم حينما يأتيني بعض الشباب من غيرنا ويقول لي: هل هؤلاء هم حملة الفكر عندكم وقادة الأُمّة؟ إنه لشيء مخجل حقّاً.

إذن فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾، فإنما تريد التأكيد على أن من المفروض أن يكون نبي كل قوم ناطقاً بلغتهم حتىٰ يتمكن من التفاهم معهم.

---

(١) العدد القوية: ٢٩٢، بحار الانوار ٤٩: ٢٦٠ / ١٤، تاريخ مدينة دمشق ١٧: ١٦٣، وفيه الأبعد، بدل: الأوهد.

المبحث الرابع: قبح العقاب بلا بيان

ثم قال تعالىٰ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، أي أن العلّة من إرسال الرسل هي نقل شرائع السماء للأرض؛ لأن الانسان لايستطيع أن يتّصل باللّه مباشرة؛ لأن اللّه تبارك وتعالىٰ لايحويه مكان. ولا يخلو منه مكان، وليس كل أحد يصلح للقاء اللّه ؛ بل اللّه هو الذي يختار الأنبياء ويوحي اليهم ويجعلهم وسطاء بينه و بين الإنسانية، فيبيّنون للناس رسالة السماء عبر كتبه تعالى كالإنجيل والزبور والقرآن وغيرها. غير أن بعض الناس تلاعب الشيطان بعقولهم فعمدوا إلى التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية فحرفوها، ولم يسلم من ذلك إلّا القرآن الكريم؛ لحكمة أرادها اللّه تعالى.

وقد يسأل سائل فيقول: توجد روايات عند بعض المسلمين بأن القرآن قد وقع فيه التحريف.

ونحن نقول له: إننا نضرب مثل هذه الروايات التي تنصّ على أن القرآن قد وقع فيه التحريف عرض الحائط ؛ لأنه ليس عندنا رواية محترمة تقول: إن هناك قرآناً غير القرآن الموجود بين أيدي المسلمين. وما يطلقه بعض رخيصي الذمم من دعاىٰ رخيصة مثلهم بهذا الصدد فمرفوض البتّة، ولا يعار أيّ اهتمام. وأمثال هذه الروايات موجودة بشكل ما عند كلّ المذاهب الإسلامية، لكنها ليست موضع ترحيب واحترام من عامّة المسلمين، بعد أن وقع إجماع جمهور المحقّقين علىٰ أن القرآن هو مابين الدفّتين لاغير.

هذا وإن وجدت روايات تقول بالتحريف فغاية مايقال فيها: إنها ترمي إلى

تفسير الآيات بغير معناها مثلاً قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[١].

فتأتي جماعة لتفسّرها على أن هذا الذي أحبّه الرسول ﷺ هو أبو طالب رضي الله عنه[٢]، في حين أن البعض يرفض هذا التفسير.

ونحن نقول لهؤلاء: يا إخوة، لماذا هذه الحساسية تجاه علي بن أبي طالب عليه السلام وأبيه رضي الله عنه؟ فلماذا حينما تأتون إلي بعض من يذمّهم القرآن الكريم بقوله: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[٣]، أو بقوله: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[٤]، أو بقوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[٥] نراكم لا تذكرونه بسوء أبداً؛ احتراماً لابنه، أمّا حينما يصل الأمر إلى أبي طالب.. هذا الرجل الذي لاينكر أحد فضله ولاسابقته ولامواقفه التي تخضع أمامها أعناق أهل الحقد والعداء له، فإنه يصبح عرضة للهجوم الشرس. ولماذا لا تمتنعون عن ذكره بسوء احتراماً لابنه عليه السلام؟

ونقول ببالغ الأسف: إن هؤلاء كارثة في تاريخ المسلمين، فهؤلاء هم الذين فتحوا أسواقهم للمتاجرة بالطائفية وبث الفرقة.

المبحث الخامس: الجبر ومدارسه عند المسلمين

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أُريد أن أقف

---

(١) القصص: ٥٦.

(٢) انظر: مسند أحمد ٥: ٤٣٣، فتح الباري ٧: ١٤٩، جامع البيان، المجلد: ٧، ج ١١: ٥٧، وذكرها في ثمانية موارد أُخرىٰ، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، ٨: ٢٧٣.

(٣) القلم: ١١. (٤) القلم: ١٢.

(٥) القلم: ١٣، والمقصود بهذه الآيات الثلاث هو الوليد بن المغيرة، وقيل: الأخنس بن شريف، وقيل: الأسود بن عبد يغوث. انظر مجمع البيان: ١٠: ٨٨.

عند هذه النقطة قليلاً؛ لأنها نقطة مهمة وخطرة جداً؛ لأن قوله تعالىٰ: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ﴾ يعني أن هذا الذي يأتي إلى الدنيا يأتي ضالاًّ، واللّه هو الذي أضلّه، ومثله المهتدي فهو إنما جاء إلى الدنيا مهتدياً؛ لأن اللّه قد هداه. لكن نقول: ليس الأمر كذلك، ولايمكن حمل الآية على ظاهرها، بل إن هذا الظاهر هو الذي أخذه الجبريّون واستدلّوا به على صحّة مذهبهم ومنهجهم القائل بأن اللّه أجبر عباده على فعل الطاعة والمعصية. ولتوضيح الأمر بشيء من الإسهاب نقول: هناك خمس مدارس في الجبر في عالمنا الفكري:

الأُولىٰ: المدرسة الجبريّة الدينيّة

وهي التي يتمسّك أصحابها بظاهر هذه الآية ويستدلون به على صحّة منهجهم كما أسلفنا، فهم يقولون: كل مانعمله فاللّه خلقه فينا، وهو يضلّنا إن أراد، وهو يهدينا أيضاً إن أراد. ولذلك حينما تحاول أن تمنع بعض الناس من فعل الحرام كأن يكسب عيشه من الحرام فتقول له: لماذا هذا التوجّه إلى الحرام؟ وهل ليس في الدنيا إلّا الحرام؟ فإنه يقول لك: وما عساي أفعل وقد كتب اللّه تعالى عليّ ذلك؟ وإن أردت أن تمنع أحداً من ارتكاب جريمة أو تعنّفه على جرم ارتكبه قال لك: وماذا أعمل، وهذا هو قَسْمي من الكون، وحظّي من الدنيا؟ فاللّه قد قسم لي هذا، وجعله طريقي في الدنيا.

وهكذا فإنه وفق هذا المذهب يكون كل شيء نعمله ملقىً على عاتق القضاء والقدر، بل ربما نحن نعمد إلى إلقائه عليه، وهي محاولة اعتدائية غير صحيحة.

فهؤلاء الذين يقولون: إن اللّه هو الذى يخلق فعل العبد داخل نفسه

يسمون (المجبّرة الدينية)، وسأتعرّض في نهاية البحث بعد سرد مدارس الجبر إلى فساد نظريّاتهم وآرائهم إن شاء اللّه تعالى.

الثانية: المدرسة الجبريّة الميتافيزيقيّة

وهي مدرسة يقودها الفيلسوف «سبينوزا» الذي يذهب إلى أن الإنسان متّحد مع اللّه تعالى ـ أستغفر اللّه ـ وهو مايسمىٰ بـ(مونيزم) اي اتّحاد الخلق مع الخالق، فهو يقول: إن هؤلاء الناس الموجودين في الكون كلّه ليسوا هم المخلوقين، بل إن هؤلاء هم اللّه؛ لأنه تعالىٰ متّحد بخلقه. فكلّ الأشياء الموجودة هي عبارة عن مظهر من مظاهر اللّه: الحائط والبستان والحيوان، كلها مظاهر لوجود اللّه، ولا يوجد في الدنيا سوىٰ اللّه تعالىٰ فقط. وليس هذا مجال تفصيلها بل أحببت أن أُشير لك إليها.

الثالثة: المدرسة الجبريّة المنطقيّة

وتقول: كل حادثة إذا توافرت شروط حدوثها فلابد من أن تحدث، فالورق حينما تضعه فى النار لابد من أن يحترق لأن شروط الاحتراق قد توفّرت حينئذٍ.

وهذه المدرسة تتفرع من المدرسة الجبرية الميتافيزيقية.

الرابعة: المدرسة الجبريّة الفسلجيّة

وتقول: إن أفعال الإنسان كلها منعكسة عن أعضائه بفعل بعض الإنزيمات المتولّدة داخل جسمه. فهذه الأعضاء هي التي تحدّد فعله وليس له في ذلك اختيار. وهذه الإنزيمات التي تفرزها غدد موجودة في أجسامنا حينما تدخل خلايا الجسم تحوّل سلوكنا وحركاتنا إلى أفعال لا إرادية، وهي أفعال منعكسة عن أعضائنا.

الخامسة: المدرسة الجبريّة النفسيّة

وتقول: إن كلّ أعمال الإنسان معلولة لنفسيته ومزاجه، وهذا المزاج

ينعكس سلباً أو إيجاباً علىٰ عمله.

نظرة وتقييم

فهذه خمس مدارس في الجبر، والملاحظ أن هذه المدارس الجبريّة كلّها تنتهي إلى أن الفاعل الوحيد هو اللّه عزو جل، وأن الإنسان مسلوب الإرادة ليس له حظّ في أفعاله. وهذا قول لانستطيع أن نقبله؛ لأنه إذا كان اللّه عز وجل هو من يخلق الفعل عندنا فمعنى هذا أنه حينما يأتي نبي ويقول لأُمّته: اعبدوا اللّه، وإني مخبركم أنكم إن لم تعبدوا اللـه، فليس ذلك منكم، بل لأن اللّه خلق المعصية عندكم. فهل سيجد هذا النبي أحداً يقترب إلى دينه وأحكامه وتعاليمه؟ طبعاً لا؛ لأنه حينما يقول له: اللّـه خلق عندك فعل السرقة وهو مع ذلك سيحاسبك عليه قطعاً لليد وحرقاً في النار، فهل من عاقل سيقترب من هذا الدين الذي يخبره أنه يجبره على فعل شيء ثم يعاقبه عليه؟ هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ فإنه سيقول له: مادام اللّه قد جبلني على المعصية وأجبرني عليها فلماذا تدعوني إذن إلى خلاف ماجبلني اللّه عليه؟ إنك تخالف إرادة اللّه بهذا؟ ثم هل ترىٰ دعوتك تنفع مع شيء قضيَ أصلاً، إنما وجودك عبث لا مبرر له لأن اللّه جبلنا على المعصية وانتهىٰ.

دعني أنقل لك هذه الحادثة: المعروف أن البهلول عالم جليل، لكنه أظهر الجنون لمّا طُلب منه أن يقضي بين الناس. وكانت هذه ردّة فعل طبيعية؛ لأن من يشتغل بالقضاء آنذاك فيجب أن يكون أداة بأيدي السلطة والمقرّبين إليها، فليس هناك قضاء مستقلّ البتّة، ومن يفكّر في أن يستقلّ بالقضاء فإنه يعرّض نفسه للعقوبة والسجن والتنكيل. وكمثال على إملاء إرادة السلطة إرادتها في القضاء ماحدث مع القاضي أبي يوسف الذي أرسلت إليه زبيدة: إني مرسلة لك هؤلاء، وعندهم المسألة الفلانية،

وأُحب أن تقضي بينهم بهذه الصورة.

أي احكم بينهم بالشكل الذي أُريده أنا، وفعلاً حينما جاء الأمر إليه حكم به كما كانت تريد، وأفتاهم بما تحبّ. فأرسلت إليه بهدية، فداعبه جماعة من الحاضرين وقالوا له: يروى عن النبيﷺ قوله: «**إذا أُهديت إلى أحدكم هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها**»[1]. فأين قسمنا منها؟ فقال: إنما ذاك في الإقط والتمر والزبيب، ولم تكن الهدايا في ذلك الوقت ما ترون، يا غلام ارفع هذا إلى الخزائن. ولم يعطهم منها شيئاً[2].

فتأمّل هذا الرجل، ترسل له زبيدة أن رأيي في المسألة الفلانيّة هكذا، وأُحبّ أن يكون الحكم فيها والفتوىٰ هكذا، فيجيبها إلى ماتريد وإن خالف الشرع مع أنه من كبار القضاة.

وهذا هو ماحدا بالبهلول لأن يتظاهر بالجنون ليعتزل الحياة، ويبعد نفسه عن مهاوي القضاء والقضاة؛ لأنه لم يكن على استعداد لأن يكون أداة بيد السلطة تحرّكه كيف يشاء.

وقد دخل البهلول المسجد يوماً، وأبو حنيفة يقرّر للناس علومه، وقال في جملة كلامه: إن جعفر بن محمد تكلّم في مسائل لا يعجبني كلامه فيها:

الأُولى: أنه يقول: إن الله سبحانه موجود لكنه لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهل يكون موجود لا يرى؟ ما هذا إلّا تناقض.

الثانية: أنه يقول: إن الشيطان يعذّب في النار. مع أن الشيطان خُلق من النار، فكيف يعذب الشيء بما خلق منه؟

---

(١) الكافي ٥: ١٤٤/ ١١، مسند عبد بن حميد: ٢٣٤ / ٧٠٥، المعجم الأوسط ٣: ٥٣.

(٢) البداية والنهاية ١٠: ١٩٥، ولم يذكر أمر زبيدة.

الثالثة: أنه يقول: إن أفعال العباد مستندة إليهم. مع أن الآيات دالّة على أنه تعالى فاعل كل شيء.

الرابعة: أنه يقول: إن الخير من الله تعالى والشرّ من الإنسان. وأنا أقول: إنهما كليهما من الله.

فلمّا سمع البهلول ذلك، أخذ مدرة وضرب بها رأس أبي حنيفة وشجّه، فسال الدم على وجهه ولحيته، فبادر إلى الخليفة يشكو إليه البهلول، فلما أُحضر البهلول وسئل عن السبب، قال للخليفة: إن هذا الرجل غلّط جعفر بن محمد في أربع مسائل:

الأُولى:: أنه يزعم أن الأفعال كلّها لافاعل لها إلّا اللّه، فهذه الشجّة من الله سبحانه، فما تقصيري أنا؟

الثانية: أنه يقول: كلّ شيء موجود لابدّ أن يُرى، فهذا الوجع في رأسه موجود مع أنه لا يراه أحد.

الثالثة: أنه مخلوق من التراب، وهذه المدرة من التراب، وهو يزعم أن الجنس لا يُعذّب بجنسه، فكيف تألّم من هذه المدرة؟

الرابعة: أن هذه المدرة إن كانت خيراً أو شرّاً فهي من الله تعالى على رأيه، فما ذنبي حيث يريد أن يقاضيني على أمر هو من الله تعالى؟

فأعجب الخليفة كلامه وحسن تخلّصه من أرش الشجّة[1].

فهذا ينتقد الإمام الصادق عليه السلام على أنه يقول: إن الإنسان مخيّر، وهو يقول: الإنسان مجبر، وأنا على رأي الصادق عليه السلام، فلو كان الإنسان مجبراً فأنا لم أفعل شيئاً، بل اللّه أجبرني على أن أشجّ رأسه بالحجارة، وكذا في مسائله الأُخرى. وهذه فكرة لبقة جدّاً حلّت أربع مشاكل بحجارة.

---

(١) زهر الربيع: ٤٠٤.

أعود إلى صلب الموضوع، إذن ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَـهْدِي مَـنْ يَشَـاءُ﴾ يفسّره قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾، فالرسول يـنقل الدين، والذي يطيع الدين يكون من أهل الهدىٰ والذي يبتعد عنه يكون من أهل الضلال، وهذا معنىٰ قولنا: إن اللّه يضل ويهدي يـعني القـانون السماوي نفسه الذي جاء به القرآن، فالذي يطيعه يهتدي والذي يـعصيه يضلّ.

ونظير هذه القصة قصة أُخرى جرت بين المأمون والإمام الرضا عليه السلام، فعن أبي الصلت الهروي قال: قال المأمون للإمام علي الرضا عليه السلام: يا أبا الحسن، أخبرني عن جدك أمير المؤمنين علي عليه السلام بأي وجه هو قسيم الجنة والنار؟ وبأي معنى؛ فقد كثر فكري في ذلك؟ فقال له الإمام الرضا عليه السلام «ألم تروِ عن آبائك عن عبد الله بن عباس أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يـقول: حبّ عـلي إيمان وبغضه كفر؟». فقال: بلى. فقال الرضا عليه السلام: «فلما كانت الجـنة للـمؤمن والنار للكافر، فقسمة الجنة والنار إذا كانت على حبّه وبغضه؛ فهو قسيم الجـنة والنار». فقال المأمون: لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن، أشهد أنك وارث جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

فلما كان حبّ علي عليه السلام حسنة وبغضه سيئة، وفاعل السيئة إلىٰ النار وفاعل الحسنة إلى الجنة جرىٰ هذا المعنىٰ، فلم هذا التعصّب؟ ألم يكن لكم فكر واسع لحلّ هذا الإشكال؟

---

(١) عيون أخبار الرضا ١: ٩٢ / ٣٠، ينابيع المودّة ١: ٢٥٤ / ١١.

لمن العزّة والمنعة؟

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾ ولنتأمّل في هذا التعبير، وهو أنه ليس هناك عزيز سوى اللّه تعالىٰ، كيف؟ صحيح أنك تصف بعض الأشخاص بأنه عزيز، لكن هذا أمر نسبي، وإلّا فهناك كثير ممّا يمكن أن يذلّ هذا العزيز، ومنه الجوع. فمن وسائل الإذلال المستخدمة عبر تاريخ الظلم التجويع، وهو وسيلة تذلّ من تُتّخذ ضدّه، فالظلمة على طيلة فترات حكمهم يحاربون الناس بأرزاقهم حتىٰ يجيعوهم؛ فان وقع ذلك ركعوا وجاؤوا مستسلمين. وهذا مافعله الأُمويون مع أهل الكوفة، إذ أن الذي حدث في الكوفة أن الأُمويين أجاعوا أهلها لأنهم موالون لأهل البيت عليهم السلام ممّا اضطّر بعضهم لأن يركع أمام صرخات أطفاله التي تجبهه لحظة دخوله بيته بعد أن يعود دون كسب أو الحصول على فرصة عمل، فلا لقمة يسدّ بها رمق عياله ولا ثوب يستر به أجسادهم العارية، بعد أن سدوا بوجهه كل طريق في الحياة يكتسب به رزقه. وبطبيعة الحال فإنه لكلّ هذا سيذل ويركع.

وكذلك يذلّه المرض، فكل جبار متغطرس متكبّر إذا أراد اللّه أن يذلّه يبتليه بمرض بسيط يمرّغ كرامته في التراب. وهو جلّ وعلا كل ما يصيبه به ميكروب أو فايروس لا يرى بالعين يدخله إلى جسمه عن أي طريق، فيصيّره ذليلاً. وكمثال على ذلك ما يذكر من أن أبا الهيجاء الذي كان معروفاً بالغطرسة والتكبّر جاء إلى الفسطاط بمصر في منطقة فيها برغوث كثير، ولمّا أراد أن ينام منعته حشرة منه لذيذ النوم، وكان كلّما حاول أن ينام لم يستطع، فبقي مستيقظاً إلى الصباح وهو يقرأ هذه الأبيات:

تطاول بالفسطاطِ ليلي ولم يكن ... بوادي الغضا ليلي عليَّ يطولُ
تؤرّقني حدب قصار أذلّة ... وإن الذي يؤذينه لذليلُ
إذا جُلت بعض الليل منهنّ جولةً ... تعلّقن في رجليّ حيث أجولُ
فياليت شعري هل أبيتن ليلةً ... وليس لبرغوثٍ عليَّ سبيلُ[1]

فانظر إلى هذا الإنسان بما يتّصف به من عظمة وكبرياء وما يمتلك من سلطان، لكنه مع ذلك يؤرّقه كائن صغير ويسلب عظمته. وغالباً هؤلاء النماردة الجبابرة يسلط اللّه عليهم أصغر مخلوقاته من هذا اللون. سأل المنصور الإمام الصادقعليه السلام ـ وقد أزعجته ذبابة كلّما ذبّها عنه عادت ـ:يا أبا عبد اللّه، لم خلق الله الذباب؟ فقال: «**ليذل به الجبابرة**»[2]. فوجم لها المنصور.

فالإنسان يذلّه الجوع، ويذلّه المرض، وتذلّه الحاجة، والأشدّ من هذا كلّه الموت، فليس يذلّه شيء مثل الموت،، وليس شيء أشدّ عليه منه، فأنت تجد هذا الجبّار المتغطرس، ذا الصِّعر يضعف وينهار أمام الموت، وبعدها تجد ذلك الخدّ المصعّر يفترش التراب.. ذلك الوجه الأنيق إن تأتِه بعد مدّة تجده بحالة مرعبة:

أعفر الثرىٰ يا ألفَ برجٍ وكوكبٍ ... يضمّ الوجوهَ الزهرَ فضلُ نقابهِ
وجوهاً رأىٰ فيها الجمال أنيقة ... وأُخرىٰ الجلالُ اختصّها لمهابهِ
تغوّل معناها الثرىٰ غير آسفٍ ... وعاث بمرآها الردى غير آبهِ
ونُجلُ عيونٍ في محاسنَ بضّةٍ ... قسا الدود في تمزيقها بحرابهِ

وحينما أراد العباسيون أن يذلوا عبد اللّه بن الحسن ألقوه في السجن،

(١) المستطرف في كل فن مستطرف ٢: ٢٢٣، وفيه أن الأبيات لأبي الرماح الأزدي.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٥، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٦٤.

ولكن إباءه أبىٰ أن يذلّ لهم. ولما قتل ابنه إبراهيم أحمر العينين كان هو وأخواه محمد وإدريس في سجن المنصور، فطلب المنصور من الربيع أن يذهب برأس عبد اللّه ويلقيه في حضن أبيه. فانظر إلى القسوة التي توارثوها عن أسلافهم، والا فهو ابن عمه، وغاية مافي الأمر أنه اختلف معه في الرأي، وكأن هذا الاختلاف يستوجب هذه القسوة. فأي قلوب هذه التي نُزعت منها الرحمة؟ على أية حال دخل بالرأس على أبيه فوجوده يصلّي، فأعطاه لعمّه محمد، فقال له أخوه إدريس: أسرع في صلوتك يا أبا محمد. فالتفت إليه بعد أن أتمّها، وأخذ الرأس فوضعه في حجره، وقال يخاطبه: أهلاً وسهلا أبا القاسم، فوالله لقد كنت من الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[1]. فقال له الربيع: كيف أبو القاسم في نفسه؟ قال كما قال الشاعر:

فتى كان يحميه من الذلّ سيفُه ويكفيه إن يأتِ الذنوبَ اجتنابُها

ثم التفت إلى الربيع فقال: قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام، والملتقى القيامة. قال الربيع: فما رأيت المنصور قطّ أشدّ انكساراً منه في الوقت الذي بلغته به الرسالة[2].

وإبراهيم هذا لما جاءه نعي أخيه كان على منبر البصرة فقال يرثيه:

سأبكيك بالبيضِ الرقاقِ وبالقنا فإن بها ما يدرك الطالبُ الوترا
وإنا أُناسٌ لا تفيضُ دموعُنا على هالكٍ منا ولو قَصم الظهرا

(١) الرعد: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المسائل الجارودية: ٦، مروج الذهب ٣: ٣٢٩.

ولست كـمن يـبكي أخـاه بـعبرةٍ يـعصّرها مـن جـفن مـقلته عـصرا
ولكـنني أشـفي فـؤادي بـغارةٍ أُلهّب فـي قـطري كـتائبها جـمرا[١]

وهذا المعنىٰ نفسه حدث مع الحسينعليه السلام، فالملاحظ أن الناس يـجتنبون مصرع عزيز من أعزّائهم ـ أي أنهم لايحبّون أن يشهدوا مصارع أعزّائهم قبلهم ـ لكن الإمام الحسينعليه السلام كان يتحرّك ضمن رسالة وهـدف أراد أن يخرج من خلالهما إلى الدنيا بفكره، ثم يغادرها وقـد تـضاعف أجـره، وذلك بأن يقدّم أعزّاءه وأبناءه وأصحابه في سبيل الله.

أسباب حظر التعدد

السبب الأوّل: التمكن من الإعالة والتربية

والذي أودّ أن أُثبته هنا هو صحيح أن اللّه تعالىٰ قد أباح التـعدّد، لكـن يجب علىٰ الرجل أن يفكّر قبل الإقدام عـلىٰ الولوج فـي هـذا المـباح، ويسأل نفسه: هل أستطيع تربية الأطفال الذين سيولودون لي من هؤلاء الزوجات، وأُوفّر لهم الجوّ الروحي والتـربوي؟ وهـل أسـتطيع إعـالتهم وتوفير المناخ الاقتصادي لهم بحيث إنهم لا يذوقون العوَز، ولا تـلسعهم شوكته فينحرفون عن الطريق؟ وهـل سـينسجم هـؤلاء الأبـناء..أبـناء العلّات مع بعضهم بعد نضجهم واصطدامهم بالحياة؟

كل هذا يجب علىٰ الرجل أن يراعيه وينظر إليه بمنظار الواقع قبل أن يقدم عليه؛ لأنه بذلك سيحافظ علىٰ سلامة أُسرته من التفكّك، أما إذا لم يراعِه

(١) مقاتل الطالبيين: ٢٠٥، : ٣، عمدة الطالب: ١٠٤.

فإنه إنما يدفع بأُسرته نحو التفكّك، ويعجّل بها نحو الانهيار. وأروي لك هنا حادثة أُريدَ من ورائها الإيقاع بين محمد بن الحنفية رضي الله عنه والحسنين عليهما السلام، ذلك أن بعض ذوي النفوس الضعيفة جاؤوا إلى محمد وقالوا له: لماذا يقدّمك أبوك إلىٰ الحرب ويمنع الحسن والحسين عن أن يقتحماها؟ فقال رضي الله عنه: الحسنان عينا أبي وأنا يده، والإنسان يذبّ بيده عن عينيه[1].

وهذا أُنموذج ريادي يجب أن يحذو حذوه كلّ الأبناء، وهو ما علىٰ الرجل أن يفكّر به قبل إقدامه علىٰ الزواج ثانية؛ من حيث تآلف أبنائه وعدم تآلفهم بعد ذلك. وهذا الأمر ليس متعلّقاً بطبيعة الأولاد فقط، بل إن له تعلّقاً بتربية الآباء وإحسانهم تلك التربية، فهل يستطيع هذا الأب أن يخصّص وقتاً لرعاية أبنائه بعد أن أضاف عبئاً جديداً علىٰ نفسه بالزواج والأولاد، وهو ما سيضطرّه إلىٰ العمل أكثر، وقضاء وقت أطول وأكبر خارج البيت؟ مع العلم أن الوقت يجب أن يكون أكبر مما كان عليه قبل زواجه الثاني أو الثالث لزيادة عدد الأولاد. فإن كان ذلك بالمقدور فلا بأس، وإلّا فلا.

إذن فإن اللّه تعالىٰ حينما أباح لنا التعدّد فإنما أباحه وفق شرائط معيّنة.

السبب الثاني: عدم العدل بين النساء

فاللّه تعالىٰ حينما يقول: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾، فإنما يعني المودّة لا النفقة وغير ذلك من الأُمور الماديّة. فالإنسان بطبعه يميل إلىٰ الجمال، وحتماً سيميل إلىٰ الزوجة الثانية الجميلة. ثمّ إن علاقة الرجل بالمرأة تكون علىٰ نحوين: مادية ومعنوية؛ فالعلائق المادية هي

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢٤٣.

أن يوفّر لها السكن والملبس والمأكل، والعلائق المعنوية هي أن يحبّها ويحترمها ولا يعرّضها إلىٰ كراهة. وهذا مما يدخل في آية العدل بين النساء. أما المودّة فهي مما لا يمكن أن يقع فيه العدل؛ لأن هذا خارج عن إرادة الإنسان؛ إذ أن إحداهن قد تكون متميّزة بالجمال أو الأخلاق، وغيرها من الفوارق التي تجعله يميل إليها أكثر من غيرها. فهذا مما لا ضير فيه وإن لم يعدل، أمّا النفقة فلابدّ من العدل فيها، فإن عدل فبها ونعمت، وإلّا فلا يتزوّج، وهو معنىٰ قول الرسول الأكرمﷺ: «**اللهم هذا ما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك**»[1] من الميول النفسيّة والقلبية، أما في النفقة فكانﷺ مثال العدل، ولذلك كان حبّ خديجة عليها السلام قد استأثر بقلبه، حتىٰ بعد وفاتها، فكان (صلوات اللّه وسلامه عليه وآله) إذا ذكرها اهتزّ من قرن إلىٰ قدم.

ومما ينقل في هذا المجال أن إحدىٰ نسائهﷺ قالت له: ما هي إلّا امرأة عجوز حمراء الشدقين، وقد أبدلك اللّه خيراً منها. فقالﷺ: «**كلّا، ما أبدلني اللّه بخير منها؛ إنها آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، ورزقني اللّه منها ولداً إذ حرمني من أولاد سائر النساء. وقد هبط علي جبرئيل وقال لي: بشّرها بأن لها بيتاً في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب**»[2].

تقول عائشة: كان النبيﷺ لا يذهب لإحدىٰ زوجاته في ليلتها حتىٰ

---

(١) مسند ابن راهويه ٢: ٢٣، صحيح ابن حبان ١٠: ٥، فتح القدير ١: ٥٢١، الديباج على مسلم ٤: ٧٩.

(٢) الذرية الطاهرة النبوية (الدولابي): ٣٢، المعجم الكبير ٢٣: ١٣، كنز العمال ١٢: ١٣٢ / ٣٤٣٤٨ ـ ٣٤٣٤٩، البداية والنهاية ٣: ١٥٨.

يستأذنها فإذا أذنت له ذهب، وإلّا فلا.

وكانﷺ حتىٰ في أيام مرضه يطبّق العدل بين نسائه، فكان ينقل علىٰ محفّة المرض كل ليلة إلىٰ غرفة من غرف أزواجه التي لها الحق ليلتها تلك.

السبب الثالث: القدرة علىٰ الوطء

وهو أمر هامّ في حياة المرأة، فقد يكون عند الرجل قدرة ماليّة لكنه لا يمتلك القدرة الجسديّة علىٰ إشباع غريزة المرأة، وهذا يجب عليه ألّا يتزوّج من أُخرىٰ مادام كذلك؛ ولذلك كان الإمام الصادقعليه‌السلام يقول: «**من جمع من النساء مالا يسع فزنين، فالإثم عليه**»[1]؛ لأنه لم يستطع أن يلبّي حاجاتهن، وهن كما يجنحن إلىٰ إشباع غريزة الجوع فكذلك يجنحن إلىٰ إشباع غريزة المضاجعة. فإن لم تجد قدرة عند زوجها علىٰ إشباع هذه الرغبة، فربما تضطر إلىٰ الخطيئة، وهنا يكون هذا الزوج العاجز هو الجاني والآثم حسب التعبير المعصومي.

فكيف إذن بالمتوكّل الذي كان عنده أربعة آلاف سُرّية ويسمىٰ محيي السنة ومميت البدعة[2]؟

ملاك الزواج الدائم

يقول الإمام الصادقعليه‌السلام: «**لا يحلّ لماء الرجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام**»[3]. ونحن ليس عندنا نظرية تقول بجواز الزواج من أكثر من أربع

---

(١) الكافي ٥: ٥٦٦ / ٤٢، دعائم الإسلام ٢: ١٩٣ / ٧٠٠.

(٢) ورد ذلك في أُرجوزة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

(٣) مجمع البيان ٢: ٦، وسائل الشيعة ٢٠: ٥١٨ / ٢٦٢٣٩.

نساء جمعاً، لكنه عند غيرنا كذلك. وقد تطرّقت لهذا الأمر مفصّلاً في كتاب (فقه الجنس)[١].

وقد بلغ الحد عند بعضٍ من غيرنا أن أجاز الزواج من النساء بلا حدّ[٢]، وعند بعضٍ أنه يجوز من تسع، وعند بعض آخر منهم أنه يجوز الزواج من ثماني عشرة امرأة[٣]. ثمّ يأتي بعضهم ويرمينا به، فهم علىٰ حالهم

---

(١) فقه الجنس: ٨١ ـ ٩٥.

(٢) قاله المفسّر النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾، فقد قال: ذهب جماعة إلى أنه يجوز التزوّج بأي عدد أُريد؛ لأن قوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ إطلاق في جميع الأعداد، لصحّة استثناء كلّ عدد منه، وقوله: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ لا يصلح مخصّصاً لذلك العموم؛ لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينافي ثبوت الحكم في الباقي، بل نقول: ذكرها يدلّ على نفي الحرج والحجر مطلقا؛ فإن من قال لولده: افعل ما شئت؛ اذهب إلى السوق وإلى المدرسة وإلى البستان، كان تصريحاً في أن زمام الاختيار بيده ولا يكون تخصيصاً. وأيضاً ذكر جميع الأعداد متعذّر، فذكر بعضها تنبيه على حصول الإذن في جميعها. ولئن سلّمنا لكن الواو للجمع المطلق، فيفيد الإذن في جميع.

وأما السنة فلِما ثبت بالتواتر أنه ﷺ مات عن تسع، وقد أُمرنا باتّباعه في قوله: ﴿فاتّبعوه﴾[1]، وأقلّ مراتب الأمر الإباحة، وقد قال ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني». غرائب القرآن ٤: ١٧٢.

---

(1) الأنعام: ١٥٣، وهي هنا حول الشريعة، ١٥٥، وهنا حول القرآن الكريم.

(٣) انظر: تبيين الحقائق ٢: ١١٢، رمز الحقائق ١: ١٤٣، نيل الأوطار ٦: ٢٨٩، المجموع شرح المهذب ١٢: ٩، ١٦: ٢٤٤، غرائب القرآن ٤: ١٧٢، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧. وقد مرّ ما في هذا الهامش والهامش الذي قبله مفصلاً في ج ٢ ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ / الهامش: ٣، من موسوعة محاضرات الوائلي.

وعادتهم: رمتني بدائها وانسلّت[١].

إذن فاللّه تعالىٰ يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، أي كما يقول الفقهاء والمفسّرون: ليس لكم حق المساواة[٢]؛ وذلك أن العدل كما يعرّفونه وكما يعرّفه فقهاء القانون هو وضع الشيء في موضعه[٣]، والمساواة ليست كذلك دائماً، أي أن المساواة في كل شيء لا تحقّق العدل بل إنها تحقّق الظلم في بعض الموارد. فلو ساوينا بين الذكيّ والغبيّ فإننا نكون قد ظلمنا الذكيّ وقلبنا الموازين.

وقد يقول قائل: إن بعض المسلمين عندهم هذا النوع من المساواة غير العادلة، فمثلاً هم يقولون عن الصحابة وتابعيهم كلّهم: (رضي اللّه عنهم أجمعين)، فيقصدون المغيرة وغيره من النماذج التي علىٰ شاكلته، ويقصدون أيضاً الصحابة الأخيار والتابعين لهم بإحسان.

ونقول: هذه مقاييس فاسدة ولا يمكن أن نقبل بها؛ لذلك فإن اللّه تعالىٰ أعطىٰ كلّ فرد ما يستحقّ من قدره، فلابدّ من الرجوع إلىٰ المعاملة الفردية؛ لأنها هي التي تحقّق العدل الذي هو وضع الشيء موضعه كما قلنا. يقول تعالىٰ: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ الفَائِزُونَ﴾[٤]، ويقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ﴾[٥]، يقول أيضاً: ﴿أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كَالمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٦].

---

(١) مثل يضرب لمن يعيب غيره بعيب فيه هو. الصحاح ٥: ١٧٣١ ـ سل، لسان العرب ٤: ٤١ ـ بحر، ١١: ٣٣٨ ـ سلل.

(٢) زبدة البيان: ٥٣٧، البحر الرائق ٣: ٣٧٩.

(٣) انظر: العدة في أُصول الفقه ١: ٣١ (حجري)، التبيان في تفسير القرآن ١: ١٥٨، مجمع البيان ١: ١٦٦، الرسالة (الشافعي): ٢٥، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٨٥.

(٤) الحشر: ٢٠.

(٥) فاطر: ١٩، غافر: ٥٨.

(٦) القلم: ٣٥ ـ ٣٦.

فكل هذه مقاييس وضعها الله لنا، ويجب ألّا نتخطّاها في تعاملاتنا؛ فتختلط الأوراق.

إذن فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فإنما يعني أنه ليس لكم حقّ المساواة، فإذا كان للرجل أن يتزوّج بأكثر من واحدة فليس للمرأة ذلك بحجّة المطالبة بالمساواة؛ لاقتضاء ذلك آثاراً فاسدة من ضياع نسب الولد وبالتالي ضياع الأُسرة من حيث إنه لم يُعرف له حينها والد معيّن.

اختيار الزوجة

ثمّ إن من العدل ملاحظة الرجل عائلة المرأة التي سيتزوّجها، ومعرفة نمط حياتها الذي كانت عليه، فإذا كانت تعيش نمطاً من الحياة مرفّهاً وحياتها ذات مستوىً رفيع فهل يصح أن تضعها في المستوىٰ نفسه الذي تضع به الزوجة الأُولىٰ التي كانت تعيش مستوىً حياة أدنىٰ من الزوجة الثانية؟ طبعاً لا؛ فالفقهاء يقولون: إن هذا ليس عدلاً، بل العدل هو المفاضلة هنا وذلك بإعطاء كل امرأة ما يكفيها من حيث تناسُبه مع حالتها المعيشية التي كانت قد اعتادت عليها.

بل وحتىٰ في المهر، فإذا تزوّج من امرأة ولم يعيّن لها مهراً كان لها مهر المثل كما يقول الفقهاء[1]، أي تأخذ المهر الذي تأخذه عادة بنات طبقتها. وهذا هو الصحيح، وهو تشريع ليس فيه أي تفرقة، بل فيه مراعاة للحقّ الذي هو حال المرأة قبل الزواج.

---

(١) انظر: رسائل المرتضىٰ ١: ٢٣١، المراسم العلوية: ١٥٤، النهاية (الطوسي): ٤٧٠، فتح العزيز ٨: ٢٨٢، المجموع شرح المهذب ٩: ٢٩١، وغيرها.

دعوىٰ التناقض في قضية العدل في القرآن

وقد حاول البعض ممّن لا خبرة له ولا علم أن يثبت وجود تناقض بين آيات القرآن الكريم، ومن ذلك ما ادّعوه في قوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾[1]، وقوله تعالى في آية أُخرى: ﴿**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾[2].

والجواب: أن هذا ليس تناقضاً؛ لأن متعلّق العدل مختلف، فالقرآن الكريم يقول: إن استطعت أن تعدل بالنفقة بحيث تكون عندك قدرة مالية وجسدية فخذ من النساء مثنى وثلاث ورباع، أما إذا لم تستطع أن تعدل بحيث يكون في التعدّد جور وظلم فلا. أمّا في الآية الأُخرى: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾، فذلك في المودّة؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يعدل فيها؛ إذ لابدّ أن تكون لإحداهن ميزة تفضّلها على الأُخرى. بل حتى لو لم يكن ذلك فإن مطلق الميل النفسي ـ أي حتى مع عدم البرّر ـ يجعل الإنسان يميل من جانب إلى آخر.

فالقرآن الكريم يريد أن يجرَّ أيدينا إلى الواقع، وأن يبين لنا أن الرغبات النفسية مما لا يمكن التحكم فيه، فلا تناقض في الأمر؛ لأن متعلّق العدل هنا هو المودّة، ومتعلّقه هناك هو المال.

الافتراءات علىٰ الشيعة

جاء في سؤال من أحد الناس يقول فيه: أنتم الشيعة عندكم أن المرأة لا

---

(١) النساء: ١٢٩.

(٢) النساء: ٣، مع أن تمام الآية ـ وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ـ يؤكّد الآية السابقة.

ترث، فكيف تطالبون بميراث الزهراء؟

والجواب علىٰ هذا التساؤل يكون من جهتين:

الجهة الأُولىٰ: حول فرية الميراث

وهذا من غرائب الأُمور، وافتراء علىٰ طائفة بحالها؛ ذلك أنه من قال: إن المرأة عندنا لا ترث؟ أما الزوجة فترث من كل شيء عدا الأرض، فترث من البناء والأوتاد وغيرها. وإنما منعت الميراث من الأرض؛ لأن مسألة الأرض مسألة حسّاسة جدّاً؛ فهي وسيلة الإنتاج الأُولىٰ عند أغلب المجتمعات، فالذي يملك قطعة أرض لا يمكن له أن ينساها؛ ولذلك عندما سئل الإمامعليه‌السلام: لماذا لا تأخذ المرأة من رقبة الأرض؟ قالعليه‌السلام: **«لئلّا يتزوّجن فتدخل[1] عليهم من يفسد مواريثهم»**[2].

فإذا توفّي الرجل وبقيت زوجته بعده وورثته، ثمّ تزوّجت بآخر، فإنه حتماً سيأخذها سواءً بإرث أو بكونها ملك زوجته، وهو أجنبيّ عن أبناء زوجها الأول صاحب الأرض؛ فمن الممكن جدّاً حينها أن تحدث بينهم الكثير من المنازعات.

وقد يسأل سائل فيقول: إن البنت إذا أخذت الأرض فكذلك ستتزوّج وتذهب الأرض، فِلم لَم تُحرم كالزوجة؟

فنقول له: إن المسألة هنا تختلف؛ فإنّ البنت من صلبي؛ فهي بالتالي دمي ولحمي، ولذا فإنه حينما كتب محمد بن سنان جملة مسائل للإمام الرضاعليه‌السلام حول هذا كتبعليه‌السلام له: **«علّة المرأة أنها لا ترث من العقار شيئا إلّا قيمة الطوب والنقض؛ لأن العقار لا يمكن تغييره وقلبه، والمرأة يجوز أن ينقطع ما بينها**

(١) كذا، والظاهر أنها: فيدخلن.

(٢) الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٤.

وبينه من العصمة، ويجوز تغييرها وتبديلها، وليس الولد والوالد كذلك؛ لأنه لا يمكن التفصّي بينهما، والمرأة يمكن الاستبدال بها. فما يجوز أن يجيء ويذهب كان ميراثه فيما يجوز تغييره وتبديله إذا أشبههما، وكان الثابت المقيم على حاله كمن كان مثله في الثبات والقيام»[1].

فالمشرّع الإسلامي عندما منع ميراث الزوجة من الأرض فإنما منعها حتى لا تحصل مشاحنات ومنازعات ومشاكل، ومن جملتها أن العلاقات تتعقّد بين المجتمع، والله يريدها أن تكون علاقات منسجمة وطبيعيّة، فهو لم يحرمها وإنما أراد أن ينظّم العلاقات ويعطيها الحقّ الذي يتناسب مع تنظيم هذه العلاقات.

أما البنت فترث من كل شيء وفق ضابطة ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾[2].

فلماذا هذا الافتراء علىٰ طائفة بأكملها؟ ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ**﴾[3].

الجهة الثانية: دعوىٰ الزهراء عليها السلام

ونحن نقول بهذا الصدد: إن نظرية فاطمة الزهراء (سلام اللّه عليها) لا تعدو نظرية القرآن الكريم في شأن الميراث، فهي عليها السلام جاءت لتطالب بميراثها من أبيها رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وكان رفض الخليفة الأوّل مبنياً علىٰ رواية مؤدّاها أن الأنبياء لا يورّثون إلّا العلم، وهذا صحيح لكن إذا عرفنا أن من سمات الأنبياء عليهم السلام أنهم لا يملكون إلّا القليل لعرفنا هذا، فنحن نعلم أنهم عليهم السلام غالباً لا يملكون شيئاً سوىٰ علمهم، غير أنه إذا وجد القليل من المتاع كان داخلاً في الميراث العام. هذا بناء علىٰ صحّة رواية «نحن

(١) الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٩. (٢) النساء: ١١.

(٣) الزمر: ٦٠.

معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة»[١]، فهذا الإشكال بهذا الحديث هو عين إشكال من يشكل علىٰ القرآن بوقوع التناقض فيه بين قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[٢]؛ فكما اختلف المتعلّق هنا ـ وهو الميل في الآية الأُولىٰ، والنفقة في الآية الثانية ـ فكذلك اختلف المتعلّق هناك.

المبحث الرابع: معنىٰ ﴿فَلا تَمِيلُوا﴾

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾، ومعنىٰ هذا أن الرجل حتىٰ لو كره المرأة وتزوّج عليها فإن المفروض به أن دينه يجب أن يمنعه من أن يعاملها بشكل غير لائق، بل يحتم عليه أن يحترمها ويعاملها بالحسنىٰ[٣]. فالمرأة التي تقع بينها وبين زوجها نفرة وحاجز نفسي يمنعها من الحياة الزوجية بشكل طبيعي معه فإن علىٰ زوجها أن يقرّر أحد أمرين: إما أن يسرّحها سراحاً حسناً، أو أن يعاملها بالحسنىٰ والنبل؛ فلا يتركها معلّقة؛ ذلك أن قانون النبل يقتضي المساواة ما بين النساء.

وقد كان الساسانيّون يعدّدون، فإذا أحبّ أحدهم إحدىٰ نسائه اعترف بها زوجة رسمية وترك الباقيات بمصافّ الخدم، يعاملن كجوارٍ، أما الأولاد فيعترف بالذكور ولا يعترف بالإناث. فالكثير من حضارات العالم القديم والكثير من الشعوب القديمة والحديثة تظلم المرأة وتعاملها معاملة الرق،

---

(١) انظر: مسند أحمد ١: ٤٧، ٤٨، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها كثير. المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، مسند أحمد ٦: ١٤٥، صحيح البخاري ٨: ٣، ٥، وغيرها

(٢) النساء: ٣.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقاً رضي آخر». مسند أحمد ٢: ٣٢٩، صحيح مسلم ٤: ١٧٨. والفرك: البغض والكره. صحيح مسلم بشرح النووي ١٠: ٥٨، وفيه ذكر أن المقصود بالمؤمنة: الزوجة، لسان العرب ١٠: ٤٧٤ ـ فرك.

في حين أن الإسلام كرّم المرأة؛ لأنها أدعىٰ إلىٰ العطف والمودّة. وقد أكّد الرسولﷺ علىٰ ذلك بقوله: **«من دخل السوق فاشترى تحفة إلى عياله، كـان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور»**[1].

لأن الأُنثىٰ في مجتمعنا ومجتمعات أُخرىٰ مظلومة دائماً، ولا تأخذ حقّها من العطف والمودّة، بل ينزلون بها عن مستوىٰ الذكر. فالرسولﷺ يأمر بهذا؛ لكي ينشأ عندها شعور بأنها غير مزدراة، وأنـها ذات قـيمة، ولهـا مكانة في قلب أبيها ومجتمعها، وإلّا فإن معاملة المرأة بالشكل الذي عليه البعض هو الذي يولّد عندها الشعور بأنها مخلوق مزدرى وغير محترم.

وعليه فالواجب مراعاة حقّ المرأة كما قرّر الإسـلام، وألّا يـنصاع الأب للبواعث الاجتماعية المحيطة به وتقاليد الموروث الاجتماعي فـيزدري ابنته، مع أن قلبه يحمل لها حبّاً أكـبر وأكـثر، ولا يـترك مـجالاً لتـلك البواعث والموروثات الاجتماعية أن تحول دون إظهاره حبّه لابـنته، أو تغلبه فيتخلّىٰ عن العطف عليها.

ولنأخذ أُنموذجاً حيّاً علىٰ هذا وهو أمر فاطمة «العـليلة» بـنت الإمـام الحسينعليه السلام، فقد رسم لنا التاريخ من مصيبتها صوراً تبعث عـلىٰ الأسـىٰ واللوعة، فعندما أراد الحسينعليه السلام أن يخرج من المدينة كانت هذه الصبيّة عليلة، فتمسّكت بثياب أبيهاعليه السلام وقالت له: أبا عبد اللّـه خـذني مـعكم.

---

(١) ثواب الأعمال: ٢٠١. وهكذا فإنهﷺ أراد أن يُحدِثَ التوازن في ذلك المجتمع ويُعَدِّله في تلك الأجواء التي كانت تعتبر المرأة عاراً، وهذا ما صرّح به شاعرهم حيث يقول:

إذا المرئيّ شبَّ له بنات عصبن برأسه إبة وعـارا

العين ٨: ٤٢٠ ـ أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ ـ وأب، والمرئي في الأصل: امرئي، نسبة إلىٰ امرئ القيس، ثمّ قالوا مرئي، فكأنهم جعلوها منسوبة إلىٰ (مرء) مطلقاً. والإبة: الخزي.

فقال عليه السلام لها: «بنية أنت عليلة لا طاقة بك علىٰ الحركة».

يقول المؤرّخون: فحملت الطفل الرضيع عبد اللّه وجاءت بـه إلىٰ أبـيها وقالت له: أبي، دع لي هذا الطفل الرضيع لأسلو به بعدكم. فقال عليه السلام: «بنيّة إنه صغير ولا يستغني عن ثدي اُمّه». ثمّ سلّاها وودّعها وتركها في بـيت اُم سلمة (رضي الله عنها). فبقيت تنتظر وتتسمّع الأخبار إلىٰ أن جاء النعيُّ ينعى الحسين عليه السلام، فخرجت من الدار واستوقفته وقالت له: يـا هـذا أنت الناعي ريحانة رسول اللّه صلى الله عليه وآله؟ قال: بلىٰ. قـالت: بـاللّه عـليك أخـبرني بالذي جرىٰ. يقول بشر: وبعد أن أخبرتها رجـعت صـارخـة ومـولولة، ودخلت دار أبيها واللوعة تملؤها:

يـــــا دار نـــاغيني ونـــاغيچ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ چـــانت بـــدور وتـــزهر عـليچ

والسا غراب البين ناعيچ

* * *

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا[1]

---

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

المحتويات